دراسات من التفسير الموضوعي

تأليف

أ.د. سليمان بن صالح القرعاوي

أستاذ الدراسات الإسلامية بكلية التربية بجامعة الملك فيصل بالأحساء

دراسات من

التفسير الموضوعي

سليمان بن صالح القرعاوي، ١٤٢٩هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
القرعاوي، سليمان بن صالح
دراسات من التفسير الموضوعي
سليمان بن صالح القرعاوي
- ط٢. الأحساء، ١٤٢٩هـ
٥٠٨ ص، ١٧ × ٢٤ سم
ردمك: ٤-١٣٤٩-٠٠-٦٠٣-٩٧٨
ديوي ٦, ٢٢٧ ٥٥١٢/ ٩٧٨

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف

الطبعة الثانية
١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

قام بعمليات المراجعة والتنضيد الضوئي والإخراج الفني والطباعة

دار الميمان للنشر والتوزيع

الرياض: هاتف: ١٤٦٢٧٣٣٦ (٩٦٦) + فاكس: ١٤٦١٢١٦٣ (٩٦٦) +
القاهرة: هاتف: ٢٧٩٤٩٣٧٠ (٢٠٢) + فاكس: ٢٧٩٦٢٧٣٠ (٢٠٢) +
بريد إلكتروني: info@arabia-it.com الموقع: www.arabia-it.com

للحصول على الكتاب الاتصال بالمؤلف مباشرة على العنوان التالي:
المملكة العربية السعودية - ص. ب: ٥٥٠٥٩ - الأحساء ٣١٩٨٢
فاكس: ٠٠٩٦٦٣٥٨٨٦١٤٠
SSQ7400@hotmail.com

دراسات من التفسير الموضوعي

تأليف

أ. د. سليمان بن صالح القرعاوي
أستاذ الدراسات الإسلامية بكلية التربية بجامعة الملك فيصل بالأحساء

الطبعة الثانية
١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى والديَّ حنانًا وبرًّا

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق أجمعين، محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آلهِ وصحبه ومن اهتدى بِهَدْيِه وسلك نهجه إلى يوم الدين.

اللهم اجعل الحق هَدَفِي من كُلِّ أعمالي، والإخلاص لك ديدني والقرآن حجتي، آمنت بالله ربًّا وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولًا، وبعد:

يقول الرسول ﷺ: «**إن لله أَهلينَ من الناس**». قالوا: يا رسول الله من هم؟

قال: «**هم أهل القرآن، أهل الله وخاصته**»(١).

وأهل القرآن هم الذين يتدبرون آياته؛ تنفيذًا لقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(٢).

وقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾(٣).

جَعَلَنَا الله من المتدبرين له فلا نلتمس الهدى في غَيره؛ حتى نفوز برضوان الله، وندخل في زمرة من قال فيهم الله بقوله: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾(٤).

فالحمد لله الذي جعل صدور المسلمين أوعية قرآنه، وآذانهم موارد سنن نبيه، وهممهم

---

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه في سننه، المقدمة، باب فضل من تعلم القرآن وعلمه ١/ ٧٨.

(٢) سورة ص، آية ٢٩.

(٣) سورة محمد، آية ٢٤.

(٤) سورة المجادلة، آية ١١.

مصروفةً إلى تعلمها والبحث عن معاني القرآن وغرائبه.

ومعاني القرآن وعلومه لا تُحصى ولا تُعد، وليس ذلك في مقدور أحد من البشر إلا بتيسير من الله تعالى الذي وصفه بقوله: ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[(١)].

ولقد شهدت الجن والإنس أن القرآن كتاب الله الحق، الذي جاء بالهدى والحق، قال تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾[(٢)]. وقال جل شأنه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾[(٣)]، وهو: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾[(٤)]؛ لأنه: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[(٥)].

كتاب اشتمل على كل ما من شأنه أن يصلح الحياة والأحياء، ولم يفرط في شيءٍ من هذا ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾[(٦)].

صَدَّقَ الكتب السابقة وتضمن تعاليمها وزاد عليها ما يتفق وعقول البشرية، وقد وصلت إلى رقيها ونضجها. قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[(٧)].

«وهو الكتاب الذي لا تفنى ذخائره، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا يزداد على التكرار إلا حلاوة وطلاوة، ومهما تعاقبت على هذا الكتاب العزيز الأجيال والسنون لا يزداد إلا جِدة وطرافة، ولا يزال غضًا طريًا كما أنزل، وكلما تقدمت العلوم والمعارف الإنسانية تكشف للناس منه العجب العجاب»[(٨)].

وجملة القول في أوجز عبارة: أننا لن نجد في الكشف عن حقيقة هذا الكتاب وخفاياه

(١) سورة النحل، آية ٨٩.

(٢) سورة الإسراء، آية ١٠٥.

(٣) سورة الإسراء، آية ٩.

(٤) سورة فصلت، آية ٤٢.

(٥) سورة فصلت، آية ٤٢.

(٦) سورة الأنعام، آية ٣٨.

(٧) سورة المائدة، آية ٤٨.

(٨) المدخل لدراسة القرآن الكريم للأستاذ الدكتور محمد أبو شهبة ص ١٤.

وفضائله ومزاياه أوفى مما وصفه به نبينا محمد بن عبد الله ﷺ بقوله عن القرآن: «**كتاب الله فيه نبأ من قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذا سمعته حتى قالوا:** ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾[1] **من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم**»[2].

إن كتابًا هذا بعض شأنه لجدير أن يضعه الإنسان بين عينيه، ويجعله أنيسه في خلوته، ورفيقه في سفره، وصديقه الصدوق في يسره وعسره، ومستشاره الأمين في أمور دينه ودنياه، وحجته البالغة في حياته وأخراه.

هذا، وبعد كل ما تقدم فقد استخرت الله في تسميتي هذا الكتاب بعنوان: دراسات من التفسير الموضوعي، وأقصد من تأليف هذا الكتاب ما يلي:

* الهدف من إخراج هذا الكتاب:

١- عودة المسلمين إلى كتاب ربهم والتزامهم برسالة التوحيد؛ توحيد الخالق فلا إله إلا الله، وتوحيد العقيدة فلا دين إلا الإسلام، وتوحيد البشرية: «كلكم بنو آدم،

---

(١) سورة الجن، الآيتان ١، ٢.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه ٤/ ٣٤٥ ح ٣٠٧٠، فضائل القرآن، باب ما جاء في فضائل القرآن، عن عبد بن حميد به، وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ١٠/ ٤٨٢ ح ١٠٠٥٦ عن حسين بن علي به، وله متابع أخرجه الدارقطني في سننه ٢/ ٣١٢ ح ٣٣٣٤ فضائل القرآن، باب فضل من قرأ القرآن، عن محمد بن يزيد الرفاعي، عن الحسين الجعفي به، وقال محقق الكتاب - عبد الله هاشم اليماني -: قال ابن كثير: لم ينفرد بروايته حمزة الزيات، بل رواه محمد بن إسحاق، عن محمد بن كعب القرظي، عن الحارث الأعور، فبرئ حمزة من عهدته. المصدر السابق.
ولبعضه متابع آخر أخرجه أحمد في مسنده ١/ ٩١ حيث تابع حمزة محمد بن إسحاق في روايته عن محمد بن كعب، راجع: مسند الإمام أحمد، تحقيق: أحمد محمد شاكر ٢/ ٨٨ ح ٧٠٤.

وآدم خلق من تراب»[1].

٢- إعداد الأمة الإسلامية الجديدة عن طريق تفهمها كتاب الله تعالى وتدبر آياته، أمة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتقضي على التخنث والعبث والإباحية، أمة تعد أبناءها إعدادًا صحيحًا وتربيهم على الصحوة واليقظة والاستعداد، وترفض التبعية والانقياد لغير الواحد الأحد.

٣- إعداد جيل من أمة الإسلام وتربيتهم في مدرسة الإسلام؛ لينهلوا من ينابيع القرآن؛ كي يسيروا على هدي كتاب ربهم وسنة نبيهم. عندئذ يبرز إلى دنيا الناس جيل الأمناء؛ أمناء على دينهم وعلى شريعة ربهم، أمناء على الناس وأعراضهم، وأمناء على أرضهم وديارهم.

وبذلك يعود إلى الأمة عزمات جيلها الأول، الذي أطاع ما فرض عليه دينه من أن يؤدي الصلاة جماعة في المعركة. ومن يفعل ذلك أتراه حريًّا أن يجاوز الحد إذا قاتل..؟ أو يجانب الوفاء إذا عاهد..؟

٤- إنشاء جيل العفة والاستقامة، جيل الإيمان والتقوى حتى لا تنهار أمة الإسلام. يقول (أندريا موروا) في كتابه **انهيار فرنسا في الحرب العالمية الثانية**: ومن أهم الأسباب لانهيار فرنسا هو تفسخ الشعب الفرنسي نتيجة انتشار الرذيلة بين أفراده.

وأحست اليابان الحديثة بعدما قطعت شوطًا في الحضارة والتقدم أن شبابها بدأ يميل للهو والعبث، ويتجه إلى الرذيلة والكسل. فكيف عالجت المشكلة...؟

لم تتجه إلى الشرق والغرب لتستورد منهما الحلول، ولم تلجأ إلى علم النفس؛ لأن نظرياته متقلبة متباينة، ولم تلجأ إلى حلول المخمورين والمتهوسين والعلمانيين، بل لجأت إلى الدين مباشرة، لجأت إلى الدين كعامل من عوامل التوجيه والقوة، فأصدرت القوانين بألا يوظف شاب في وظيفة عامة إلا بعد أن يدخل المعبد

(١) مسند الإمام أحمد ٢/ ٥٢٤، سنن أبي داود ح ٥١١٦، سنن الترمذي ح ٣٩٥٥.

ويمارس فيه رياضة روحية عنيفة، ويستوعب من الكهنة تعاليم (بوذا)[1].

إن انهيار الأمم في ميدان الحياة بعامة مدعاة إلى الرذيلة والترف، والقرآن الكريم يؤكد هذه النظرية بقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾[2].

وكان من أسباب انتصار المسلمين على أكبر الأمم بعد ظهور الإسلام - التفسخ الذي شمل ضروب الحياة، والانحلال الذي سرى أوصال تلك الأمم.

ومن أجل ذلك انهارت دولة الفرس وانهارت دولة الروم. فالمسلمون الذين تربوا في مدرسة الإسلام والذين كانوا بالأمس يحرصون على الحياة، ولكنهم بعد دخولهم ساحة الإيمان أصبحوا يحرصون على نيل الشهادة، وبعد أن كانوا يحرصون على نشر أمجاد القبيلة صاروا يحرصون على نشر دين الله. الرجال الذين خرجوا إلى الدنيا والظلام شامل، والجهل حاكم، والعقائد زيف وأباطيل، فمدَّنوا الدنيا، وهذَّبوا العالم، وقرروا الحق للإنسان وتلك كانت بغيتهم من الخروج.

٥- أن يعرف جيل الإسلام المعاصر أن الإسلام دين التطور والاختراع والابتكار. لقد استعمل الجيل الأول في فتوحاتهم السيف ضد المعوقين والواقفين في وجه دين الله، وطوروا أسلحتهم في فتوحات فارس فاستعملوا السفينة والبحر، واستعانوا في القضاء على الروم بسلاح الطبيعة، فحصروا أعداءهم بينهم وبين البحر المحيط، وكان هذا من أكبر العوامل لتعجيل النصر.

عمل محمد الفاتح في المرحلة المتأخرة على تطوير أسلحته، فلم تعد أسلحة تقليدية، لم يعد السيف والرمح ولا الترس والنبل.. ولكنها كانت المدفع والدبابة، ووسائل العبور، وقيام الجسور وتطويق العدو، والخبرة الأجنبية. نعم الخبرة الأجنبية ولا مانع من ذلك؛ لأن الرسول ﷺ يقول: **«لا حسد إلا في اثنتين، رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في**

(١) أحد الحكماء القدماء.

(٢) سورة الإسراء، آية ١٦.

الحق، وآخر آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها»(١).

تقديم كتاب الله تعالى إلى البشرية كلها - كما أنزله ربه غضًا طريًا حوى كل شيء - ليكون دستور الدساتير لخليفة الله، ينظم حياته، ويضبط سلوكه في الدنيا ويدخر له عمله الصالح لآخرته، وصدق ربي في قوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾(٢).

إن هذا القرآن مأدبة الله فتعلموا من مأدبته ما استطعتم كما يقول الرسول ﷺ(٣).

نقدم في هذا الكتاب: كتاب الله الذي بكلماته فتح القلوب الغلف، وأسمع بتوجيهاته الآذان الصم، ودحر بسلطانه كل جبار عنيد، أو متلصص مريب. نقدم كتاب الله الذي يرهف الإحساس، ويرقق الطبائع ويصفي الوجدان، ويحرك في النفوس مشاعر الرحمة للإنسانية كلها. لقد عشت فيها مع كتاب الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، أقرأ وأتدبر وأوضح وأبين، وتغمرني آياته بالهداية والتوفيق.

لقد استعرضت العديد من كتب التفسير قديمًا وحديثًا، ووضعت يدي على ما فيها من الكم الضخم من الحشو والترهات، التي لا تتناسب مع ما أنزله الله في كتابه؛ ليكون شريعة وهديًا للبشرية كلها حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

لقد كان دليلُنا في ذلك الكتابَ العزيزَ وسنةَ رسولنا ﷺ، فما توافق معهما قبلناه. وما تناكر معهما رفضناه، ودللنا عليه وأرشدنا إلى مظان وجوده. وكان ثمرة هذه الدراسة أن قدمنا بعض المقترحات التي رأينا أنها الأسلوب الأمثل لتنقية كتب التفاسير من الترهات والحشو، وهي:

أولًا: تحقيق تلك التفاسير تحقيقًا علميًا على ضوء منهج النقد عند المحدثين مع تباين الروايات الباطلة من الأخرى الصحيحة.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب إنفاق المال في حقه ٢/١٠٨، وصحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها ١/٥٥٩.

(٢) سورة الأنعام، آية ٣٨.

(٣) سبق تخريج هذا الحديث ص ٩.

ثانيًا: قيام الجامعات الإسلامية بتكوين لجان علمية متخصصة في التفسير والحديث، تستند إليها مهمة تفسير القرآن الكريم تفسيرًا خاليًا من الحشو والترهات التي لا تفيد.

ونرجو من الله العلي القدير أن يستجيب علماء المسلمين وقادتهم في مشارق الأرض ومغاربها لهذه المقترحات. إن تم هذا سيكون بمشيئة الله علامات واضحة على طريق المجد، وإرهاصات صادقة لعودة الأمة الإسلامية إلى سابق عزها ومجدها.

ونرى أننا في هذه الفترة من تاريخ الأمة الإسلامية في أشد الحاجة إلى إعداد جيل جديد؛ جيل البحث والقراءة، جيل يعرض قضايا الإسلام بلمحة واعية، وفكرة صادقة، وذهن لماح، يعرضها عند كل أمة، وفي أي مكان. سواء أكان ذلك في بلاد التطور المادي الذي لم تعرف البشرية له نظيرًا من قبل، أو بين الأحراش وداخل الأدغال، حيث يعيش البسطاء الكادحون، أصحاب القلوب الطاهرة، والنفوس الصافية، الذين هم في أشد الحاجة إلى من ينقذهم من خرافة المعتقد إلى نور التوحيد، ومن ترهات وتهويمات المذاهب الهدامة إلى نور الإيمان. ويخلصهم من ربقة الجهل إلى رحاب العلم، ومن الانعزالية المحصورة إلى ميدان الأخوة المؤمنة. ثم ماذا..؟

لقد عشت مع كتاب الله الحق، والحق منهج عميق في بناء هذا الكون كله الذي لم يكن فلتة عابرة، ولا مصادفة غير مقصودة، وقد خلق الله هذا الكون بالحق. ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[١]. ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾[٢].

والحق قوام هذه الحياة كلها، فإذا انحرفت عنه البشرية ضلت وهلكت، قال تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾[٣].

ومن ثم فلا بد للحق أن يظهر، ولا بد للباطل أن يزهق؛ تنفيذًا لقوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ

(١) سورة يونس، آية ٥.

(٢) سورة آل عمران، آية ١٩١.

(٣) سورة المؤمنون، آية ٧١.

بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾[1].

والتعبير يرسم هذه السُّنة في صورة حسية حية متحركة، فكأنما الحق قذيفة في يد القدرة تقذف به الباطل، فإذا هو زاهق هالك ذاهب.

هذه هي السُّنة المقررة، فالحق أصيل في طبيعة الكون، عميق في تكوين الوجود، والباطل منفي عن تكوين هذا الكون أصلًا، طارئ فيه، ولا سلطان له.

ولقد يخيل للناس أحيانًا أن واقع الحياة يخالف هذه الحقيقة التي يقررها العليم الخبير، وذلك في الفترات التي يبدو فيها الباطل منتفشًا كأنه غالب، ويبدو فيها الحق منزويًا كأنه مغلوب. وإن هي إلا فترة من الزمان، يمد الله فيها ما يشاء للفتنة والابتلاء ثم تجري السُّنة الأزلية الباقية التي قام عليها بناء السماء والأرض، وقامت عليها العقائد والدعوات سواء بسواء.

والمؤمنون بالله لا يخالجهم الشك في صدق وعده، وفي أصالة الحق في بناء الوجود ونظامه، وفي نصرة الحق الذي يقذف به على الباطل فيدمغه، فإذا ابتلاهم الله بغلبة الباطل حينًا من الدهر عرفوا أنها الفتنة وأدركوا أنه الابتلاء، وأحسوا أن ربهم يربيهم؛ لأن فيهم ضعفًا أو نقصًا، وهو يريد أن يدعوهم لاستقبال الحق المنتصر، وأن يجعلهم ستار القدرة، فيدعهم يجتازون فترة البلاء يستكملون فيها النقص ويعالجون فيها الضعف.. وكلما سارعوا إلى العلاج قصر الله عليهم فترة الابتلاء، وحقق على أيديهم ما يشاء. أما العاقبة فهي مقررة: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾[2]، والله يفعل ما يريد.

إذًا فلا يبقى في هذا الوجود إلا الحق، ولا يدوم إلا الصلاح والخير. ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾[3].

إن هذا الكتاب خاتم الكتب السماوية التي أنزلها الله على عباده سيبقى ما بقيت السماوات

(١) سورة الأنبياء، آية ١٨.

(٢) سورة الأنبياء، آية ١٨.

(٣) سورة الرعد، آية ١٧.

والأرض في قلوب المؤمنين الصادقين ينظم دنياهم بشرعه، ويجمل أوقاتهم بتدبر آياته، وينير حياتهم بهديه، ويزلزل الأرض تحت أقدام أعدائهم بقوته، عندها يتحقق وعد الله لعباده المؤمنين: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾(١).

ونقول: في عالم الاقتصاد لا يلجأ الفرد للاستدانة وله رصيد مذخور، قبل أن يراجع رصيده فيرى إن كان فيه غناء، ولا تلجأ الدولة إلى الاستيراد قبل أن تراجع خزائنها، وتنظر في خاماتها واقتصادياتها. أفلا يقوم رصيد الروح وزاد الفكر، ووارثات القلب والضمير كما تقوم السلع والأموال في حياة الناس..؟

نقول ذلك لأننا نرى الآن بعض أبناء الأمة الإسلامية يتطلعون إلى مبادئ الشرق والغرب، ويطالبون بتطبيقاتها على حياتنا، مثلهم كقوم كانوا في سفينة تبحر بهم عباب البحر المحيط، وفجأة فرغ منها الماء العذب ومعهم أطفال ونساء، فصاحوا في طلبه، وأرسلوا استغاثتهم عبر اللاسلكي يطلبون من كل سفينة تكون على مقربة منهم أن تمدهم بالماء العذب حتى لا يهلكوا عطشًا، وجاءهم صوت البشير: ألقوا الدلاء حيث أنتم. وتعجبوا كيف يلقون الدلاء حيث هم وتحتهم ماء ملح أجاج..؟ فأعادوا طلب الاستغاثة مرة ومرات.. ويأتي صوت البشير مكررًا: ألقوا الدلاء حيث أنتم. وعندما استجابوا لذلك وألقوا الدلاء عادت بالماء عذبًا فراتًا سائغًا للشاربين، كيف تم ذلك..؟

لقد كانت سفينتهم تسير قبالة نهر الأمازون الذي يصب ماؤه العذب في صميم المحيط وهم لا يشعرون. فلنلق الدلاء حيث نحن، فما أزخر الأعماق عندنا بالكنوز.

نرجو من الله تعالى أن يكون هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفع به المؤمنين المخلصين. ويهدي به الحيارى التائهين. وينزل عقابه على الكفرة المجرمين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

أ.د. سليمان بن صالح القرعاوي

---

(١) سورة الأنبياء، آية ١٠٥.

المدخل

أولًا: التفسير والتأويل

١- التفسير لغة:

هو الإيضاح والتبيين، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾[١]. أي: بيانًا وتفصيلًا، وهو مأخوذ من الفسر، وهو الإبانة والكشف. قال صاحب **المفردات**: الفسر: إظهار المعنى المعقول، ومنه قيل لما ينبئ عنه القول: تفسرة، وسمي بها قارورة الماء، والتفسير في المبالغة كالفسر، والتفسير قد يقال فيما يختص بمفردات الألفاظ وغريبها، وفيما يختص بالتأويل، ولهذا يقال: تفسير الرؤيا وتأويلها، قال تعالى: ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾[٢].

وقال أبو حيان في كتابه **البحر المحيط**: «ويطلق التفسير أيضًا على التعرية. قال ثعلب: تقول: فسرت الفرس عريته لينطلق في حصره، وهو راجع لمعنى الكشف، فكأنه كشف ظهره لهذا الذي يريده منه من الجري»[٣].

وقال صاحب **الصحاح**: الفسر: البيان، وقد فسرت الشيء أفسره - بالكسر - فسرًا، والتفسير مثله، واستفسرته كذا. أي: سألته أن يفسره لي، والفسر: نظر الطبيب إلى الماء، وكذلك التفسرة. وأظنه مولدًا[٤].

وقال صاحب **اللسان**: الفسر: البيان؛ فَسَر الشيء يفسره - بالكسر - ويفسرُه - بالضم - فسرًا وفسره: أبانه، والتفسير مثله[٥].

---

(١) سورة الفرقان، آية ٣٣.

(٢) المفردات للراغب الأصفهاني ص ٣٨٠.

(٣) راجع: كتاب البحر المحيط، مادة (فسر) ١/ ١٣.

(٤) راجع: الصحاح، تحقيق: أحمد عبد الغفار عطار ٢/ ٧٨١.

(٥) راجع: لسان العرب ٥ / ٥٥.

والتفسير: كشف المراد من اللفظ المشكل، والتأويل: رد أحد المحتملين إلى ما يطابق الظاهر. واستفسرته كذا: أي سألته أن يفسره لي [١].

والمستعرض لهذه الأقوال في قواميس اللغة ومصادرها يرى أن التفسير في اللغة هو الكشف والبيان. وإذا كان كذلك فما هو التفسير في الاصطلاح؟

٢- التفسير اصطلاحًا:

يقول الإمام الزركشي: التفسير علم يفهم به كتاب الله عز وجل المنزَّل على نبيه محمد ﷺ وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه [٢].

ويقول أبو حيان التوحيدي: التفسير: علم يبحث عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب، وتتمات لذلك [٣].

ويقول التهانوي: علم التفسير: علم يعرف به نزول الآيات وشؤونها وأقاصيصها، والأسباب النازلة فيها، ثم ترتيب مكيها ومدنيها، ومحكمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصها وعامها، ومطلقها ومقيدها، ومجملها ومفسرها، وحلالها وحرامها، ووعدها ووعيدها، وأمرها ونهيها، وأمثالها وعبرها [٤].

والمستعرض لهذه التعريفات التي ذكرها العلماء - وغيرها كثير - يرى أن التعاريف لا تخرج عن نطاق الكشف والإبانة عن مقصود الله تعالى من آياته البينات في حدود الجهد البشري.

وإذا أردنا أن ندلي بدلونا مع العلماء ونقدم تعريفًا للتفسير ليس طويلًا مملًا، ولا قصيرًا مخلًّا؛ فنقول وبالله تعالى التوفيق:

(١) المصدر السابق.

(٢) راجع: البرهان في علوم القرآن ١/ ١٣.

(٣) راجع: تفسير البحر المحيط ١/ ١٣.

(٤) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٤/ ١٦٩.

التفسير: هو الفهم لكتاب الله تعالى وإدراك معانيه، وتبيان أهدافه وأغراضه، واستنباط أحكامه وتشريعاته، وأوامره ونواهيه المستخلصة من آيات الله تعالى عن طريق الموهبة الفطرية والمعرفة الكسبية.

وإذا كان ذلك كذلك فما هو التأويل؟

٣-التأويل لغة:

قال صاحب **الصحاح**: التأويل: تفسير ما يؤول إليه الشيء، وقد أولته وتأولته تأويلًا بمعنى[(١)]. وقال صاحب **اللسان**: الأول: الرجوع، آل الشيء يؤول أَوْلًا ومآلًا رجع، وأُلْت عن الشيء: ارتددت. وفي الحديث: «**من صام الدهر فلا صام ولا آل**». أي: لا رجع إلى خير.

والأول: الرجوع، وفي حديث خزيمة السلمي: «**حتى آل السلامى**». أي: رجع إليه... إلخ. ويقال: طبخت النبيذ حتى آل إلى الثلث أو الربع. أي: رجع. وأوَّل الكلام وتأوله: فسره. وقوله عز وجل: ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾[(٢)]. أي: لم يكن معهم علم تأويله. وهذا دليل على أن علم التأويل ينبغي أن ينظر فيه.

وقيل: معناه: لم يأتهم ما يؤول أمرهم في التكذيب به من العقوبة، ودليل هذا قول الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[(٣)].

وفي حديث ابن عباس: «**اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل**»[(٤)].

قال ابن الأثير: هو من آل الشيء يؤول إلى كذا، أي: رجع وصار إليه.

والمراد بالتأويل: نقل ظاهر اللفظ عن وضعه الأصلي إلى ما يحتاج إلى دليل لولاه ما

(١) الصحاح للجوهري. مادة: (أول).

(٢) سورة يونس، آية ٣٩.

(٣) سورة يونس، آية ٣٩.

(٤) الحديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، في فضائل الصحابة ١٣٨، وأحمد بن حنبل في المسند ١/ ٢٢٦، وانظر: لسان العرب لابن منظور ١١/ ٣٣.

ترك ظاهر اللفظ. ومنه حديث عائشة رضي الله عنها: كان النبي ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه أو سجوده: «سبحانك اللهم وبحمدك». يتأول القرآن[1]. تعني: أنه مأخوذ من قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾[2].

قال الليث: التأول والتأويل تفسير الكلام الذي تختلف معانيه ولا يصح إلا ببيان غير لفظه. وأنشد:

نحن ضربناكم على تنزيله   فاليوم نضربكم على تأويله

وأما قوله عز وجل: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ﴾[3].

فقال أبو إسحاق: معناه: هل ينظرون إلا ما يؤول إليه أمرهم من البعث؟ قال: وهذا التأويل هو قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[4]. أي: لا يعلم متى يكون أمر البعث وما يؤول إليه الأمر عند قيام الساعة إلا الله. ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾[5]. أي: آمنا بالبعث. والله أعلم[6].

وقد ورد لفظ التأويل في القرآن على وجوه عدة، منها:

أ- بمعنى التفسير والتعيين:

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[7].

ب- بمعنى العاقبة والمصير:

كقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ

(١) صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود ١/ ٣٥٠ ح ٤٨٤.
(٢) سورة النصر، آية ٣.
(٣) سورة الأعراف، آية ٥٣.
(٤) سورة آل عمران، آية ٧.
(٥) سورة آل عمران، آية ٧.
(٦) لسان العرب لابن منظور ١١/ ٣٣.
(٧) سورة آل عمران، آية ٧.

﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾[1].

ج- بمعنى وقوع المخبر به:

كقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾[3].

د- بمعنى تأويل الرؤيا:

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾[5].

هـ- بمعنى التأويل المقصود به الأعمال:

قال تعالى: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾[6].

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾[7].

* * * *

(1) سورة النساء، آية ٥٩.

(2) سورة الأعراف، آية ٥٣.

(3) سورة يونس، آية ٣٩.

(4) سورة يوسف، آية ٦.

(5) سورة يوسف، آية ٣٧.

(6) سورة الكهف، آية ٧٨.

(7) سورة الكهف، آية ٨٢. وانظر: الوجوه والنظائر في القرآن الكريم لسليمان القرعاوي ص ٢٠٣.

ثانيًا: الفرق بين التفسير والتأويل

عرضنا في هذه العجالة التفسير والتأويل في اللغة والاصطلاح. ونحاول في هذا المبحث أن نتعرف على الفروق بين التفسير والتأويل:

اختلف العلماء في ذلك اختلافًا بيِّنًا، فبعضهم يرى أن التفسير هو التأويل، والبعض الآخر يرى أن التفسير يختلف عن التأويل، فليس كل تفسير تأويلًا. ويطيب لنا أن نقدم بين يدي القارئ أقوال بعض العلماء المؤيدين والمعارضين.

قال أبو عبيدة وطائفة معه: «التفسير والتأويل بمعنى واحد»(١). فهما لفظان مترادفان. وهذا هو الشائع عند المتقدمين من علماء التفسير.

وقال الراغب الأصفهاني في كتابه القيِّم **المفردات**: «التفسير أعم من التأويل، وأكثر ما يستعمل التفسير في الألفاظ، والتأويل في المعاني، كتأويل الرؤيا، والتأويل يستعمل أكثر في الكتب الإلهية. والتفسير يستعمل فيها وفي غيرها. والتفسير أكثره يستعمل في مفردات الألفاظ، والتأويل أكثره يستعمل في الجمل»(٢).

وقال الماتريدي: التفسير: القطع على أن المراد من اللفظ هذا، والشهادة على أنه عنى اللفظ هذا.. فإن قام دليل مقطوع به فصحيح.. وإلا فهو تفسير بالرأي المنهي عنه.. والتأويل ترجيح أحد المحتملات بدون القطع والشهادة على الله.

وقال أبو طالب الثعلبي: التفسير: بيان وضع اللفظ إما حقيقة أو مجازًا، كتفسير الصراط: بالطريق، والصيب: بالمطر. والتأويل: تفسير باطن اللفظ مأخوذ من الأَوْل.. وهو الرجوع

---

(١) التفسير والمفسرون للذهبي ١/ ٢١.

(٢) مقدمة جامع التفاسير للراغب ص ٤٧.

لعاقبة الأمر.. فالتأويل إخبار عن حقيقة المراد، والتفسير إخبار عن دليل المراد، والكاشف دليل.. مثاله قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾[1].

تفسيره: أنه من الرصد، يقال: رصدته: رقبته. والمرصاد مفعال منه. وتأويله: التحذير من التهاون بأمر الله، والغفلة عن الأهبة والاستعداد للعرض عليه. وقواطع الأدلة تقتضي بيان المراد منه على خلاف وضع اللفظ في اللغة. وعلى هذا فالنسبة بينهما التباين[2].

وإذا كان ذلك كذلك فنحن نميل إلى الرأي القائل بأن التفسير يختلف عن التأويل كما قرره علماء اللغة وفقهاء الشرع، حتى قال الإمام البغوي: التفسير يتعلق بالرواية، والتأويل يتعلق بالدراية.

وعلى هذا فالنسبة بينهما التباين..

هذا وبالله التوفيق..

وإذا كان ذلك كذلك فما التفسير الموضوعي؟

هل هو عِلْم حادث لم يعرفه العلماء في الصدر الأول من تاريخ الإسلام.. أم أنه واكب العلوم الإسلامية منذ نشأتها حتى وقتنا الحاضر؟

للإجابة على ذلك علينا أن نقطع شوطًا آخر في البحث.

****

(١) سورة الفجر، آية ١٤.

(٢) راجع: المدخل إلى التفسير الموضوعي للدكتور عبد الستار سعيد ص ٢٠ – ٢٣.

ثالثًا: التفسير الموضوعي

١- تعريفه:

تكلمنا في هذه المقدمة عن التفسير في اللغة وفي الاصطلاح. فإذا أردنا تبيان (التفسير الموضوعي) فنرى أن كلمة (الموضوعي) في اللغة جاءت من الوضع، وهو جعل الشيء في مكان ما، سواء أكان ذلك بمعنى الحط والخفض، أو بمعنى الإلقاء والتثبيت في المكان، يقال: ناقة واضعة، إن رعت الحمض حول الماء ولم تبرح.

وقيل: وضعت تضع وضيعة فهي واضعة. وكذلك موضوع يتعدى ولا يتعدى. وهذا المعنى ملحوظ في التفسير الموضوعي؛ لأن المفسر يرتبط بمعنى معين لا يتجاوزه إلى غيره حتى يفرغ من تفسيره الموضوع الذي التزم به [(١)].

وفي الاصطلاح: قضية أو أمر متعلق بجانب من جوانب الحياة في العقيدة، أو السلوك الاجتماعي، أو مظاهر الكون التي تعرضت لها آيات القرآن الكريم.

أما التفسير الموضوعي فهو عِلْم لم يعرف بهذا الاسم إلا في هذا العصر، وقد قدم العلماء الكثير من التعريفات لهذا العلم.. فعرفه بعضهم بأنه جمع الآيات المتفرقة من سور القرآن الكريم المتعلقة بالموضوع الواحد لفظًا أو حكمًا، وتفسيرها حسب المقاصد القرآنية.

وقال بعضهم: هو بيان لموضوع (ما) من خلال آيات القرآن الكريم في سورة واحدة أو سور متعددة.

وقيل: هو علم يبحث في قضايا القرآن الكريم المتحدة بمعنى وغاية، عن طريق جمع

---

(١) راجع: دراسات في التفسير الموضوعي عن الدكتور زاهر الألمعي ص ٧، نقلًا عن كتاب مباحث في التفسير الموضوعي للدكتور مصطفى مسلم ص ١٦.

آياتها المتفرقة والنظر فيها على هيئة مخصوصة بشروط مخصوصة؛ لبيان معناها واستخراج عناصرها وربطها برباط جامع [1].

وإذا كان ذلك كذلك، فمتى نشأ التفسير الموضوعي؟

٢- نشأة التفسير الموضوعي:

يرى الدارسون أن هذا التفسير كان معروفًا في الصدر الأول للإسلام، وأن الرسول ﷺ سئل عن تفسير بعض الآيات التي تتضمن معنى واحدًا.. من ذلك ما رواه الإمام البخاري أن رسول الله ﷺ فسر (مفاتيح الغيب) في قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾[2]. فقال: «**مفاتح الغيب خمس:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾[3]». وهذا ما يسمى بتفسير القرآن بالقرآن.

ومن هذا القبيل أيضًا ما كان يلجأ إليه الصحابة رضوان الله عليهم من الجمع بين الآيات القرآنية التي يظن بها التعارض، كما روى البخاري، قال: قال المنهال: عن سعيد بن جبير، قال: قال رجل لابن عباس رضي الله عنهما: إني لأجد في القرآن أشياء تختلف عليَّ. قال: ما هي؟ قال: قول الله تعالى: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾[4]، وقوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾[5]، وقوله: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾[6]، وقوله: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[7]. فقد كتموا في هذه الآية.

---

(١) راجع المراجع السابقة.

(٢) سورة الأنعام آية ٥٩.

(٣) سورة لقمان، آية ٣٤. وانظر: صحيح البخاري ٥/ ١٩٣، كتاب تفسير القرآن، باب: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾.

(٤) سورة المؤمنون، آية ١٠١.

(٥) سورة الصافات، آية ٢٧، والطور، آية ٢٥.

(٦) سورة النساء، آية ٤٢.

(٧) سورة الأنعام، آية ٢٣.

وقال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾[1].

فذكر خلق السماء قبل الأرض، ثم قال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[2].

فذكر في هذه خلق الأرض قبل السماء، وخلق الأرض في يومين، ثم خلق السماء، ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين، ثم دحا الأرض، ودحيها أن أخرج منها الماء والمرعى، وخلق الجبال والرمال والجماد والآكام وما بينهما في يومين آخرين. فذلك قوله تعالى: ﴿دَحَىٰهَآ﴾.

ثم جمع الفقهاء الآيات ذات الصلة بموضوع واحد، استنبطوا منها الأحكام الخاصة بها، كالآيات الخاصة بالصلاة والصدقات والحج والصوم وغير ذلك.

وكل ذلك يعد لونًا من ألوان التفسير الموضوعي في خطواته الأولى.

يقول الدكتور مصطفى مسلم: «وقد أخذت هذه الدراسات الموضوعية اتجاهًا آخر في نفس الوقت، وهو الاتجاه اللغوي، وذلك بتتبع اللفظة القرآنية ومحاولة معرفة دلالاتها المختلفة».

ثم يقدم لنا ثبتًا ببعض المؤلفات والمصنفات التي قام بتحبيرها العلماء بدءًا من منتصف القرن الثاني الهجري إلى بداية عصر الجمود.. من ذلك:

١- كتاب: **(الأشباه والنظائر في القرآن الكريم)** لمقاتل بن سليمان البلخي المتوفى سنة ١٥٠هـ، ذكر فيها الكلمات التي اتحدت في اللفظ واختلفت دلالاتها حسب السياق في الآيات الكريمة.

٢- كتاب **(التصاريف)** ليحيى بن سلام المتوفى سنة ٢٠٠هـ، وهو يعد تفسيرًا لبعض

(١) سورة النازعات، آية ٢٧ - ٣٠.

(٢) سورة فصلت، آية ٩ - ١١.

آيات القرآن الكريم التي تشابهت أسماؤها وتصرفت معانيها.

٣- كتاب (**المفردات في غريب القرآن**) للراغب الأصفهاني المتوفى سنة ٥٠٢هـ، تتبع فيه مادة الكلمة القرآنية وبين دلالاتها في مختلف الآيات. يقول: وألفاظ القرآن هي لب كلام العرب وزبدته وواسطته وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمهم، وإليها مفزع حذاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم[١].

٤- كتاب (**نزهة الأعين النواضر في علم الوجوه والنظائر**) لابن الجوزي المتوفي سنة ٥٩٧هـ.

٥- كتاب: (**إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم**) للدامغاني المتوفى سنة ٤٧٨هـ.

٦- كتاب (**بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**) للفيروز آبادي المتوفى سنة ٨١٧هـ.

٧- كتاب (**كشف السرائر في معنى الوجوه والنظائر**) لابن العماد المتوفى سنة ٨٨٧هـ.

يقول الدكتور مصطفى مسلم: «وقد ظهرت كتب أخرى من التفسير كان موضوعها الجمع بين الآيات التي ترتبط بموضوع واحد، أو يمكن أن تدخل تحت مظلة عنوان واحد»[٢]. ثم حبرت يراعة العلماء مصنفات أخرى جمع أصحابها من كتاب الله تعالى ما يتضمنه عنوان الكتاب الذي يريدون تأليفه. ولا زال كتاب الله هو النبع الصافي الذي يستقي منه العلماء والمفكرون مادة لكتاباتهم ومنهجًا لحياتهم، وصراطًا مستقيمًا لآخرتهم.

---

(١) راجع: المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، مقدمة المؤلف، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت.

(٢) راجع: مباحث في التفسير الموضوعي للدكتور مصطفى مسلم ص ٢٠.

٣- طريقة البحث في التفسير الموضوعي:

يرى علماء التفسير أن البحث في التفسير الموضوعي له طريقتان:

الطريقة الأولى: البحث في سورة واحدة

ويشترط لذلك أن تكون السورة في كتاب الله تمثل وحدة متكاملة وإن تعددت موضوعاتها؛ لأنها تتناول في هذا العدد وحدة واحدة. مثال ذلك: سورة آل عمران تناولت ثلاث موضوعات:

الموضوع الأول: جوانب الصراع بين العقيدة الإسلامية والعقائد المنحرفة في الجزيرة العربية؛ لأن أصحاب هذه العقائد كانوا يحاربون عقيدة الإسلام بالدس والتشكيك وتدبير المؤامرات، ويرفعون في وجهها معاول الهدم والتوهين؛ لأنهم كانوا يعلمون أن هذه الأمة لا تؤتى إلا من هذا المدخل، ولا تهن إلا وإذا وهنت عقيدتها.

الموضوع الثاني: يتناول تمسك المسلمين بعقيدتهم، واستسلامهم لكل أوامرها وتلقيهم لكل ما يأتيهم منه بالقبول والطاعة والاتباع الدقيق.

الموضوع الثالث: التحذير من ولاية غير المؤمنين، والتهوين من شأن الكافرين، وتقرير أنه لا إيمان ولا صلة بالله مع تولي الكفار الذين لا يحتكمون لكتاب الله، ولا يتبعون منهجه في الحياة.

وهذه الموضوعات الثلاثة تمثل وحدة واحدة هي تمسك المسلمين بعقيدتهم. وكشف أضاليل أهل الكتاب السابقين الذين حرفوا كتاب الله بأيديهم، وقالوا: هو من عند الله. وما هو من عند الله [1].

وكذلك: سورة الكهف؛ لأن المحور الموضوعي للسورة التي ترتبط به موضوعاتها هو تصحيح العقيدة، وتصحيح القيم بميزان هذه العقيدة، فأما تصحيح العقيدة فيقرره بدؤها وختامها.

---

(١) راجع: دراسات في التفسير الموضوعي للدكتور زاهر بن عواض الألمعي ص ٢١ بتصرف.

في البدء قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾(١).

وفي الختام: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾(٢).

وهكذا يتفق البدء والختام في إعلان الوحدانية وإنكار الشرك.

وفي قصة أصحاب الكهف يقول الفتية: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾(٣). وفي التعقيب عليها: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾(٤). وفي قصة الجنتين يقول الرجل المؤمن لصاحبه: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾(٥). ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾(٦) إلى آخر السورة.

ونختم هذا الموضوع بما أورده الإمام البقاعي: «قال شيخنا الإمام المحقق أبو الفضل محمد البجائي المالكي: الأمر الكلي المقيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن هو أنك تنظر الغرض الذي سيقت له السورة، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات، وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب، وتنظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة له...

(١) سورة الكهف، الآيات ١-٥.

(٢) سورة الكهف، آية ١١٠.

(٣) سورة الكهف، آية ١٤.

(٤) سورة الكهف، آية ٢٦.

(٥) سورة الكهف، آية ٣٧.

(٦) سورة الكهف، الآيات ٤٣ - ٤٤.

ثم يتابع حديثه قائلًا: وقد ظهر لي باستعمالي لهذه القاعدة بعد وصولي إلى سورة سبأ في السنة العاشرة من ابتدائي في عمل هذا الكتاب أن اسم كل سورة مترجم عن مقصودها؛ لأن اسم كل شيء يُظهر المناسبة بينه وبين مسماه عنوانه الدال إجمالًا على تفصيل ما فيه، وذلك هو الذي أنبأ به آدم عليه الصلاة والسلام عند العرض على الملائكة عليهم الصلاة والسلام. ومقصود كل سورة هاد إلى تناسبها. فأذكر المقصود من كل سورة، وأطبق بينه وبين اسمها»[1].

وتأكيدًا لذلك يقول الدكتور مصطفى مسلم: اختار الشيخ عبد الحميد طهماز عنوان (العواصم من الفتن... في سورة الكهف)، وذكر في مقدمة كتابه أن الدافع له لاختيار هذا العنوان شيئان:

الأول: اسم السورة؛ فالقضايا التي عرضت في السورة إذا اعتنقها الإنسان كانت كالملاذ له، والملجأ من الفتن والضلال، فقد أوى إلى كهف يقيه من شرورها.

والأمر الثاني حول اختيار هذا العنوان: حديث الرسول ﷺ: **«من قرأ عشر آيات من أول سورة الكهف كانت له عصمة من الدجال»**[2]. فكأنه أوى إلى كَهف أو ملاذ أو ملجأ يقيه فتنة الدَّجال.

الطريقة الثانية: جمع الآيات ذات الهدف المشترك

وهو أن تُجمع الآيات ذات الهدف المشترك وترتب على حسب النزول - ما أمكن ذلك - مع الوقوف على أسباب النزول - إن وجد - ونتناولها بالشرح والبيان والتعليق والاستنباط، مع الإحاطة التامة بكل جوانب الموضوع كما ورد في القرآن الكريم؛ بقصد الوصول إلى الغاية المرجوة من وراء هذا البحث، وإفادة المجتمع الإسلامي منه، وهذه الطريقة هي المعمول بها في مجال البحوث العلمية الموضوعية التي كانت وسيلتنا إلى إخراج هذه الموضوعات، وهي:

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ١/ ١٧ - ١٩.

(٢) راجع: مباحث في التفسير الموضوعي لمصطفى مسلم ص ٤٢.

أ- المفارقة التصويرية في القرآن الكريم.

ب- إيضاح ما يوهم ظاهره التعارض بين بعض آيات القرآن الكريم.

جـ- الأنباء في ضوء القرآن والسنة، وموقف المجتمع منها قبولًا ورفضًا.

د- موسى الكليم وفتاه والعبد الصالح.

هـ- التوبة في منهج القرآن الكريم.

المفارقة التصويرية في القرآن الكريم

مُقَدّمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على رسول الله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وبعد:

فإن العَقْلَ الإنساني أعظم هبات الله تعالى للإنسان، وقد اقترن العقل بالنظر والتمييز بين الحق والباطل، والصحيح والزائف، والخير والشر... يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1]. واقترن النظر العقلي بقوانين ومسلمات، ومن هذه القوانين العقلية الأولية ما يسميه علماء الكلام (قانون التمانع)، ومعناه امتناع اجتماع الضدين. وتتبدى الأضداد في صور شتى سواء في السلوك أو المواقف من قضايا الوجود والمجتمع، فوجود الخالق ووحدانيته وحكمته وأسماؤه وصفاته، واستحقاقه أن يُعبد وأن يُوحَّد وأن يُنزَّه وألّا يُشرك به، وألا تُجحد نعمه، كلها قضايا تتصل بالعقل والنظر والتعلم؛ يقول الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾[2]. والإيمان بقدرة الله وبأنه خالق كل شيء، وأنه القادر على الإيجاد والإفناء، وعلى الموت والبعث، كلها قضايا تتصل بالعقل والنظر والعلم..

والمفارقة التي تتمثل في إظهار التناقضات بين ما يجب أن يكون وما هو موجود بالفعل طريق من طرق البرهان والاحتجاج النظري في القرآن الكريم.

«والقرآن قد ضُرب للناس فيه من كل مثل، وهي المقاييس العقلية المفيدة للمطالب الدينية، لكن القرآن يبين الحق في الحكم والدليل، فماذا بعد الحق إلا الضلال؟! وما كان

(١) سورة الرعد، آية ٤.

(٢) سورة العنكبوت، آية ٤٣.

من المقدمات معلومة ضرورية متفقًا عليها، استدل بها ولم يحتج إلى الاستدلال عليها»[1].

ولا شك أن التناقض الذي تشير إليه بعض الآيات القرآنية في سلوك بعض الناس يقوم إنكاره على أساس عقلي يمثل الفطرة التي فطر الله عليها بني الإنسان، وما زوده به من قدرة على النظر والتأمل وإدراك الحقائق؛ يقول الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[2]. ويقول: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾[3].

إن المفارقة تتمثل في أن هناك من الناس من عميت بصائرهم، وطمس على أبصارهم، وضلَّت عقولهم، وأصبحوا ينظرون فلا يرون الحق حقًّا ولا الباطل باطلًا.. وكأنما سلبت أدوات العقل والنظر قدرتها على التمييز، وسلبت الأنفس قدرتها على اختيار الصحيح من الأفعال والأقوال.

فالأدلة كثيرة قاطعة على وجود الخالق الذي خلق الوجود جميعه وأوجده من العدم، لكن هذه الأدلة لا تقود كثيرًا من الناس إلى الإيمان بالخالق، وبأنه مُوجِدُ هذا الوجود، وإذا سلّم بعض الناس بأن الله خالقهم ورازقهم، فإن ذلك لا يتبعه شكر على نعمة الخلق ونعيمه.

فالمنطق يرينا أن واهب النعم لا بد أن يكون أحب إلينا من النعم نفسها، لكن أكثر الناس تشغلهم النعم وتصرفهم عن واهب النعم.

إذا آمن الناس بأن الرسول بشر مثلهم، فإن ذلك لا يقود بعضهم إلى أن البشر لا يفعلون إلا ما يَسَّرَهُ له خالقه، وأنه ميت مثلما أنهم ميتون، وبعض الأمم قد تصرفوا مع أنبيائهم تصرفًا يتناقض مع العقل من ناحية، ومع تسليم بعضهم بنبوتهم من ناحية أخرى.

وقد كشف القرآن الكريم عن كثير من مثل هذه المفارقات، وتتلخص المفارقات في التناقض بين ما يجب أن يكون وما هو كائن بالفعل، وفي القرآن الكريم تصوير لمواقف كثيرة تتضمن أنماطًا من التناقض في السلوك البشري ونماذج من العناد والصلف الإنساني،

(١) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص٨٥.

(٢) سورة يوسف، آية ١٠٩.

(٣) سورة الحج، آية ٤٦.

وقد عرَضتُ لهذه المواقف ودرستها في إطار ما أطلقت عليه **(المفارقة التصويرية في القرآن الكريم)**، وهو ما سأحاول عرضه وبيانه.

****

مدخل البحث

جاء في المصباح عن المفارقة: فرقت بين الشيء فرقًا من باب قَفَل يَقْفُل: فصلت أبعاضه، فرقت بين الحق والباطل: فصلت أيضًا، بهذا قرأ السبعة في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[1]. وفي لغة من باب ضَرَبَ يَضْرِب، وقرأ بها بعض التابعين[2].

وقال الأصفهاني: الفرق يقارب الفلق، لكن الفلق يقال باعتبار الانشقاق، والفرق يقال باعتبار الانفصال، ثم الفرق بين الشيئين سواء كان بما يدركه البصر، أم بما تدركه البصيرة. والفرقان أبلغ من الفرق؛ لأنه يستعمل في الفرق بين الحق والباطل، والحجة والشبهة... والفارق: ما فرَق بين الشيئين. والمفرق من الطرق: الموضع الذي يتشعب منه طريق آخر، والجمع مفارق، ومفارق الحديث: وجوهه. والفرقان: القرآن يفرق بين الحق والباطل، والحلال والحرام. والفرقة مصدر الافتراق. وفارق الشيء مفارقة: باينه، والاسم: الفرقة[3]. والبين: الفراق، وبان: فرق، والمباينة: المفارقة[4].

والتفريق: فَصلُ الشيء عن بعضه، أو فصل شيء عن شيء، أو فصل معنى عن معنى. ففيه معنى الفصل والتفصيل والتبيين. فصلته عن غيره فصلًا: قطعته فانفصل، وفصلت الشيء تفصيلًا: جعلته فصولًا[5].

---

(١) سورة المائدة، آية ٢٥.

(٢) المصباح المنير، مادة (فرق).

(٣) لسان العرب لابن منظور، وتاج العروس للزبيدي، مادة (فرق).

(٤) المصباح المنير، مادة (فرق).

(٥) المرجع السابق.

والفصل: إبانة أحد الشيئين من الآخر حتى يكون بينهما فُرجة، ويستعمل ذلك في الأفعال والأقوال، نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1]؛ أي: يبين الحق من الباطل ويفصل بين الناس[2].

مما سبق يمكننا أن نكشف عما يتصل بالمفارقة من الدلالات، فالمفارقة مباينة، والمباينة فصل، وفي الفصل تفصيل، والمفارقة مفاعلة، وهي تفصل ما بين شيئين أو حدثين أو قضيتين من فروق وتضاد وتناقض، والضد مثل الشيء والضد خلافه، وضاده مضادة إذا باينه مخالفة، والمتضادان اللذان لا يجتمعان كالليل والنهار[3].

ونقض: تناقض الكلامان: تدافعا، كأن كل واحد نقض الآخر (هدمه)، وفي كلامه تناقض: إذا كان بعضه يقتضي إبطال بعض. والمفارقة تتصل بموقف ذي بعدين بينهما تضاد وتناقض وتباين وتفارق واختلاف، بحيث إنه ما كان ينبغي أن يكون أحدهما بسبب وجود الآخر، فلما اجتمعا كان الكلام عنهما متضمنًا نوعًا من الإنكار أو التوبيخ أو التهكم أو التحقير والاستصغار أو الاستبعاد أو التعجب، ويكشف عن ضعف في آلة العقل عند هؤلاء الذين فارقهم الفهم الصحيح، ومن ثم فارقهم الصواب.

ودراسة المفارقة تعني الكشف عن تلك المواقف التي تتضمن تناقضًا وتضادًا وتباينًا بين عناصرها، ويتطلب ذلك تعرفًا على تلك المواقف التي تتضمن مفارقة، وتحليل عناصر الموقف، والكشف عن علاقة ذلك بالنص أو المقام أو السياق الذي تضمن مفارقة. وهو أمر اقتضى أن ندرسه في فصلين كما سيأتي.

(١) سورة الدخان، آية ٤٠.

(٢) المفردات للراغب الأصفهاني ص ٤٠١.

(٣) المصباح المنير، مادة (ضدد).

الفَصْلُ الأوَّلُ

مَوقف المكابرينَ مِنْ وجود الله تعالى وقدرته ونِعَمِه

ويتضمن المباحث التالية:

المبحث الأول: براهين وجود الله تعالى.

المبحث الثاني: الإيمان بقدرة الله على الخلق الأول وإمكان البعث.

المبحث الثالث: التناقض بين التسليم بخلق السماوات والأرض لله وإنكار خلق الإنسان.

المبحث الرابع: حب الله وعدم الشكر على نعمائه.

المبحث الخامس: الاغترار بالدنيا.

مقدمة

قرر القرآن الكريم أن الإيمان بالله أمر تقتضيه الفطرة الإنسانية، يقول سبحانه: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾(١).

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾(٢).

هذا دليل على أن الإيمان بوجود الله تعالى أمر ضروري لا مناص منه، وحاصله أن شيئًا من الأشياء لا يمكن أن يخرج من العدم إلى الوجود بدون موجد، كما لا يمكن أن يكون الشيء خالقًا لنفسه، أو يكون المفعول فاعلًا لذاته، فالمعاند يزعم خلاف ذلك، ويناقض نفسه بنفسه حين يدّعي أن هذه الموجودات التي خلقها الله سبحانه إنما أوجدتها الطبيعة، ونسي نفسه. وفي هذا تناقض مع أبسط قوانين العقل التي فُطِر عليها الإنسان.

والقرآن الكريم بهذا يخاطب الفطرة الإنسانية السليمة، ويلفت الأنظار في أسلوب رائع إلى الآيات البينات، والأدلة الواضحة التي تتصل بالفطرة السليمة والتي توجب على كل ذي عقل أن يؤمن بالخالق جلَّ وعلا، وهذه الآيات منها ما يتصل بالإنسان، ومنها ما يتصل بظواهر الكون، وتسمى (آيات الأنفس والآفاق).

يقول سبحانه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ

(١) سورة إبراهيم، آية ١٠.

(٢) سورة الطور، الآيتان ٢٥، ٢٦.

كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣ أَلَآ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾[1]. ويقول تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[2].

والحقيقة أن كثيرًا من الآيات القرآنية تتحدث عن وجود الله بالأدلة القاطعة الساطعة، ولو قرأها الإنسان قراءة متأنية لشهدت كل شعرة منه بوجود الله تعالى، إنها تقدم آيات بينات، وبراهين ساطعات، لا يستطيع صاحب الفطرة السليمة والعقل القويم أن يتجاوزها دون أن يقر بقدرة الله ولطفه وحكمته.

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[3].

وقد حاجَّ إبراهيم ربه في قضية الخلق، يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[4].

ولكن الذين طمست بصائرهم وعميت عقولهم أنكروا هذه الحقيقة، ونسبوا كل شيء موجود بفعل الظواهر الكونية أو بداعي المشاركة مع الخالق، وقد ساق القرآن الكريم هذه المزاعم بأسلوب يسميه البلاغيون (**الاحتجاج النظري**)، وهو: ذكر الشيء مع الحجة عليه. وكثيرًا ما يقترن ذلك بالإنكار والتعجب والتوبيخ. كما يقترن الرد على منكري الحقائق الربانية بأسلوب المفارقة الذي يكشف عن زيف الحجج وبطلان ما يدَّعون، ويتمثل ذلك في إبراز التناقض.

وسنعرض في هذا الفصل البراهين الدالة على وجود الله، ووجوب الإيمان به، وفي مقابلها الإنكار والكفر من المعاندين والمكابرين.

---

(١) سورة فصلت، الآيات ٥٢ - ٥٤.

(٢) سورة الذاريات، الآيتان ٢١، ٢٢.

(٣) سورة المؤمنون، آية ١٤.

(٤) سورة البقرة، آية ٢٦٠.

المبحث الأول

براهين وجود الله تعالى

أورد القرآن الكريم شواهد وأدلة وبراهين قاطعة واضحة على وجود الخالق سبحانه وتعالى، وقد كانت قضية وجود العالم وخلق الناس وتيسير الرزق - أدلة لا شك فيها على وجود الخالق، فلكل حادث محدث، ولكل مخلوق خالق، ولا بد للعالم من خالق هو الله سبحانه وتعالى، فليس العالم كما يقول الملحدون حادثًا بغير محدث، يقول تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾(١).

يقول عبد الرحمن السعدي في تفسير هذه الآيات: «وهذا استدلال عليهم بأمر لا يمكنهم فيه إلا التسليم للحق، أو الخروج عن موجب العقل والدين. وبيان ذلك: أنهم منكرون لتوحيد الله، مكذبون لرسله، وذلك مستلزم لإنكار أن الله خلقهم.

وقد تقرر في العقل مع الشرع أن ذلك لا يخلو من أحد ثلاثة أمور:

- إما أنهم خلقوا من غير شيء؛ أي: لا خالق خلقهم، بل وجود من غير إيجاد ولا موجود، وهذا عين المحال.

- أم هم الخالقون لأنفسهم؟ وهذا أيضًا محال، فإنه لا يتصور أن يوجد أحد نفسه.

فإذا بطل هذان الأمران وبان استحالتهما، تعين القسم الثالث وهو: أن الله هو الذي

(١) سورة الطور، الآيات ٣٥ - ٣٧.

خلقهم، وإذا تعين ذلك، علم أن الله تعالى هو المعبود وحده، الذي لا تنبغي العبادة ولا تصلح إلا له تعالى.

وقوله: ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾. وهذا استفهام يدل على تقرير النفي. أي: ما خلقوا السماوات والأرض، فيكونوا شركاء الله، وهذا أمر واضح جدًّا. ﴿بَل﴾ المكذبون ﴿لَا يُوقِنُونَ﴾. أي: ليس عندهم يقين يوجب لهم الانتفاع بالأدلة الشرعية والعقلية.

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾. أي: أعند هؤلاء المكذبين خزائن رحمة ربك، فيعطون من يشاءون ويمنعون من يشاءون؟ أي: فلذلك حجروا على الله أن يعطي النبوة عبده ورسوله محمدًا ﷺ، وكأنهم الوكلاء المفوضون على خزائن رحمة الله، وهم أحقر وأذل من ذلك، فليس في أيديهم لأنفسهم نفع ولا ضر، ولا موت ولا حياة ولا نشور. ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾(1).

﴿أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾. أي: المتسلطون على خلق الله وملكه بالقهر والغلبة؟ ليس الأمر كذلك، بل هم العاجزون الفقراء»(2).

ولا شك أن الاستخبار هنا يتضمن نفيًا وإنكارًا؛ فإنه من المعلوم لكل الناس أنهم لم يخلقوا أنفسهم، وأنهم لم يخلقوا العالم، وأنهم لا يملكون خزائن تمد الناس بالنعم والأرزاق، وأنهم لا يسيرون أمور الوجود، بل إنهم لا يملكون أن يسيطروا على أمورهم الخاصة؛ ومن ثم فإنه لا بد أن يكون الخالق هو الله، خلق الناس والوجود وعنده مقاليد كل شيء وخزائن كل شيء.

وفي موضع آخر يقول سبحانه وتعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾

(1) سورة الزخرف، آية ٣٢.

(2) تيسير الكريم الرحمن ٧/ ١٩٥.

ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ﴾[1].

فهذه الآيات تقرر أن السماوات والأرض وما فيها من مخلوقات، وأن الذي خلق هذه الأشياء كلها هو الله تعالى، وأنه جل شأنه يدبر هذا الوجود كله، فهو الذي يوجد ويعدم، ويعطي ويمنع، ويعز ويذل؛ لأنه عالم الغيب والشهادة، وهو العزيز الذي لا يغلب، الرحيم بخلقه، الذي أحسن كل شيء خلقه وأبدعه، وأنه بدأ خلق الإنسان من طين.

إن هذا الكون البديع، وما فيه من سماء وأرض، ومخلوقات متعددة يدل على أن له خالقًا ومبدعًا وهو الله تعالى، ثم ختم هذه الآيات بمفارقة صريحة تنم عن إنكار هذا الإنسان لوجود خالقه بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾[2]. فتقابلون هذا الصنيع بالإنكار والجحود.

فمن الواجب على من أنعم الله عليه بنعمة الوجود، وعلى من أمده بالنعم التي لا تحصى سواء نعمة الحياة والحركة، أو البصر والعقل - أن يشكر الله شكرًا كثيرًا في مقابل تلك النعم الكثيرة، ولكن الإنسان أكثر شيء جدلًا. وكان ظلومًا، فقابل النعمة العظمى بالشكر القليل، وتبدو المفارقة في التناقض بين ما يجب أن يكون من كثرة الشكر وبين ما كان من قلته.

وفي موضع آخر نرى الدلائل الواضحات على وجوده سبحانه، فقال تعالى: ﴿نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ ٥٧ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ٥٨ ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ٥٩ نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ٦٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ وَنُنشِئَكُمۡ فِي مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٦١ وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ فَلَوۡلَا تَذَكَّرُونَ ٦٢ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ ٦٣ ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ٦٤ لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ ٦٥ إِنَّا لَمُغۡرَمُونَ ٦٦ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ٦٧ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلۡمَآءَ ٱلَّذِي تَشۡرَبُونَ ٦٨ ءَأَنتُمۡ أَنزَلۡتُمُوهُ مِنَ ٱلۡمُزۡنِ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنزِلُونَ ٦٩ لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ ٧٠ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ٧١ ءَأَنتُمۡ أَنشَأۡتُمۡ شَجَرَتَهَآ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنشِـُٔونَ ٧٢ نَحۡنُ جَعَلۡنَٰهَا تَذۡكِرَةٗ وَمَتَٰعٗا لِّلۡمُقۡوِينَ ٧٣ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾[3].

(1) سورة السجدة، الآيات ٤ - ٧.

(2) سورة السجدة، الآية ٩.

(3) سورة الواقعة، الآيات ٥٧ - ٧٤.

هذه الآيات ذكرت للدلالة على أن الله قادر على البعث والنشور وإحياء الموتى من قبورهم للحساب والثواب والعقاب، كما تدل دلالة واضحة على أن هذا العالم مخلوق ومربوب لرب حكيم وخالق عظيم؛ لأن ما ذكر في هذه الآيات من المخلوقات مستند إليه، وحادث بقدرته وإرادته، وتتضح المفارقة من كون المخلوق العاجز عن خلق شيء ينكر وجود الخالق القدير على الرغم من وضوح الآيات الدالة على قدرته تعالى.

وتتبدى المفارقة على هذا النحو: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾. خَلْق الله للناس واضح يستوجب التصديق، لكن تصديقهم بعيد، فحضهم الله على التصديق: ﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾.

﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾: سؤال يتضمن إظهار التناقض بين ما يرونه من أن الله هو الخالق وعجزهم عن الخلق، ثم إنكارهم له. ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾: لم يقترن علمهم بالنشأة الأولى بالتذكر والاعتبار، ولهذا حضهم الله على التذكر: ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾: يسمي ابن فارس هذا النمط من الاستفهام (استخبارًا)، يقول: «الاستخبار – طلب ما ليس عند المستخبر، وهو الاستفهام وقد يكون مصطلح الاستخبار أصح فيما هو عن رب العزة». يقول ابن فارس: «والدليل على ذلك أن الباري جلَّ ثناؤه وصِف بالخبر ولم يوصف بالفهم» [(١)].

والصواب أن يستخدم فيما نسب لرب العزة مصطلح الاستخبار، وهو استخبار بياني ليس لطلب معرفة الخبر، بل لبيان ما يتضمنه من معنى، أو ما يراد للمستخبر أن يفهمه.

وقد أفاد السيوطي أن الاستفهام لا يكون لطلب فهم السائل، بل هو أيضًا لإفهام المسئول، يقول: «ولا يدع في صدور الاستفهام عمن يعلم المستفهم عنه؛ لأن طلب الفهم إما طلب فهم المستقيم، أو وقوع فهم لمن لا يفهم كائنًا من كان» [(٢)].

عرضنا لهذه القضايا؛ لأننا سنعرض لنماذج من هذا الاستخبار، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى؛ لأن استخدام مصطلح الاستخبار قد يبدو غريبًا، فكان علينا أن نوضحه. والاستخبار

(١) الصاحبي في فقه اللغة لابن فارس ص ١٨٦.

(٢) الإتقان في علوم القرآن ص ٢٩٢.

هنا بياني وتوبيخي، فهو لبيان أن الزارع الحق هو الله، وأنهم ليسوا إلا عباد الله الذي خلقهم وأفعالهم وكل موجود وكل فعل.

وهذا وما جاء بعده من استخبار، وهو مع الاتفاق على كونه استخبارًا، فإنه لكل دلالته، ففي قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾(1). استخبار يكشف عن قدرة الله التي لم يقابلها العباد من تسليم بأنه المعبود الحق وبالشكر الذي يجب لكل منعم.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾(2). استخبار يكشف عن قدرة الله ونعمة الخالق.

إن اجتماع خلق الماء وإنزاله من المزن، وخلق النار، يشيران إلى أن الله خالق ما في الكون جميعًا من متشابهات ومن متضادات.

كذلك تعرض القرآن لهذا الجانب في الحوار الذي دار بين موسى عليه السلام وفرعون، فأثبت به موسى وجود خالق مبدع لهذا الكون؛ يقول الله تعالى عن هذا الحوار: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾(3).

قدم موسى عليه السلام لفرعون في هذه الآيات الدليل تلو الدليل على وجود الله تعالى، وبيّن له الطريق الواضح لكن فرعون تجاهل هذا الحق، وتعالى على الأدلة وأنكرها بعدما استبان له قوتها ووضوحها، فأنكر على موسى دليله، وأعرض عما تدل عليه الفطرة السليمة، والعقل الصحيح، فقد استدل موسى على وجود الله بدلالة الصنعة على الصانع، والأثر على المؤثر، ولكن فرعون أعرض عن ذلك وركب رأسه، فَضَلَّ وأَضَلَّ، وفي هذا مفارقة صريحة

(1) سورة الواقعة، الآيتان ٦٨، ٦٩.

(2) سورة الواقعة، الآيتان ٧١، ٧٢.

(3) سورة الشعراء، الآيات ٢٤ - ٢٩.

بين ما هو واضح الدلالة وما هو قائم على العناد والمكابرة.

ومن هذا القبيل قوله سبحانه في خطابه لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٦١) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٢) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٦٣) وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٦٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾[1].

فهذه الآيات تكشف عن التناقض في موقف المشركين وتصوراتهم؛ فهم يقرون بخلق الله للسماوات والأرض، وتسخيره للشمس والقمر، وإنزاله الماء من السماء، وإحيائه الأرض بعد موتها، وما يتضمنه هذا من بسط الرزق لهم أو تضييقه عليهم، وهم يتوجهون لله وحده بالدعاء عند الخوف.. ثم هم بعد ذلك كله يشركون بالله، ويؤذون من يعبدونه وحده، ويفتنونهم عن عقيدتهم التي لا تناقض فيها ولا اضطراب، وينسون نعمة الله عليهم في تأمينهم في البيت الحرام، وهم يُروِّعون عباده في بيته الحرام، وكانوا إذا سئلوا عن خالق السماوات والأرض، ومسخر الشمس والقمر، ومنزل الماء من السماء، ومحيي الأرض بعد موتها بهذا الماء.. يقرون أن صانع هذا كله هو الله، ولكنهم مع هذا يعبدون أصنامهم، أو يعبدون الجن، أو يعبدون الملائكة، ويجعلونهم شركاء لله في العبادة، وإن لم يجعلوهم شركاء له في الخلق، وهذا تناقض عجيب، تناقض ينكره الله ويوبخ عليه فيقول: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾. أي: كيف يعزفون عن الحق إلى هذا التخليط العجيب؟ بل أكثرهم لا يعقلون فليس يعقل من يقبل عقله هذا التخليط![2].

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ

(١) سورة العنكبوت، الآيات ٦١ - ٦٧.

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب ٥/ ٢٧٩٤.

أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[(١)].

يقول سيد قطب في تفسيره: «أولئك الذين كانوا يواجهون عقيدة التوحيد بالشرك، ويقابلون دعوة رسول الله ﷺ بالجدل العنيف، لم يكونوا يستطيعون أن يزيفوا منطق فطرتهم حيث تواجه بالدليل الكوني الممثل في وجود السماوات والأرض، وقيامها أمام العين، لا تحتاجان إلى أكثر من النظر، ومن ثم لم يكونوا يتلجلجون في الجواب لو سئلوا: ﴿مَنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وجوابهم ﴿ٱللَّهُ﴾.. لذلك يوجه الله رسوله ﷺ ليعقب على جوابهم هذا بحمد الله: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الحمد لله على وضوح الحق في الفطرة، والحمد لله على هذا الإقرار القهري أمام الدليل الكوني، والحمد لله على كل حال، ثم يضرب عن الجدل والتعقيب بتعقيب آخر: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. ومن ثم يجادلون ويجهلون منطق الفطرة، ودلالة هذا الكون على خالقه العظيم»[(٢)].

وختام الآية بيان للأسباب التي جعلتهم لا يعملون بإقرارهم بأن الله هو الخالق وما يستوجبه هذا الإقرار من إيمان به تعالى. ويقول سبحانه: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾[(٣)].

فهذه الشواهد الثلاثة تدل بوضوح على مفارقة عجيبة في موقف الإنسان المكابر في عدم إيمانه بخالقه سبحانه وتعالى، بل إن هناك مواقف عملية تظهر فيها هذه المفارقة وهي تدعو إلى ضرورة الاعتراف بوجود الله تعالى، ويكون هذا الاعتراف نابعًا من داخل الإنسان؛ اعتراف واضح وإقرار صريح بربوبيته سبحانه، وأن بيده مقاليد الأمور كلها في الدنيا والآخرة، فهم لم يكونوا ينكرون وجود الله، ولكن انحراف الفطرة أعجزهم عن ربط المقدمات بالنتائج؛ لأن إدراك العلاقات يبين تلك الأمور.

وقد ختم سبحانه هذه الآية بقوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾. أي: كيف توجهون بعيدًا عن الحق

(١) سورة لقمان، آية ٢٥.

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب ٥/ ٢٧٩٤.

(٣) سورة يونس، الآيات ٣١ - ٣٢.

وهو واضح بيِّن تراه العيون؟[1].

وهو استخبار يتضمن تعجيبًا وإنكارًا لموقفهم اللاعقلي وتوبيخًا عليه، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾[3].

فهاتان الآيتان تدلان على أن هناك إيمانًا فطريًّا راسخًا، وعقيدته ثابتة في القلب تثبت أن هناك إلهًا خالقًا، مبدعًا لهذا الوجود، وأنه قادر على إزالة الضرر، ونجاة العبد إذا ما وقع في شدة أو كرب، وهذا الاقتضاء بالإيمان بالله تعالى دل على عدم اتخاذ الشريك والنّد له سبحانه.

وتتبدى المفارقة في أن هذا التسليم بقدرة الله - تعالى - على تفريج الكرب لم يردع الإنسان عن الغرور والمكابرة والإعراض عن طاعة الله.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[4].

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ٣/ ١٧٨٢.

(٢) سورة يونس، آية ١٢.

(٣) سورة الإسراء، آية ٦٧.

(٤) سورة المؤمنون، الآيات ٧٨ - ٩١.

وتتبدى المفارقات التي كشف عنها الخالق تعالى على النحو التالي:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾. إن النعم الكبرى لم تقابل إلا بشكر قليل، وهذا تناقض بين المقدمات والنتائج، فالذي يقدم لنا القليل نشكره كثيرًا، فكيف بمن وهبنا كل شيء لا نشكره إلا قليلًا؟!

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾. وقد جاء الاستخبار في نهاية الآية بقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾. أي: أيكون ما تعلمون من أن الله الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون، وأنه هو الذي يحيي ويميت، ثم لا تسلمون له وتقرون بالعبودية وتمارون.... إن ذلك ما لا يفعله عاقل.... وقد ختم الله تعالى هذه الآيات بدليل قاطع على ربوبيته ووحدانيته فقال: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾. وقال في سورة الأنبياء: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾[١].

وقد استنبط المتكلمون من الآية دليلًا على وحدانية الله يسمى (دليل التمانع)، فقالوا: «تفيد الآية أن العالَم لو كان له صانعان لم يجر تدبيرهما على نظام، ولكان العجز يلحقهما أو أحدهما، وذلك لو أراد أحدهما إحياء جسم وأراد الآخر إماتته فإما أن تنفذ إرادتهما فتتناقض؛ لاستحالة تجزؤ الفعل إن فرض الاتفاق، أو لامتناع الضدين إن فرض الاختلاف، وإما ألّا تنفذ إرادتهما فيؤدي إلى عجزهما، أو لا تنفذ إرادة أحدهما. فيؤدي إلى عجزه والإله لا يكون عاجزًا»[٢].

****

(١) سورة الأنبياء ٢٢ - ٢٣.

(٢) مباحث في علوم القرآن للقصبي محمود زلط ص ١٠٠.

المبحث الثاني

الإيمان بقدرة الله على الخلق الأول وإمكان البعث

وَرَدَ في القرآن الكريم العديد من الأدلة والبراهين على إمكانية البعث، وردّ حجج المنكرين له، وفَنَّدَ شبههم، وكان من أهم شبهات منكري البعث استحالة إيجاد الأشياء والكائنات بعد عدمها وفنائها، وقد ردّ عليهم القرآن وبرهن لهم أن هذا غير مستحيل؛ إذ إن من موجبات العقل أن إعادة الشيء الذي كان موجودًا ثم فني أسهل من إيجاده ابتداءً، فالله سبحانه وتعالى الذي أوجد الأشياء من العدم وأبرزها إلى الوجود بعد أن لم تكن شيئًا لا يستحيل عليه أن يعيدها مرة ومرة بعد فنائها، ويلاحظ أن الذي يبني بيتًا ثم يهدمه لا يستحيل عليه إعادة بنائه كما كان أو أفضل مما كان، والذي يخترع اختراعًا معينًا أو يركب جهازًا ما، لا يصعب عليه أن يعيده مرة أخرى إذا ما فرق أجزاءه أو كسره باختياره وإرادته.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الدليل في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾(1).

إذ احتج القرآن الكريم بالإبداء على الإعادة، وبالنشأة الأولى على النشأة الأخرى؛ إذ كل عاقل يعلم ضروريًا أن مَن قَدَر على هذه قَدَر على هذا، وأنه لو كان عاجزًا عن الثانية لعجز عن الأولى، بل كان أعجز وأعجز، ولما كان الخلق يستلزم قدرة الخالق على مخلوقه، وعلمه بتفصيل خلقه اتبع ذلك، فهو عليم بالخلق الأول وتفاصيل مواده وصورته، وكذلك عليم بالخلق الثاني، فإذا كان تام العلم كامل القدرة، فكيف يتعذر عليه أن يحيي العظام وهي

(1) سورة يس، الآيتان ٧٨، ٧٩.

رميم؟! وتشير الآية إلى التناقض في موقف المنكر لإعادة الخلق وهو تناقض مبني على مفارقة.....

وردّ السؤال يتضمن نوعًا من التهكم على هذا الذي لا يدرك البديهيات، ويستبعد اجتماع المؤتلفات، ومن ثم يقرر العزيز القدير قدرته تعالى على بدء الخلق وإعادته في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(1).

قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير هذه الآية: ﴿أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ يعني: أيسر عليه. وقال مجاهد: الإعادة أهون عليه من البداءة، والبداءة عليه هينة، وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني. وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولدًا. وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفوًا أحد**»(2).

وفي سورة الإسراء ما يجلي هذه الحقيقة؛ إذ يصور القرآن الكريم موقف الكفار من البعث، وإنكارهم له، فيقول سبحانه: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾(3).

والاستفهام يتضمن استبعادًا لإعادة الخلق، وهو استبعاد - مع وجود نقائضه - يكشف عن نوع من السذاجة والبله، ولهذا فإن التصريح بذلك يقترن بنوع من التهكم.

فالمنكرون للبعث تكاد شبهاتهم أن تكون متجانسة؛ لأنها تدور حول استبعاد جمع الأجزاء بعد تفرقها وإعادة الحياة إليها بعد فنائها، وهذه الشُّبه لا تكون إلا بالقدح في كمال علم الله المحيط بكل شيء، وكمال قدرته على كل شيء، وقد قام البرهان على كمال العلم

(1) سورة الروم، آية ٢٧.

(2) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، وانظر: مجلة البحوث الإسلامية، العدد: ٣٦ ص ٣١٨ وما بعدها، بحث لأحمد جلي، بتصرف

(3) سورة الإسراء الآيتان ٤٩، ٥٠.

والقدرة لله تعالى، فلا وجه للاستبعاد والاستغراب بعد ذلك، وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾[1].

يعني به أنكم مهما تفرقتم وعلى أية حال كنتم فالله قادر على بعثكم وإعادتكم، حتى لو تحولتم إلى حجارة أو حديد فإن الله قادر على إعادة الحياة إليكم مرة أخرى، مع أن المنافاة بين الحجرية والحديدية وبين قبول الحياة أشد من المنافاة بين العَظْم وبين قبول الحياة، وذلك أن العظم قد كان جزءًا من بدن الحي، أما الحجارة والحديد فما كانا البتة موصوفين بالحياة.

وفي قوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ استدلال بالنشأة الأولى على الثانية وهذا هو الشاهد من الآية. أما قولهم: ﴿مَتَىٰ هُوَ﴾. فهو سؤال فاسد كما ذكره الرازي، لأنهم حكموا بامتناع الحشر والنشر بناء على الشبهة التي حكيناها، ثم إن الله تعالى بَيَّنَ بالبرهان الباهر كونه ممكنًا في نفسه، فقولهم متى هو؟ كلام لا تعلق له بالبعث الأول، فإنه متى ثبت بالدليل العقلي كونه ممكن الوجود في نفسه وجب الاعتراف بإمكانه، فأما أنه متى يوجد؟ فذاك لا يمكن إثباته من طريق العقل، بل يمكن إثباته بالدلائل السمعية، فإن أخبر الله تعالى عن ذلك الوقت المعين عرف، وإلا فلا سبيل إلى معرفته[2].

وفي جانب آخر يعرض لنا القرآن الكريم هذا الاستبعاد مع وجوده في قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾[3].

فالقرآن الكريم يحاجّ الكافر والمنكر للبعث بإرجاعه إلى خلقه الأول، ومن أين نشأ؟ فيعرض له أصل خلقته، ثم يبين له أن الذي خلقه على هذه الطريقة والكيفية قادر على

(١) سورة الإسراء، الآيتان ٥٠، ٥١.

(٢) التفسير الكبير للرازي ٢٠/٢٢٦، ودراسات في التفسير الموضوعي د. زاهر الألمعي ص ٢٨٢ وما بعدها.

(٣) سورة الطارق، الآيات ٥ - ١٠.

إرجاعه حيًا كما كان وأعظم مما كان، وذلك يوم تبلى السرائر، وتعر ف العقائد والنيات الصالحة من الفاسدة، عندئذ ليس للكافر والمكذب بالبعث والحياة من قوة يدفع بها عن نفسه عذاب ربه، ولا ناصر ينصره فيخلصه من العذاب.

وفي المقام نفسه جاءت آيات سورة الغاشية لتدل أيضًا على حقيقة البعث بعد الممات، فتوجه أنظار الكفار إلى حقائق أمام أعينهم في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾[1]. والمعنى: أينكرون البعث والجزاء وما أعد الله لأوليائه من النعيم المقيم وما أعد لأعدائه من عذاب الجحيم؟ أفلا ينظرون نظرة اعتبار إلى الإبل كيف خلقت؟ وإلى السماء كيف رفعت؟ وإلى الجبال كيف نصبت؟ وإلى الأرض كيف سطحت؟ فهل خلق الإبل على تلك الصور العجيبة، وذاك التسخير لها وما فيها من منافع؛ إذ يشرب لبنها، ويركب ظهرها، ويؤكل لحمها - لا يدل على قدرة الخالق على إحياء الموتى؟ وهل خلق السماء بكواكبها وشمسها وقمرها، ثم رفعها بغير عمد يدعمها ولا سند يسندها - لا يدل على قدرة الله على بعث الموتى أحياء ليحاسبهم ويجزيهم؟ وهل نصب الجبال بعد خلق ترابها وإيجاد صخورها لا يدل على قدرة الله خالقها على بعث الرميم وإيجاد الأجساد البالية كيف شاء ومتى شاء؟ وهل خلق الأرض بكل ما فيها ثم بسطها وتسطيحها للحياة عليها والسير فوقها وتعميرها بأنواع العمران لا يدل على قدرة الله على البعث والجزاء؟ فما للقوم لا ينظرون ولا يفكرون؟

وفي موضع آخر جاءت الآيات من سورة الإنسان في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا﴾[2].

وتتمثل المفارقة في إنكار الإنسان للبعث وتسليمه بخلقه بعد أن لم يكن فهو دليل في

(١) سورة الغاشية، الآيات ١٧ - ٢٠.

(٢) سورة الإنسان، الآيات ٢٦ - ٣١.

غاية الوضوح والبيان ولا يحتاج إلى عمق في التفكير، ولا إلى بحث وتفتيش؛ إذ يكفي الإنسان أن يدرك كيف كان خلقه وكيف كان تكوينه، فإذا أدرك أن الله تعالى خلقه من نطفة، ثم مضغة ثم كونه خلقًا آخر إنسانًا في أحسن تقويم، فإذا أدرك هذا أدرك أن إعادته بعد موته أهون من بدئه.

وقد حكم القرآن الكريم على المنكرين للبعث بالجهل وعدم التسليم بحقيقة ذلك، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾(١).

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾(٢).

تشير هذه الآيات إلى نوع من المفارقة بين ما هو واقع بالفعل من تصور عند هؤلاء المنكرين، وبين ما يجب أن يكونوا عليه من التصديق بوقوع البعث بعد الممات، إذ القرآن يصور لنا ذلك بدليلين عقليين بمثابة الرد على هؤلاء المنكرين، يشاهدونهما:

أحدهما: الاستدلال بابتداء خلق الإنسان، وأن الذي ابتدأه سيعيده، فقال فيه: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾. وذلك بخلق أبي البشر آدم عليه السلام. ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾. أي: مني، وهذا ابتداء أول التخليق. أي: تنقلب تلك النطفة، بإذن الله، دمًا أحمر. ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ أي: ينتقل الدم مضغة، أي قطعة لحم، بقدر ما يمضغ. وتلك المضغة تارة تكون (مُخَلَّقَةٍ). أي: مصور منها خلق الآدمي. (وغير مخلقةٍ) تارة، بأن تقذفها الأرحام قبل تخليقها....

(١) سورة الجاثية، آية ٢٤.

(٢) سورة الحج، الآيات ٥ - ٧.

والدليل الثاني: إحياء الأرض بعد موتها، فقال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾. أي: خاشعة مغبرة لا نبات فيها ولا خضرة (١).

وهكذا نرى أن المنهج القرآني في إظهار زيف موقف المنكرين للبعث يقترن في بعض جوانبه بإظهار المفارقات التي يتضمنها موقفهم.. فالموقف الذي يتضمن مفارقة هنا هو الموقف الذي تتناقض عناصره بحيث إن المقدمة لا تقود إلى النتيجة، فإذا كانت المقدمة زائفة، كانت النتيجة زائفة، ولهذا فإن ادعاءهم أن العظام إذا بليت لا تعود إلى الحياة لا يقوم على رأي صحيح، بل هو رأي فاسد، بدليل أن الخالق القادر الذي أوجدها أول مرة من العدم قادر على أن يوجدها ويبعثها ويبث فيها الحياة.

****

(١) تيسير الكريم الرحمن للسعدي ٥/ ٣٧٥.

المبحث الثالث

التناقض بين التسليم بخلق السماوات والأرض لله وإنكار خلق الإنسان

مدار هذا البحث يقوم على مكابرة الإنسان الكافر وعناده وذلك بعدم إقراره بحقيقة خلقه - وهو خلق هين - وقبوله بخلق السماوات والأرض - وهي أعظم من خلقه - وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1].

فالله عز وجل يقرر في هاتين الآيتين أن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس وأعظم، ويبين أن القادر على خلق هذا الأمر الأعظم قادر على خلق الأمر الأدنى والأصغر، ومن ثم فإنه قادر على خلق الإنسان وإعادته؛ لأن ذلك أسهل وأيسر بحسب المقاييس البشرية من خلق السماوات والأرض. فإذا كان الله تعالى قادرًا على خلق السماوات والأرض وهي من أعظم المخلوقات، فقدرته على خلق الإنسان وإعادته من باب أولى، وهنا تأتي المفارقة في القدرة والتكوين، وهذا ما نجده في قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2]. فهو خير شاهد على ما ذكرنا.

ولا شك أن من كان قادرًا على خلق السماوات والأرض - وهما من المخلوقات العظيمة - قادرٌ على خلق الإنسان وإعادته بعد الموت؛ كي يلقى جزاءه في الآخرة ثوابًا على طاعته،

---

(١) سورة يس، الآيات ٨١ - ٨٢.

(٢) سورة غافر، آية ٥٧.

أو عقابًا على معصيته [(١)].

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَـٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾[(٢)].

وتتضمن الآيات دليلًا على تهافت موقف الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان من العلم أو سلطان من القوة، وتتمثل المفارقة في إقرارهم بأن خلق السماوات والأرض أكبر من خلقهم، وأن خالق السماوات والأرض قادر على خلق الناس، ثم إنكارهم خلق الله للناس، ولهذا كان تشبيه المجادل ضمنًا بالأعمى الذي لا يستوي بمن أضاء الله بصيرته.

فالله تعالى يخاطب كُفَّار مكة وقد نزلهم منزلة من لا يعلم، فضرب مثلًا لهم وللمؤمنين، فمثل الذين يجادلون في أمر البعث مع وضوح إمكانه مثل الأعمى، ومثل المؤمنين الذين آمنوا به حال البصير، وقد عُلم حال المؤمنين من مفهوم صفة أكثر الناس، لأن الأكثرين من الذين لا يعلمون يقابلهم أقلون يعلمون.

ويوضح هذا المفهوم كذلك قوله تعالى من سورة الأحقاف: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[(٣)].

فهو استدلال منه تعالى على الإعادة بعد الموت بما هو أبلغ منها، وهو أنه الذي خلق السماوات والأرض على عظمهما وسعتهما، واتفاق خلقهما مع عظمهما - دون إعياء يلحق من ذلك، فكيف تعجزه إعادتكم بعد موتكم وهو على كل شيءٍ قدير؟

ويتضمن الاستفهام نوعًا من الإنكار والتهكم القائم على زيف موقف هؤلاء الذين يرون البراهين الساطعة على قدرة الله تعالى ثم لا يسلمون بقدرته تعالى على بعث الناس للحساب.

(١) في الفكر الإسلامي لعوض الله حجازي وآخرين ص ٧٥.

(٢) سورة غافر، الآيات ٥٦ - ٥٨.

(٣) سورة الأحقاف، آية ٣٣.

وتتكرر الإشارات القرآنية التي تكشف عن مكابرة الجاهلين وعنادهم بحيث يظهر لهم وللناس فساد رأيهم ورؤيتهم، فالقادر على الخلق قادر على الإعادة، فإذا لم يكن ذلك كافيًا - وهو كاف - فإن البرهان الساطع الذي لا مراء فيه عند كل ذي نظر أن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس؛ سواء في ابتدائهم أو في إعادتهم، وهذا ما أشارت إليه الآية القرآنية في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[1].

****

(١) سورة الروم، آية ٢٧.

المبحث الرابع

حُبُّ اللهِ وَعَدمُ الشُّكْرِ على نعمائه

دعا القرآن الكريم الإنسان إلى محبة الله محبة تفوق كل ما في الكون مما تميل إليه نفسه وتشتهيه، مبينًا أن عباده المؤمنين ﴿أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾(١).

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾(٢).

ومحبته لا تقتصر على التلفظ بها فحسب، بل لا بد أن يتبع ذلك بالعمل والطاعة، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٣).

وهذه الآية الكريمة أعظم دليل على وجوب محبة الله ورسوله؛ وعلى تقديمهما على محبة كل شيء، وعلى الوعيد الشديد والمقت الأكيد على من كان شيء من المذكورات أحب إليه من الله ورسوله وجهاد في سبيله، وعلامة ذلك أنه إذا عُرض عليه أمران: أحدهما يحبه الله ورسوله، وليس لنفسه فيه هوى. والآخر تحبه نفسه وتشتهيه ولكنه يفوت عليه محبوبًا لله ورسوله أو ينقصه؛ فإنه إن قدَّم ما تهواه نفسه على ما يحبه الله؛ دل على أنه ظالم تارك لما يجب عليه(٤).

---

(١) سورة البقرة، آية ١٦٥.

(٢) سورة التوبة، آية ٢٤.

(٣) سورة آل عمران، آية ٣١.

(٤) تيسير الكريم الرحمن للسعدي ٣/ ٢١٤.

ونظرًا لأن محبة الإنسان لنفسه وتقديمها على محبة الله تورده مواطن الهلاك؛ فقد بيَّن القرآن ذلك؛ إذ إن محبة الإنسان لنفسه تتضح في ثلاثة محاور:

المحور الأول: حب الإنسان للمال.

المحور الثاني: حب الإنسان للنساء.

المحور الثالث: حب الإنسان للولد.

المحور الأول: حُبُّ الإنسان للمال

المال زينة الحياة الدنيا يصل الإنسان عن طريقه إلى ما يريد من زينة الحياة ومتاعها، ويشارك المال في هذه الصفة الأولاد، قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾[1].

وجعل الله تعالى أنواع المال من الذهب والفضة والخيل والأنعام والحرث من الشهوات التي أخبر أنها زينة للناس، فرغبتهم في الحصول عليها قوية شديدة، وحرصهم عليها عظيم كبير. قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾[2].

والمال فتنة افتتن الناس به، ليحصل الابتلاء والاختبار للناس في حياتهم، فهو الوسيلة إلى الإصلاح والإفساد، والخير والشر، والبر والفجور، وهو مثار التنازع والتنافس في كسبه وإنفاقه وكنزه وتداوله في المصالح والمنافع بين الناس، وهو ما زال مثيرًا للعدوان بين الأفراد والجماعات من الأقوام والدول، وأدى إلى التقاطع والتدابر حتى بين الآباء والأبناء والإخوة، وهو حلَّال المشكلات، وشفاء المعضلات.

فلا شك أن هذا البلاء فتنة، لصاحب المال نفسه، وكذا لغيره، فالغني فتنة للفقير حيث

(١) سورة الكهف، آية ٤٦.

(٢) سورة آل عمران، آية ١٤.

يراه ويشاهده يتمتع بهذه النعم وهو عاجز عنها، فهل يصبر أو لا؟ قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾(١).

وقد تصل فتنة المال بالإنسان إلى عبادته له بسعيه في الحصول عليه من كل طريق، وقبض اليد عن الإنفاق فيما أوجب الله تعالى، وقد أخبر الله عز وجل في كتابه الكريم عن كون المال فتنة، لكي يحذر المؤمنين من الافتتان به، وجاء ذلك مقترنًا بفتنة الأولاد: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾(٢).

وقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾(٣).

إذًا ربما دفع حب الأولاد والسعي لطلب الرزق لهم إلى عدم الاتقاء في هذا الكسب فتحصل الفتنة، ومن هنا كانت المفارقة في أداة الحصر الواقعة في آيتي الأنفال والتغابن.

فالإنسان يلهث في هذه الحياة سعيًا لجمع المال وكنزه، وقد يكون بطريق مشروع، وقد يكون بغير ذلك، لذلك فالله في بيانه لفطرة الإنسان لم يكبت هذا الشعور في جني المال، إنما دعا الإنسان إلى تنظيمه وضبطه بحيث لا يتعدى حدود المأمور به.

والمفارقة فيما يتصل بالمال أن المال من عند الله سبحانه وتعالى، ومن ثم فإن العطية لا تصرف عن الاعتراف للمعطي بالفضل، بل توجب الشكر على هذه العطية. وفي هذا يقول سبحانه: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾(٤).

فقد امتن الله عز وجل على عباده، فأذن لهم أن يأكلوا مما رزقهم من الحلال الطيب ويشكروه على ذلك بعبادته وحده، وهذا شأن من يعبد الله تعالى وحده، فإنه يشكره على ما

(١) سورة الفرقان، آية ٢٠. وانظر: المال في القرآن دراسة موضوعية لسليمان الحصين ص ٣٢ وما بعدها.

(٢) سورة الأنفال، آية ٢٨.

(٣) سورة التغابن، آية ١٥.

(٤) سورة النحل، آية ١١.

أنعم به عليه، وفي مقابل هذا الامتنان يأتي العكس، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾[1]. أي: أقدرناكم على أمور ألزمناكم بها وخولنا لكم التصرف في مخلوقاتها، وذلك بما أودع الله في البشر من قوة العقل والتفكير التي أهّلته لسيادة هذا العالم والتغلب على مصاعبه، وجعلنا لكم فيها ما تعيشون به من الطعام والشراب، ولكن شكركم لله قليل، ومن هنا تأتي المفارقة؛ إذ الشكر على نعم الله يتفق والمنهج السليم، ويوجبه العقل، وعدم الشكر عليها جهل وسفه، وفي هذا مفارقة، فمحبة الإنسان للمال يجب ألّا تشغله عن واهب المال ولا أن تصرفه عن شكر الله على ما وهبه له منه، لكن كثيرًا من الناس يشغلهم حب نعم الله عن الله، ويلهيهم القريب الزائل عن البعيد الخالد. قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾[2]. فهذه الآية واقعة موقع الاستدراك على قوله: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾[3].

أي: أن تأخير العذاب عنهم هو من فضل الله عليهم، وهذا خبر خاص بالنبي ﷺ تنبيهًا على أن تأخير المواعيد أثر من آثار رحمة الله؛ لأن أزمنة التأخير أزمنة إمهال، فهم فيها بنعمة لأن الله ذو فضل على الناس كلهم، لكن أكثرهم لا يشكرون، وهذا استدراك ناشئ عن عموم الفضل منه تعالى، فإن عمومه وتكرره يستحق أن يعلمه الناس فيشكروه ولكن أكثر الناس لا يشكرون كهؤلاء الذين قالوا: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾؟ فإنهم يستعجلون العذاب تهكمًا وتعجيزًا في زعمهم غير مقدرين قدر نعمة الإمهال.

وفي سورة يس جاءت الآية من قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾[4].

فآية الله هنا مشهودة منظورة بين أيديهم ليست غائبة ولا بعيدة، ولا غامضة تحتاج إلى

(١) سورة الأعراف، آية ١٠.

(٢) سورة النمل، آية ٧٢.

(٣) سورة النمل، آية ٧٤.

(٤) سورة يس، الآيات ٣٣ - ٣٥.

تدبر أو تفكير.. إنها هذه الأنعام التي خلقها الله لهم وملَّكهم إياها، وذلَّلها لهم يركبونها، ويأكلون منها، ويشربون ألبانها، وينتفعون بها منافع شتى.. وكل ذلك من قدرة الله وتدبيره. ومن إيداعه ما أودع من الخصائص في الناس وفي الأنعام، فجعلهم قادرين على تذليلها واستخدامها والانتفاع بها، وجعلها مذلَّلة ملبية لشتى حاجات الإنسان، وما يملك الناس أن يضعوا من ذلك كله شيئًا، وما يملكون أن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا له، وما يملكون أن يذللوا ذبابة لم يركِّب الله في خصائصها أن تكون ذلولًا لهم! ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾.

وحين ينظر الإنسان إلى هذا الأمر بهذه العين، وفي هذا الضوء الذي يشيعه القرآن الكريم؛ فإنه يحس لتوه أنه مغمور بفيض من نعم الله، فيض يتمثل في كل شيء حوله، وتصبح كل مرة يركب فيها دابة، أو يأكل قطعة من لحم، أو يشرب جرعة من لبن، أو يتناول قطعة من سمن أو جبن، أو يلبس ثوبًا من شعر أو صوف أو وبر... إلخ؛ لمسة وجدانية تشعر قلبه بوجود الخالق ورحمته ونعمته، ويطَّرد هذا في كل ما تمس يده من أشياء حوله... ولكن الناس لا يشكرون، وفيهم من اتخذ مع هذا كله آلهة يحميها من أن يعتدي عليها معتد أو يصيبها بسوء، فكانوا هم جنودها وحماتها المُعَدِّين لنصرتها، وكان هذا غاية في سخف التصور والتفكير»(1).

وأخيرًا جاء قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤۡفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلۡحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾(2).

يقول سيد قطب في معرض تفسيره لهذه الآيات: «والليل والنهار ظاهرتان كونيتان،

(1) في ظلال القرآن لسيد قطب ٥/ ٢٩٧٥.

(2) سورة غافر، الآيات ٦١ – ٦٥.

والأرض والسماء خلقان كونيان كذلك، وهو تذكر مع تصوير الله للبشر وإحسان صورهم، ومع رزق الله لهم من الطيبات، وتعرض كلها في معرض نعم الله وفضله على الناس، وفي معرض الوحدانية وإخلاص الدين لله. فيدل هذا على ارتباط هذه الظواهر والخلائق والمعاني، وعلى وجود الصلة بينها، ووجوب تدبرها في محيطها الواسع، وملاحظة الارتباط بينها والاتفاق...»[(١)].

ثم استطرد بقوله: فهذه كلها أمور مرتبطة متناسقة.. ومن ثم يذكرها القرآن في مكان واحد، بهذا الترابط، ويتخذ منها برهانه على وحدانية الخالق، ويوجه في ظلها القلب البشري إلى دعوة الله وحده، مخلصًا له الدين، هاتفًا: الحمد لله رب العالمين، ويقرر أن الذي يصنع هذا ويبدعه بهذا التناسق هو الذي يليق أن يكون إلهًا، وهو الله رب العالمين، فكيف يصرف الناس عن هذا الحق الواضح المبين؟[(٢)] وفي هذا مفارقة صريحة.

المحور الثاني: حُبُّ الإنسانِ للنِّساء

تعد النساء شهوة قوية من شهوات النفس الإنسانية، فالميل إلى النساء أمر مركوز في الطبع، وضعه الله لحكمة بقاء النوع بداعي طلب التناسل؛ إذ المرأة هي موضع التناسل، فجعل ميل الرجل إليها في الطبع حتى لا يحتاج بقاء النوع إلى تكلف ربما تعقبه سآمة، وفي الحديث: «**ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء**»[(٣)]. ولذا يقول سبحانه: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾[(٤)].

فالنساء محل الشهوة، وهي فتنة للرجال فبدأ الله تعالى بهن، لكن جاء التحذير من هذه

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ٥/ ٣٠٩٢.

(٢) المرجع السابق.

(٣) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب ما يتقى من شؤم المرأة، وتفسير التحرير والتنوير لابن عاشور ٣/ ١٨١.

(٤) سورة آل عمران، آية ١٤.

المحبة إذا تعدت مرحلة لا ينبغي لها أن تتعداها، وقد وصفت بكونها عدوًّا، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ﴾(1).

فالأزواج والأولاد قد يكونون مشغلة وملهاة عن ذكر الله، كما أنهم قد يكونون دافعًا للتقصير في تبعات الإيمان اتقاءً للمتاعب التي تحيط بهم لو قام المؤمن بواجبه فلقي ما يلقاه المجاهد في سبيل الله، والمجاهد في سبيل الله يتعرض لخسارة الكثير والتضحية الكثيرة، كما يتعرض هو وأهله للعنت، وقد يحتمل العنت في نفسه ولا يتحمله في زوجه وولده، فيبخل ويجبن ليوفر لهم الأمن والاستقرار أو المتاع والمال، فيكونون عدوًّا له؛ لأنهم صدوه عن الخير، وعوقوه عن تحقيق غاية وجوده الإنساني العليا، كما أنهم يقفون له في الطريق يمنعونه من النهوض بواجبه، اتقاءً لما يصيبهم من جرائه، أو لأنهم قد يكونون في طريق غير طريقه، ويعجز هو عن المفاصلة بينه وبينهم والتجرد لله. وهي كذلك صور من صور العداوة متفاوتة الدرجات... وهذه وتلك مما يقع في حياة المؤمن في كل آن (2).

وفي هذا مفارقة بين حبه تحقيق شهوته من النساء وبين كون هذه الشهوة قد تؤدي به إلى الوقوع في المزالق والمتاهات التي تجره إلى محبة شهوته وتقديمها على محبة الله من طاعته واتباع أوامره.

فالواجب على الإنسان ألا يشغله هذا الحب عمن وهبه هذا الحب، ولا أن يصرف عن شكر الله على ما وهب له من هذه النعم، لكن كثيرًا من الناس يشغلهم حب نعم الله ويلهيهم القريب الزائل عن البعيد الخالد.

المحور الثالث: حب الولد

جعل الله سبحانه وتعالى محبة الأبناء فطرية؛ إذ جعل الله في الوالدين من الرجال والنساء شعورًا وجدانيًا بأن الولد قطعة منهما، وليكون ذلك مدعاة إلى المحافظة على الولد الذي هو جيل المستقبل، وببقائه بقاء النوع، فبقاء النوع يحفظ من الاضمحلال العارض على النوع

(1) سورة التغابن، آية ١٤.

(2) في ظلال القرآن لسيد قطب ٦/ ٣٥٨٩.

بالاعتداء على الضعيف؛ لأن الإنسان يعرض له الضعف بعد القوة، فيكون ولده دافعًا عنه عدوان من يعتدي عليه، فكما دفع الوالد عن ابنه في حال ضعفه، يدفع الولد عن الوالد في حال ضعفه، ولعلَّ آيتي آل عمران والكهف تصدقان ما ذكرناه من محبة الإنسان للولد من قوله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾(١). وقوله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾(٢).

وقد تكون هذه المحبة فتنة للإنسان، وبخاصة إذا كانت المفاضلة أو التقديم على محبة الله ورسوله ﷺ، وفي هذا مفارقة بين فطرية الإنسان وما يجب أن يكون عليه تجاه خالقه، وفي هذا يقول سبحانه وتعالى مبينًا أثر ذلك: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾(٣).

فقد جمعتْ هذه الآية أصنافًا من المحبوبات من شأنها أن تألفها النفوس، وترغب في القرب منها وعدم مفارقتها، فإذا كان الثبات على الإيمان يجر إلى هجران بعضها كالآباء والإخوان الكافرين وكالأبناء والأزواج والعشيرة الذين يألف المرء البقاء بينهم، فلعل ذلك يقعده عن الغزو. والأموال والتجارة التي تصد عن الغزو، وعن الإنفاق في سبيل الله، وكذلك المساكن التي يألف المرء الإقامة فيها، فيصده إلفها عن الغزو، فإذا حصل التعارض والتدافع بين ما أراده الله من المؤمنين وبين ما تجر إليه تلك العلائق وجب على المؤمن دحضها وإرضاء ربه(٤).

فالواجب على الإنسان ألا يشغله محبته للولد - وهي نعمة عظيمة - عن واهبها له وهو الله تعالى.

---

(١) سورة آل عمران، آية ١٤.

(٢) سورة الكهف، آية ٤٦.

(٣) سورة التوبة، آية ٢٤.

(٤) في ظلال القرآن لسيد قطب ٣/ ١٦١٥ بتصرف.

المبحث الخامس

الاغْتِرَارُ بالدُّنْيَا

يعرض القرآن الكريم حالة الإنسان في هذه الحياة مبينًا غروره بها، ظنًّا منه أنه خالد مخلد، يكد ويكدح متجاهلًا ومتناسيًا أنها زائلة لا محالة، وفي هذا الصدد تعرض الآيات موقف الإنسان تجاه الحياة الدنيا. قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾[1]. وقوله أيضًا: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[2].

فالله تعالى يذكر أنه هو الذي يوسع الرزق على من يشاء، ويقتر على من يشاء؛ لما له في ذلك من الحكمة والعدل، وفَرِحُ هؤلاء الكفار بما أوتوا من الحياة الدنيا استدراج لهم وإمهال كما قال: ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾[3]. ثم حقَّر الحياة الدنيا إلى ما ادخره تعالى لعباده المؤمنين في الدار الآخرة فقال: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾[4]. كما قال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾[5].

---

(١) سورة الرعد، آية ٢٦.

(٢) سورة العنكبوت، آية ٦٤.

(٣) سورة المؤمنون، آية ٥٦.

(٤) سورة الرعد، آية ٢٦.

(٥) سورة النساء، آية ٧٧.

وقال: ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾[1].

وجاءت آية آل عمران لتجلي هذه الحقيقة، وتوضح المفارقة بين الاغترار بالحياة الدنيا وبين مآل الإنسان إلى الآخرة وتوفيه، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[2].

فالآية تسلية للنبي ﷺ ولأمته عن الدنيا وأهلها، ووعد بالفلاح في الآخرة، فبالتفكر في الموت يهون أمر الكفار وتكذيبهم.

والمعنى: كل نفس مخلوقة حية قد حكم عليها بالموت لا محالة، فلماذا الاغترار بملذات الدنيا وشهواتها وما فيها من زينة وزخارف هي لا محالة زائلة؟! ولهذا شبه سبحانه الدنيا بالمتاع الذي يدلس به على من يريده، وله ظاهر محبوب وباطن مكروه[3]، ووصف الله الدنيا بالمتاع؛ نظرًا لقصر الفترة الزمنية التي يعيشها الإنسان، فوصفت بالمتاع في مقابل الآخرة، أيضًا مجيئها بهذا الوصف بصيغة التعجب - هي وغيرها من الآيات - من نظر الإنسان إلى الشيء الفاني المضمحل واغتراره به دون تطلعه إلى الشيء الباقي الدائم، وفي هذا مفارقة عجيبة في نفسية الإنسان الكافر على وجه الخصوص.

ويصدق ذلك الخبر الوارد عن الصادق ﷺ: «**موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها. واقرءوا إن شئتم:** ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾»[4].

قال الخازن في تفسيره: «إن العيش في هذه الدنيا الفانية يغر الإنسان بما يمنيه من طول البقاء وسينقطع عن قريب، فوصفت بأنها متاع الغرور؛ لأنها تغر ببذل المحبوب وتخيل للإنسان أنه يدوم وليس بدائم»[5].

---

(١) سورة الغاشية، الآيتان ١٦، ١٧.

(٢) سورة آل عمران، آية ١٨٥.

(٣) روح المعاني للألوسي ٤/ ١٤٥، وفتح القدير للشوكاني ١/ ٤٠٨.

(٤) رواه الترمذي في سننه ٥/ ٢٣٢، وقال أبو عيسى: حديث حسن صحيح.

(٥) لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ١/ ٤٦١.

الفصل الثاني

الرسول والرسالة

ويتضمن المباحث التالية:

المبحث الأول: بشرية الرسول واستبعاد بعضهم موته.

المبحث الثاني: موقف اليهود من الرسالة والرسول.

المبحث الثالث: ادعاء اليهود طاعة أنبيائهم واعتداؤهم عليهم.

المبحث الرابع: موقف بعض الأمم من أنبيائهم.

المبحث الأول

بَشَرِيَّةُ الرَّسُولِ واسْتِبْعَادُ بَعْضِهِم مَوته

شاءت حكمة الله السامية أن يَخْلُقَ الجنَّ والإِنْسَ لِيَعْبُدُوه سبحانه، ومصداقه قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾(١).

وعبادة الله تعالى دون شريك تعني أن يوحده العباد التوحيد الخالص الحق، وقد أرسل الله الرسل والأنبياء لهداية الناس لعبادته وتوحيده، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾(٢). وقوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾(٣).

وقد شاءت حكمة الله تعالى أن يكون الرسل بشرًا، تحقيقًا لمصداقية الرسالة، وحتى لا تكون للناس حجة، وقد بين القرآن الكريم على وجه الخصوص أن النبي محمدًا ﷺ بشر رسول، قد بعثه الله ليخرج الناس من الظلمات إلى النور في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾(٤).

قال ابن جرير الطبري: «يقول تعالى ذكره: قل لهؤلاء المشركين يا محمد: إنما أنا بشر

---

(١) سورة الذاريات، آية ٥٦.

(٢) سورة النحل آية ٣٦.

(٣) سورة الأنبياء، آية ٢٥.

(٤) سورة الكهف، آية ١١٠.

مثلكم من بني آدم، لا علم لي إلا ما علمني الله، وإن الله يوحي إليَّ أن معبودكم الذي يجب عليكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، معبود واحد لا ثاني له ولا شريك»(١).

كانت هذه الصفة المطردة صفة لازمة في كل الرسل قبله، مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾(٢).

قال ابن عطية في تفسيره: «المعنى: صدقتم في قولكم. أي: بشر في الأشخاص والخلقة، ولكن تباينا بفضل الله تعالى ومنه الذي يختص به من يشاء، ففارقوهم في المعنى، بخلاف قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾(٣). فإن ذلك في المعنى لا في الهيئة(٤).

فقد أنكر كفار مكة على الرسول محمد ﷺ أن يكون بشرًا مثلهم، وفي هذا يقول سبحانه مبينًا اعتراضهم: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾(٥).

ويكشف موقف الكفار عن مفارقة؛ حيث إن مصداقية الرسول أن يكون من جنس المدعوين لا أن يكون من جنس غير جنسهم.

وقوله: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾(٦).

في هذا مفارقة بين اصطفاء الرسول من البشر وبين اعتراضهم على اختياره من جنسهم البشري، مصداق هذا أنهم طلبوا تأييده بملك من السماء يكون معه دليلًا على رسالته، ولهذا وضح القرآن الكريم خطأ ذلك، وأنه لو تم فليس لهم حجة في الاعتراض، بل العقوبة

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن لابن جرير الطبري ١٦/ ٣٩.

(٢) سورة إبراهيم، آية ١١.

(٣) سورة المدثر، رقم ٥٠.

(٤) المحرر الوجيز لابن عطية ٨/ ٢١٣.

(٥) سورة الإسراء، آية ٩٤.

(٦) سورة الأنبياء، آية ٣.

جزاؤهم، بل لو كانت هناك استجابة لدعواهم، لوجب أن ينسلخ الملك ليكون رجلًا من جنسهم يكلمهم ويكلمونه، وفي هذا يقول تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ٨ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[1].

فالتسليم ببشرية الرسول يتضمن - عقلًا ومنطقًا وشكلًا وموضوعًا - التسليم بأنه يموت ككل البشر، لكننا نجد رغم ذلك من يستبعد موت الرسول، ولهذا نجد أن القرآن الكريم يشير إلى ذلك الموقف بقوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[2].

وهذا اعتراض على موته مع التسليم ببشريته، وفيه مفارقة صريحة.

قال أبو السعود: «وقيل هو قصر إفراد، فإنهم لما استعظموا عدم بقائه - عليه الصلاة والسلام - لهم نُزِّلُوا منزلة المستبعدين لهلاكه، كأنهم يعتقدون فيه - عليه الصلاة والسلام - وَصْفَيْن: الرسالة، والبعد عن الهلاك. فرد عليهم بأنه مقصور على الرسالة لا يتجاوزها إلى البعد عن الهلاك، فلا بد حينئذ من جعل قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ كلامًا مبتدأ مسوقًا لتقرير عدم براءته - عليه الصلاة والسلام - من الهلاك، وبيان كونه أسوة لمن قبله من الرسل عليهم السلام، وأيًا ما كان فالكلام لا يخرج على خلاف مقتضى الظاهر»[3].

لقد أخبر العلي القدير الحي المميت أن جميع البشر ميتون بما فيهم رسول الله، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[4]. وقوله سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ٣٤ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[5].

ويكشف الاستخبار عن تهافت حجة المتمارين المتفيهقين سفهًا وجهالةً ولجاجًا.

(١) سورة الأنعام، الآيتان ٨، ٩.

(٢) سورة آل عمران، آية ١٤٤.

(٣) تفسير أبي السعود ٢/ ٩٢.

(٤) سورة الزمر، آية ٣٠.

(٥) سورة الأنبياء، الآيتان ٣٤، ٣٥.

التسليم ببشرية الرسول وطلبهم أمورًا فوق طاقته البشرية:

إن التسليم ببشرية الرسول يتضمن ألا يطلب من الرسول أمور تتجاوز حدود البشر، ولكن هناك من طلب ذلك: إما عنادًا أو استكبارًا، وإما جهلًا وسفهًا ولجاجًا.

وقد أوضح القرآن الكريم في آياته ما يتصف به الرسول محمد ﷺ من كونه بشرًا قد اصطفاه الله من الناس ليبلِّغ عن الله ما أنزل إليه، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[2]. وقال سبحانه: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[3].

وقال في سورة الجمعة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[4].

ومع هذا فقد اعترض كفار مكة على هذا الاصطفاء مبينين وجه اعتراضهم بطلبهم أمورًا خارجة عن قدرته وإرادته بكونه بشرًا، وفي هذا التسليم والاعتراض مفارقة بين أمرين: التسليم بكونه بشرًا، وطلبهم تحقيق ما يتعارض مع بشريته، وقد دفع القرآن الكريم هذا الاعتراض بقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾[5]. أفبعد هذا دليل على مصداقية الرسالة لكل ذي عقل يعي...

---

(١) سورة آل عمران، آية ١٦٤.

(٢) سورة التوبة، آية ١٢٨.

(٣) سورة البقرة، آية ١٥٢.

(٤) سورة الجمعة، آية ٢.

(٥) سورة الأنعام، آية ٥٠.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[1]. بيان واضح للمنهج، فالرسول كغيره من الرسل: بشر يوحى إليه، أرسله الله لينذر قومه ويهديهم. وقوله عز وجل: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾[2].

وكان هذا الاعتراض من كفار مكة مبالغة منهم في العناد والتحدي وعدم الإذعان لقبول ما يطلبه منهم بوصفه رسولًا مبلغًا عن الله.

قال سيد قطب في معرض تفسيره لآية الأنعام: «لقد كان المعاندون من قريش يطلبون أن يأتيهم رسول الله ﷺ بآية من الخوارق يصدقونه بها - وهم كانوا يعلمون صدقه ولا يشكُّون فيه - وتارة كانوا يطلبون أن تكون هذه الآية تحويل الصفا والمروة ذهبًا! وتارة تكون إبعادهما عن مكة ليصبح مكانهما خصبًا مخضرًا بالزرع والثمار، وتارة تكون إنباءهم بما سيقع لهم من أحداث مغيبة! وتارة تكون طلب إنزال ملك عليه! وتارة تكون طلب كتاب مكتوب في قرطاس يرونه يتنزل عليه من السماء.. إلى آخر هذه المطالب التي يوارون وراءها تعنتهم وعنادهم! ولكن هذه المطالب كلها إنما كانوا يصوغون فكرتها من تلك الأوهام والأساطير التي أحاطت بصورة النبوة، وصورة النبي في الجاهليات من حولهم، وأقربها إليهم أوهام أهل الكتاب وأساطيرهم حول النبوة بعدما انحرفوا عما جاءتهم به رسلهم من الحق الواضح في هذه الأمور... فالرسول ﷺ يؤمر من ربه أن يقدم لهم نفسه بشرًا مجردًا من كل الأوهام التي سادت الجاهليات عن طبيعة النبي والنبوة، وأن يقدم لهم كذلك هذه العقيدة بذاتها مجردة من كل إغراء... لا ثراء... ولا ادعاء... إنها عقيدة يحملها رسول لا يملك إلا هداية الله تنير له الطريق!»[3].

---

(١) سورة الأحقاف، آية ٩.

(٢) سورة الجن، الآيات ٢١ - ٢٣.

(٣) في ظلال القرآن لسيد قطب ٢/ ١٠٩٥.

التسليم ببشرية الرسول والاعتراض على اختياره:

إن التسليم ببشرية الرسول يتضمن الاعتراف باختياره رسولًا من جنسهم وإن لم يكن من طبقتهم أو عشيرتهم، وفي هذا مفارقة تضمنت التناقض بين الموقفين، وهذا ما حصل من اعتراض كفار مكة حسدًا منهم عندما اصطفى الله الرسول محمدًا ﷺ من بني هاشم، والاعتراض من يهود المدينة عندما اصطفى الله رسوله محمدًا ﷺ من قريش، والقرآن الكريم يصور هذا الاعتراض وعدم التسليم فيما وصفه كفار مكة للنبي محمد ﷺ بكونه مرة ساحرًا، ومرة كاهنًا، ومرة شاعرًا، وقد قرعهم القرآن الكريم مبينًا أنه رسول يوحى إليه من الله تعالى، علاوة على ذلك فاليهود كانوا يعتقدون أن الرسول الذي ورد ذكره في التوراة يجب أن يكون منهم، ولما جاء ذلك مختلفًا لما اعتقدوه عابوا ذلك، فقال القرآن الكريم عنهم: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾(١).

وفي كل مفارقة بين تسليمهم ببشريته واعتراضهم على اختياره رسولًا من غير طبقتهم أو عشيرتهم بالنسبة لكفار مكة، أو ليس من جنسهم بالنسبة لليهود.

وعندما يخبرنا القرآن الكريم عن حالهم فإنه يسوق الرد في موضع التبكيت والتقريع كما في قوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَـٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾(٢).

فكفار مكة اعترضوا على اختيار الله لمحمد ﷺ ليحمل إليهم الحق والنور، فقالوا: هلّا ﴿نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ﴾. أي: من إحدى القريتين وهما مكة والطائف. ﴿عَظِيمٍ﴾.

(١) سورة الأنعام، آية ٩١.

(٢) سورة الزخرف، الآيات ٢٩ - ٣٢.

يعنون بعظمته كثرة ماله وعظم جاهه، وعلو منزلته في قومه، وإيضاح الآية أن الكفار أنكروا أولًا أن يبعث الله رسولًا من البشر، ثم لما سمعوا الأدلة على أن الله لم يبعث إلى البشر رسولًا إلا من البشر تنازلوا عن افتراضهم إرسال رسول من الملائكة إلى اقتراح آخر، وهو اقتراح تنزيل هذا القرآن على أحد الرجلين:

عظيم مكة الوليد بن المغيرة، وقيل: عتبة بن ربيعة. وعظيم الطائف: عروة بن مسعود، وقيل: حبيب بن عمرو، وقيل: كنانة بن عبد ياليل، وقيل غير ذلك. وهذا الاقتراح يدل على شدة جهلهم وسخافة عقولهم؛ حيث يجعلون كثرة المال والجاه في الدنيا موجبًا لاستحقاق النبوة وتنزيل الوحي. لذا زعموا أن محمدًا ﷺ ليس أهلًا لإنزال هذا القرآن عليه؛ لقلة ماله، وأن أحد الرجلين المذكورين أحق أن ينزل عليه القرآن منه ﷺ، وقد بين تعالى في هذه الآية الكريمة شدة جهلهم وسخافة عقولهم بقوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾. والظاهر المتبادر أن المراد برحمة ربك: النبوة وإنزال الوحي [1].

فرد عليهم مستنكرًا هذا الاعتراض على رحمة الله، التي يختار لها من عباده من يشاء، وعلى خلطهم بين قيم الأرض وقيم السماء، مبينًا لهم عن حقيقة القيم التي يعتزون بها، ووزنها الصحيح في ميزان الله: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[2].

فلقد اختار لها من يعلم أنه لها أهل، ولعله سبحانه لم يشأ أن يجعل لهذه الرسالة سندًا من خارج طبيعتها، ولا قوة من خارج حقيقتها، فاختار رجلًا ميزته الكبرى الخُلُق وهو من طبيعة هذه الدعوة، وسمته البارزة التجرد وهو من حقيقة هذه الدعوة، ولم يختره زعيم قبيلة، ولا رئيس عشيرة، ولا صاحب جاه، ولا صاحب ثراء؛ كي لا تلتبس قيمة واحدة من قيم هذه الأرض بهذه الدعوة النازلة من السماء[3].

وقد أنكر عليهم القرآن هذا الطلب في غير ما موضع منه، من ذلك قوله تعالى في سورة

(١) أضواء البيان للشنقيطي ٧/ ٢٤١.

(٢) سورة الأنعام، آية ١٢٤.

(٣) في ظلال القرآن لسيد قطب ٥/ ٣١٨٦.

الأنعام: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾[1]. ثم توعدهم على ذلك بقوله: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ﴾[2].

ولدى التأمل في مواقف هؤلاء المعاندين من رسلهم نجد اعتراضهم الصريح على كون الرسل بشرًا مثلهم، ومثل ذلك ما حصل مع نوح وقومه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾[3].

وحدث نفس الموقف من قوم صالح، يقول تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾[4].

وهكذا تتوالى الاعتراضات من الأمم السابقة على رسلهم في كونهم بشرًا مثلهم، وفي هذا يقول الله عز وجل على لسانهم: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[5].

---

(١) سورة الأنعام، آية ١٢٤.

(٢) سورة الأنعام، آية ١٢٤، وانظر: أضواء البيان ٧/ ٢٤٤.

(٣) سورة هود، الآيات ٢٥ - ٢٧.

(٤) سورة القمر، الآيتان ٢٣ - ٢٤.

(٥) سورة إبراهيم، الآيات ٨ - ١١.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾(١).

وفي هذا يبين القرآن أن هؤلاء الرسل هم من جنسهم يأكلون مما يأكلون لا اختلاف بينهم: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾(٢).

وهكذا نرى المفارقات المتتابعة في موقف هؤلاء المعاندين المتكبرين الجاهلين، موقف يفتقد المصداقية وينطلق من السفه والجهل واللجاجة، فالحجة واهية في مقابل حجة العلي القدير، تلك الحجة الناصعة الساطعة، ولما كان من البديهي أن يقبل الناس ما يقبله كل ذي عقل صحيح وطبع سليم، فإن عدم قبول هؤلاء الناس يكشف عن مفارقة وتناقض بين ما يجب أن يكون من تسليم وتصديق، وما هو كائن من جدل عظيم وحجة متهافتة ورفض لما يجب قبوله.

****

(١) سورة الإسراء، الآيات ٩٤ - ٩٦.

(٢) سورة الفرقان، آية ٢٠.

المبحث الثاني

موقف اليهود من الرسالة والرسول

جاء القرآن مصدقًا لما مع اليهود، وكان من المعقول والمنظور أن يؤمنوا بهذا الكتاب - القرآن الكريم - ولكنهم لما جاءهم ما عرفوا من الكتاب والنبوة كفروا به، وقد جاء قوله تعالى: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[1]. دليلًا واضحًا على كفرهم ومعاندتهم لله وللنبي محمد ﷺ أن يؤمنوا به رسولًا، وبالقرآن كتابًا منزلًا من عند رب العالمين. وموقف اليهود من الإسلام يكشف عن مفارقة؛ حيث يتناقض موقفهم مع ما علموا من حقيقة بعث الرسول وصفاته، وقد اقترنت المفارقة بالكفر بغيًا، لذا كانت نتيجة ذلك أنهم باءوا بغضب على غضب من الله.

ولكي نجلي الغموض نستعرض موقفهم من النبوة والرسالة والكتاب عبر الآيات القرآنية التالية التي كشفت عن مواقفهم.

لقد كان أصحاب محمد ﷺ يطمعون في إيمان اليهود أكثر مما يطمعون في إسلام المشركين؛ وذلك لما عندهم من أصل التوحيد، ولما ورثوه من الكتاب الذي فيه ذكر نبي الإسلام وأوصافه، الذي جاءهم بكتاب مصدق لما معهم في الجملة، وفيه تجلية للشبهات وحلول للمشكلات، وفيه إباحة لبعض ما حُرم عليهم من الطيبات، فكان من المعقول والواجب أن يؤمن اليهود، ولكن الله العليم بالسرائر يعلم أنه لا وجه لهذا، وليس فيه جدوى؛

(١) سورة البقرة، آية ٩٠.

لأنهم انحرفوا بحقيقة الدين الذي هو رابطة روحية قوية بين الأمم، وهداية للقلوب الفطرية، فجعلوه رابطة جنسية عصبية يريدون به الانفصال عن غيرهم والاستعلاء عليهم، ويتصرفون بالنصوص على حساب أهوائهم ومصالحهم الشخصية، ويريدون أن يجعلوا من دينهم أداة تسلط على الأمم والشعوب في النواحي السياسية والاقتصادية بضروب من الافتراء على الله[1]. ولهذا يقول الله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[2]. أي: أفتطمعون أيها المؤمنون بما جاء به محمد ﷺ ﴿أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾؛ أي: يؤمن بنو إسرائيل لكم بعد ما علمتم من تفاصيل أحوال أسلافهم المؤيسة عنهم، وهم متماثلون في طبائعهم الذميمة، وأخلاقهم الفاسدة، وقلوبهم القاسية، لا يصدر منهم إلا مثل ما صدر من أسلافهم. ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. سماعًا واضحًا ليس فيه التباس. ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. يحرفونه من بعد ما ضبطوه ولم تشتبه عليهم صحته، بل تحريفهم لكلام الله عن عمد وسوء قصد مما لا يصح أن يكون لهم فيه عذر من سوء الفهم ونحوه، ولذا قال: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. أي: يعلمون المعنى المقصود تمامًا بلا إشكال ولا نسيان ولا ذهول، وإنما لمقاصد نفسية وأغراض مادية ونفعية، وهذا لا يرجى معه إيمان، وهو إخبار من الله عن إقدامهم على البهت ومناصبتهم العداوة للأنبياء، وأن بقاياهم في العصر المحمدي لا يزالون على مثل ما كان عليه أسلافهم[3]. وهذه مفارقة من بعثة محمد ﷺ ومن القرآن الكريم، وفي الآية التالية خير دليل على موقفهم من كتاب الله مع وجود المفارقة مع موقفهم. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[4].

فالقرآن الكريم أخذ يزيد من تعنيفهم، ويجابههم بصواعق وحيه مجابهة شديدة على ما

(١) صفوة الآثار والمفاهيم في تفسير القرآن العظيم لعبد الرحمن الدوسري ٢/ ١٨٩.

(٢) سورة البقرة، آية ٧٥.

(٣) صفوة الآثار والمفاهيم ٢/ ١٨٩.

(٤) سورة البقرة، آية ٨٩.

قالوه وما فعلوه، ويظهر تهافت شبهاتهم التي يحتجون بها، ويجردهم من كل معذرة؛ كي لا يبقى لهم ستر، موضحًا سبحانه وتعالى قبح كفرهم وأسبابه الخبيثة، وأنهم كفروا بالنبي الذي كانوا يرتقبونه، ويستفتحون به على مشركي العرب، ومع هذا لما جاءهم هذا النبي الذي يعرفونه كما يعرفون أبناءهم مما ذكر الله من أوصافه في التوراة، ويستنصرون به على أعدائهم - كفروا به بعد مجيئه، وناصبوه العداوة، فكفرهم في غاية القبح والحماقة، بل هو من أشد أنواع الكفر؛ لأنه ليس ناشئًا عن جهل أو تقليد للآباء أو تأثرًا بالبيئة، وإنما هو ناشئ عن سوء سريرة وخبث طوية؛ لأنهم كفروا بما جاء مصدقًا لما معهم، ولأنه معروف لديهم غاية العرفان (1)؛ ولهذا كشف الله عن طويتهم، فقال سبحانه: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾(2).

فموقفهم موقف المضادة لله، إنهم يطالبون الله أن يكون هذا النبي منهم ليس من العرب، وإنهم ناقمون من الله أن يختار لرسالته من يريده، دون من يريدون، إن خطتهم خطيرة، وكفرهم من أشد أنواع الكفر وأقبحه، إن موقفهم شنيع، يستحق الغضب واللعنة، إنه تطاول على الله، واستدراك عليه سبحانه، وانتقاد لمشيئته، وطعن في حكمته، وحسد لمن اصطفاه من عباده، وقال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾(3).

فهذه الآية توضح العلة الأصلية لدى اليهود والنصارى الذين صبغوا عقيدتهم بالعصبية، ويريدون فرضها، فلا يرضون من النبي ﷺ ولا من أتباعه إلا أن يتبعوا أهوائهم؛ مكابرة وعنادًا منهم. وهذه مفارقة.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(4).

---

(1) صفوة الآثار والمفاهيم ٢/ ١٨٩.

(2) سورة البقرة، آية ٩٠.

(3) سورة البقرة، آية ١٢٠.

(4) سورة البقرة، آية ١٤٦.

فقد ذكر الله تعالى أن أهل الكتاب يعلمون الحق في أمر القبلة، وأن محمدًا ﷺ صادق فيما أخبر عن تحويلها، لكنهم يجحدون، يمكرون لاستعذابهم الباطل وتفضيله على الحق حسدًا وبغيًا، ثم إنه سبحانه في هذه الآية أخبرنا عن الأصل، وعن العلة في ذلك العلم وذلك الإنكار، وهو أنه قد تقرر عندهم وعرفوا الحق من صدق رسالة محمد وصدق ما جاء به معرفة يقينية، وذلك مما وجدوه في كتبهم من البشارة به وأوصافه، وأنه من بني إسماعيل من العرب وليس منهم، وأن قبلته الكعبة، فهم يعرفونه تمامًا بالنعوت والأوصاف التي في التوراة، وبما شاهدوه من ظهور آياته وآثار هدايته، فمعرفتهم وصلت إلى مستوى معرفة أبنائهم الذين تولوا تربيتهم، ولكن فريقًا منهم يجحدون الحق وينكرونه حسدًا منهم وهم يعلمون علم اليقين حقيقة ذلك[1]، وهذه مفارقة منهم في العلم والإنكار.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾[2].

فكتمان اليهود لما أنزل الله في كتبهم كان لمقاصد خاصة وأغراض نفسية، مثل كتمانهم البشارة بمحمد ﷺ بعد أن كانوا يخبرون بها لحاجة الاستنصار على المشركين، ثم إنهم كتموا هذه الحقيقة بعد مجيئه وحرفوها زاعمين أن الذي في التوراة على غير هذا الوصف، وكتمانهم لحد الزنا وغيره، ففضحهم الله في آيات عديدة بعد أن كانوا على علم بهذه الأمور في الحقيقة والواقع، ولكن كان هذا منهم معاندة ومكابرة، وهذه مفارقة بين علمهم وكتمانهم هذا العلم، فمن المفروض أن يتفق العمل مع العلم، وأن يكون موقفهم قائمًا على ما يعلمون أنه الحق، أما أن يكونوا عالمين بحقيقة الرسالة ويكتمون ما يعلمون، ويقفون موقفًا مضادًّا لهذا العلم؛ فإن ذلك يتضمن مفارقة حيث افترق ما يجب أن يجتمع.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾[3]. تحذير من الله لليهود من أن يلبسوا - أي يخلطوا - الحق بالباطل حتى يشتبه على عوام الناس، وقد كان

(١) صفوة الآثار والمفاهيم للدوسري ٢/٤٠٦.

(٢) سورة البقرة، آية ١٥٩.

(٣) سورة البقرة، آية ٤٢.

من تلبيس أحبار اليهود أنهم يلبسون الأمر على العامة في شأن محمد ﷺ بأنه من الكاذبين استنادًا لما جاء في التوراة من نبوغ أنبياء كذابين، ومن بعث رسول من بني إسماعيل موصوف بأوصافه الحسية الصحيحة التي يعرفونها، فهم يكتمون ما في التوراة من الحق الذي هو الإخبار ببعثة النبي محمد ﷺ، ويزعمون أنه من الكاذبين الذي جرى التحذير منهم في التوراة، وهذا من أشنع أنواع الخلط والتلبيس [(١)].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [(٢)].

رد الله اعتذار اليهود وأبطله في مواضع سابقة، حيث زعموا أن قلوبهم غلف لا تفهم الدعوة ولا تعقل الخطاب، ففضح اعتذارهم ببيان السبب الحقيقي الذي استحقوا به اللعنة الحارمة لهم من الهداية، والغضب والعذاب المهين على ما يحملونه من لؤم الحسد والحقد... وقد ذكر لهم اعتذارًا آخر في هذه الآية متصديًا له بالرد والإبطال، وذلك أنه لما دعاهم إلى الإيمان بنبوة محمد وبالكتاب الذي أنزله عليه تشبثوا بشبهة داحضة، وهي زعمهم أنهم لا يؤمنون إلا بما أنزل عليهم... لذا فقد ضربهم الله ضربتين قاصمتين:

إحداهما: أنهم كفروا بالحق الذي جاء مصدقًا لما معهم، والواجب يقضي عليهم المبادرة إلى الإيمان به، والاعتزاز به، والتشرف بالمسارعة إليه.

ثانيهما: فضح الله لهم بسؤالهم عن قتل أنبيائه؛ لأن هذا من أكبر الدلائل على كفرهم، وعدم صدقهم في دعوى الإيمان، فالله سبحانه أمر نبيه محمدًا - عليه الصلاة والسلام - بالتساؤل معهم في هذه الآية، فلو أن عندكم شيئًا من الإيمان بما أنزل عليكم لما قتلتم الأنبياء، وهم قد جاءوكم بما تزعمون أنكم مؤمنون به، وجاءوكم بتأييده، والتصديق به [(٣)]. فهذا التلقين من الله لنبيه محمد ﷺ بالتساؤل معهم عن قتلهم أنبياءهم لتكذيب دعواهم وفضح مخازيهم. وهذه مفارقة واضحة تنم عن كذب اليهود فيما يزعمون من عدم إيمانهم

(١) صفوة الآثار والمفاهيم للدوسري ٢/ ١٠٨.

(٢) سورة البقرة، آية ٩١.

(٣) صفوة الآثار والمفاهيم للدوسري ٢/ ١٠٨.

بالنبي محمد ﷺ وبما أنزل عليه بدعوى ما مضى من كيدهم، والله أعلم.

❋❋❋❋

المبحث الثالث

ادعاءُ اليهودِ طاعةَ أنبيائِهم واعتداؤهم عليهم

تتجلى المفارقة في أن مسلك اليهود من أنبياء الله يتناقض مع اتخاذهم لهم أنبياء ومع انتسابهم لهؤلاء الأنبياء.

وقد عرض القرآن الكريم قضية الطاعة مؤكدًا أهميتها في تحقيق الامتثال وما يستتبع ذلك في تحقيق الأمن والاستقرار للمجتمع بعامة، والإنسان بخاصة، وأثر ذلك في نيل رضى الله ورحمته، ودخول الجنة التي وعد الله بها عباده المتقين، مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴾(1). يتحقق بطاعة الله ورسوله، وفي هذا يقول الله سبحانه وتعالى مبينًا عظم المحبة وقيمتها، وأنها لا تكون إلا بطاعته وطاعة رسوله ﷺ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾(2).

قال سيد قطب في معرض تفسيره لهاتين الآيتين: «إن حب الله ليس دعوى باللسان، ولا هيامًا بالوجدان، إلا أن يصاحبه الاتباع لرسول الله والسير على هداه، وتحقيق منهجه في الحياة. وإن الإيمان ليس كلمات تقال، ولا مشاعر تجيش، ولا شعائر تقام، ولكنه طاعة الله والرسول، وعمل بمنهج الله الذي يحمله الرسول»(3).

---

(1) سورة النساء، الآيتان ٦٩، ٧٠.

(2) سورة آل عمران، الآيتان ٣١، ٣٢.

(3) في ظلال القرآن لسيد قطب ١/ ٣٨٧.

وقال ابن كثير مفسرًا قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا﴾. أي: تخالفوا عن أمره، وكذلك: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾. فدل على أن مخالفته في الطريقة كفر، والله لا يحب من اتصف بذلك، وإن ادعى وزعم في نفسه أنه محب لله[١].

إن هذا الدين له حقيقة مميزة لا يوجد إلا بوجودها، حقيقة الطاعة لشريعة الله، والاتباع لرسول الله، والتحاكم إلى كتاب الله، وهي الحقيقة المنبثقة من عقيدة التوحيد كما جاء بها الإسلام. توحيد الألوهية التي لها وحدها الحق في أن تُعبِّد الناس لها، وتُطوِّعهم لأمرها، وتنفذ فيهم شرعها، وتضع لهم القيم والموازين التي يتحاكمون إليها ويرتضون حكمها، ومن ثم توحيد القوامة التي تجعل الحاكمية لله وحده في حياة البشر وارتباطاتها جميعًا، كما أن الحاكمية لله وحده في تدبير أمر الكون كله، وما الإنسان إلا قطاع من هذا الكون الكبير[٢].

وفي سياق الطاعة، والأمر بها أمر الله تعالى عباده بطاعته وطاعة رسوله وأولي الأمر منهم، وذيل الآية بالتحريض والتحذير معًا؛ لأن الإيمان بالله واليوم الآخر وازعان يزعان عن مخالفة الشرع والتعريض بمصالح الأمة للتلاشي، وعن الأخذ بالحظوظ العاجلة مع العلم بأنها لا ترضي الله بل تضر الأمة، فلا جرم أن يكون دأب المسلم الصادق الإقدام عند اتضاح المصالح، والتأمل عند التباس الأمر، والصدر بعد عرض المشكلات على أصول الشريعة، وفي هذا مفارقة بين الامتثال لطاعة الله ورسوله وجزاء ذلك، وبين مخالفة ذلك وعاقبته.

والشواهد التي تأمر بطاعة الرسول كثيرة في القرآن، حيث تنبثق من طاعة الله تعالى، وفي هذا يقول تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾[٣].

قال الألوسي: «بيان لأحكام رسالته ﷺ إثر بيان تحققها، وإنما كان كذلك؛ لأن الآمر والناهي في الحقيقة هو الحق سبحانه، والرسول إنما هو مبلغ الأمر والنهي، فليست الطاعة

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٣٧٣.

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب ١/ ٣٨٧.

(٣) سورة النساء، آية ٨٠.

له بالذات إنما هي لمن بلغ عنه»[١].

ثم يعقب بعدها بمفارقة صريحة إذ يقول سبحانه: ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾[٢]. أي: ومن تولى أو أعرض واستمر على المكابرة ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾. أي: حارسًا لهم ومسئولًا عن إعراضهم، وهذا تعريض بهم وتهديد لهم بأن صرفه عن الاشتغال بهم، فيعلم أن الله سيتولى عقابهم.

وفي معرض بيان الطاعة جاءت الآية القرآنية من سورة التغابن في قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾[٣]. تأمر العباد عامة بطاعة الله وطاعة رسوله؛ لأن كمال الإنسان وسعادته مرتبطة بهذه الطاعة التي هي عبارة عن تطبيق نظام دقيق ينتج صفاء روح وزكاة نفس يتأهل بها العبد إلى النزول بالملكوت الأعلى. وقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾. أعرضتم عن هذه الدعوة، فرفضتم طاعة الله ورسوله، فلا ضرر على رسولنا ولا ضير؛ إذ عليه البلاغ المبين، وقد بَلَّغَ مبينًا غاية التبيين، وأما هدايتكم فلم يكلف بها؛ إذ لا يقدر عليها ولا يكلف الله نفسًا إلا طاقتها.

****

(١) روح المعاني للألوسي ٥/ ٩١.

(٢) سورة النساء، آية ٨٠.

(٣) سورة التغابن، آية ١٢.

المبحث الرابع

موقف بعض الأمم من أنبيائهم

ويشمل هذا المبحث أربعة موضوعات تتصل بموقف هود عليه السلام مع قومه، وقصة أصحاب الحجر وهلاكهم، وقصة إبراهيم عليه السلام مع قومه ومراودة قوم لوط للوط عن أضيافه:

١- قصة هود عليه السلام مع قومه:

أخبر الله تعالى عبده ورسوله هودًا عليه السلام أنه دعا قومه عادًا، وكان قومه يسكنون الأحقاف، وهي جبال الرمل قريبًا من حضرموت متاخمة لبلاد اليمن، وكان زمانهم بعد قوم نوح، وفي هذا يقول سبحانه وتعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾(١).

فأجابه قومه بعدما حذرهم وأنذرهم ورغبهم ورهبهم وبيَّن لهم الحق ووضحه: ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾(٢).

فهذا إنكار منهم ومكابرة وعناد، فما يعنينا أن تعظ أوْ لا تكون أصلًا من الواعظين،

---

(١) سورة الشعراء، الآيات ١٢٣ - ١٣٥.

(٢) سورة الشعراء، الآيات ١٣٦ - ١٣٨.

وهو تعبير فيه استهانة واستهتار وجفوة، يتبعه ما يشي بالجمود والتحجر والاعتماد على التقليد، وفي هذا مفارقة بين إنعام الله عليهم بالخيرات وبين إنكارهم ما يدعوهم إليه نبي الله هود.

لهذا ختمت بمعاقبتهم: ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾(١).

٢- قصة أصحاب الحجر وهلاكهم:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(٢).

أصحاب الحجر هم ثمود الذين كذبوا صالحًا نبيهم عليه السلام، ومن كذَّب برسول فقد كذَّب بجميع المرسلين، ولهذا أطلق عليهم تكذيب المرسلين، وذكر تعالى أنه أتاهم من الآيات ما يدلهم على صدق ما جاءهم به صالح، فالناقة التي أخرجها الله لهم بدعاء صالح من صخرة صماء، وكانت تسرح في بلادهم لها شرب يوم ولهم شرب يوم معلوم، فلما عتوا وعقروها أخذهم الله بالصيحة مصبحين، فما أغنى عنهم ما كانوا يستغلونه من زروعهم وثمارهم التي ضنوا بمائها على الناقة التي عقروها لئلا تضيق عليهم في المياه، فما دفعت عنهم تلك الأموال، ولا نفعتهم لمّا جاء أمر ربك، وفي هذا مفارقة بين عصيانهم أمر الله وبين ما صنعوه من نحتهم الجبال، وجعلها بيوتًا فارهة، وما جمعوه من الزروع والثمار؛ فقد عمهم الله بعقابه على ذلك العصيان(٣).

(١) سورة الشعراء، الآيتان ١٣٩، ١٤٠.

(٢) سورة الحجر، الآيات ٨٠ - ٨٤.

(٣) تفسير ابن كثير ٢/ ٦٠٢.

٣- قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه:

قال تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾(١).

قال الزمخشري: «وما أحسن ما رتب إبراهيم - عليه السلام - كلامه مع المشركين حين سألهم أولًا عما يعبدون، سؤال مقرر لا مستفهم، ثم أنحى على آلهتهم فأبطل أمرها بأنها لا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع، وعلى تقليدهم آباءهم الأقدمين فكسره وأخرجه من أن يكون شبهة فضلًا أن يكون حجة...»(٢)، وفي هذا مفارقة بين عبادتهم من دون الله واتخاذهم الأصنام وبين ما هو مطلوب منهم فعله.

٤- موقف القرآن من مراودة قوم لوط للوط عن أضيافه وتبريره لهم:

قال تعالى: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَيۡهِ ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ مُّصۡبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾(٣).

يخبر تعالى عن مجيء قوم لوط لما علموا بأضيافه وصباحة وجوههم، وأنهم جاءوا مستبشرين بهم، فرحين بالأضياف؛ طمعًا منهم بالفاحشة، فاعتذر لهم أن هؤلاء أضياف عليه، وقال لهم ذلك قبل أن يعلم أنهم رسل الله، وذلك لعلمه بعدم رغبة قومه بالبنات، وإنما بفعل الفاحشة في الذكور من الرجال(٤).

وفي هذا مفارقة بين رغبتهم بفعل الفاحشة وبين عزوفهم عن إتيان البنات وعن البعد عن الفاحشة، فإن فِعْلَ الفاحشة مفارقة للعقل والنقل والفطرة السوية، كما أن فعلها مع الذكور شذوذ في العقل والسلوك، ومفارقة للطبيعة البشرية، ولم تأمر به الديانات السماوية..

---

(١) سورة الشعراء، الآيات ٦٩ - ٧١.

(٢) راجع: تفسير الزمخشري عند تفسيره لهذه الآية ٣/ ١١٨.

(٣) سورة الحجر، الآيات ٦٦ - ٧١.

(٤) راجع: تفسير ابن كثير ٢/ ٦٠٠.

الخاتمة

بعد استعراض ما تقدم ذكره، يتضح أن القرآن الكريم قد أخبر عن كثير من القضايا التي تتصل بمواقف الأمم السابقة من الرسل والرسالات عن طريق القصص، وضرب الأمثال، والتذكير والموعظة، وبخاصة في مجال العقيدة، داعيًا الإنسان أن ينظر في نفسه، وفيما حوله من آيات كونية ومن حقيقة وجوده؛ ليعلم أن الله لم يخلق شيئًا عبثًا وأن شيئًا لم يوجد من نفسه، بل لا بد له من موجد هو الخالق الصانع سبحانه وتعالى، ومن خلال تأمل الآيات التي عرضناها وصلت إلى نتيجة؛ أن القرآن يكشف عن التناقض في سلوك كثير من الناس بين ما هو ظاهر وما هو باطن، وبين ما يجب أن يكون وما هو كائن بالفعل.

فالأدلة على وجود موجد الكون وخالقه لا تقودهم إلى الإيمان بالله الخالق الواحد الفرد الصمد الحكيم، وهذا تناقض في السلوك، ويتضمن التناقض مفارقة حيث افترق طرفان كان يجب أن يلتقيا..

والإيمان ببشرية الرسول لا تقودهم إلى أن الرسول محدود بحدود البشر، وأنه يموت، وأنه لا يفعل إلا ما أمره الله به، وما وسعه هو أن يفعله، وأن الإيمان ببشريته لا يتعارض مع اختياره رسولًا من رب العالمين، ولعل القرآن قد سجل على الكفار اقتراحهم في الاختيار، وإرادتهم أن تكون الخيرة لهم، ثم ينفي هذا سبحانه عنهم، ويبين تفرده هو بالاختيار.

والمنطق يرينا أن واهب النعم لا بد أن يكون أحب إلينا من النعم نفسها، لكن كثيرًا من الناس تشغلهم هذه النعم عن واهبها وخالقها.

وهكذا تتجلى المفارقة في التناقض بين ما يجب أن يكون وما هو كائن بالفعل، وبالتالي نكون قد أثبتنا أن القرآن الكريم قد عالج النفس البشرية في مواقفها من نفسها ومجتمعها

وعالمها، ومن الرسل، ومن دعوة الحق والإيمان، هذه المواقف تكشف حقيقة الإنسان، فالمؤمن وقّاف متأن، وليس كحاطب ليل يجمع الدقيق والجزل، وإذا كان موقف المؤمنين يتسم بالتوافق مع فطرتهم أو فطرة الله التي فطرهم عليها، فإن استجابتهم تعد أمرًا طبيعيًّا فضلًا عن أنها تتسم بالمصداقية والعقلانية، وطاعة للخالق العظيم.

أما هؤلاء الذين كابروا وجادلوا على غير حق، وادعوا وتماروا وكذبوا وتولوا معرضين عن النور الذي أنزله الله تعالى على نبيه فإن موقفهم يتناقض مع فطرتهم التي فطرهم الله عليها، لقد عموا وصموا وعميت قلوبهم وعقولهم، كما أن هذا الموقف يتناقض مع المعقول ومع ما يجب أن يكون، ناهيك عن تناقضه مع أمر الله ورسوله والعِلْم الذي ورثوه فحرفوه وكتموه، وبدلوا فيه تبعًا لأهوائهم.

هذا التناقض يمثل مفارقة، حيث إن ما يجب أن يلتقي مع غيره ويتوافق معه ويكون نتيجة منطقية له جاء مفارقًا له متعاكسًا معه، ومن ثم كانت المفارقة.

ولا شك أننا كنا محدودين بحجم البحث، ومن ثم لم نستطرد ونتوسع ونطِل التحليل، فجاء بحثنا متضمنًا الأهم والألزم من الشواهد القرآنية والتفسير والتحليل والتعليق.

والله أعلم

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

إيضاح ما يوهم ظاهره التعارض
بين بعض آيات القرآن الكريم

مقدمة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا، قرآنًا عربيًّا غير ذي عوج، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، جعل كتابه تبيانًا لكل شيء مبرءًا من أي تعارض، لا تناقض ولا اختلاف، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[1]، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله الذي لا ﴿يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾[2].

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه الذين تفهموا كتاب الله، فاشتغلوا به آناء الليل وأطراف النهار، فزادهم الله هدى وآتاهم تقواهم، وبعد:

فإن بعض الدارسين ممن لم يتعمقوا في فهم بعض الآيات؛ لقصر في النظر وضعف في الأداة وسوء في النية والطوية، قد وهموا أو أوهموا بأن هناك تعارضًا بين مدلول بعض الآيات التي قد يكون معناها مقيدًا بقيود تخصص دلالتها، ومدلول آيات أخر قد يكون مدلولها مطلقًا غير مقيد، أو مقيدًا بقيود غير التي اقترنت بها تلك الآيات.

فالنص نسق من الكلام الذي تتصل أجزاؤه اتصالًا يحدد دلالته ويميزها ويخصصها، ومن ثم فإن انقطاع بعض أجزاء هذا الكلام عن السياق، والنظر إليه، والبحث عن دلالته بمعزل عن سياقه يعد خطأً كبيرًا.

لقد قصدت دراسة تلك المواضع التي أشكل على بعض الدارسين فهم معناها، أو التي وهموا أن في دلالتها تعارضًا مع غيرها من الآيات، وأن أكشف عن تلك الدلالة وأزيل

(١) سورة النساء، آية ٨٢.

(٢) سورة النجم، الآيات ٣ - ٥.

الإيهام الذي يتصل بالدارسين، ولا يتصل بكلام الله، وأن أكشف عن مدلولات النصوص وأوضح ما وقع فيه الواهمون من خطأ، وما التبس عليهم أو ما حاولوا جعله ملبسًا فراحوا يقولون بتعارض مدلول بعض الآيات مع غيرها.

وقد تناول بعض العلماء هذا الموضع، ومن أقدمهم ابن قتيبة في كتابه **تأويل مشكل القرآن**[١] في مبحث - باب التناقض والاختلاف - حيث ضمنه ثلاثًا وعشرين مسألة رد عليها جميعًا، وأثبت أنه لا تنافي فيها ولا تعارض[٢].

وكذلك الزركشي في كتابه **البرهان في علوم القرآن**[٣]؛ فقد أورد في النوع الخامس والثلاثين في معرفة موهم المختلف، وانتظمت الموضوعات التي تطرق إليها اثنتين وأربعين مسألة، وقد رد على دعاوى القائلين بالتعارض فيها[٤].

وكذلك السيوطي في **الإتقان في علوم القرآن**[٥]؛ إذ أورد النوع الخامس والأربعين (في مشكله وموهم الاختلاف والتناقض) وتطرق لبعض المواضع، مقتفيًا أثر ابن قتيبة والزركشي، ناقلًا عنهما ما أورداه في كتابيهما، مع فضل وبيان[٦].

وتناول هذا الموضوع الشنقيطي في كتابه **دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب**[٧] استقصى الآيات التي ظاهرها التعارض، وجاءت هذه المواضع في مائتين وتسعة وثلاثين موضعًا مع التكرار، مرتبة وفق السور القرآنية.

وعلى الرغم من الجهد الواضح لهؤلاء العلماء في الرد على القائلين بالتعارض بين بعض آيات القرآن الكريم، فإن هناك بعض المواضع التي لم يتناولوها، فضلًا عن أن هناك بعض

(١) مطبوع، وقد قام بشرحه ونشره السيد أحمد صقر، ونشرته المكتبة العلمية ببيروت.

(٢) تأويل مشكل القرآن ص ٦٥ - ٨٥.

(٣) مطبوع، وقد حققه محمد أبو الفضل إبراهيم، ونشرته مكتبة دار التراث، القاهرة.

(٤) البرهان في علوم القرآن ٢/ ٤٥ - ٦٦.

(٥) مطبوع، وقد حققه محمد أبو الفضل إبراهيم، ونشرته دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.

(٦) الإتقان في علوم القرآن ٣/ ٧٩ - ٨٩.

(٧) مطبوع، وقد نشرته مكتبة ابن تيمية، القاهرة.

المواضع التي رأيت أنها في حاجة إلى فصل وبيان، وبعض المواضع التي رأيت أن أصحح مفهومها، وأستدرك على ما قالوه في هذا الشأن.

ولا شك أن الرد على الطاعنين في القرآن الكريم واجب على كل مسلم، فإن المسلم لا بد أن يرد عن القرآن أي شبهة من الشبهات، سواء أكان عالمًا بالدليل أم غير عالم به، وهذا فرض عليه، فإذا استطاع بتوفيق الله أن يرد بالدليل على الطاعنين والذين يبتغون الفتنة، يكون قد أدى واجبًا - رأى الأئمة أنه - يفوق الجهاد في درجته، يقول الرسول ﷺ: «**جاهدوا المشركين بأموالكم، وأنفسكم، وألسنتكم**»[1]. مصداقًا لقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾[2].

وقال ابن قتيبة: وقد اعترض كتاب الله بالطعن ملحدون ولغوا فيه وهجَّروا، واتبعوا ﴿مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ﴾[3] بأفهام كليلة، وأبصار عليلة، ونظر مدخول، فحرفوا الكلام عن مواضعه، وعدلوا عن سبله، ثم قضوا عليه بالتناقض والاستحالة، واللحن وفساد النظم، والاختلاف، وأدلوا في ذلك بعلل ربما أمالت الضعيف الغمر، والحدث الغر، واعترضت بالشبه في القلوب، وقدحت بالشكوك في الصدور.

ولو كان ما نحلوا إليه على تقريرهم وتأولهم يسبق إلى الطعن به من لم يزل رسول الله ﷺ يحتج عليه بالقرآن، ويجعله العلم لنبوته، والدليل على صدقه ويتحداه في موطن بعد موطن، على أن يأتوا بسورة من مثله وهم الفصحاء البلغاء والخطباء والشعراء، والمخصصون من بين جميع الأنام بالألسنة الحداد، واللدد في الخصام، مع اللب والنهى وأصالة الرأي. وقد وصفهم الله بذلك في غير موضع من الكتاب، وكانوا مرة يقولون: هو سحر[4]، ومرة يقولون:

(١) أخرجه أحمد ٣/ ١٢٤، ١٥٣، ٢٥١، بإسناد قوي، والدارمي ٢/ ٢١٣ في الجهاد، باب جهاد المشركين باللسان واليد، وأخرجه أبو داود في كتاب الجهاد، باب كراهة ترك الغزو ص ٢٥٠٤، ورواه النسائي في الجهاد، باب وجوب الجهاد ٦/ ٧، ورواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي ٢/ ٨١.

(٢) سورة التوبة، آية ٧٣، وسورة التحريم، آية ٩.

(٣) سورة آل عمران، آية ٧.

(٤) يشير إلى قوله تعالى من سورة يونس، آية ٧٦: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

هو قول الكهنة [١]، ومرة: أساطير الأولين [٢].

ولم يحك الله تعالى عنهم، ولا بلغنا في شيء من الروايات أنهم جدبوه من الجهة التي جدبه منها الطاعنون [٣]. انتهى.

ولا شك أنه من واجب كل مسلم قادر على تفنيد دعاوى الطاعنين أن يرد عليهم بالدليل وهو عندي يمثل فرض كفاية.

يقول ابن تيمية: فالراد على أهل البدع مجاهد، حتى كان يحيى بن يحيى يقول: (الذب عن السنة أفضل من الجهاد) [٤].

وبالجملة، فإن كتاب الله قد تولاه سبحانه وتعالى بالحفظ والتمكين، وقيَّض له سبحانه أسباب هذا الحفظ من كشف زيف الطاعنين، وشبهات المغرضين [٥]. سواء أكان من أعدائه أم من المنتسبين إليه، ولهذا يقول سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ [٦].

فالقضية في هذا البحث - من وجهة نظر موضوعية - تتصل بالموضوع في إطار موضوعي، وتتصل بالموضوع فيما يتعلق بالعقيدة الصحيحة، مع الإقرار بأن هناك مسلمات أساسية تتصل بهذه الجوانب، فضلًا عن أن النصوص التي لا تنفصل عن سياقها، بل لا بد أن تستنبط دلالتها من السياق، ومن سبب النزول، وما يتصل بها لغة وشرعًا. لذا جاء هذا البحث متناولًا للموضوعات في ثمان ومائة موضع مرتبة وفق ترتيب السور القرآنية.

وقد أفدت من الدراسات السابقة، وأضفت إليها إضافات مهمة، أهمها أنني نظرت في

---

(١) يشير إلى قوله تعالى من سورة الحاقة، آية ٤٢: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

(٢) يشير إلى قوله تعالى من سورة الفرقان، آية ٥: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾.

(٣) تأويل مشكل القرآن ص ٢٢ - ٢٣.

(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية ٤/ ١٣.

(٥) من المصنفات التي تولت الرد: كتاب الرد على الجهمية والزنادقة للإمام أحمد بن حنبل، والرد على الجهمية للدارمي، والرد على الجهمية والمعطلة لابن قيم الجوزية. وغيرها الكثير والكثير.

(٦) سورة الحجر، آية ٩.

أقوال الطاعنين، ولم أتحدث عنها بصفة عامة كما فعل الدارسون، فإن الطعون إذا لم تكن محققة منسوبة لصاحبها، فإن هذا يجعلها أقرب إلى أن تكون نوعًا من الافتراض الذي يرد عليه الدارس، ونرى أن نسبة الطعن لصاحبه بالصيغة التي طعن بها تجعلنا أقدر على فهم أقواله وتفنيد أباطيله ودحضها.

هذا وإني لأسأل الله أن يوفقنا للذود عن دينه، ودحض أباطيل المبطلين وأوهام الواهمين، وأن يجعل هذا العلم خالصًا لوجهه الكريم، وأن يجعله في ميزان حسناتي إنه نعم المولى ونعم النصير.

****

سورة البقرة

ندرس في هذه السورة بعض القضايا التي أثير حولها الجدل؛ لبيان الحقيقة التي يحجبها ظاهر التعارض:

١-تعدد أسماء الإشارة إلى القرآن:

قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾[١].

أشار الله تعالى إلى القرآن في هذه الآية بإشارة البعيد (ذلك) علمًا بأنه سبحانه أشار إلى القرآن في آيات أخر بإشارة القريب حيث يقول: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾[٢]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾[٣]. وقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾[٤]. وقوله تعالى: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾[٥]. وغير ذلك من الآيات.

فما وجه التوفيق بين هذه الآيات؟

نقول والله المستعان:

الوجه الأول: ما ذكره البلاغيون - والقرآن أصل في ذلك - أن وجه الإشارة في القرآن بإشارة الحاضر القريب؛ لأن القرآن قريب حاضر في الأسماع والألسنة والقلوب، وذلك

---

(١) سورة البقرة، الآيتان ١، ٢.

(٢) سورة الإسراء، آية ٩.

(٣) سورة النمل، آية ٧٦.

(٤) سورة الأنعام، آية ٩٢.

(٥) سورة يوسف، آية ٣.

أشبه بقوله تعالى في سورة البقرة ذاتها: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾(١). وجه الإشارة البعيد (ذلك)؛ لبعد مكانته ومنزلته عن مشابهة كلام المخلوقين، وعما يزعمه الكفار من أن القرآن سحر أو شعر أو كهانة أو أساطير الأولين، ويصدق ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٢).

يقول الألوسي في تفسيره: «والإشارة بذلك للتعظيم وتنزيل البعد الرتبي منزلة البعد الحقيقي كما في قوله تعالى في سورة يوسف: ﴿فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾(٣). أو لأنه لما نزل عن حضرة الربوبية وصار بحضرتنا بعد ومن أعطى غيره شيئًا أو أوصله إليه أو لاحظ وصوله عبَّر عنه بذلك؛ لأنه بانفصاله عنه بعيد أو في حكمه. وقيل: لا تعارض بين الإشارة بالقريب أو بالبعيد؛ لأن صيغة البعيد والقريب قد يتعاقبان؛ كقوله تعالى في قصة عيسى عليه السلام ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾(٤) ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾(٥). وله نظائر في الكتاب الكريم(٦).

الوجه الثاني: ما اختاره ابن جرير الطبري في تفسيره من (ذلك) إشارة إلى ما تضمنه قوله: ﴿الٓمٓ﴾ وأنه أشار إليه إشارة البعيد بأن الكلام المشار إليه منقض. ومعناه في الحقيقة القريب؛ لقرب انقضائه، وضرب لذلك مثلًا بالرجل يحدّث الرجل فيقول له مرة: والله إن ذلك كما قلت. ومرة يقول: والله إن هذا لكما قلت لك. فإشارة البعيد نظرًا إلى أن الكلام مضى وانقضى، وإشارة القريب نظرًا إلى قرب انقضائه(٧).

(١) سورة البقرة، آية ١٨٦.
(٢) سورة الحاقة، الآيات ٤١ - ٤٣.
(٣) سورة يوسف، آية ٣٢.
(٤) سورة آل عمران، آية ٥٨.
(٥) سورة آل عمران، آية ٦٢.
(٦) روح المعاني ١/ ١٠٥.
(٧) جامع البيان عن تأويل القرآن ١/ ٢٢٦.

الوجه الثالث: أن العرب ربما أشارت إلى القريب بإشارة البعيد، فتكون الآية على أسلوب من أساليب اللغة العربية، نظير ذلك قول خفاف بن ندبة السلمي لما قتل مالك بن حرملة الفزاري يقول:

فإن تك خيلي قد أصيب حميمها   فعمدًا على عيني تيممت مالكا
أقول له والرمح يأطر متنه   تأمل خفافًا إنني أنا ذلكا

يعني أنا هذا. وهذا القول الأخير حكاه البخاري عن معمر بن المثنى أبي عبيدة قاله ابن كثير وعامة المفسرين، على أن (ذلك الكتاب) بمعنى: هذا الكتاب[1]. فلا جرم أن كانت الإشارة في الآية باستعمال اسم الإشارة للبعيد؛ لإظهار رفعة شأن هذا القرآن لجعله بعيد المنزلة؛ لأن الشيء النفيس عزيز على أهله، أو لأنه لصدق معانيه ونفع إرشاده بعيد عما يتناوله بافتراء القول، ولا يتعارض هذا مع قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾؛ لأن ذلك إشارة إلى كتاب بين يدي أهله لترغيبهم في العكوف عليه، والاتعاظ بأوامره ونواهيه[2].

٢- نفي الرّيب عن القرآن:

قوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[3].

هذه نكرة منفية ركبت مع لا فبنيت على الفتح، والنكرة إذا كانت كذلك فهي نص في العموم كما تقرر في علم الأصول، و(لا) هذه هي التي نص في العموم هي المعروفة عند النحويين بـ(لا) التي لنفي الجنس، أما (لا) العاملة عمل ليس فهي ظاهرة في العموم لا نص فيه، وعليه فالآية نص في نفي كل فرد من أفراد الريب عن هذا القرآن العظيم.

وقد جاء في آيات أخر ما يدل على وجود الريب فيه لبعض الناس كالكفار الشاكّين، وذلك فيما قصه القرآن منه في قوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٣٨.
(٢) دفع إيهام الاضطراب ص ٦ بتصرف.
(٣) سورة البقرة آية ٢.

وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ﴾[2].

فما وجه الجمع بين هذه الآيات؟

نقول: إن وجه الجمع بين هذه الآيات هو أن القرآن بالغ في وضوح الدلالة وظهور المعجزة ما ينفي تطرق أدنى ريب فيه، فريب الكفار لم يكن يصدر منهم لكون القرآن فيه شيء يحتمل الريب، لا.. وإنما لعمى أبصارهم وبصائرهم عن كونه ومراميه، وقد ضرب القرآن مثلًا لهذه النوعية في سورة الرعد فقال: ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[3]. ففي ذلك تصريح بأن من لا يعلم الحق مع ظهوره كالأعمى لا يعني أنها غير طالعة، وفي هذا المعنى قول القائل:

إِذَا لَـمْ يكُـنْ لِلْمَـرءِ عَيْـنٌ صَحِيحَـةٌ فَلاَ غَرْوَ أَنْ يَرْتَابَ والصُّبْحُ مُسْفِرُ[4]

يقول ابن عطية: ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ معناه لا شك فيه ولا ارتياب به، والمعنى أنه في ذاته لا ريب فيه؛ وإن وقع ريب للكفار[5]. فمعنى نفي الريب عن الكتاب أنه ليس مظنة للريب في ذاته لعلو منزلته، وظهور معجزته، وليس معناه أنه لا يرتاب فيه أحد أصلًا.

وقال قوم: ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ لفظ الخبر ومعناه النهي.

وقال قوم: هو عموم يراد به الخصوص، أي عند المؤمنين[6]، ولكنهم ضعَّفوا الرأي الأخير هذا؛ لأن النفي عام؛ ولذلك كان ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ منصوبًا على التبرئة.

---

(١) سورة البقرة، آية ٢٣.

(٢) سورة التوبة، آية ٤٥.

(٣) سورة الرعد، آية ١٩.

(٤) دفع إيهام الاضطراب ص ٧ بتصرف.

(٥) المحرر الوجيز ١/ ١٤٣.

(٦) المرجع السابق، دفع إيهام الاضطراب ص ٧.

٣- هُدَى الله بينَ التخصيص والتعميم:

قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾(١).

في هذه الآية تخصيص هدى هذا الكتاب للمتقين دون غيرهم، وقد جاء في آيات أخر ما يدل على أن هداه عام لجميع الناس، وشاهد ذلك قوله تعالى في ذات السورة: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾(٢).

فما وجه الجمع بين هذه الآيات؟

نقول: للهدى استعمالان:

أحدهما: عام. والثاني: خاص.

أما الهدى العام فمعناه توضيح طريق الحق ومعالمه، وإيضاح الحجة سواء سلكها الناس أم لا، من ذلك قوله تعالى في سورة فصلت: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾(٣). أي: بينا لهم ذلك على لسان صالح عليه السلام، مع أنهم لم يسلكوها، بدليل قوله تعالى: ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾.

وأما الهدى الخاص فهو تفضل من الله بالتوفيق، ومن ذلك قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾(٤)، وقوله في ذات السورة: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾(٥).

من هُنا يعلم أن الهدى الخاص هو تفضل من الله تعالى على عبده، يؤيد ذلك الحديث الصحيح: «ما من أحد يدخله عمله الجنة». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟! قال: «ولا أنا.

(١) سورة البقرة، آية ٢.

(٢) سورة البقرة، آية ١٨٥.

(٣) سورة فصلت، آية ١٧.

(٤) سورة الأنعام، آية ١٢٥.

(٥) سورة الأنعام، آية ٩٠.

إلا أن يتغمدني الله منه بفضل ورحمة»(١).

والهدى الخاص هو إبانة معالم الشريعة وتوضيح طريق الهداية للناس كافة حتى يكونوا على بصيرة من أمرهم. وبذلك يرتفع الإشكال.

ومثل هذا يقال في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾(٢).

وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٣).

لأن الهدى المنفي عنه ﷺ، هو الهدى الخاص؛ لأن التوفيق بيد الله وحده. وشاهد ذلك قوله: ﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾(٤). وفي ذات الإشكال قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾(٥). فالهدى المثبت لرسول الله ﷺ هو الهدى العام وهو وضوح الحجة، وقد بينها ﷺ. ومن أوضح الأدلة أن المراد في الآية الهدى الخاص قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾(٦).

٤- إيمان الكفار بالله بين الإمكان وعدمه:

أ- قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾(٧).

ويتلخص الإيهام في أن هذه الآية تدل بظاهرها على عدم إيمان الكفار، وقد جاءت آيات

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى ٣/ ٢١٧، ح ٧٥.

(٢) سورة القصص، آية ٥٦.

(٣) سورة الشورى، آية ٥٢.

(٤) سورة المائدة، آية ٤١.

(٥) سورة البقرة، آية ٢٧٢.

(٦) سورة الشورى، آية ٥٢، وانظر: دفع إيهام الاضطراب ص ٧، ٨.

(٧) سورة البقرة، آية ٦.

أخر تدل على إيمان بعض الكفار بالله ورسوله في وقت ما، من ذلك قوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾[2]، وقوله: ﴿وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾[3].

فما وجه الجمع بين هذه الآيات؟

وجه الجمع بين هذه الآيات ظاهر، وهو أن آية البقرة من العام المخصص؛ لأنها في خصوص الأشقياء الذي سبق في علم الله شقاوتهم والعياذ بالله، وطبعوا على الكفر، يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾[4]. ويدل على هذا التخصيص أيضًا قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾[5]. كما أن من سبقت سعادته في علم الله لا يكفر؛ لقوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾[6]. وقد أجاب البعض بأن قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ في آية البقرة؛ أي: ما دام الطبع على قلوبهم وأسماعهم والغشاوة على أبصارهم، فإذا أزال الله عنهم ذلك آمنوا بفضله[7]. والعبرة بالخواتيم، ومن هذا القبيل الغلام الذي قتله الخضر؛ لأنه طبع على الكفر فأذن الله للخضر بقتله. فالإنسان لا يأمن مكر الله ولو لآخر لحظة، ونسأل الله حسن العاقبة.

يقول ابن عاشور في **التحرير والتنوير** ما خلاصته: وقد يكون المراد من قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ...﴾ الآية. في قوم معهودين كأبي جهل والوليد بن المغيرة... وأضرابهم من رؤوس الشرك وزعماء العناد، دون من كان مشركًا ثم آمن كأبي سفيان وغيره...

(١) سورة الأنفال، آية ٣٨.

(٢) سورة النساء، آية ٩٤.

(٣) سورة العنكبوت، آية ٤٧.

(٤) سورة يونس، الآيتان ٩٦، ٩٧.

(٥) سورة البقرة، آية ٧.

(٦) سورة الأنبياء، آية ١٠١.

(٧) دفع إيهام الاضطراب ص ٩.

أو يكون الموصول لتعريف الجنس المفيد للاستغراق، على أن المراد من الكفر أبلغ أنواعه بقرينة: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾، فيكون عامًّا خصص بالحس والمشاهدة لمن آمن منهم، أو عامًّا مرادًا به الخصوص بالقرينة. وأيًّا كان المعنى فالمراد أن هناك فريقًا خاصًّا من الكفار لا يرجى إيمانهم، وهم من ختم وطبع على قلوبهم، وذلك لعدم اهتدائهم بالقرآن لا لنقص في دلالة القرآن على الهدى[1].

ب- قَوْلُه تَعَالَى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[2].

تدل هذه الآية بظاهرها على أن هؤلاء مجبورون على الكفر؛ لأن مفاد الختم وجعل الغشاوة سلب قدرتهم على الإيمان وقد أفادت آيات أخر أن كفرهم واقع بمشيئتهم وإرادتهم، من ذلك قوله تعالى: ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾[3]. وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ﴾[4]. وقوله تعالى: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[5] وغير ذلك.

ولإزالة إيهام هذا التعارض نقول: إن الختم والطبع والغشاوة المجعولة على أسماعهم وأبصارهم وقلوبهم، عقاب من الله لهم على مبادرتهم للكفر، وتكذيب الرسل باختيارهم ومشيئتهم، فكان عقاب الله لهم بعدم التوفيق جزاءً وفاقًا كما بين في قوله: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[6].

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾[7]. وقوله تعالى:

(١) بتصرف كثير من التحرير والتنوير ١/ ٢٤٨.

(٢) سورة البقرة، آية ٧.

(٣) سورة فصلت، آية ١٧.

(٤) سورة البقرة، آية ١٧٥.

(٥) سورة الكهف، آية ٢٩.

(٦) سورة النساء، آية ١٥٥.

(٧) سورة المنافقون، آية ٣.

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾[3]. وغير ذلك من الآيات[4].

والكل واقع بقدر الله وأنه تعالى هدى ووفق البعض، وأضل وخذل البعض في التقدير والتكوين، فما كان من الختم ونحوه باعتبار ما لهم من الميل والاكتساب والقدرة على الفعل والترك التي هي دون الخلق، فالله تعالى قدَّر الشرور، وأوجد في الناس القدرة على فعلها، ولكنه نهاهم عنها؛ لأنه تعالى أوجد في الناس القدرة على تركها أيضًا، فلا تعارض بين القدرة والتكليف، ولا منافاة بين الآيات. والله أعلم.

٥- النار بين التعريف والتنكير:

قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾[5].

تدل هذه الآية بظاهرها على أن هذه النار كانت معروفة عندهم بهذه الصفات بدليل (أل) التي هي للعهد، وقد قال في سورة التحريم: ﴿قُوٓا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾[6]. بتنكير نار وهذا يدل على أنها لم تكن معروفة عندهم بهذه الصفات.

فما وجه الجمع بين الآيتين؟

لم يكونوا يعلمون صفات النار هذه وأن الناس والحجارة وقود لها، فلما نزلت آية التحريم عرفوا منها ذلك، ثم إنها لما كانت معروفة عندهم نزلت آية البقرة فعرفت فيها النار بـ(أل) التي هي للعهد؛ لأنها معهودة عندهم من آية التحريم. وذكر البيضاوي في تفسيره ما يفيد ذلك[7].

---

(١) سورة الأنعام، آية ١١٠.

(٢) سورة الصف، آية ٥.

(٣) سورة البقرة، آية ١٠.

(٤) دفع إيهام الاضطراب ص ٩ - ١٠.

(٥) سورة البقرة، آية ٢٤.

(٦) سورة التحريم، آية ٦.

(٧) أنوار التنزيل ١/٣٦، وانظر: دفع إيهام الاضطراب ص ١٣ بتصرف.

٦- بدء خلق الأرض والسماوات وترتيب خلقهما:

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾(١).

تدل هذه الآية بظاهرها على أن خلق الأرض كان قبل خلق السماء بدليل لفظة: ﴿ثُمَّ﴾ التي هي للترتيب والانفصال. وكذلك آية: ﴿حمٓ﴾ السجدة فإنها تدل بظاهرها على أن خلق الأرض قبل خلق السماء: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾..(٢) الآية. مع أن آية النازعات: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾(٣) تدل على أن خلق السماء كان أولًا ثم كان دَحْوُ الأرضِ بعد خلق السماء.

فما وجه التوفيق بين هذه الآيات؟

للتوفيق بين الآيات المذكورة وإزالة ما يوهم التعارض نقول ما خلاصته:

قال الشنقيطي: «إن ابن عباس سئل عن الجمع بين آية السجدة وآية النازعات فأجاب: بأن الله تعالى خلق الأرض أولًا قبل السماء غير مدحوة، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات في يومين، ثم دحا الأرض بعد ذلك وجعل فيها الرواسي والأنهار وغير ذلك، فأصل خلق الأرض قبل السماء، ودحوها بجبالها وأشجارها ونحو ذلك بعد خلق السماء، ويدل لهذا قوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾. ولم يقل خلقها، ثم فسر دحو الأرض بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ الآية.

وهذا الجمع لا إشكال فيه فهو ظاهر من خلال النصوص القرآنية غير أنه يرد إشكال أن قوله: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾. يفيد أن جميع ما في الأرض مخلوق قبل السماء.

(١) سورة البقرة، آية ٢٩.

(٢) سورة فصلت، الآيات ٩ – ١١.

(٣) سورة النازعات، الآيات ٢٧ – ٣٠.

وقد أجاب الشنقيطي عن هذه الشبهة بأن المراد بخلق جميع ما في الأرض، والخلق اللغوي الذي هو التقدير، لا الخلق بالفعل الذي هو الإبراز من العدم إلى الوجود، والعرب تسمي التقدير خلقًا؛ يصدق هذا قوله تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾. ثم قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾. كما أنه لما خلق بالفعل لوجود أصله، يدل على ذلك إطلاق الخلق على الفرع، وإن لم يكن بالفعل موجودًا في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟﴾[(١)]. أي: خلقنا أباكم آدم، ثم صورناه الذي هو أصلكم، كما أنه قد يكون معنى ﴿بَعْدَ﴾ في ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ بمعنى (مع) نظيره قوله: ﴿عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾[(٢)]. أي: مع، وعلى ذلك فلا إشكال ولا إيهام»[(٣)].

ويلخص ابن عطية المسألة فيقول: وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ﴾. ثم هنا هي لترتيب الأخبار لا لترتيب الأمر في نفسه. و﴿ٱسْتَوَىٰٓ﴾: علا، دون تكييف ولا تحديد كما قال الطبري: والتقدير علا أمره وقدرته وسلطانه[(٤)].

ويزيد ابن قتيبة المسألة إيضاحًا فيقول: «وليس على كتاب الله تحريف الجاهلين وغلط المتأولين، وإنما كان يجد الطاعن متعلقًا ومقالًا لو قال: والأرض بعد ذلك خلقها أو ابتدأها أو أنشأها، إنما قال: ﴿دَحَىٰهَآ﴾ فابتدأ الخلق والأرض على ما في الآية الأولى لقوله: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾. ثم خلق السماوات وكانت دخانًا في يومين، ثم دحا بعد ذلك الأرض؛ أي: بسطها ومدها وكانت ربوة مجتمعة وأرساها بالجبال وأنبت فيها النبات في يومين، فتلك ستة أيام سواء للسائلين. وهو معنى قول ابن عباس[(٥)].

---

(١) سورة الأعراف، آية ١١.

(٢) سورة القلم، آية ١٣.

(٣) دفع إيهام الاضطراب ص ١٤، ١٥ بتصرف.

(٤) تفسير المحرر الوجيز ١/ ٢٢٣.

(٥) تأويل مشكل القرآن ص ٦٧.

٧- دلالة المفرد على الجمع:

قوله تعالى ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾[١].

ووجه الإيهام هنا جاء من خطاب الجمع في قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ﴾. وقوله: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ﴾. والحال أنه أفرد لفظ كافر في قوله: ﴿أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ﴾.

فما وجه التوفيق؟

نقول: معنى قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ﴾. أي: أول فريق كافر. فاللفظ مفرد والمراد الجمع، فيجوز لغة مراعاة كل منهما، وقد جمع اللغتان في قول القائل:

فإذا هُمُ طَعِمُوا فَألأَمُ طَاعِمٍ ... وإذَا هُمُ جَاعُوا فَشَرُّ جِياعِ[٢]

أو هو من إطلاق المفرد وإرادة الجمع[٣].

ويقول ابن عاشور: وإضافة ﴿أَوَّلَ﴾ إلى ﴿كَافِرِۭ﴾ بيانية تفيد معنى فريق هو أول فريق الكافرين، وليس المقصود نهيهم عن أن يكونوا أول كافر، بل المقصود أن يكونوا أول المؤمنين. يستفاد ذلك بطريق الكناية التلويحية؛ لأن وصف ﴿أَوَّلَ﴾ أصله السابق غيره في عمل ما، والنهي عن أن يكونوا أول الكافرين يستلزم أن يكونوا أول المؤمنين.

وقوله: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾. عطف على النهي الذي قبله وهو موجه إلى علماء بني إسرائيل، وهم قدوة قومهم، فهم صدوا قومهم عن قبول الإسلام حفاظًا على رئاستهم في قومهم؛ لذا قال عليه الصلاة والسلام: «**لو آمن بي عشرة من اليهود لآمن بي اليهود**»[٤].

---

(١) سورة البقرة، آية ٤١.

(٢) البيت في جامع البيان للطبري ١/ ٥٦٢، ولم ينسب لقائل.

(٣) دفع إيهام الاضطراب ص ١٩.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأمصار، باب إتيان اليهود النبي ﷺ حين قدم المدينة ٤/ ٢٦٩، وانظر: التحرير والتنوير ١/ ٤٦٠.

٨- دِلَالَة الظَّن على اليقين:

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾[١].

وجه الإيهام هنا أن هذه الآية تدل بظاهرها على أن الظن يكفي في أمور المعاد، وقد جاءت آيات أخر تدل على خلاف ذلك، وأن الظن لا يكفي في أمور اليقين، كما هو مقرر في المسائل الاعتقادية؛ منها قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾[٢]. وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[٣].

فما وجه الجمع بين هذه الآيات لإزالة إيهام التعارض؟

نقول: إن الظن هنا بمعنى اليقين.. والعرب تطلق الظن وتريد اليقين أو الشك، وإتيان الظن بمعنى اليقين كثير في القرآن الكريم وفي كلام العرب، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾[٤]. وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾[٥]. وقوله تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾[٦]. وقوله تعالى: ﴿إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾[٧]. فالظن في هذه الآيات بمعنى اليقين.

وقول دريد بن الصمة:

فَقلتُ لَهُمْ ظُنُّوا بِأَلْفَي مُدَجَّجٍ ... سَرَاتُهم فِي الْفَارِسِيِّ الْمُسَرَّدِ

أي: أيقنوا[٨].

---

(١) سورة البقرة، آية ٤٦.

(٢) سورة النجم، آية ٢٨.

(٣) سورة البقرة، آية ٧٨.

(٤) سورة البقرة، آية ٤٦.

(٥) سورة البقرة، آية ٢٤٩.

(٦) سورة الكهف، آية ٥٣.

(٧) سورة الحاقة، آية ٢٠.

(٨) دفع إيهام الاضطراب ص ٢٠.

قال ابن عطية: يظنون في هذه الآية قال الجمهور: معناه يوقنون[1]، والعلم والمعرفة واليقين مترادفة على معنى واحد، وهو الاعتقاد الجازم عن دليل، وقد يطلق الظن على العلم كما يطلق العلم على الظن، وهذا الاستعمال متعارف عند أهل اللغة والشرع.

وعن مجاهد: كل الظن في القرآن الكريم فهو يقين، ولعله يريد الظن المتعلق بالآخرة، وقال أيضًا: والظن في كلام العرب قاعدته الشك مع ميل إلى أحد معتقديه، وقد يوقع الظن موقع اليقين في الأمور المتحققة، أي: الثابتة عقلًا وشرعًا[2].

٩- بقاء الإناث في يد العدو من جملة التعذيب:

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾[3].

جاء في **دفع إيهام الاضطراب** ما خلاصته: أن هذه الآية تدل بظاهرها على أن استحياء النساء كان من جملة العذاب الذي كان يسوم به فرعون بني إسرائيل رجالًا ونساء، وقد جاء في آية أخرى ما يدل على أن الإناث هبة من الله تعالى لمن أعطاهن لهم. وذلك قوله تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾[4]. فبقاء بعض الأولاد على هذا خير من موتهم كلهم[5].

ولإزالة هذا الإيهام نقول:

إن بقاء الإناث في يد العدو يفعل بهن ما يَشَاءُ مِن الإِذْلَالِ وغيره لهو من أشد ألوان العذاب على النفوس الكريمة التي لا تعرف الضيم، فموتهن أكرم لهن ولآبائهن من بقائهن تحت يد العدو على هذه الصورة، ولا ينافي هذا كونهن هبة من الله تعالى.

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٢٧٨.

(٢) المرجع السابق.

(٣) سورة البقرة، آية ٤٩.

(٤) سورة الشورى، آية ٤٩.

(٥) دفع إيهام الاضطراب ص ٢١.

وقد أشار القرآن الكريم إلى أن إهانة الأبناء يسيء إلى الآباء في حياتهم وبعد مماتهم، قوله تعالى في سُورة النِّساء: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾[(١)]. ومن هنا كانت بعض القبائل العربية في الجاهلية تئد بناتها خوفًا من العار أو خشية الإملاق، وسفه العرب بسبب هذا: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[(٢)]. وقال قائلهم:

إِنـيَّ وإنْ سِـيقَ إِلـيَّ المهرُ ... ألـف وعـبـدان وذودٌ عـشـرُ

أحبُّ أصهاري إلـيَّ القبـرُ[(٣)]

قال ابن عطية: والصحيح من التأويل أن الأبناء هم الأطفال الذكور، والنساء هم الأطفال الإناث، وعبر عنهن باسم النساء بالمآل، ولأن استخدامهن وامتهانهن إنما يكون عندما يكن نساء، فعبر عن البنات بالنساء لما ذكر، واستحياؤهن ليس بعذاب، ولكنه يئول إلى العذاب؛ أي: إلى إرهاقهن في أعمال شاقة[(٤)].

١٠- قتل اليهود للرُّسُل:

قوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾[(٥)].

هذه الآية بظاهرها تفيد أن بني إسرائيل قتلوا بعض الرسل، ونظيرها قوله تعالى: ﴿قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾[(٦)]. وقوله: ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾[(٧)]. وقد جاء في آيات أخرى أن الرسل منتصرون

---

(١) سورة النساء، آية ٩.

(٢) سورة الأنعام، آية ١٤٠.

(٣) دفع إيهام الاضطراب ص٢٢.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٢٨٦.

(٥) سورة البقرة، آية ٨٧.

(٦) سورة آل عمران، آية ١٨٣.

(٧) سورة المائدة، آية ٧٠.

نحو قوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾[1]. وقوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[2]. وقوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾[3].

فما وجه التوفيق بين هذه الآيات؟

الرسل قسمان:

قسم أمر بالقتال في سبيل الله فقاتل وانتصر وتمت له الغلبة، كسيدنا محمد ﷺ، وداود عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾[4].

وقسم أمر بالصبر والكف عن الناس، وهؤلاء هم الذين قتلوا ليرفع الله من درجاتهم[5].

وبذلك ينتفي إيهام التعارض.

وقوله: ﴿وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ بصيغة المضارع لاستحضار الصور الفظيعة.

١١- تَعَدُّد وُجوه الظلم وتقيدها بالمقام والسِّياق:

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾[6].

الاستفهام في الآية إنكاري، ومعناه النفي، أي: لا أحد أظلم ممن منع مساجد الله. وقد جاءت آيات أخر تفيد خلاف ذلك كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾[7]. وقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾[8]. وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ

(١) سورة المجادلة، آية ٢١.

(٢) سورة الصافات، الآيات ١٧١ – ١٧٣.

(٣) سورة غافر، آية ٥١.

(٤) سورة البقرة، آية ٢٥١.

(٥) دفع إيهام الاضطراب ص ٢٤.

(٦) سورة البقرة، آية ١١٤.

(٧) سورة الأنعام، آية ٢١.

(٨) سورة الزمر، آية ٣٢.

رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا﴾[1].

فكيف التوفيق بين هذه الآيات؟

للتوفيق بين الآيات المذكورة وإزالة ما يوهم التعارض نقول:

أولًا: تخصيص كل موضع بمعنى صلَته، والمعنى: لا أحد من المانعين أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، ولا أحد من المفترين أظلم ممن أفترى على الله كذبًا. وإذا تخصصت الآيات بصلاتها زال الإيهام.

ثانيًا: إن التخصيص بالنسبة إلى السبق؛ أي: لما لم يسبقهم أحد على هذا الظلم حكم عليهم بأنهم أظلم ممن جاء بعدهم سالكًا طريقهم.

ثالثًا: ما قاله أبو حيان ما حاصله: أن نفي التفضيل لا يستلزم المساواة، فلم يكن أحد ممن وصف بذلك يزيد على الآخر؛ لأنهم يتساوون في الأظلمية، فيصير المعنى: لا أحد أظلم ممن منع مساجد الله، وممن افترى على الله كذبًا، وممن كذب بآيات الله. ومن ثم فلا إشكال في تساوي هؤلاء في الأظلمية. وأيضًا فلا دلالة على أن أحدهم أظلم من الآخر، فكلهم متساوون في الظلم كل حسبما اقترف[2].

والآية - كما يقول ابن عاشور في **التحرير والتنوير** - نازلة في مشركي العرب كما في رواية عطاء عن ابن عباس، وهي تشير إلى منع أهل مكة النبي والمسلمين من دخول مكة، كما جاء في حديث سعد بن معاذ حين دخل مكة خفية، وقال أبو جهل: لا أراك تطوف بالبيت آمنًا وقد أوتيتم الصباء. وتكرر ذلك عام الحديبية، ولما كان الاستفهام الإنكاري في معنى النفي صار الكلام من وقوع النكرة في سياق النفي، فذلك فسر بمعنى لا أحد أظلم[3]، وإنما كانوا أظلم الناس لأنهم منعوا المسلمين دخول المسجد الحرام، وهم أحق الناس به، وجمع المسجد للتعظيم أو لتعدد أماكن العبادة كمقام إبراهيم، والحطيم، والخيف، والمشعر الحرام

(١) سورة الكهف، آية ٥٧.

(٢) دفع إيهام الاضطراب ص ٢٥ بتصرف.

(٣) التحرير والتنوير ١/ ٦٧٨.

ونحوها. والمراد من المنع منع العبادة في أوقاتها الخاصة بها، كالطواف والجماعة.

١٢- إفراد المشرق والمغرب وجمعهما:

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾[٢].

ووجه الإيهام هنا أنه تعالى أفرد في هاتين الآيتين المشرق والمغرب.. وثناهما في سورة الرحمن في قوله: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾[٣]. وجمعهما في سورة المعارج في قوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾[٤]. وجمع المشارق في سورة الصافات في قوله: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾[٥].

فما وجه التوفيق بين هذه الآيات؟

للتوفيق وإزالة إيهام التعارض نقول: إن المراد من قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾.. هو جنس المشرق وجنس المغرب فهو صادق على كل مشرق من مشارق الشمس، وعلى كل مغرب من مغاربها عدد أيام السنة شروقًا وغروبًا.. كما ورد معنى هذا عن قتادة والسدي ومجاهد[٦].

وقال الإمام أحمد: أما قوله: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾. فهذا اليوم الذي يستوي فيه الليل والنهار أقسم الله بمشرقه ومغربه. وأما قوله: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾. فهذا أطول يوم في السنة، وأقصر يوم في السنة، أقسم الله بمشرقهما ومغربهما. وأما قوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾. فهو مشارق السنة ومغاربها[٧].

(١) سورة البقرة، آية ١١٥.
(٢) سورة الشعراء، آية ٢٨.
(٣) سورة الرحمن، آية ١٧.
(٤) سورة المعارج، آية ٤٠.
(٥) سورة الصافات، آية ٥.
(٦) الدر المنثور ٧/ ٧٩.
(٧) الرد على الجهمية والزنادقة للإمام أحمد ص٩١.

يقول ابن عاشور: «الآية تسلية للمؤمنين على خروجهم من مكة. ونكاية للمشركين لابتهاجهم بخروج المؤمنين من مكة.. وانفرادهم بها.. فبين الله تعالى أن الأرض كلها لله تعالى، وأنها ما تفاضل جهاتها إلا بكونها مظنة للتقرب إليه تعالى»[1].. فالمراد من المشرق والمغرب في الآية تعميم جهات الأرض.. وتقديم الجار والمجرور للاختصاص.

١٣-معقولية الكفار بين النَّفي والإثبات:

قوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[2].

تدل هذه الآية بظاهرها على أن الكفار لا عقول لهم أصلًا؛ لأن قوله: ﴿شَيْـًٔا﴾ نكرة - وهي في سياق النفي - تفيد العموم كما هو معروف لغة. وقد أفادت آيات أخرى أن الكفار لهم عقول يعقلون بها في الدنيا كقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾[3]. كما أنه في الواقع الذي نعيشه نرى أن لهم عقولًا في شتى نواحي الحياة.. في الاختراعات وكل الأعمال الدنيوية.

فما وجه التوفيق بين هذه الصفات؟

إن الكفار يعقلون كل شيء من أمور الدنيا.. يعقلون أمور الزراعة والصناعة ويخترعون الاختراعات ووصلوا إلى القمر.. ولكنهم عُمْيُ البصيرة عن أمور الآخرة.. فلا يستعملون عقولهم فيما يتعلق بها. وهم كما قال الله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾[4]. والآية ذم للذين أبوا أن يتبعوا ما أنزل الله[5].

---

(١) التحرير والتنوير ١/ ٦٨٢ باختصار.

(٢) سورة البقرة، آية ١٧٠.

(٣) سورة العنكبوت، آية ٣٨.

(٤) سورة الروم، آية ٧. وانظر: دفع إيهام الاضطراب ص ٣٢.

(٥) روح المعاني للألوسي ٢/ ٤٠.

١٤- كلام الله للكفار بين النفي والإثبات:

قوله تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾(١).

تدل هذه الآية بظاهرها على أن الله لا يكلم الكفار يوم القيامة؛ لأن فعل ﴿يُكَلِّمُهُمُ﴾ واقع في سياق النفي، وذلك مفيد للعموم كما تقرر. وقد جاءت آيات أخرى تفيد أن الله يكلم الكفار يوم القيامة كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ١٠٧ قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾(٢).

ولإزالة إيهام التعارض بين الآيات نقول: تتلخص الإجابة في أمرين:

الأمر الأول: أن الكلام المنفي هو كلام الرضى من الله لهم، وأما الكلام الذي فيه توبيخ وتقريع فواقع؛ لأنه نوع من العذاب، وذلك غير داخل في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ﴾.

الأمر الثاني: أن الذين تكلمهم الملائكة بإذن من الله وأمرِه، والأول أصح(٣).

يقول ابن عاشور في **التحرير والتنوير**: قوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾. نفي للكلام والمراد به لازم معناه وهو الكناية عن الغضب، فالمراد نفي كلام التكريم فلا ينافي قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾(٤). فالآية كناية عن ذمّهم.

ويقول الألوسي كلامًا قريبًا من هذا، فيقول: أي كلام رحمة كما قال الحسن، فلا ينافي سؤاله سبحانه إياهم، أو: لا. يكلمهم أصلًا لمزيد غضبه جلَّ وعلا، والسؤال بواسطة الملائكة(٥).

---

(١) سورة البقرة، آية ١٧٤.

(٢) سورة المؤمنون، الآيتان ١٠٧، ١٠٨.

(٣) دفع إيهام الاضطراب ص ٣٤.

(٤) سورة الحجر، آية ٩٢، وانظر: تفسير التحرير والتنوير ٢/ ١٢٤.

(٥) روح المعاني ٢/ ٤٤.

١٥- الدُّخول في الإسلام بغير إكراه أو بإكراه:

قوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾(١).

تدل هذه الآية بظاهرها على أنه لا يُكرَه أحدٌ على الدُّخولِ في الإسلام.. ونظيرها قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾(٢). وقوله تعالى: ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ﴾(٣).

وقد جاءت آيات كثيرة تفيد إكراه الكفار على الدخول في الإسلام؛ كقوله تعالى: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَ﴾(٤). وقوله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾(٥). أي: شرك. ويعاضد تلك الآيات وتفسيرها الحديث الصحيح: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله...**» الحديث(٦).

فما وجه التوفيق بين الآيات؟

لإزالة ما يوهم التعارض، وللتوفيق بين الآيات نقول: لا تعارض بين هذه الآيات ولا غيرها فقوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾. في خصوص أهل الكتاب على اختلاف عقائدهم، والمعنى أنهم قبل قتالهم لا يُكرَهُون على الدين مطلقًا، وبعد قتالهم يخيرون بين الجزية والقتال والإسلام.

وقد أخرج ابن جرير الطبري عن ابن عباس قال: نَزَلَت ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ في رجلٍ من الأنصار من بني سالم بن عوف، يقال له: الحصين، كان له ابنان نَصْرانِيَّان وكان هو مسلمًا فقال للنبي ﷺ: ألا أستكرههما؟ فإنهما قد أبيا إلا النصرانية. فأنزل الله فيه ذلك(٧).

(١) سورة البقرة، آية ٢٥٦.
(٢) سورة يونس، آية ٩٩.
(٣) سورة الشورى، آية ٤٨.
(٤) سورة الفتح، آية ٤٨.
(٥) سورة البقرة، آية ١٩٣.
(٦) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله ١/ ٥١ ح٣٢.
(٧) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٥/ ٤٠٩.

ومما يدل على أن الآية في أهل الكتاب ما رواه أبو داود، وابن أبي حاتم، والنسائي، وابن حبان، وابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت المرأة تكون مقلاة، فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار.. فقالوا: لا ندع أبناءنا.. فأنزل الله: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾[1]. والمقلاة التي لا يعيش لها ولد، وفي المثل: (أحرُّ من دمع المقلاة).

وأخرج ابن جرير عن الضحاك في قوله: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾. قال: أمر رسول الله ﷺ أن يقاتل جزيرة العرب من أهل الأوثان، فلم يقبل منهم إلا لا إله إلا الله أو السيف، ثم أمر فيمن سواهم أن يقبل الجزية فقال: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾[2].

فهذه النقول وغيرها تدل على أن ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ هي في خصوص أهل الكتاب المعطين للجزية ومن في حكمهم، ولا يرد على ذلك أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ومما يدل على الخصوص أنه ثبت في الصحيح: «**عجب الله من قوم يدخلون الجنة في السلاسل**»[3].

أمر ثان: أنها منسوخة بآيات القتال كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ﴾[4]. ومعلوم أن سورة البقرة من أول ما نزل بالمدينة، وسورة براءة من آخر ما نزل بها.. والقول بالنسخ مروي عن زيد بن أسلم وغيره[5].. وعلى كل حال فآيات السيف نزلت بعد نزول سورة البقرة.. والمتأخر أولى من المتقدم[6].

وأحسن الأقوال: أن الإسلام لا يكره الأفراد على اعتناق عقيدته وإن كان يحارب أنظمة الكفر ليكسر الحواجز، ويذهب الموانع عن الأفراد، ثم يخير كل فرد ما يختار من

(١) المرجع السابق، والدر المنثور للسيوطي ٢/ ٢٠.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٥/ ٤١٣.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الأسارى في السلاسل ٤/ ٢٠.

(٤) سورة التوبة، آية ٥.

(٥) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٥/ ٤١٤.

(٦) دفع إيهام الاضطراب ص ٤٤ - ٤٦ بتصرف.

العقائد، فإن شاء آمن وأسلم فسقطت عنه الجزية، وإن بقي على عقيدته دفع الجزية عن يد وهو صاغر[١].

١٦- التكليف على الظاهر والباطن أو على الأفعال والخواطر:

قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾[٢].

تدل هذه الآية بظاهرها على أن الإنسان محاسب على خواطر نفسه ومؤاخذ بها. مع أنه لا قدرة له على دفعها.. وقد جاءت آيات أخرى تفيد أن الإنسان لا يكلف إلا بما يطيق كقوله تعالى في ذات السورة: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[٣].. الآية، وقد نزلت هذه الآية عندما فزع أصحاب رسول الله ﷺ عند نزول الآية الأولى.. وقالوا: كيف نتحكم في خواطر أنفسنا؟ فنزلت آية: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[٤].. وقال عليه الصلاة والسلام: «**إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به نفسها ما لم تعمل أو تتكلم**»[٥].. ولقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾[٦].. والآية الأولى على ذلك منسوخة، فقد أخرج البخاري عن مروان الأصغر، عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ - وهو ابن عمر - أنها قد نسخت: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾. قال: نسختها الآية التي بعدها[٧]..

وهناك من يقول: إن الآية محكمة.. والمراد من النسخ البيان وإيضاح المراد، كأنه قيل: كيف يحمل ما في أنفسكم على ما يعم الوساوس الضرورية.. وهو يستلزم التكليف بما ليس في الوسع، والله لا يكلف نفسًا إلا وسعها[٨]؟

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ١/ ٢٩٣ - ٢٩٥ بتصرف.
(٢) سورة البقرة، آية ٢٨٤.
(٣) سورة البقرة، آية ٢٨٦.
(٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري ٦/ ١١١.
(٥) صحيح البخاري، كتاب الطلاق في الإغلاق والمكره والسكران والمجنون.
(٦) سورة البقرة، آية ٢٥٥.
(٧) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ آية ٢٨٤، ٥/ ١٦٥.
(٨) روح المعاني للألوسي ٣/ ٦٤، ٦٥ بتصرف.

والراجح أن الآية الأولى منسوخة على ما جاء في حديث أخرجه مسلم وأحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه لما أنزلت: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ جثى أصحاب رسول الله ﷺ على الركب، وقالوا: يا رسول الله، كلفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة، والصوم، والجهاد والصدقة، وقد أنزل الله تعالى عليك هذه الآية ولا نطيقها. فقال رسول الله ﷺ: «**أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتاب من قبل: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير**». فلما اقترأها القوم ذلت بها ألسنتهم أنزل الله تعالى في إثرها: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾ الآية، فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى فأنزل سبحانه: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾(١). وصح مثل ذلك عن علي - كرم الله تعالى وجهه - وابن عباس، وابن مسعود، وعائشة رضي الله عنهم(٢).

****

---

(١) صحيح مسلم كتاب الإيمان، باب بيان أنه سبحانه وتعالى لم يكلف إلا ما يطاق ١/ ١١٥.

(٢) الدر المنثور للسيوطي ٢/ ١٢٧- ١٢٩.

سورة آل عمران

١٧- المحكم والمتشابه من القرآن:

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾(١).

أفادت هذه الآية الكريمة بظاهرها أن القرآن الكريم منه المحكم، ومنه المتشابه.. علمًا بأنه جاءت آيات أخرى تفيد أنه كله محكم.. وأنه كله متشابه وذلك في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾(٢). فهذه الآية تدل على أنه كله محكم، وجاء ما يدل على أنه كله متشابه في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾(٣).

فما وجه التوفيق بين هذه الآيات؟

لإزالة هذه الإيهام وللتوفيق بين الآيات. نقول: إن معنى كونه محكمًا أنه - أي القرآن - في غاية الإحكام والإتقان والسبك في ألفاظه ومعانيه وإعجازه، فأخباره صدق، وأحكامه غاية في العدل ليس بينها متناقضات ولا خلل، لا في الألفاظ ولا في المعاني؛ لقوله: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾(٤). ولقوله: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾(٥). ومعنى كونه متشابهًا أي أن آياته يشبه بعضها بعضًا في الحسن والصدق والجمال والكمال والإعجاز والسلامة من جميع العيوب. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ

---

(١) سورة آل عمران، آية ٧.

(٢) سورة هود، آية ١.

(٣) سورة الزمر، آية ٢٣.

(٤) سورة فصلت، آية ٤٢.

(٥) سورة النمل، آية ٨٨.

حَدِيثًا ﴾(١). وقال: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾(٢). ومعنى كون بعضه محكمًا وبعضه متشابهًا، أن المحكم كله واضح المعنى لكل الناس: العالم وغير العالم، بل ربما غير المسلم، كقوله: ﴿ لَا تَقْرَبُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ ﴾(٣). وقوله: ﴿ وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾(٤). والمتشابه ما خفي علمه على غير الراسخين في العلم - بناء على أن الواو عاطفة - أو هو مما استأثر الله بعلمه كالحروف المقطعة في أول السور - وذلك بناء على أن الواو في قوله: ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ ﴾(٥). استئنافية لا عاطفة(٦).

وخلاصة القول: أنه لا تعارض إطلاقًا بين كون القرآن كله محكمًا. أو كله متشابهًا أو بعضه محكمًا وبعضه متشابهًا.

ولابن قتيبة كلام حول المتشابه نذكر خلاصته لتعم الفائدة: وهو أن المراد من إنزال المتشابه أن القرآن نزل بألفاظ العرب ومعانيها ومذاهبها في الإيجاز والاختصار، والإطالة والتوكيد والإشارة إلى الشيء وإغماض بعض المعاني - حتى لا يظهر عليه أي: يطلع عليه ويعرفه إلا اللقن أي: سريع الفهم - الظاهر بعضها، وضرب الأمثال لما خفي.. ودلالة ذلك قوله: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ ﴾(٧). وقوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾(٨). فلو كان القرآن كله ظاهرًا مكشوفًا حتى يستوي في معرفة الغرض منه العالم والجاهل لبطل التفاضل بين الناس، وسقطت الحاجة، وماتت الخواطر، وتعطل الجهاد، ومع الحاجة تقع الفكرة، والحاجة تفتق الحيلة كما يقولون، ومع الكفاية يقع العجز والبلادة..

(١) سورة النساء، آية ٨٧.
(٢) سورة النساء، آية ١٢٢.
(٣) سورة النساء، آية ٤٣.
(٤) سورة النساء، آية ٣٦.
(٥) سورة آل عمران، آية ٧.
(٦) دفع إيهام الاضطراب ص ٤٧، ٤٨.
(٧) سورة الزمر، آية ٢٨.
(٨) سورة يوسف، آية ٢.

وقالوا: عيب الغنى أنه يورث البله.. وفضل الفقر أنه يبعث الحيلة، وكل علم من العلوم منه الجليّ ومنه الخفيّ؛ ليرتقي المتعلم رتبة بعد رتبة حتى يبلغ منتهاه، ويدرك أقصاه، ولتكون للعالم فضيلة النظر.. وحسن الاستخراج، ولتقع المثوبة من الله على حسن العناية..

فلو كان كل علم شيئًا واحدًا، لم يكن عالم ولا متعلم، ولا خفيّ ولا جليّ؛ لأن فضائل الأشياء تعرف بأضدادها.. فإنه لا يعرف الحلو إلا بالمر، والباطن إلا بالظاهر، والعافية إلا بالمرض، وهكذا.

ومن هذا قول الرسول ﷺ: «**تجدون الناس كإبل مائة لا يجد الرجل فيها راحلة**»(١). وقوله ﷺ: «**الكاسيات العاريات لا يدخلن الجنة**»(٢). ومن هذا كله نعلم أنه لا تعارض بين الآيات سالفة الذكر بين المحكم والمتشابه.

والقرآن منزه عن التعارض بين آياته، والمتشابه كان يعلمه رسول الله، ولا يتعارض هذا مع قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾(٣).

وإذا جاز ذلك.. جاز أن يعلمه الربانيون من صحابته.. فقد علم التفسير.. ودعا لابن عباس رضي الله عنهما بقوله: «**اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل**»(٤). وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: كل القرآن أعلمه إلا أربعًا: غسلين، وحنانًا، والأوان، والرقيم(٥). ثم علم ذلك.

وأصل التشابه أن يشتبه اللفظ في الظاهر.. والمعنيان مختلفان. قال تعالى في وصف ثمر

(١) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: «الناس كإبل» ٢/ ١٩٧٣ ح ٢٥٤٧.
(٢) صحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون ٣/ ٢١٩٢ ح ٢١٢٨.
(٣) سورة آل عمران، آية ٧.
(٤) أخرجه أحمد في مسنده ٤/ ١٢٧ح ٢٣٩٧، وإسناده صحيح، والحديث في مجمع الزوائد ٩/ ٢٦٧.
(٥) تأويل مشكل القرآن ص ٩٩.

الجنة: ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗا﴾[1]. أي: متفق المناظر مختلف الطعوم. وقوله تعالى: ﴿تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ﴾[2]. أي: يشبه بعضها بعضًا في القسوة والكفر[3].

وخلاصة القول: أنه لا تعارض بين المحكم والمتشابه، وقد ذهب الأحناف كما يقول الألوسي: إلى أن المحكم الواضح الظاهر الدلالة الذي لا يحتمل النسخ، والمتشابه الخفي الذي لا يدرك معناه عقلًا ولا نقلًا.. وهو ما استأثر الله تعالى بعلمه، كقيام الساعة والحروف المقطعة في أوائل السور[4].

وعلى ذلك أيضًا يمتنع التعارض بين الآيات.

١٨- وفاة عيسى عليه السلام ورفعه إلى السماء:

قوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾[5].

تفيد هذه الآية الكريمة بظاهرها وفاة عيسى عليه السلام.. وقد جاء في بعض الآيات ما يدل على خلاف ذلك كقوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾[6]. وقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ﴾[7]. وقد فسر ابن عباس وأبو هريرة رضي الله عنهم والعلماء من بعدهما قوله: ﴿قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ﴾. أي: قبل موت عيسى عليه السلام.

فما وجه التوفيق بين هذه الآيات؟

نقول: قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾.

---

(١) سورة البقرة، آية ٢٥.

(٢) سورة البقرة، آية ١١٨.

(٣) تأويل مشكل القرآن ص ٨٦ - ١٠١ بتصرف.

(٤) روح المعاني للألوسي ٣/ ٨٢.

(٥) سورة آل عمرن، آية ٥٥.

(٦) سورة النساء، الآيتان ١٥٧، ١٥٨.

(٧) سورة النساء، آية ١٥٩، وانظر تفسير ابن كثير ١/ ٦١٤.

يفيد يقينًا الوفاة، لكن لا يفيد تعيين الوقت، أو أن ذلك اليوم قد مضى، وعطف قوله: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾. على قوله: ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾. لا دليل فيه على الوفاة؛ لقول جمهور العلماء أهل اللسان العربي: إن الواو - لا تقتضي ترتيبًا ولا جمعًا - وإنما هي تفيد مطلق التشريك خلافًا لمن قال: إنها تفيد الترتيب.. وقول رسول الله ﷺ: «**أبدأ بما بدأ الله به**»[1]. يعني الصفا. لا دليل فيه على اقتضائها الترتيب، وبيان ذلك ما قاله الفهري وذكره عنه صاحب **الضياء اللامع**، وهو أنها - أي الواو - لا تقتضي الترتيب ولا المعية.. فكذلك لا تقتضي المنع منهما، فقد يكون العطف بها مع قصد الاهتمام بالأول كقوله: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾[2]. وبدليل الحديث «**أبدأ بما بدأ الله به**». وقد يراد به المعية كقوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾[4].. ولكن لا تحمل على الترتيب.. ولا على المعية.. إلا بدليل منفصل.

ثانيًا: قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾. أي: منيمك. ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾. أي: في تلك النومة، وقد جاء في القرآن إطلاق الوفاة على النوم في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾[5]. وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾[6]. وذكر ابن كثير ذلك مستدلًا بهاتين الآيتين.. وبقوله ﷺ: «**الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا**»[7].

ثالثًا: قوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾. اسم فعل توفاه إذا قبضه وحازه إليه، ومن ذلك قولهم: توفى فلان دينه إذا قبضه إليه، وعلى ذلك فيكون معنى ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ على هذا - قابضك منهم إليّ

(١) صحيح مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ ١/ ٨٨٨ ح ١٢١٨.

(٢) سورة البقرة، آية ١٥٨.

(٣) سورة العنكبوت، آية ١٥.

(٤) سورة القيامة، آية ٩.

(٥) سورة الأنعام، آية ٦٠.

(٦) سورة الزمر، آية ٤٢.

(٧) صحيح البخاري كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا نام، ومسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ٣/ ٢٠٨٣.

حيًّا. وقد اختار ابن جرير هذا القول[1].

ويلخص الألوسي المسألة قائلًا: أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال: هذا من المقدم والمؤخر، أي: رافعك إليَّ ومتوفيك، وهذا التأويل اقتضاه مخالفة ظاهر الآية للمشهور المصرح به في آية النساء، وفي قوله - عليه الصلاة والسلام -: «**إن عيسى لم يمت، وإنه راجع إليكم قبل يوم القيامة**». أو أن الكلام كناية عن عصمته من الأعداء وما هم بصدده من الفتك به عليه السلام، أو أن المراد آخذك بروحك وببدنك وافيًا، فيكون قوله: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾. كالمفسر لما قبله[2]. ويقول القرطبي: إن الله تعالى رفعه من غير وفاة ولا نوم، وهو اختيار الطبري والرواية الصحيحة عن ابن عباس رضي الله عنهما [3]، وعلى كل تأويل.. فلا منافاة بين الآيات.

١٩- إبراهيم - عليه السلام - حنيفًا مسلمًا:

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[4].

أفادت هذه الآية الكريمة.. وأمثالها في القرآن الكريم أن إبراهيم عليه السلام لم يكن مشركًا يومًا ما؛ لأن نفي الكون الماضي في قوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. يدل على استغراق النفي لجميع الزمن الماضي، وقد جاء في موضع آخر ما يوهم خلاف ذلك وهو قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ﴾[5]. وقوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا﴾[6]. ومن ظن ربوبية غير الله فقد أشرك بالله..

فما وجه التوفيق بين هذه الآيات؟

لإزالة ما يوهم التعارض، وللتوفيق بين هذه الآيات نقول: إن إبراهيم عليه السلام

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٦/ ٤٥٥، ودفع إيهام الاضطراب ص ٥١ - ٥٣.
(٢) روح المعاني ٣/ ١٧٩.
(٣) الجامع لأحكام القرآن ٤/ ١٠٠.
(٤) سورة آل عمران، آية ٦٧.
(٥) سورة الأنعام، آية ٧٨.
(٦) سورة الأنعام، آية ٧٦.

في هذا كان مناظرًا لقومه لا ناظرًا، ومقصوده جدليّ بحت ليفحم بذلك خصمه، فقد جاراهم بحسب زعمهم، فلو أنكر عليهم من أول الأمر ما يعتقدون لكذبوه، وقوله تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥ﴾[1]. تفيد أنه عليه السلام كان مناظرًا. أما قوله: ﴿لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾[2]. فذلك من باب التواضع واللجوء إلى الله كقوله: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾[3]. وقوله ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسۡلِمَةً لَّكَ﴾[4]. كما أن القرآن شهد ببراءة إبراهيم عليه السلام حيث يقول في آخر الآيات: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾[5]. ولم يظن إبراهيم أبدًا ربوبية الكواكب؛ لأن نصوص القرآن تبطل هذا الظن لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[6]. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[7]. وقد رد ابن كثير على ابن جرير الطبري ما ذكره عن هذه الآيات وأمثالها[8]..

والأحاديث دالة على مقتضى القول الصحيح كحديث: «**كل مولود يولد على الفطرة**»[9]. كما فندت الآيات مزاعم العرب واليهود أنهم على ملة إبراهيم[10].. وبينت أن إبراهيم ما كان يهوديًا ولا نصرانيًا ولا مشركًا، وإنما كان حنيفًا مسلمًا.

وكيف تكون اليهودية والنصرانية من الحنيفية مع خلوها من فريضة الحج؟ وقد فرضه الإسلام على المستطيع، والإسلام فقط هو الحنيفية، فإبراهيم كان مسلمًا، وقوله:

(1) سورة الأنعام، آية ٨٠.
(2) سورة الأنعام، آية ٧٧.
(3) سورة إبراهيم، آية ٣٥.
(4) سورة البقرة، آية ١٢٨.
(5) سورة الأنعام، آية ٧٨.
(6) سورة آل عمران، آية٦٧.
(7) سورة النحل، آية ١٢٣.
(8) تفسير ابن كثير ٢/ ١٦٣.
(9) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين ٢/ ١٠٤.
(10) دفع إيهام الاضطراب ص٥٣-٥٧ بتصرف.

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(1). يدل على أن إبراهيم جاء بالتوحيد وأعلنه إعلانًا لم يترك للشرك مسلكًا إلى نفوس الغافلين، وأقام الكعبة أول بيت وضع للناس، وأعلم تمام العبودية لله بقوله: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي﴾(2). وأخلص العمل والقول لله فقال: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾(3). فلم يكن هناك تعارض قط بين الآيات.

٢٠- توبة الكفار المرتدين:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾(4).

أفادت هذه الآية بظاهرها أن المرتدين بعد إيمانهم المزدادين كفرًا لن تقبل توبتهم إذا تابوا؛ لأنه عبر بـ ﴿لَن﴾ الدالة على نفي الفعل في المستقبل.. وقد جاءت آيات أخرى تدل على أن الله يقبل التوبة من عباده إذا تابوا قبل حضور الموت وقبل طلوع الشمس من مغربها، ومن هذه الآيات قوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾(5). وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾(6). وغير ذلك.

وصرحت الآيات بدخول المرتدين في قبول التوبة في قوله: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. إلى قوله: ﴿أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(7).

---

(1) سورة الأنعام، آية ٧٩.

(2) سورة الأنعام، آية ٨٠.

(3) سورة الأنعام، آية ٨١.

(4) سورة آل عمران، آية ٩٠.

(5) سورة الأنفال، آية ٣٨.

(6) سورة الشورى، آية ٢٥.

(7) سورة آل عمران، الآيات ٨٦ - ٨٩.

فما وجه التوفيق بين هذه الآيات؟

نقول ما خلاصته: المراد من قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾. هم اليهود الذين كفروا برسول الله ﷺ وكانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وأكثر، والأقرب إلى الصواب أن قوله: ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾. يعني: إذا تابوا عند حضور الموت.. بعد إصرارهم على الكفر.. حتى حضور الموت لقوله: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾[1]. فجعل التائب عند حضور الموت والميت على كفره سواء.. وقوله في فرعون: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[2]. وقوله: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾[3]. فالإطلاق الذي في هذه الآية - أي آل عمران - يقيد بقيد تأخير التوبة إلى حضور الموت، وذلك لحمل المطلق على المقيد كما هو مقرر في علم الأصول.

وخلاصة القول: أن التوبة تقبل إذا أخلص فيها صاحبها، وكانت قبل الموت وقبل آيات قيام الساعة، وأن الله يقبل توبة من تكرر منه الكفر إذا أخلص في الإنابة إلى الله، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[4]. والمنافقون داخلون في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾[5]. فلا منافاة بين الآيات، وإن آية آل عمران لا تتعارض مع غيرها.. وهي خاصة بمن مات على الكفر أو تاب عند الغرغرة.

---

(١) سورة النساء، آية ١٨.

(٢) سورة يونس، آية ٩١.

(٣) سورة غافر، آية ٨٥.

(٤) سورة النساء، الآيات ١٤٥، ١٤٦.

(٥) سورة النساء، آية ١٣٧، وانظر: دفع إيهام الاضطراب ص ٥٧ - ٦٦ بتصرف.

٢١-التقوى بين الغاية القصوى والاستطاعة:

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾(١).

تدل هذه الآية على التشديد البالغ في تقوى الله حق تقاته، وقد جاءت آية أخرى تدل على عدم التشديد وهي قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾(٢). ناسخة لقوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾. وقد ذهب إلى هذا القول سعيد بن جبير وغيره كما قال ابن كثير(٣)، كما يمكن القول بأن الآية الثانية مبينة للمقصود من الآية الأولى(٤).

يقول ابن عاشور في **التحرير والتنوير**: «لا نسخ بين الآيتين؛ لأنَّ الاستطاعة هي القدرة والتقوى مقدورة للناس. فلا تعارض بين الآيتين ولا نسخ، والأرْجَح أن الآية الثانية ناسخة للأولى؛ لتفسير ابن مسعود لها: أن يطاع فلا يعصى، ويشكر فلا يكفر، ويذكر فلا ينسى. ورووا أن هذه الآية لما نزلت قالوا: يا رسول الله، من يقوى لهذا؟ فنزل قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾. فنسخت هذه بناء على أن الأمر في الآيتين للوجوب وعلى اختلاف المراد من التقويين»(٥).

٢٢- الحساب على كفر من لم يؤمن بمحمد ﷺ:

قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَا﴾(٦).

تدل هذه الآية على أن الأنصار لم يكن بينهم وبين النار إلا أن يموتوا كافرين مع أنهم كانوا أهل فترة والله تعالى يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾(٧). وقوله: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ

(١) سورة آل عمران، آية ١٠٢.
(٢) سورة التغابن، آية ١٦.
(٣) تفسير ابن كثير ١/ ٤٠٤.
(٤) دفع إيهام الاضطراب ص ٦٦٠.
(٥) التحرير والتنوير ٤/ ٣٠.
(٦) سورة آل عمران، آية ١٠٣.
(٧) سورة الإسراء، آية ١٥.

﴿وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾(١). وقد بين الله تعالى هذه الحجة بقوله في سورة طه: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾(٢). أي: هلَّا أرسلت إلينا رسولًا لنعمل بكتابك. وغير ذلك من الآيات.

فما وجه التوفيق بين هذه الآيات؟

نقول: بعد بعثة رسولنا ﷺ لم يبق هناك عذر لأحد علم ببعثته، فكل من لم يؤمن به ﷺ وقد علم ببعثته ومات على ذلك فليس له إلا النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾(٣). وما يجاب به من البعض من أنه عندهم بقية من إنذار الرسل الماضين فذلك باطل؛ لأن نصوص القرآن مصرحة بأنهم لم يأتهم نذير كقوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾(٤). وغير ذلك من الآيات؛ ومن ثم فلا تعارض ولا إيهام بين الآيات، والآية امتنان على الأنصار بالإيمان بعد الكفر لعلمهم بدخول الكفرة النار، وقد علموا أنهم كانوا على شفاها بدليل الضمير في (منها): ﴿فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾. أي: من النار.

٢٣-عزة المؤمنين لا ينقصها وصفهم بقلة العدد:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾(٥). وقد جاء في آية أخرى وصفه تعالى لهم بالعزة في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾(٦). والعزة والذلة متنافيان.

فما وجه التوفيق بين هذه الآيات؟

نقول: وصفهم بالعزة يرجع لكثرتهم عددًا وعدة، كما حدث في غزوة بني المصطلق.. والعرب يفخرون بذلك، وهذا ما جعل أحد الصحابة يقول قبيل غزوة حنين: لن نهزم اليوم

(١) سورة النساء، آية ١٦٥.

(٢) سورة طه، آية ١٣٤.

(٣) سورة هود، آية ١٧.

(٤) سورة يس، آية ٦، وانظر: دفع إيهام الاضطراب ص ٦٦.

(٥) سورة آل عمران، آية ١٢٣.

(٦) سورة المنافقون، آية ٨.

من قلة[1]. وكان عددهم أكثر من اثني عشر ألفًا، ووصفهم بالذلة يرجع لقلتهم عددًا وعدة كما كانوا في غزوة بدر.. رغم انتصارهم فيها، ويمكن الجمع بينهما باعتبارين، باعتبار حال المسلمين تكون الذلة، وباعتبار النصر لهم تكون العزة، يشير إلى هذا قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ﴾[2]. فالذلة باعتبار، والنصر باعتبار، والجهة منفكة[3].

يقول أبو السعود في تفسيره: وقال: ﴿أَذِلَّةٌ﴾. جمع ذليل، وإنما جُمِع جَمْع قلة إيذانًا باتصافهم حينئذ بوصفي القلة والذلة؛ حيث كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر، وكان ضعف حالهم في الغاية[4].

ويقول الألوسي: «وأذلة جمع قلة لذليل، واختير على ذلائل ليدل على قلتهم مع ذلتهم، والمراد بها عدم العدة لا الذل المعروف، فلا يشكل دخول النبي ﷺ في هذا الخطاب، ولا مانع من المعنى المعروف على أن المراد وأنتم أذلة في أعين غيركم وإن كنتم أعزة في أنفسكم»[5].

وربما يتمشى مع هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾[6].

٢٤-حياة الشهداء التي أشار إليها القرآن:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ﴾[7].

تدل هذه الآية بظاهرها على أن الشهداء أحياء غير أموات، وقد قال في آية أخرى

(١) الدر المنثور للسيوطي ٤/ ١٥٨.

(٢) سورة الأنفال، آية ٤٤.

(٣) دفع إيهام الاضطراب ص ٦٨.

(٤) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٢/ ٧٩.

(٥) روح المعاني ٢/ ٧٩.

(٦) سورة الأنفال، آية ٤٤.

(٧) سورة آل عمران، آية ١٦٩.

لرسول الله وهو أفضل من كل الشهداء: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[1]. وذلك يوهم أن الشهداء أعلى درجة من النبي ﷺ.

ودفعًا لهذا الإيهام نقول: الشهداء يموتون الموتة الدنيوية، فتورث أموالهم وتنكح نساؤهم، وهذه الموتة يموتها رسول الله وهي التي أخبر بها، والشهداء بموتهم لا يكون لهم تعلق بالدنيا، وقد ثبت أن أرواحهم تكون في جوف طيور خضر تسرح في الجنة حيث شاءت، وهذه منزلة[2]، غير أن منزلة رسول الله ﷺ فوق ذلك كله؛ فقد ثبت أنه يرد السلام على من سلم عليه، وهذه ليست لأحد غيره، وكلا الحالتين حياة برزخية ليست معقولة لأهل الدنيا، أما في الشهداء فقد قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾. وفسرها - عليه الصلاة والسلام - بأن أرواحهم تجعل في حواصل طيور خضر ترتع في الجنة وتأوي إلى قناديل معلقة تحت العرش فهم يتنعمون بذلك[3].. وقد ثبت أن روح رسول الله ﷺ في أعلى عليين مع الرفيق الأعلى فوق أرواح الشهداء[4]، فتعلق بهذا البدن الشريف الذي لا تأكله الأرض يعلم الله حقيقته، ولا يعلمها الخلق، كما قال في جنس ذلك: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾[5].

قال العلامة ابن القيم في كتابه **الروح** ما خلاصته: ومعلوم بالضرورة أن جسده ﷺ في الأرض طري مطرًّى وقد سأله الصحابة كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت؟ فقال: «**إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء**»[6]. ولم يكن جسده في ضريح لما أجاب هذا الجواب، وقد صح أنه رأى موسى يصلي في قبره ليلة الإسراء، ورآه في السماء السادسة[7]؛ فالروح كانت هناك ولها اتصال بالبدن في القبر وإشراف عليه وتعلق به؛ بحيث

(١) سورة الزمر، آية ٣٠.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب بيان أن أرواح الشهداء في الجنة، ٢/ ١٥٠٢ ح ١٨٨٧.

(٣) المرجع السابق.

(٤) الروح لابن قيم الجوزية ص٢٦٧.

(٥) دفع إيهام الاضطراب ص ٢٩، ٣٠ بتصرف.

(٦) المرجع السابق.

(٧) المرجع السابق.

يصلي في قبره ويرد سلام من يسلم عليه وهي في الرفيق الأعلى، ولا تنافي بين الأمرين، فإن شأن الأرواح غير شأن الأبدان[1]، وبهذا يتضح أنه لا منافاة بين روح النبي ﷺ وأرواح الأنبياء.

****

(١) الروح لابن قيم الجوزية ص ٢٦٦، ٢٦٧ بتصرف.

سُورَةُ النِّسَاءِ

٢٥- العدل بين النِّسَاء:

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾[١].

تدل هذه الآية بظاهرها على أن العَدْل بين الزوجات ممكن. وقد جاء في آية أخرى ما يدل على أنه غير ممكن وهو قوله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾[٢] ولإزالة إيهام التعارض بين الآيتين والتوفيق بينهما نقول: إن العدل بين الزوجات التي ذكر الله أنه ممكن هو العدل في إيفاء الحقوق الشرعية في المأكل والملبس والمبيت وما يترتب على ذلك من مساواة، فذلك ممكن بلا شك، أما العدل الذي ذكر الله أنه غير ممكن فهو المساواة في الميل القلبيّ، فذلك ليس في مقدور الإنسان. فالقلوب بيد الله يقلبها كيف يشاء.. وقد فسر الحافظ ابن كثير ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ بالميل القلبي الخارج عن إرادة الإنسان[٣].. وعندئذ يكفيه العدل في الحقوق الشرعية.

روى ابن أبي حاتم عن ابن أبي مليكة أن آية: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟﴾ نزلت في عائشة رضي الله عنها؛ لأن النبي ﷺ كان يميل إليها بالطبع أكثر من غيرها[٤].

وروى الإمام أحمد وأهل السنن عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يقسم بين النساء فيعدل ثم يقول: **«اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك**

(١) سورة النساء، آية ٣.

(٢) سورة النساء، آية ١٢٩.

(٣) تفسير ابن كثير ١/ ٦٠٠.

(٤) المرجع السابق.

ولا أملك». يعني: القلب[1].

ويقول أبو السعود: «محال أن تقدروا على أن تعدلوا بينهن، بحيث لا يقع ميل ما إلى جانب إحداهن في شأن من الشئون البتة ولو حرصتم على إقامة العدل، ولو بالغتم في ذلك ﴿فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾. أي: فلا تجوروا على المرغوب عنها كل الجور، واعدلوا ما استطعتم[2].

٢٦- حد الزانية المحصنة وغير المحصنة:

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾[3].

تدل هذه الآية بظاهرها على أن الإماء إذا زنين جلدن خمسين جلدة، والأمر كذلك، ولكن جاءت آية أخرى تدل بعمومها على أن كل زانية تجلد مائة جلدة وهي قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾[4]

فما وجه التوفيق بين الآيتين؟

نقول: إن آية النساء هذه مخصصة لآية النور؛ لأنه لا تعارض بين العام والخاص[5]. قال ابن عاشور في **التحرير والتنوير**: «تأولها عمر وابن مسعود وابن عمر رضي الله عنهم وقالوا: الإحصان هنا الإسلام. ورأوا أن الأمة تحد في الزنا سواء كانت متزوجة أم عزبى»[6]. وإليه ذهب الأئمة الأربعة بدليل ما ثبت في **الصحيحين**، أن رسول الله ﷺ سئل عن الأمة إذا زنت ولم تحصن فأوجب عليها الحد[7]. قال ابن شهاب: فالأمة المتزوجة محدودة بالقرآن،

(١) المرجع السابق، ودفع إيهام الاضطراب ص ٧١، ٧٢.

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٢/ ٢٤٠.

(٣) سورة النساء، آية ٢٥.

(٤) سورة النور، آية ٢.

(٥) دفع إيهام الاضطراب ص ٧٩.

(٦) التحرير والتنوير ٥/ ١٦.

(٧) صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب بيع العبد الزاني، ومسلم في صحيحه، كتاب الحدود باب =

والأمة غير المتزوجة محدودة بالسنة[1]. وقد دلت هذه الآية على أن حد الأمة الجلد. ومن ثم فلا تعارض.

٢٧- ما يلزم اتِّباعه من سنن المؤمنين الأَوَّلين:

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[2].

هذه الآية تدل بظاهرها على أن شرع من قبلنا شرع لنا، ونظيرها قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[3]. وجاءت آية أخرى تدل على خلاف ذلك وهي قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[4].

فما وجه التوفيق بين هذه الآيات؟

نقول: إن وجه الجمع بين هذه الآيات مختلف فيه اختلافًا مبنيًّا على الاختلاف في حكم هذه المسألة.

وخلاصة ذلك أن جمهور العلماء يرى أن شرع من قبلنا إن ثبت بشرعنا فهو شرع لنا ما لم يرد عليه ناسخ من شرعنا؛ لأنه ما ذكر لنا في شرعنا إلا لأجل الاعتبار والعمل، وعلى هذا القول يكون وجه الجمع بين الآيتين: أن معنى قوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾. أن شرائع الرسل ربما ينسخ في بعضها حكم كان في غيرها، أو يزاد في بعضها حكم لم يكن في غيرها، فالشريعة إما بزيادة أحكام لم تكن مشروعة من قبل، وإما بنسخ شَيْءٍ كان مشروعًا من قبل، فتكون الآية لا دليل فيها على أن ما ثبت بشرعنا وكان شرعًا لمن قبلنا، ولم ينسخ، أنه ليس من شرعنا؛ لأن زيادة ما لم يكن قبل أو نسخ ما كان من قبل - كلاهما ليس من محل النزاع.

غير أن الشافعي ومن وافقه يرى أن شرع من قبلنا ليس شرعًا لنا إلا بنص من شرعنا

= رجم اليهود أهل الذمة في الزنى ٢/ ١٣٢٩.

(١) التحرير والتنوير ٥/ ١٧.

(٢) سورة النساء، آية ٢٦.

(٣) سورة الأنعام، آية ٩٠.

(٤) سورة المائدة، آية ٤٨.

أنه مشروع لنا[1]، وعلى هذا فوجه الجمع: أن المراد بسنن من قبلنا.. وبالهدى في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾. أصول الدين التي هي التوحيد، لا الفروع العملية، بدليل قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾.

ومن الأصول فرضية الصلاة، والزكاة، والصيام، فأصل هذه الفرائض موجود في الشرائع السابقة بخلاف الكيفية والصفة فتختلف من شريعة إلى شريعة، ويرد على قول الشافعي ما جاء في **البخاري** أن مجاهدًا سأل ابن عباس رضي الله عنهما: من أين أخذت سجدة (ص)؟ قال ابن عباس: من قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾، ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[2]. فسجدها داود فسجدها رسول الله ﷺ[3]. ومعلوم أن سجود التلاوة من الفروع[4].

يقول أبو السعود في تفسيره لقوله: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾. أي: من الأنبياء والصالحين لتقتدوا بهم[5]. وحول قوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾. يقول: «الآية كلام مستأنف جيء به لحمل أهل الكتابين من معاصري رسول الله ﷺ على الانقياد لحكمه بما أنزل عليه من القرآن الكريم ببيان أنه هو الذي كلفوا العمل به دون غيره من الكتابين، وإنما الذين كلفوا العمل بهما من مضى قبل نسخهما من الأمم السالفة، والخطاب للناس كافة، ومفاد هذا أن القرآن ناسخ لما قبله إلا إذا كان ما قبله فيه، وأنه لا مانع من الاقتداء بالأنبياء والصالحين السابقين إلا إذا كان هذا العمل منسوخًا»[6].

يقول ابن عاشور في **التحرير والتنوير**: «إن في الآية بيانًا وهدًى بأن هذه الأمة تفوق الأمم التي قبلها في انتظام أحوالها، وأن هذه الشريعة أهدى مما قبلها، وفي قوله: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ

(١) دفع إيهام الاضطراب ص ٨٠ بتصرف.
(٢) سورة الأنعام، الآيات ٨٤ - ٩٠.
(٣) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب ٥/ ١٩٤.
(٤) دفع إيهام الاضطراب ص ٨١.
(٥) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٢/ ١٦٨.
(٦) المرجع السابق ٣/ ٤٥.

سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾. بيان لقصد إلحاق هذه الأمة بمزايا الأمم التي قبلها، والهداية إلى كليات الشرائع ومقاصدها؛ فإن الشرائع والتكاليف - كما يقول الفخر: وإن كانت مختلفة في نفسها إلا أنها متفقة في باب المصالح.. كقوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾»[1].

٢٨- كتمان المشركين للحديث بين يدي الله:

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾[2].

تفيد هذه الآية بظاهرها أن الكفار لا يكتمون يوم القيامة من أخبارهم شيئًا، وقد جاءت آيات أخرى تدل على خلاف ذلك كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾[3]. وقوله تعالى: ﴿فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭ﴾[4]. وغير ذلك.

فما وجه الجمع بين هذه الآيات؟

نقول: إن ابن عباس رضي الله عنهما سئل عن قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾. مع قوله: ﴿وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾. فقال: وهو ألسنتهم تقول: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾. فيختم الله على أفواههم وتشهد أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون[5]. فكتم الحق باعتبار اللسان، وعدمه باعتبار الأيدي والأرجل. ويشير إلى هذا الجمع قوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾[6] الآية.

قال الإمام أحمد: أما قوله: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾. وذلك أن هؤلاء المشركين إذا رأوا ما يتجاوز الله عن أهل التوحيد يقول بعضهم لبعض: إذا سألنا نقول: لم نكن مشركين. فلما جمعهم الله وجمع أصنامهم، وقال: ﴿أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾[7]. قال الله: ﴿ثُمَّ لَمۡ

(١) سورة الشورى، آية ١٣، وانظر: التحرير والتنوير ٥/ ١٨.
(٢) سورة النساء، آية ٤٢.
(٣) سورة الأنعام، آية ٢٣.
(٤) سورة النحل، آية ٢٨.
(٥) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري ٨/ ٣٧٤.
(٦) سورة يس، آية ٦٥، ودفع إيهام الاضطراب ص ٨٢.
(٧) سورة القصص، آية ٦٢.

تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾. فلما كتموا الشرك، ختم الله على أفواههم وأنطق الجوارح فنطقت بذلك، فذلك قوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾. فأخبر الله عز وجل عن الجوارح حين شهدت[1]، وبهذا يرتفع الإيهام ويتم التوفيق.

٢٩- مفهوم قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾[2].

تدل هذه الآية بظاهرها على أن الجلود التي عصت قد احترقت وأبدلهم جلودًا غيرها، فكيف يعذب الله جلودًا لم تذنب حيث يقول: ﴿بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا﴾؟

يقول الإمام أحمد: «إن قول الله تعالى: ﴿بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا﴾. ليس معناه جلودًا غير جلودهم، وإنما يعني ﴿بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا﴾. تبديلها: تجديدها؛ لأن جلودهم إذا نضجت جددها الله؛ وذلك لأن القرآن فيه خاص وعام، ووجوه كثيرة وخواطر يعلمها العلماء»[3]. كذلك فقد أثبت العلم أن الجلد وسيلة للإحساس[4]، بمعنى أنه لو فقد المرء جلده فإن إحساسه يضعف أو ينعدم.

والذوق في الآية الكريمة ليس للجلود، بل لأصحابها، فتبديلها سواء أكان تبديلًا مطلقًا أم تجديدًا لا يجعلها تنفك عن صاحبها، فالأعضاء الحية التي تنقل من فرد لآخر كالكلى، وهي عندما تنقل للثاني تصير في جسده عضوًا تحس هي بما يحس، ويحس هو بما تحس. وهذا لا يمنع من إحساس باطن الجسم بما يعتريه من أمراض في ذاته لا تنقل إليه بواسطة الجلد؛ فليتدبر أولو الأبصار.

---

(١) الرد على الجهمية والزنادقة ص ٩٣.

(٢) سورة النساء، آية ٥٦.

(٣) الرد على الجهمية والزنادقة ص ٨٦.

(٤) وجوه من الإعجاز القرآني، مصطفى الدباغ ص ٨١.

٣٠- الحسنة والسيئة:

قوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾[١]. وقال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾[٢].

فما وجه التوفيق بين الآيتين؟

نقول: إن معنى قوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ﴾. أي: مطر ورزق ﴿يَقُولُوا هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾. وإن تصبهم سيئة من فقر ومرض وقحط ﴿يَقُولُوا هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾. أي: من شؤمك يا محمد، وشؤم ما جئت به. قل لهم: كل ذلك من الله؛ فبيده مقادير كل شيء من خير وشر، فهو أخبر بعباده وبما يصلحهم[٣].

يقول ابن عطية: والخطاب في الآية للنبي ﷺ، وغيره داخل في المعنى. وقيل: الخطاب للمرء على الجملة[٤]. يقول ابن عباس رضي الله عنهما: ومعنى هذه الآية القطع واستئناف الأخبار من الله تعالى بأن الحسنة منه وبفضله، والسيئة من الإنسان بذنوبه، وهي من الله بالخلق والاختراع. ومن ذلك أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه لما نزلت: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾[٥]. جزع فقال له رسول الله ﷺ: «**ألست تمرض؟ ألست تسقم؟ ألست تغتم؟**»[٦]. وقال عليه الصلاة والسلام: «**ما يصيب الرجل خدشة عود ولا عثرة قدم ولا اختلاج عرق إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر**»[٧]. قوله: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾. قال: عقوبة بذنبك يا ابن آدم. ونظير هذه الآية قول الله في فرعون وقومه مع موسى عليه السلام: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ

(١) سورة النساء، آية ٧٨.

(٢) سورة النساء، آية ٧٩.

(٣) دفع إيهام الاضطراب ص٨٢، ٨٣.

(٤) المحرر الوجيز ٤/ ١٤١.

(٥) سورة النساء، آية ١٢٣.

(٦) الدر المنثور للسيوطي ٢/ ٦٩٦.

(٧) المحرر الوجيز ٤/ ١٤٢.

سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾[1]. وقوله في قوم صالح مع صالح عليه السلام: ﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾[2]. وغير ذلك.

وقوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾. لأنه هو المتفضل بكل نعمة. وقوله: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾. أي: بما هو من نفسك، وبما قدمت يداك.

يقول أبو السعود في تفسيره: الضمير في ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾ لليهود والمنافقين، كان الله بسط عليهم الرزق، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة ودعاهم للإيمان وكفروا - أمسك الله عنهم بعض الإمساك؛ فقالوا ما قالوا، فأمر ﷺ أن يفند كذبهم، ويقول لهم: كل من عند الله من خير وغيره[3].

٣١- قتل المؤمن عمدًا:

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾[4].

تدل هذه الآية بظاهرها على أن القاتل عَمْدًا لا تَوْبَةَ لَهُ.. وَأَنَّهُ مخلد في النار، وقد جاءت آيات أخرى بخلاف ذلك، منها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[5]. وغيرها من الآيات.

وخلاصة هذه المسألة أن القاتل عمدًا، مستحلًّا للقتل، قد أحل الحرام فيخلد في النار، أو أن الآية من باب التغليظ؛ لأن الحديث ورد في الصحيحين: «**يخرج من النار من كان في**

(١) سورة الأعراف، آية ١٣١.

(٢) سورة النمل، آية ٤٧.

(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٢/ ٢٠٥.

(٤) سورة النساء، آية ٩٣.

(٥) سورة النساء، آية ١١٦.

قلبه مثقال ذرة من إيمان»[1]. وآية البقرة تقول: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[2]. فقد صرحت بأن القاتل أخ للمقتول. وآية الفرقان: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾[3].

ومما يدل على صحة ما ذكرناه قصة الإسرائيلي الذي قتل مائة نفس ثم تاب، وأمة محمد أولى بذلك[4]، يقول أبو السعود: «ولا مستمسك للمعتزلة والخوارج بخلود القاتل عمدًا في النار إذا استحل ذلك القتل؛ لأنها نزلت - أي الآية - في مقيس بن ضبابة الكناني وقتله للزبير بن عياض الفهري، وقد أباح الرسول دم مقيس، ولو كان معلقًا بأستار الكعبة، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، بل قالوا: إن المراد بالخلود هنا المكث الطويل، لا الدوام؛ لتظاهر النصوص بأن عصاة المؤمنين لا يدوم عذابهم، وأن الآية محمولة على التغليظ وقصة مقيس تتلخص في أنه وجد أخاه قتيلًا في بني النجار ولم يعرف قاتله، فأمر له رسول الله بالدية، فأعطاها الأنصار له مائة، وأرسل معه هذا القرشي الفهري فقتل مقيس الفهري، وأخذ الدية ورجع إلى مكة يعبد الأصنام، فأهدر الرسول دمه ونزلت فيه الآية»[5].

وخلاصة القول: إن المؤمن - ما دام يموت مؤمنًا - لا يخلد في النار، وهو تحت عفو الله، وقد يخلف الله وعيده ويعفو عنه؛ لحديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من وعده الله تعالى على عمله ثوابًا فهو منجز له، ومن أوعده على عمله عقابًا فهو بالخيار**»[6].

****

(1) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها ١/ ١٧٨.

(2) سورة البقرة، آية ١٧٨.

(3) سورة الفرقان، آية ٧٠.

(4) دفع إيهام الاضطراب ص ٨٧ - ٩٠ بتصرف.

(5) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٢/ ٢١٧.

(6) مجمع الزوائد للهيثمي ١٠/ ٢١١.

سورة المائدة

٣٢-حِلُّ طعامِ أهل الكتاب:

قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ﴾[١].

تدل هذه الآية بظاهرها وعمومها على إباحة ذبائح أهل الكتاب مطلقًا سمَّوْا عليها غير الله أو سكتوا؛ لأن الكل داخل في طعامهم، بما في ذلك ذبائحهم بإجماع المسلمين. وقد جاءت آيات أخرى تفيد أن ما سمي عليه غير الله لا يجوز أكله، وما لم يذكر اسم الله عليه لا يجوز أكله أيضًا، من ذلك قوله: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾[٢]. وقوله: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ﴾[٣]. وقوله في الأنعام: ﴿أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ﴾[٤]. وفي النحل: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ﴾[٥]. هذه آيات فيما ذكر عليه اسم غير الله. وأما الآيات التي وردت في منع أكل ما لم يذكر اسم الله عليه فمنها: ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾[٦]. وقوله: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤۡمِنِينَ ١١٨ وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تَأۡكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾[٧]. فإنه يفهم منه عدم أكل ما لم يذكر اسم الله عليه.

فما القول الفصل في هذه الآيات؟ وكيف نوفق بينها؟

للتوفيق بين الآيات، وإزالة ما يوهم التعارض نقول: تتلخص الإجابة حول مبحثين اثنين هما:

---

(١) سورة المائدة، آية ٥.

(٢) سورة المائدة، آية ٣.

(٣) سورة البقرة، آية ١٧٣.

(٤) سورة الأنعام، آية ١٤٥.

(٥) سورة النحل، آية ١١٥.

(٦) سورة الأنعام، آية ١٢١.

(٧) سورة الأنعام، الآيتان ١١٨، ١١٩.

الأول: في وجه الجمع بين عموم آية: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾. مع عموم الآيات المحرمة لما أهل به لغير الله فيما إذا سمى الكتابي على ذبيحته غير الله؛ بأن أهل بها للصليب، أو عيسى، أو نحو ذلك.

الثاني: في وجه الجمع بين آية: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾. مع قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾. فيما إذا لم يسم الكتابي الله ولا غيره.

وحاصل المبحث الأول كما يقول الشنقيطي: أن بين قوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾. وبين قوله: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾. عمومًا وخصوصًا؛ من وجه تنفرد آية: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾. في الخبز والجبن مِن طعامهم مثلًا، وتنفرد آية: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾. في ذبح الوثني لوثنه، ويجتمعان في ذبيحة الكتابيّ التي أهل بها لغير الله، كالصليب، أو عيسى، فعموم قوله: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾. يقتضي تحريمها، وعموم قوله: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾. يقتضي حلها، فكيف التوفيق بين الآيات على هذا الأساس؟

تقرر في علم الأصول أن العمومين من وجه يتعارضان في الصورة التي يجتمعان فيها، فيجب الترجيح بينهما، والراجح منهما يقدم ويخصص به عموم الآخر. فإذا تحقق ذلك فلنعلم أن العلماء اختلفوا في هذين العمومين: أيهما أرجح؟ فالجمهور يرجح الآيات المحرمة وهو مذهب الشافعي، ورواية عن مالك والإمام أحمد، وهو أيضًا قول ابن عمر وربيعة، كما ذكره البغوي وصاحب المغني والنووي في المهذب عن علي وعائشة وابن عمر رضي الله عنهم. ورجح بعضهم عموم آية التحليل بأن الله أحل ذبائحهم، وهو أعلم بما يقولون، كما احتج الشعبي وعطاء على إباحة ما أهلوا به لغير الله.

قال الشنقيطي: قال مقيده عفا الله عنه: الذي يظهر - والله أعلم - أن عموم آيات المنع أرجح وأحق بالاعتبار من طرق متعددة، منها: قول النبي ﷺ: «**دع ما يريبك إلى ما لا يريبك**»[(١)]. وقوله ﷺ: «**فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه**»[(٢)]. ومنها: أن درء

---

(١) سنن الترمذي ٤/ ٦٨٨ ح ٢٥١٨.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه.

المفاسد مقدم على جلب المصالح، وذلك يعني أن النهي إذا تعارض مع الإباحة كما هنا فالنهي أولى بالتقديم والاعتبار؛ لأن ترك مباح أهون من ارتكاب حرام، كما صرح علماء الأصول بأن النص الدال على الإباحة في المرتبة الثالثة من النص الدال على نهي التحريم؛ لأن نهي التحريم مقدم على الأمر الدال على الوجود، والدال على الأمر مقدم على الدال على الإباحة؛ للاحتياط في البراءة من عهدة الطلب. فتحصل من هذا أن الأولى النهي، فالأمر للإباحة، فظهر تقديم تحريم ما أهل به لغير الله على إباحة طعام أهل الكتاب[1]، وبذلك يكون تحريم ما أهل به لغير الله مقدمًا ومخصصًا لآية: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

وأما المبحث الثاني: وهو الجمع بين آية: ﴿وَطَعَامُ﴾. مع قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾. فيما إذا لم يذكر الكتابيّ على ذبيحته اسم الله ولا اسم غيره، فحاصله: أن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾. يحتمل وجهين من التفسير:

أحدهما: وذهب إليه الشافعي وقواه ابن كثير في تفسيره: أن المراد بقوله: ﴿مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾. هو ما أهل به لغير الله[2]. وهذا يكون متفقًا مع المبحث الأول.

ثانيهما: أن الآية على ظاهرها، وعلى ذلك فبين الآيتين أيضًا عموم وخصوص من وجه، تنفرد آية: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾. فيما ذبحه الكتابي وذكر عليه اسم الله، فذلك حلال بلا نزاع. وتنفرد آية: ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾. فيما ذبحه وثَنِيّ، أو مسلم لم يذكر اسم الله عليه، فما ذبحه الوثني حرام بلا نزاع، ولا يجوز أكله. وما ذبحه المسلم من غير تسمية حلال ويجوز أكله، ويجتمعان فيما ذبحه كتابيّ ولم يسم الله عليه، فذلك فيه تعارض؛ فيدل عموم: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾. على الإباحة، ويدل عموم: ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾. على التحريم، فيصار إلى الترجيح، واختلف أيضًا في هذين العمومين: أيهما أرجح؟ فذهب الجمهور إلى ترجيح عموم: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾. وقال بعضهم بترجيح عموم: ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾. قال النووي في **شرح المهذب**: «ذبيحة أهل الكتاب حلال ذكروا عليها اسم الله أم لا؛ لظاهر القرآن الكريم، قال: هذا مذهبنا ومذهب

---

(١) دفع إيهام الاضطراب ص ٩١ - ٩٤ بتصرف.

(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ١٨٣.

الجمهور، وحكى ذلك ابن المنذر عن علي رضي الله عنه والنخعي وحماد وأبي حنيفة وأحمد وإسحاق وغيرهم، فإن ذبحوا على صنم أو غيره لم يَحلّ.

وحكى النووي القول الآخر عن علي أيضًا وعائشة وابن عمر رضي الله عنهم.

قال الشنقيطي: الذي يظهر والله أعلم أن لعموم كل من الآيتين مرجحًا، وأن مرجح آية التحليل أقوى وأحق بالاعتبار.

أما آية التحليل فيرجح عمومها بأمرين:

الأمر الأول: أنها أقل تخصيصًا وآية التحريم أكثر تخصيصًا؛ لأن الشافعيّ ومن وافقه خصصوها بما ذبح لغير الله، وخصصها الجمهور بما تركت فيه التسمية عمدًا قائلين: إن تركها نسيانًا لا أثر له. وآية التحليل ليس فيها من التخصيص - غير صورة النزاع - إلاّ تخصيص واحد هو كونها مخصوصة بما لم يذكر عليه اسم غير الله على القول الصحيح، وقد تقرر في الأصول أن الأقل تخصيصًا مقدم على الأكثر تخصيصًا كما أن ما لم يدخله التخصيص أصلًا مقدم على ما دخله عند جمهور الأصوليين.

الأمر الثاني: ما نقله ابن جرير، ونقله عنه ابن كثير عن عكرمة والحسن البصري أن آية: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾. ناسخة لآية: ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾. وقال ابن جرير وابن كثير: إن مرادهم بالنسخ التخصيص، ولكن ورد على هذا الرأي أن التخصيص يعد العمل بالعام نسخًا؛ لأنَّ التخصيص بيان، والبيان لا يجوز تأخيره عن وقت العمل، ويدل لهذا أن آية: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾. من سورة الأنعام مكية بالإجماع، وآية: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ من سورة المائدة، وهي من آخر ما نزل من القرآن بالمدينة.

وأما آية التحريم فيرجح عمومها بقوله: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾. **لأن كلتيهما دلت على نهي يظهر تعارضه مع إباحة.**

يقول الشنقيطي: وحاصل هذه المسألة أن ذبيحة الكتابيّ لها خمس حالات تتلخص فيما يلي:

الأولى: أن يعلم أنه سمى الله عليها، وفي هذه الحالة تأكل بلا نزاع ولا عبرة بغير ذلك.

الثانية: أن يعلم أنه أهلَّ بها لغير الله، وهذه فيها خلاص، والتحقيق أنها لا تؤكل؛ لأنه أهلَّ بها لغير الله.

الثالثة: أن يعلم أنه جمع بين اسم الله واسم غيره، وظاهر النصوص أنها لا تؤكل لدخولها فيما أهل لغير الله به.

الرابعة: أن يعلم أنه سكت ولم يسمِّ الله ولا غيره.. فالجمهور على الإباحة وهو الحق، والبعض على التحريم.

الخامسة: أن يجهل الأمر لكونه ذبح حالة انفراده، فتأكل على ما عليه الجمهور من العلماء وهو الحق إن لم يعرف عن الكتابيّ أنه يأكل الميتة، كالذي يسلُّ عنق الدجاجة بيده، فإن عرف أنه يأكل الميتة لم يأكل ما غاب عليه عند بعض العلماء وهو مذهب مالك.. ويجوز أكله عند البعض.

ثم أردف قائلًا: وما وعدنا به من ذكر حكم ما ذبحه المسلم ولم يسمِّ عليه. فحاصله أن فيه **ثلاثة أقوال**: أنه إن ترك التسمية عمدًا لم تؤكل ذبيحته؛ لعموم قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾. وإن تركها نسيانًا أكلت؛ لأنه لو تذكر لسمى الله، قال ابن جرير: من حرم ذبيحة الناسي فقد خرج من قول الحجة وخالف الخبر الثابت عن رسول الله. قال ابن كثير: هو موقوف على ابن عباس، ونصه: «**المسلم يكفيه إن نسي أن يسمي حين يذبح، فليذكر اسم الله عليه وليأكله**»(1).

ويقول أبو السعود في تفسيره في آية الأنعام: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ الآية. هذا ظاهر في تحريم متروك التسمية عمدًا أو نسيانًا، وإلى ذلك ذهب أحمد بن حنبل وداود، وقال مالك والشافعي بخلافه؛ لقول رسول الله ﷺ: «**ذبيحة المسلم حلال وإن لم يذكر اسم الله عليه**». وفرق أبو حنيفة بين العمد والنسيان، وأوله بما ذكر عليه غير اسم الله؛ لقوله

(1) المرجع السابق ٢/ ١٨٤، وانظر: دفع إيهام الاضطراب ٩٧ - ١٠٢ بتصرف.

تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٌ﴾. فإن الفسق ما أهل لغير الله[1].

رحم الله القرطبي فقد لخص المسألة في إيجاز واف فقال: قوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمۡ﴾. اسم لما يؤكل، والذبائح منه، وهو هنا خاص بالذبائح عند كثير من أهل العلم بالتأويل، وأما ما حرم علينا من طعامهم فليس بداخل تحت عموم الخطاب، قال ابن عباس رضي الله عنهما: قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾. ثم استثنى فقال: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمۡ﴾. يعني ذبيحة اليهودي والنصراني. وإن كان النصراني يقول عند الذبح: باسم المسيح. واليهودي يقول: باسم عزير. لأنهم يذبحون على الملة. وقال عطاء: كُل من ذبيحة النصراني وإن قال: باسم المسيح. لأن الله جل وعلا قد أباح ذبائحهم وقد علم ما يقولون.

وقالت طائفة: إذا سمعت الكتابي يسمي غير الله عز وجل فلا تأكل. وبذلك قال علي وعائشة وابن عمر رضي الله عنهم وآخرون. وقال مالك: أكره ذلك. ولم يحرمه، وقال من جوز: لا شك أنهم لا يسمون على الذبيحة إلا الإله الذي ليس معبودًا حقيقة مثل المسيح وعزير، واشتراط التسمية لا على وجه العبادة لا يعقل. ووجود التسمية من الكفار وعدمها سواء إذا لم تتصور منه العبادة. ولأن النصراني إنما يذبح على اسم المسيح، وقد حكم الله بحل ذبائحهم مطلقًا، وفي ذلك دليل على أن التسمية لا تشترط أصلًا كما يقول الشافعي[2].

وبهذا يكون قد رفعنا ما يوهم التعارض، ووفقنا بين الآيات.

٣٣- شهادة أهل الذِّمة:

قوله تعالى: ﴿أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ﴾[3].

هذه الآية تدل على قبول شهادة الكفار على الوصية في السفر، وقد جاءت آيات أخرى تدل على خلاف ذلك كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٣/ ١٨٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٦/ ٧٦ وما بعدها.

(٣) سورة المائدة، آية ١٠٦.

هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾[1]. وقوله: ﴿ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾[2].

وقوله: ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ ﴾[3].

فما وجه التوفيق بين هذه الآيات؟

أولًا: نقول: هناك من لا يقبل شهادة الكفار على الوصية في السفر، وهؤلاء يقولون: إن قوله: ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾. منسوخ بآيات اشتراط العدالة. وهناك من يقبل شهادته ويقول: الآية محكمة مخصصة لعموم غيرها. وأما على قول من يقول: إن معنى قوله: ﴿ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾. أي: من قبيلة الموصي، وقوله: ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾. أي: من غير قبيلة الموصي من سائر المسلمين فلا إشكال في الآية، ولكن جمهور العلماء يرى أن قوله تعالى: ﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾. أي: من غير المسلمين، وأن قوله: ﴿مِنكُمْ﴾. في الآية: أي: من المسلمين، وهذا هو الظاهر[4].

قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿مِنكُمْ﴾. أي: من عشيرتكم وقرابتكم؛ لأنهم أحفظ وأضبط وأبعد عن النسيان. وقوله: ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾. أي: من غير عشيرتكم من المسلمين – خلافًا لأبي حنيفة الذي قال: «أي: من غير أهل دينكم فتقبل شهادة أهل الذمة على المسلمين، وعلى بعضهم البعض، فإن قيل: هذه الآية دلت على جواز قبول شهادة أهل الذمة على المسلمين من طريق النطق، ودلت على قبول شهادتهم على أهل الذمة من طريق التنبيه؛ وذلك أنه إذا قبلت شهادتهم على المسلمين فعلى أهل الذمة من باب أولى، ثم دل الدليلان على بطلان شهادتهم على المسلمين، فبقيت شهادتهم على أهل الذمة على ما كانت عليه، وهذا ليس بشيء؛ لأن قبول شهادة أهل الذمة على أهل الذمة فرع لقبول شهادتهم على المسلمين، فإذا بطلت شهادتهم على المسلمين وهي الأصل فلأن تبطل شهادتهم على أهل الذمة وهي

(١) سورة النحل، آية ١٠٥.

(٢) سورة الطلاق، آية ٢.

(٣) سورة البقرة، آية ٢٨٢.

(٤) دفع إيهام الاضطراب ص ١١٤.

فرعها أحرى وأولى. والله أعلم»[1].

٣٤- شهادة الأنبياء على أُمَمِهم:

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾[2].

تفيد هذه الآية أن الرسل لا يشهدون على أممهم يوم القيامة، وقد جاءت آية أخرى تفيد أنهم يشهدون على أممهم يوم القيامة، وهي قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾[3]. وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾[4].

فما وجه التوفيق بين هذه الآيات؟

يقول ابن جرير الطبري: المعنى لا علم لنا إلا علم أنت أعلم به منا، فلا علم لنا بالنسبة إلى علمك المحيط بكل شيء، فلو عرفنا من أجابنا فإنما نعرف الظواهر فقط، ولا علم لنا بالبواطن، فأنت يا ألله العليم بالسرائر وما تخفيه الضمائر، فعلمنا بالنسبة إلى علمك كـ(لا علم)[5].

ونقل ابن كثير وغيره عن مجاهد والحسن البصري أن المعنى أنهم قالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾. ذلك لما اعتراهم من شدة هول يوم القيامة ثم زال عنهم فشهدوا على أممهم[6].

يقول ابن عطية في **المحرر**: المراد من ﴿يَوْمَ﴾، هو يوم القيامة، وخص الرسل بالذكر لأنهم قادة الخلق، وفي ضمن جمعهم جمع الخلائق، وهم المكلمون أولًا. وقوله: ﴿مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾. معناه ماذا أجابت به الأمم من إيمان أو كفر، وطاعة أو عصيان؟ ووجه السؤال للأنبياء لتقوم الحجة على الأمم، وقوله: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾. معناه كما قال ابن عباس رضي الله

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٦/ ٣٥٠، ٣٥١.

(٢) سورة المائدة، آية ١٠٩.

(٣) سورة النساء، آية ٤١.

(٤) سورة النحل، آية ٨٩.

(٥) جامع البيان عن تفسير آي القرآن ٧/ ١٢٦.

(٦) تفسير ابن كثير ٢/ ١٢٣، ودفع إيهام الاضطراب ص ١١٥.

عنهما: لا علم لنا إلا علمٌ أنت أعلم به منا. ورجح هذا القول لأنه يتخرج على التسليم لله تعالى ورد الأمر إليه[(١)]، وبهذا نكون قد وفقنا بين الآيات.

٣٥- أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يومَ القيامة:

قوله تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾[(٢)].

تدل هذه الآية الكريمة بظاهرها على أن أشدَّ الناس عذابًا يوم القيامة من كفر من أصحاب المائدة، وقد جاء في آيات أخرى ما يوهم خلاف ذلك، كقوله تعالى في سورة النساء: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾[(٣)]. وفي سورة غافر قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾[(٤)].

وللتوفيق بين هذه الآيات وإزالة ما يوهم التعارض نقول: قوله: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾. وقوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾. لا منافاة بينهما؛ لأن كلًّا من آل فرعون والمنافقين في أسفل دركات النار دون تفاضل، والكفر كله ملة واحدة، أما قوله تعالى: ﴿فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا﴾ الآية. فقد قال ابن كثير: «المراد علماء زمانهم كقوله تعالى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[(٥)] وقال آخرون: المراد به العذاب الدنيوي، ومنه مسخهم خنازير.

وقد روى ابن جرير الطبري عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أنه قال: «أشد الناس عذابًا يوم القيامة ثلاثة: المنافقون، ومن كفر من أصحاب المائدة، وآل فرعون»[(٦)]. وذلك على القول بكفر من كفر بعد نزولها[(٧)].

---

(١) المحرر ٥/ ٩٥.

(٢) سورة المائدة، آية ١١٥.

(٣) سورة النساء، آية ١٤٥.

(٤) سورة غافر، آية ٤٦.

(٥) سورة البقرة، آية ٤٧، انظر: تفسير ابن كثير ٢/ ١٢٦.

(٦) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٧/ ١٣٧.

(٧) دفع إيهام الاضطراب ص ١١٥، ١١٦.

يقول أبو السعود في تفسيره عند قوله: ﴿لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. قال: أي من عالمي زمانهم أو من العالمين جميعًا. ثم قال: والصحيح الذي عليه جماهير الأمة أنها نزلت - أي المائدة - وأن عيسى عليه السلام بكى عند نزولها وقال: اللهم اجعلني من الشاكرين، اللهم اجعلها رحمة للعالمين ولا تجعلها مثلة وعقوبة. وإذا هي سمكة مشوية بلا شوك، وقال شمعون رأس الحواريين: يا روح الله، أمن طعام الدنيا أم من طعام الآخرة؟ قال: ليس منهما، ولكنه شيء اخترعه الله بالقدرة العالية، كلوا ما سألتم يمددكم الله ويزدكم من فضله. فقالوا: يا روح الله، لو أريتنا من هذه الآية آية أخرى. فقال: يا سمكة، احْيَيْ بإذن الله. فاضطربت ثم قال لها: عودي كما كنت. فعادت مشوية ثم طارت المائدة، ثم عصوا فمسخوا قردة وخنازير(١).

من هنا نقول: لا منافاة بين الآيات، فقد يكون العذاب أشد من بعضه، فربما كان عذاب أصحاب المائدة أشد من عذاب آل فرعون والمنافقين نظرًا لما نزل بسببهم، دون منافاة بين الآيات.

❋❋❋❋

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٣/ ٩٩.

سورة الأنعام

٣٦-الله هو المولى الحق ولا مولى غيره:

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ﴾[١]. ونظيرها قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ مَّآ أَسۡلَفَتۡۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾[٢].

وقد جاء في آية أخرى ما يدل على خلاف ذلك وهو قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾[٣].

وللتوفيق بين هذه الآيات، وإزالة ما يوهم التعارض نقول: إن معنى قوله: ﴿وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾. أي: لا ينصرهم ولا يؤيدهم، ومعنى كونه مولاهم؛ أي: مالكهم، والمتصرف في شئونهم، ومعنى كونه مولى المؤمنين؛ أي: يتولاهم بالمحبة والنصرة والتأييد[٤] فهو وَلِيُّهم وناصرهم كما قال ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[٥].

يقول أبو السعود في تفسيره: مولاهم، أي: مالكهم الذي يلي أمورهم على الإطلاق لا ناصرًا لهم كما في قوله: ﴿وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾[٦]. ويقول ابن عطية: الضمير في ﴿وَرُدُّوٓاْ﴾ عائد على المتقدم ذكرهم، ويظهر أنه يعود على العباد فهو إعلام برد الكل، ومولاهم لفظ

---

(١) سورة الأنعام، آية ٦٢.

(٢) سورة يونس، آية ٣٠.

(٣) سورة محمد، آية ١١.

(٤) دفع إيهام الاضطراب ص ١١٧.

(٥) سورة الروم، آية ٤٧.

(٦) سورة محمد، آية ١١، وانظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٣/ ١٤٥.

عام لأنواع الولاية التي تكون بين الله وبين عبيده من الرزق والنصرة والمحاسبة والملك، وغير ذلك[١].

٣٧- مجالسة الخائضين في آيات الله:

قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[٢].

تفيد هذه الآية بظاهرها أنّه لا إثم على من جالس الخائضين في آيات الله بالاستهزاء والتكذيب، وقد جاء ما يدل على أن من جالسهم كان مثلهم في الإثم وهو قوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾[٣].

فما وجه التوفيق بين هذه الآيات؟

نقول: إن قوله: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾. أي: ما على المؤمنين في مجالسة الكفار الذين يخوضون في آيات الله عند خَوضهم من حساب الكفار من شيء، فهم بعيدون عن الخوض مع الخائضين. وعلى هذا فلا إشكال.

وقد يكون المعنى وما على المتقين فيما يقع من الكفار من الخوض في آيات الله في مجالستهم لهم من شيء، وعلى هذا يكون ذلك ترخيصًا للمتقين في مجالسة الكفار. ويكون ذلك في أول الإسلام للضرورة ثم نسخ بقوله: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾. قال بذلك مجاهد والسدي وابن جريج. ونقل ابن كثير عنهم ذلك[٤]. وعلى ذلك فلا إشكال أيضًا.

ويكون معنى قوله: ﴿ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾. أي: لا إثم عليهم إذا اجتنبوا مجالسهم، غير أن الأمر باتقاء مجالستهم عند الخوض في الآيات لا يسقط وجوب تذكيرهم ووعظهم وأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر لعلهم يتقون الله بسبب ذلك، هذا على الوجه الأول.

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٥/ ٢٢٦.

(٢) سورة الأنعام، آية ٦٩.

(٣) سورة النساء، آية ١٤٠.

(٤) تفسير ابن كثير ٢/ ١٥٥.

وعلى الوجه الثاني: يكون المعنى بأن الترخيص في المجالسة لا يسقط التذكير؛ لعلهم يتقون الخوض في آيات الله بالباطل إذا وقعت منكم الذكرى لهم[1]. يقول أبو السعود في تفسيره: «إنه روي عن ابن عباس رضي الله عنه (أن المسلمين حين نهوا عن مجالستهم عند خوضهم في الآيات؛ قالوا: لئن كنا نقول كلما استهزءوا بالقرآن لم نستطع أن نجلس في المسجد الحرام، ونطوف بالبيت). فنزلت، أي: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ قبائح أعمال الخائضين وأحوالهم. ﴿مِنْ حِسَابِهِم﴾. أي: مما يحاسبون عليه من الجرائر. ﴿مِن شَىْءٍ﴾. أي: شيء. ﴿وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ﴾. استدراك من النفي السابق».

أي: ولكن عليهم أن يذكروهم ويمنعوهم ما هم عليه من القبائح بما أمكن من العظة والتذكير، ويظهروا لهم الكراهية والنكير[2]، وعلى ذلك فلا تنافي بين الآيات.

٣٨- الإنذار بين الخُصوص والعموم:

قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾[3].

وهذه الآية توهم أن إنذاره ﷺ مخصص بمكة المكرمة ومن حولها من البلدان دون سائر الأقطار. ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة الشورى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[4]. وقد جاءت آيات أخرى تفيد عموم إنذاره - عليه الصلاة والسلام - للعالمين كقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[5]. وقوله تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾[6]. وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾[7]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ

(١) دفع إيهام الاضطراب ص ١١٨.
(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٣/ ١٤٧.
(٣) سورة الأنعام، آية ٩٢.
(٤) سورة الشورى، آية ٧.
(٥) سورة الفرقان، آية ١.
(٦) سورة الأنعام، آية ١٩.
(٧) سورة سبأ، آية ٢٨.

جَمِيعًا﴾[1].

فما وجه التوفيق بين هذه الآيات؟

أولًا: المراد من قوله: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾. في آية الأنعام شامل لجميع الأرض، فقد رَوَى الطَّبري وَغَيرُه عن ابن عباس رضي الله عنهما ذلك المعنى[2]. وحتى لو قلنا بأن المُرَاد من قوله: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾. جزيرة العرب، فإن الآيات الأخرى نصت على العموم كقوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾. وذكر بعض أفراد العام في حكمه لا يخصصه عند عامة العلماء، ولم يخالف في ذلك إلا أبو ثور[3]، فالآية على هذا كقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[4]. فإن ذلك لا يدل إطلاقًا على عدم إنذار غيرهم.

يقول أبو السعود في تفسيره: ﴿لِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾. إنما ذكرت باسمها المنبئ عن كونها أعظم القرى شأنًا وقبلة لأهلها قاطبة، إيذانًا بأن إنذار أهلها مستتبع لإنذار أهل الأرض كافة، وقوله: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾. أي: من أهل المدر والوبر في المشارق والمغارب[5].

يقول ابن عطية في **المحرر**: «وأم القرى مكة سميت بذلك لأنها منشأ الدين والشرع، وأن الأرض منها دحيت وأنها وسط الأرض، وأنها قبلة كل قرية، فهي لهذا أُمٌّ وسائر القرى بنات، والتقدير: لتنذر أهل القرى ومن حولها يريد أهل سائر الأرض»[6].

ويقول القرطبي: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾. أي: جميع الآفاق[7]. وبذلك يتم التوفيق بين الآيات ويُزال ما يوهم التعارض.

---

(١) سورة الأعراف، آية ١٥٨.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٧/ ٢٧١.

(٣) دفع إيهام الاضطراب ص ١٢٠.

(٤) سورة الشعراء، آية ٢١٤.

(٥) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٣/ ١٦٢.

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٢٨٤.

(٧) الجامع لأحكام القرآن ٧/ ٨٣.

٣٩- الخلاف حول رؤيته - تعالى - بالأبصار:

قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾[١].

توهم هذه الآية أن الله تعالى لا يرى بالأبصار، وقد جاءت آيات أخرى تدل على أنه يرى بالأبصار كقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[٢]. وقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[٣]. والزيادة النظر إلى وجهه الكريم عز وجل، وكذلك قوله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾[٤]. وكقوله تعالى في الكفار: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾[٥]. ومفهوم الآية في موضعها أن المؤمنين ليسوا محجوبين عن ربِّهم.

فما وجه التوفيق بين هذه الآيات؟

نقول: إن من أُسُسِ عقيدة المعتزلة وجوب نفي رؤية الله تعالى، ومن لم يعتقد ذلك عندهم فهو كافر مشبه. قال القاضي عبد الجبار: «الرؤية بالأبصار على الله مستحيلة»[٦]. وقال أيضًا: «ومما يجب نفيه عن الله تعالى الرؤية»[٧].

ومن عمدة ما استدلوا به على نفي الرؤية، قول الحق تبارك وتعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ۖ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[٨].

قال القاضي عبد الجبار: «ووجه الدلالة في الآية هو ما قد ثبت من أن الإدراك إذا قرن بالبصر لا يحتمل إلا الرؤية، وثبت أنه تعالى نفى عن نفسه إدراك البصر، ونجد في ذلك

(١) سورة الأنعام، آية ١٠٣.
(٢) سورة القيامة، الآيتان ٢٢، ٢٣.
(٣) سورة يونس، آية ٢٦.
(٤) سورة ق، آية ٣٥.
(٥) سورة المطففين، آية ١٥.
(٦) شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار ص٢٣٢.
(٧) المرجع السابق.
(٨) سورة الأنعام، آية ١٠٣.

تمدحًا راجعًا إلى ذاته، وما كان من نفيه تمدحًا راجعًا إلى ذاته، كان إثباته نقصًا، والنقائص غير جائزة على الله تعالى في حال من الأحوال»[1].

وقال أيضًا: «وربما قيل في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[2]. إنه أقوى دليل على أن الله تعالى يُرى في الآخرة؟ وجوابنا: أن من تعلق بتلك إن كان ممن يقول بأن الله تعالى جسم، فإننا لا ننازعه في أنه يُرى، بل في أنه يُصافَح، ويُعانَق، ويُلمَس، تعالى الله عن ذلك، وإنما نكلمه في أنه ليس بجسم، لا يصح؛ لأن النظر هو تقليب العين الصحيحة نحو الشيء طالبًا لرؤيته، وذلك لا يصح إلا في الأجسام، فيجب أن يتأول على ما يصح النظر إليه، وهو الثواب»[3].

والرد عليهم من وجوه:

الأول: إن قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ۖ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾. دليل عليهم؛ وذلك لأن الله تعالى إنما ذكر الرؤية في سياق التمدح، ومعلوم أن المدح إنما يكون بالصفات الثبوتية، وأما العدم المحض فليس بكمال، فلا يمدح به، وإنما يمدح الحق تبارك وتعالى بالنفي إذا تضمن أمرًا وجوديًا، كمدحه بنفي السنة والنوم، والمتضمن كمال القيومية، وبنفي الموت المتضمن كمال الحياة، وبنفي النسيان وعزوب شيء عن علمه، المتضمن كمال علمه وإحاطته، ولهذا لم يمتدح بعدم محض لم يتضمن أمرًا ثبوتيًا، فإن المعدم يشارك الموصوف في ذلك العدم. ولا يوصف الكامل بأمر يشترك هو والمعدوم فيه.

الثاني: (إن معنى الآية الكريمة: أنه يرى ولا يدرك، ولا يحاط به، فقوله سبحانه: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾. يدل على كمال عظمته، وأنه أكبر من كل شيء وأنه لكمال عظمته لا يدرك بحيث يحاط به، فإن الإدراك هو الإحاطة بالشيء وهو قدر زائد على الرؤية، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا﴾[4]. فلم ينف موسى عليه

(١) شرح الأصول الخمسة ص ٢٣٣.

(٢) سورة القيامة، الآيتان ٢٢، ٢٣.

(٣) تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضي عبد الجبار ص ٤٤٢.

(٤) سورة الشعراء، الآيتان ٦١، ٦٢.

السلام الرؤية، وإنما نفى الإدراك فالرؤية والإدراك كل منهما يوجد مع الآخر وبدونه، فالرب تعالى يُرى ولا يُدرك، كما يُعلم ولا يُحاط به علمًا، وهذا هو الذي فهمه الصحابة والأئمة من الآية.. بل هذه الشمس المخلوقة لا يتمكن رائيها من إدراكها على ما هي عليه)(١).

أما تأويلهم الرؤية في الآية الثانية: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾(٢). فباطل، لأنه إخراج للفظ من حقيقته إلى مجازه؛ وذلك لأن إضافة النظر إلى الوجه الذي هو محله في الآية، وتعديته بالأداة (إلى) الصريحة في نظر العين، وإخلاء الكلام من قرينة تدل على خلافه - حقيقة موضوعة في أن الله تعالى أراد بذلك نظر العين التي في الوجه إلى الرب جل جلاله. وأما النصوص الواردة بإثبات الرؤية من سنة المصطفى ﷺ فقد ردوها بحجة أنها أخبار آحاد مفيدة للظن فلا يثبت بها ما كان طريق ثبوته العلم اليقيني(٣).

وموقف المعتزلة من الرؤية مخالف لما عليه أهل السنة والجماعة، فهم يثبتون رؤية الله تعالى بالأبصار في الآخرة على الحقيقة من غير تأويل. ويثبتون الأحاديث الواردة بها.

قال الطحاوي رحمه الله: «والرؤية حق لأهل الجنة، بغير إحاطة ولا كيفية، كما نطق به كتاب ربنا: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾. وتفسيره على ما أراد الله تعالى وعلمه، وكل ما جاء في ذلك من الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ فهو كما قال، ومعناه على ما أراد، لا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا، ولا متوهمين بأهوائنا، فإنه ما سلم في دينه إلا من سلَّم لله عز وجل ولرسوله ﷺ، ورد ما اشتبه عليه إلى عالمه»(٤).

ومن الأحاديث الدالة على ثبوت الرؤية ما رواه جرير بن عبد الله رضي الله عنه، قال: كنا جلوسًا عند النبي ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر، قال: «**إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل**

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٠٨، ٢٠٩.

(٢) سورة القيامة، الآيتان ٢٢، ٢٣.

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٠٥، وانظر: آراء المعتزلة الأصولية، دراسة وتقويمًا، علي الضويحي ص ١٠٢.

(٤) شرح العقيدة الطحاوية ص ٢١٢ - ٢١٦ بتصرف.

غروب الشمس فافعلوا»[(١)].

وللتوفيق بين الآيات نقول: قال الإمام أحمد: «أما قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾. يعني الحسن والبياض. ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾. يعني: تعاين ربها في الجنة. وأما قوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾. يعني في الدنيا دون الآخرة؛ وذلك أن اليهود قالوا لموسى: ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾[(٢)]. فماتوا وعوقبوا لقولهم: ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾. وقد سأل مشركو قريش النبي ﷺ فقالوا: ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾[(٣)]. فلما سألوا النبي ﷺ هذه المسألة قال الله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ﴾[(٤)]. حين قالوا: ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾. فأنزل الله سبحانه يخبر أنه ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾. أي: أنه لا يراه أحد في الدنيا دون الآخرة، فقال: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾. يعني في الدنيا، أما في الآخرة فإنهم يرونه»[(٥)].

٤٠- عذاب النّار:

قوله تعالى: ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾[(٦)].

تدل هذه الآية بظاهرها على أن عذاب النار غير مؤبد ونظيرها قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾[(٧)]. وقوله: ﴿لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾[(٨)].

فما وجه التوفيق بين هذه الآيات وبين قوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾[(٩)].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾.

(٢) سورة النساء، آية ١٥٣.

(٣) سورة الإسراء، آية ٩٢.

(٤) سورة البقرة، آية ١٠٨.

(٥) الرد على الزنادقة والجهمية ص ٩٥.

(٦) سورة الأنعام، آية ١٢٨.

(٧) سورة هود، الآيتان ١٠٦، ١٠٧.

(٨) سورة النبأ، آية ٢٣.

(٩) سورة الأحزاب، آية ٦٥.

نقول وبالله التوفيق: معنى قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾. أي: إلا من شاء الله عدم خلوده في النار من أهل الكبائر من الموحدين، وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة أن بعض أهل النار يخرجون منها.. وهم أهل الكبائر، وغاية ما في هذا القول إطلاق (ما) وإرادة (من)، ونظيره في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾[1]. كما أنه يحتمل أن تكون المدة المستثناة هي المدة بين بعثهم من قبورهم واستقرارهم في مصيرهم، قال ذلك ابن جرير[2].

ثانيًا: قوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾. فيه إجمال، وقد جاءت آيات وأحاديث صحيحة تصرح بأنهم خالدون فيها أبدًا؛ أي: الكفار، فيكون الظاهر خلود الكفار.. والظاهر مقدم على المجمل كما تقرر في الأصول. أما بالنسبة لأهل الكبائر الموحدين وماتوا على التوحيد، فخلودهم مؤقت، وقد ذكر العلماء أقوالًا، منها أن ﴿إِلَّآ﴾ في سورة هود بمعنى: سوى ما شاء الله من الزيادة على مدة السماوات والأرض. وقال بعض العلماء: الاستثناء على ظاهره وإنه يأتي على النار زمان ليس فيها أحد، فقد قال ابن مسعود: ليأتين على جهنم زمان تخفق أبوابها ليس فيها أحد، وذلك بعد ما يلبثون أحقابًا. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنها تأكلهم بأمر الله[3].

وقال الشنقيطي بعد قوله سابقًا (نقول وبالله التوفيق): والذي يظهر لي - والله تعالى أعلم - أن هذه النار التي لا يبقى فيها أحد يتعين حملها على الطبقة التي كان فيها عصاة المسلمين كما جزم به البغوي في تفسيره؛ لأنه يحصل به الجمع بين الأدلة، وإعمال الدليلين أولى من إلغاء أحدهما.

ونحن نقول: إن هذا الإيضاح والتفسير من أقوى الأدلة؛ فهو يصل إلى الجمع بين الآيات من أقرب طريق، والنار لا تفنى كما يقول البعض لقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا﴾[4].

ويقول ابن قتيبة في كتاب تأويل مشكل القرآن ما خلاصته: إن للعرب في معنى الأبد

---

(١) سورة النساء، آية ٣.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٨/ ٣٤.

(٣) دفع إيهام الاضطراب ص ١٢٢، ١٢٣.

(٤) سورة الإسراء، آية ٩٧، وانظر: دفع إيهام الاضطراب ص ١٢٤ بتصرف.

ألفاظًا يستعملونها في كلامهم، يقولون: لا أفعل ذلك ما اختلف الليل والنهار. فقال تعالى: ﴿وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾. ويقولون: ما دامت السماوات والأرض. يريدون: لا أفعله أبدًا؛ لأن هذه المعاني لا تتغير عندهم عن أحوالها، فخاطبهم الله بها بما يستعملونه، ويكون المعنى: خالدين فيها مدة العالم سوى ما شاء الله أن يزيدهم من الخلود على مدة العالم[1].

وكل هذا يفيد عدم التعارض بين الآيات. والنار باقية كما أن نعيم الجنة باقٍ أيضًا لقوله: ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٍ﴾[2]. ﴿كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرًا﴾[3]. و(كلما) تقتضي التكرار بتكرار الفعل الذي بعدها، كما أن الكفار لا يموتون في النار؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ﴾[4]. كما أن إخراجهم من النار ينص القرآن على عدمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[5]. ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾[6]. من هنا يفهم أن النار لا تفنى وأن الكفار مخلدون فيها.

٤١- هدايةُ اللهِ للنَّاس:

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٍ﴾[7].

هذه المقالة التي قالها الكفار هي بالنسبة إلى ذات الكلام صدق لا شك فيه؛ لأنه تعالى قال: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْ﴾[8]. وقال: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾[9]. وقوله: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا﴾[10]. ونظير آية الأنعام قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن

---

(١) تأويل مشكل القرآن ص ٧٦ بتصرف.

(٢) سورة هود، آية ١٠٧.

(٣) سورة الإسراء، آية ٩٧.

(٤) سورة فاطر، آية ٣٦.

(٥) سورة البقرة، آية ١٦٧.

(٦) سورة السجدة، آية ٢٠.

(٧) سورة الأنعام، آية ١٤٨.

(٨) سورة الأنعام، آية ١٠٧.

(٩) سورة الأنعام، آية ٣٥.

(١٠) سورة السجدة، آية ١٣.

دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ﴾[1].

فما وجه تكذيب الله تعالى لهم بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾[2]؟ ونظير هذا الإشكال بعينه ما هو في سورة الزخرف قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾[3].

فما وجه التوفيق بين هذه الآيات؟

نقول: إن مقالة الكفار هذه حق أريد به باطل، فتكذيب الله للكفار واقع على باطلهم الذي قصدوه بهذا الكلام الحق، وإيضاح القضية هذه أن مراد الكفار أنهم لما كان كفرهم وعصيانهم مشيئة الله، وأنه لو شاء لمنعهم من ذلك، فعدم منعه لهم دليل على رضاه بفعلهم، فكذبهم الله تعالى في ذلك مبينًا أنه تعالى لا يرضى من عباده الكفر؛ لقوله في سورة الزمر: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾[4]. فالكفار زعموا أن الإرادة الكونية يلزمها الرضا وهو زعم باطل، بل الله يريد بإرادته الكونية ما لا يرضاه بدليل قوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾. مع قوله: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾. والذي يلزم الرضا حقًّا إنما هو الإرادة الشرعية[5]، ويمكن القول بأن الله تعالى علم بعلمه الأزلي أنهم لو خيروا وتركوا وشأنهم لاختاروا الكفر؛ لذلك كتبه عليهم وختم على قلوبهم، يؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾[6].

ويقول ابن عاشور في **التحرير والتنوير** حول هذه القضية: «وحاصل هذه الحجة أنهم يحتجون على النبي ﷺ بأن ما هم عليه لو لم يكن برضا الله لصرفهم عنه، ولما يسره لهم، يقولون ذلك لإبطال حكمه عليهم بالضلالة، وهذه شبهة من لا يفرق بين تصرف الله تعالى

(١) سورة النحل، آية ٣٥.
(٢) سورة الأنعام، آية ١٤٨.
(٣) سورة الزخرف، آية ٢٠.
(٤) سورة الزمر، آية ٧.
(٥) دفع إيهام الاضطراب ص ١٢٩ بتصرف كثير.
(٦) سورة الأنعام، آية ٢٨.

بالخلق والتقدير وحفظ قوانين الوجود، وبين تصرفه بالأمر والنهي، فالأول تصرف التكوين والثاني تصرف التكليف، وجهلوا أن الله قيض له دعاة إلى الخير تنبهه إليه إن عرته غفلة، وزاد الإنسان نعمة بأن منحه عقلًا يمكنه من تغيير أحواله على حسب احتياجه، ووضع له في عقله وسائل الاهتداء إلى الخير والشر، لكن أهل الضلالة قد خلطوا بين مشيئة العباد ومشيئة الله، فلذلك رد الله عليهم قولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾. لأنهم جعلوا ما هو مشيئة لهم مشيئة لله تعالى، ومع ذلك فقد أثبت مشيئته في قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾. فهي مشيئة تكوين العقول وتكوين نظام الجماعة، فهذه المشيئة التي تذرعوا بها مشيئة خفية لا يتوصل إلى الاطلاع على كنهها عقول البشر؛ فلذلك نعى الله عليهم استنادهم إليها على جهلهم بكنهها فقال: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾. فشبه تكذيبهم تكذيب المكذبين الذين من قبلهم، فكلامهم من باب الكلام الحق الذي أريد به باطل. ثم أمر الله رسوله ﷺ بأن يجيبهم عن مقالتهم هذه بقوله: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾. وجاء بالاستفهام المقصود منه الإفحام والتهكم لما عرف من تشبثهم بمثل هذا الاستدلال»[(١)]. وبذلك نكون قد وفقنا بين الآيات وأزلنا ما يمكن أن يكون إيهامًا للتعارض بينهما.

٤٢- الإحسان إلى الوالدين مأمور به غير منهيٍّ عنه:

قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[(٢)].

تدل هذه الآية بظاهرها على أن الإحسان إلى الوالدين من المحرمات كالإشراك بالله، والواقع خلاف ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾[(٣)]. وغيرها من الآيات.. وللعلماء في هذه الآية كلام كثير خلاصته: أن الكلام قد تم

(١) التحرير والتنوير ٨/١٤٦ - ١٤٩ بتصرف.

(٢) سورة الأنعام، آية ١٥١.

(٣) سورة النساء، آية ٣٦.

عند قوله: ﴿حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾. وأن قوله: ﴿عَلَيْكُمْ﴾. اسم فعل يتعلق بما بعده على أنه معموله، ومنه (أن) في قوله: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا﴾. تفسيرية بمعنى (أي) ولكن هذا الرأي ينافي قوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى﴾. فيه حرف جر محذوف تقديره أي: ولأن ﴿هَٰذَا صِرَٰطِى﴾ ومن الكلام أيضًا أنه بمعنى أبينه لكم ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا﴾ وقد يكون قوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾. معمولًا لفعل محذوف تقديره: وأتل عليكم أن تحسنوا بالوالدين إحسانًا. وعلى هذا فلا إشكال ولا إيهام[1].

ويزيد أبو السعود المسألة إيضاحًا فيقول: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ﴾. إلخ «عليكم متعلق بـ ﴿حَرَّمَ﴾ على كل حال أو بـ ﴿أَتْلُ﴾. والأول أنسب بمقام الاعتناء بإيجاب الانتهاء عن المحرمات المذكورة، وهو السر في التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم لينتهوا عما نهوا عنه. و﴿أَلَّا﴾ في قوله: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِۦ﴾. مفسرة لفعل التلاوة المعلق بقوله: ﴿مَا حَرَّمَ﴾. و﴿أَلَّا﴾ ناهية، كما يدل عليه عطف ما بعده، وليس ضروريًّا كون المعطوف تفسيرًا لتلاوة المحرمات بحسب منطوقه، وكون المعطوفات كذلك حتى يمتنع انتظام الأوامر في سلك العطف عليه، بل يكفي في ذلك كونها تفسيرًا لها؛ باعتبار لوازمها التي هي النواهي المتعلقة بأضداد ما تعلقت هي به، فإن الأمر بالشيء مستلزم للنهي عن ضده، بل هو عينه عند البعض، كأن الأوامر ذكرت وقصد لوازمها، فإن عطف الأوامر على النواهي الواقعة بعد أن المفسرة لتلاوة المحرمات، مع القطع بأن المأمور به لا يكون محرمًا، دليل واضح على أن التحريم راجع إلى الأضداد على الوجه المذكور، فكأنه قال: - أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا، وألَّا تسيئوا إلى الوالدين - وجيء بالإحسان إلى الوالدين بين المحرمات للمبالغة في إيجاب مراعاة حقوقهما[2]. وبذلك نكون قد وفقنا بين الآيات وأزلنا شبهة إيهام التعارض.

****

(١) دفع إيهام الاضطراب ص ١٢٩، ١٣٠.

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٣/ ١٩٨.

سورة الأعراف

٤٣- السؤال عن الأعمال في الدنيا يوم الحساب:

قوله تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾(١).

تدل هذه الآية على أن الله تعالى سيسأل جميع الناس يوم القيامة، ونظير هذه الآية قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾(٢). وقوله: ﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾(٣).

وقد جاءت آيات أخرى تدل على خلاف ذلك، منها قوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾(٤). وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾(٥).

فما وجه التوفيق بين هذه الآيات؟

تتلخص الإجابة فيما يلي:

أولًا: السؤال قسمان: سؤال توبيخ وتقريع، وأداته في الغالب (لِمَ)؟ فالكلام مثبت من هذا الباب، وسؤال استخبار واستعلام، وأداته غالبًا (هل)؟ وذلك في المنفى. فالمثبت نحو ﴿وَقِفُوهُمْ﴾. ونحو: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾(٦). وقوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾(٧). وغير ذلك.

---

(١) سورة الأعراف، آية ٦.

(٢) سورة الحجر، الآيتان ٩٢، ٩٣.

(٣) سورة الصافات، آية ٢٤.

(٤) سورة الرحمن، آية ٣٩.

(٥) سورة القصص، آية ٧٨.

(٦) سورة الملك، آية ٨.

(٧) سورة الأنعام، آية ١٣٠.

ثانيًا: هناك إجابة أخرى تتلخص في أن ليوم القيامة مواقف، ففي بعضها يسألون، وفي بعضها لا يسألون؛ فهو يوم مقداره ألف سنة مما تعدون، وفيه حين يعرضون يوقفون على ذنوبهم ويحاسبون، فإذا انتهت المسألة ووجبت الحجة، وتبين أهل الجنة من أهل النار؛ انقطع الكلام وذهب الخصام، وعندئذ لا سؤال ولا كلام. قال ابن عباس في قوله: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾. قال: هو موطن لا يسألون فيه. ومثله قوله: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾[1]. وقال الزركشي في **البرهان**: تحمل الآية: ﴿ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾. على السؤال عن التوحيد وتصديق الرسل. وتحمل آية: ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾. على ما يستلزم الإقرار بالنبوات من شرائع الدين وفروعه، ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[2]. وعلى أي وجه فلا تعارض ولا تنافي بين الآيات، فيوم القيامة مواقف متعددة، ففي موضع يسأل فيه، وموقف يرحم ويلطف به، وآخر يعنف ويوبخ كالكفار.. إلخ. والله أعلم.

٤٤- تشبيه العَصا بالثعبان:

قوله تعالى: ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾[3].

تفيد هذه الآية تشبيه العصا بالثعبان، والثعبان لا يطلق إلا على الكبير من الحيات.

وقد جاءت آيات أخرى تدل على خلاف ذلك، منها قوله: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾[4]. لأن الجان هو الحية الصغيرة.

فما وجه التوفيق بين هذه الآيات؟

نقول: شبه العصا بالثعبان من حيث عظم خلقته، وشبهها بالجان في سرعة خفتها

(١) سورة القصص، آية ٧٨، وانظر: تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص٦٥ بتصرف، ودفع إيهام الاضطراب ص ١٣١.

(٢) سورة القصص، آية ٦٥، وانظر: البرهان في علوم القرآن ٢/ ٥٥.

(٣) سورة الأعراف، آية ١٠٧، وسورة الشعراء، آية ٣٢.

(٤) سورة القصص، آية ٣١.

واهتزازها، فهي جامعة بين العظم وخفة الحركة على خلاف العادة[١].

يقول أبو السعود: «فإذا هي ثعبان مبين - أي ظاهر لا شك فيه - في كونه ثعبانًا، وهو الحية العظيمة، وإيثار الجملة الاسمية للدلالة على كمال سرعة الانقلاب وثبات وصف الثعبانية فيها كأنها في الأصل كذلك»[٢]. قول ابن عطية: «رُوي أن موسى عليه السلام قلق به وبمحاورته فرعون، فقال فرعون لأعوانه: خذوه. فألقى موسى العصا فصارت ثعبانًا، وهمت بفرعون فهرب منها. وقال السدي: إنه أحدث، وقال: يا موسى، كفه عني. فكفه»[٣].

وقال ابن عطية: إن ظاهر الآية وغيرها أن موسى - عليه السلام - لم تَنْبَن شريعته إلا على بني إسرائيل فقط، ولم يدع فرعون وقومه إلا إلى إرسال بني إسرائيل، وذَكَّره لعله يخشى أو يزكى ويوحد كما يُذكَّر كل كافر؛ إذ كل نبي داع إلى التوحيد، وإما أنه دعاه ليلتزم بكل الشرع، فلم يرد في هذا نص[٤]. وبذلك ينتفي إيهام التعارض.

٤٥- مواعدة الله لموسى أربعين ليلةً:

قوله تعالى: ﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ﴾[٥].

تفيد هذه الآية بظاهرها أن الله تعالى واعد موسى ثلاثين ليلة، ثم واعده بعد ذلك بعشر فصارت أربعين، بينما جاءت في آية البقرة وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ﴾[٦].

فكيف يتم التوفيق بينهما؟

نقول: قال الحسن البصري: «ليس المراد في آية الأعراف على ظاهره من أن الوعد كان ثلاثين ليلة ثم بعد ذلك واعده بعشر وإنما واعده أربعين ليلة جميعًا. وقيل: تجري آية

(١) دفع إيهام الاضطراب ص ١٣٤.
(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٣/ ٢٥٨.
(٣) المحرر الوجيز ٦/ ٢٧.
(٤) المرجع السابق.
(٥) سورة الأعراف، آية ١٤٢.
(٦) سورة البقرة، آية ٥١.

الأعراف على ظاهرها؛ من أن الوعد كان ثلاثين، ثم أُتِمَّ بالعشر، فاستقرت الأربعون، ثم أخبر في آية البقرة بما استقر[1]. وبذلك ينتفي إيهام التعارض.

٤٦- أَوَّلية الإيمان ودلالاتها:

قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

تدل هذه الآية بظاهِرها على أنَّ موسى - عليه السلام - أول المؤمنين، وقد جاءت آيات أخرى بخلاف ذلك، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[3]. على أن السحرة أول المؤمنين، وقوله تعالى: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[4]. على أن الرسول محمدًا ﷺ أول المسلمين، فكيف جاز لكل واحد منهم أن تكون له الأولية، بينما سبقه آخرون؟ فما وجه التوفيق بين الآيات؟

نقول: قال الإمام أحمد: «وأما قول موسى: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. فإنه حين قال: ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى﴾[5]. ولا يراني أحد في الدنيا إلا مات، ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[6]. يعني أول المصدقين أنه لا يراك أحد في الدنيا إلا مات. وأما قول السحرة: ﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. يعني أول المصدقين بموسى من أهل مصر من القبط. وأما قول النبي ﷺ: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. يعني من أهل مكة[7].

ونخلص إلى القول بأن الآية الأولى: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. مقيدة بالسياق؛ فإنها في قول

(١) البرهان للزركشي ٢/ ٤٥ بتصرف.
(٢) سورة الأعراف، آية ١٤٣.
(٣) سورة الشعراء، آية ٥١.
(٤) سورة الأنعام، الآيتان ١٦٢، ١٦٣.
(٥) سورة الأعراف، آية ١٤٣.
(٦) سورة الأعراف، آية ١٤٣.
(٧) الرد على الزنادقة والجهمية ص ٩٥، ٩٦.

موسى عليه السلام - تحتمل ما يأتي:

١- ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بك فيما تنزله عليَّ من شريعة وما تأمرني به.

٢- ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بعظمتك وأنه لا يراك أحد.

٣- ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بك إيمانًا لا أعتقد أن أحدًا آمن بمثله من قبلُ، أي من حيث الدرجة.

٤- ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من قومي وأهلي.

وفي الآية الثالثة بالنسبة لمحمد ﷺ:

١- ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ بشريعتك الخاتمة التي تنزلها عليَّ.

٢- ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ إسلامًا مبرأ من كل شرك ونقص وخروج عن الجادة كما هو في إسلام اليهود والنصارى الذين خلطوا شريعة أنبيائهم بما أخرجها عن الإسلام.

٣- ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي أكثر المسلمين إسلامًا وأحسنهم وأقواهم، وهذا شأن النبي الخاتم.

٤- ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ بك من قومي.

وبذلك ينتفي إيهام التعارض.

****

سورة الأنفال

٤٧- وجل القلوب عند ذكر الله بين الخصوص والعموم:

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾(١).

هذه الآية تدل على أن وجل القلوب يكون عند سماع ذكر الله ويكون من علامات الإيمان.

وقد جاء في آية أخرى ما يدل على خلاف ذلك، وهي قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾(٢). فالمنافاة الإيهام الواضح بين الطمأنينة ووجل القلوب.

فما وجه التوفيق بين هذه الآيات؟

نقول: تكون الطمأنينة بانشراح الصدر بمعرفة التوحيد والإقرار بوحدانيته تعالى ذاتًا وصفاتٍ وأفعالًا. والوجل يكون عند خوف الزيغ والبعد عن الهدى فتوجَلُ القلوب لذلك، وقد جمع بينهما في قوله تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾(٣). وقوله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾(٤). وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ

(١) سورة الأنفال، آية ٢.

(٢) سورة الرعد، آية ٢٨.

(٣) سورة الزمر، آية ٢٣.

(٤) سورة آل عمران، الآيتان ٧، ٨.

رَٰجِعُونَ﴾[1].

يقول ابن عطية: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾. أي: الكاملون. ﴿وَجِلَةٌ﴾. أي: فزعت ورقت وخافت. والآية ظاهرها أنها للمبالغة والتأكيد فقط[2].

وبذلك يرتفع الإيهام.

٤٨- طاعة الرسول بين الإطلاق والتقييد:

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[3].

تدل هذه الآية بظاهرها على أن الاستجابة للرسول - التي هي طاعته - لا تجب إلا إذا دعانا لما يحيينا. ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾[4].

وقد جاءت آيات أخر تدل على وجوب اتباعه وطاعته مطلقًا بدون قَيد، كقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[5]. وقوله تعالى في آل عمران: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[6].

وفي النساء قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[7].

فما وجه التوفيق بين هذه الآيات؟

نقول: إن آيات الإطلاق مبينة أنه ﷺ لا يدعونا إلا لخيري الدنيا والآخرة فقوله: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾. موجودة في كل دعوة له، وفي كل أمر، وفي كل نهي؛ وذلك لعصمته ﷺ، فقوله:

(١) سورة المؤمنون، آية ٦٠، وانظر: دفع إيهام الاضطراب ص ١٣٥.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ١٤٩.

(٣) سورة الأنفال، آية ٢٤.

(٤) سورة الممتحنة، آية ١٦.

(٥) سورة الحشر، آية ٧.

(٦) سورة آل عمران، آية ٣١.

(٧) سورة النساء، آية ٨٠.

﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾. دعوة إلى كل ما يرضي الله، وأما الآيات الأخرى فبينت أنه - عليه الصلاة والسلام - لا يدعو إلا لما فيه خير[1].

يقول ابن عطية: الآية خطاب للمؤمنين المصدقين، وقوله: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾. أي: للطاعة وما تضمنه القرآن من أوامر ونواه.. وهذا إحياء مستعار؛ لأنه من موت الكفر والجهل.

وقوله: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾. وقيل: معناه: للحرب والجهاد للعدو، فهو يحيي بالعزة والغلبة والظفر، فسمى ذلك حياة. وقال النقاش: المراد إذا دعاكم للشهادة[2]. وبذلك ينتفي الإيهام.

٤٩- خصوصية الاستغفار وقصره على المؤمنين:

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[3].

تدل هذه الآية بظاهرها على أن لكفار مكة أَمَانَيْنِ (مثنى أَمَان) من العذاب. كونه ﷺ بين أَظْهُرِهِم، ولم يهلك الله أمة ونبيهم فيهم. ثم استغفارهم الله.

وجاءت آية تقول: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾[4]. تدل على خلاف ذلك.

وللتوفيق بين الآيتين وإزالة ما يوهم التعارض نقول:

أولًا: لا أمانين لهم؛ لأن رسول الله ﷺ خرج من بين أظهرهم، ولأنهم لم يستغفروا؛ لكفرهم بالله، ومن ثم عذبوا بالقتل والأسر يوم بدر، كما يشير إلى ذلك قوله: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾[5].

ثانيًا: المراد من الاستغفار: استغفار المؤمنين المستضعفين بمكة، وذلك يدل على أن

(١) دفع إيهام الاضطراب ص ١٣٥.

(٢) المحرر الوجيز ٦/ ٢٥٧.

(٣) سورة الأنفال، آية ٣٣.

(٤) سورة الأنفال، آية ٣٤.

(٥) سورة السجدة، آية ٢١.

استغفار المؤمنين كان هو السبب في عدم وقوع العذاب بأهل مكة المستعجلين له بقولهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ...﴾[1]. وعلى هذا يكون إسناد الاستغفار لمجموع أهل مكة الصادق بخصوص المؤمنين منهم.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾[2]. مع أن العقر كان من واحد فقط بدليل قوله: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾[3].

فعلى هذا يكون دفع العذاب الدنيوي عنهم باستغفار المؤمنين الكائنين بين أظهرهم.

أما قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ الآية. أي: بعد خروج المؤمنين الذين كانوا بين أظهرهم، فبعد خروج هؤلاء المؤمنين من مكة عذب الله أهل مكة في الدنيا. ومما يدل على صحة ما ذكرنا قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[4].

وخلاصة القول: أنهم لا يعذبون ورسول الله بين أظهرهم أو بعد خروجه وفيهم المؤمنون، وهم المعنيون بالاستغفار، ثم عذبوا بعد خروج المؤمنين من مكة العذاب الدنيوي.

وبذلك يتم التوفيق بين الآيات.

****

(١) سورة الأنفال، آية ٣٢.

(٢) سورة الأعراف، آية ٧٧.

(٣) سورة القمر، آية ٢٩.

(٤) سورة الفتح، آية ٢٥، وانظر: دفع إيهام الاضطراب ص ١٣٦ بتصرف.

سورة التوبة

٥٠-القتال في الأشهر الحرم:

قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾[١].

وبيان ذلك أن المراد بالأشهر الحرم في هذه الآية هي أشهر المهلة المنصوص عليها في قوله: ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾[٢]. وليس المراد الأشهر الحرم التي هي ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب على الصحيح؛ وذلك لقول ابن عباس رضي الله عنهما وآخرين، واستحسنه ابن كثير؛ لدلالة سياق القرآن عليه[٣] خلافًا لابن جرير[٤]. وعلى ذلك فالآية تدل بعمومها على قتل الكفار في الأشهر الحرم المعروفة بعد انقضاء أشهر الإمهال الأربعة.

وقد جاءت آيات أخر تدل على عدم القتال فيها، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً ﴾[٥].

وللتوفيق بين الآيات وإزالة ما يوهم التعارض نقول: قال الشنقيطي: إن تحريم الأشهر الحرم منسوخ بعموم آيات السيف. ومن يقول بعدم النسخ يقول: هو مخصص لها. والظاهر

(١) سورة التوبة، آية ٥.

(٢) سورة التوبة، آية ٢.

(٣) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٦٠.

(٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ١٤/ ١٣٤.

(٥) سورة التوبة، آية ٣٦.

أن الصحيح كونها منسوخة. وذلك لفعل النبي ﷺ في حصاره لثقيف في الشهر الحرام الذي هو ذو القعدة. فقد ثبت في **الصحيحين** أنه ﷺ خرج إلى هوازن في شوال فلما كسرهم واستفاء أموالهم ورجع لجؤوا إلى الطائف، فحاصرهم فيها أربعين يومًا وانصرف ولم يفتحها[1]، فثبت أنه حاصر في الشهر الحرام، وعلى ذلك يكون قوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾. ناسخًا لقوله: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾. ولقوله: ﴿لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾[2]. وقوله: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾[3]. والمنسوخ من هذه ومن قوله: ﴿أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾. تحريم الشهر في الأولى، والأشهر في الثانية فقط دون ما تضمنتاه من الخبر؛ لأن الخبر لا يجوز نسخه شرعًا.

٥١- درجات الشرك:

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[4].

تنص هذه الآية صراحة على أن كفار أهل الكتاب مشركون؛ لقوله: ﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. بعد أن بين وجوه شركهم في الآية بجعلهم الأولاد لله، والأحبار أربابًا من دون الله، ونظير هذه الآية قوله في سورة النساء: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾[5]. ولإجماع العلماء على أن كفار أهل الكتاب داخلون فيها، وقد جاءت آيات أخر تدل بظاهرها على أن أهل الكتاب ليسوا من المشركين كقوله: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾[6]. وغير ذلك من الآيات كقوله: ﴿مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا

(١) صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة حنين ٢/ ١٤٠١، ١٤٠٢.

(٢) سورة المائدة، آية ٢.

(٣) سورة البقرة، آية ١٩٤.

(٤) سورة التوبة، الآيتان ٣٠، ٣١.

(٥) سورة النساء، آية ١١٦.

(٦) سورة البينة، آية ١.

ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾[١].

وللتوفيق بين الآيات وإزالة ما يوهم التعارض نقول: وجه الجمع أن الشرك الأكبر المقتضي للخروج من دين الإسلام أو من الملة أنواع، منها عبادة الأوثان وهو ما اتصف به كفار مكة صريحًا، وهذا النوع من الشرك لم يتصف به أهل الكتاب؛ لذا عطفهم على كفار مكة من حيث هذه المغايرة، وذلك لا ينافي أن يكون أهل الكتاب مشركين بنوع آخر كطاعتهم للشيطان والأحبار، فمصوب فعل هؤلاء يكون عابدًا لهم؛ بدليل قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾[٢]. أي: لا تطيعوه. وكقوله تعالى على لسان إبراهيم: ﴿لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا﴾[٣]. وغير ذلك كثير، فإن أهل الكتاب مشركون من حيث طاعتهم للشيطان والأحبار والرهبان؛ لذا فلا تنافي ولا تعارض بين الآيات..

٥٢- خروج المؤمنين للقتال:

قوله تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ﴾[٤].

تدل هذه الآية بظاهرها على الخروج للجهاد في سبيل الله للمسلمين عامة، وعلى كل حال، وقد جاءت آيات أخر تَدُلُّ على خلاف ذلك. كقوله تعالى في سورة التوبة: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾[٥]. وقوله في ذات السورة ﴿وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗ﴾.

وللتوفيق بين الآيات نقول: إن آية ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ﴾. منسوخة بآيات العذر المذكورة، وهذا الموضع من المواضع التي نسخ فيه الناسخ؛ لأن قوله: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا﴾. ناسخ لآيات الإعراض عن المشركين، وهو منسوخ بآيات العذر[٦].

(١) سورة البقرة، آية ١٠٥.

(٢) سورة يس، آية ٦٠.

(٣) سورة مريم، آية ٤٤، انظر: إيهام الاضطراب ص ١٤٦، ١٤٧ بتصرف.

(٤) سورة التوبة، آية ٤١.

(٥) سورة التوبة، آية ٩١.

(٦) دفع إيهام الاضطراب ص ١٤٧، ١٤٨.

يقول أبو السعود ما خلاصته: ﴿ٱنفِرُواْ﴾. تجريد الأمر بالنفور على أي حال، وقال:.. وعن ابن أم مكتوم رضي الله عنه أنه قال لرسول الله ﷺ أعليَّ أن أنفر؟ قال - عليه الصلاة والسلام -: نعم، حتى نزل: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ﴾[١]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: نسخت بقوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ﴾[٢]. وقال ابن عطية حول قوله تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا﴾ الآية. «هذا أمر من الله تعالى لأمة محمد ﷺ بالنفير، فقال بعض الناس: هذا أمر عام لجميع الناس، فتعين به الفرض على الأعيان في تلك المدة، ثم نسخه الله بقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗ﴾. وقال جل الناس: بل هذا حض، والأمر نفسه موقوف على فرض الكفاية، ولم يقصد بالآية فرضه على الأعيان»[٣]. وبذلك يتم التوفيق، ويزول ما يوهم التعارض.

* * * *

(١) سورة الفتح، آية ١٧.

(٢) إرشاد العقل السليم ٤/ ٥٩.

(٣) المحرر الوجيز ٦/ ٥٠١.

سورة يونس

٥٣- تشفّع الكفار بأصنامهم، ودلالاتها:

قوله تعالى ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾[١].

تدل هذه الآية بظاهرها على أن الكفار يرجون شفاعة أصنامهم يوم القيامة، وقد جاءت آيات أخرى تدل على إنكارهم ليوم القيامة كقوله: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾[٢]. وقوله: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُنشَرِينَ﴾[٣]. وقوله: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾[٤]. وقوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾[٥].

فما وجه التوفيق بين هذه الآيات؟

نقول: إن الكفار يرجون شفاعة الأصنام في الدنيا لإصلاح معاشهم، وفي الآخرة على تقدير وجودها؛ لأنهم شاكون في وجودها لقوله: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ﴾[٦]. ويدل لذلك قوله تعالى على لسان الكافر: ﴿وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰ﴾[٧]. وقوله: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرًا مِّنۡهَا مُنقَلَبًا﴾[٨]. وذلك لأن (إن) الشرطية تدل على الشك في حصول

---

(١) سورة يونس، آية ١٨.
(٢) سورة المؤمنون، آية ٨٢.
(٣) سورة الدخان، آية ٣٥.
(٤) سورة الأنعام، آية ٢٩.
(٥) سورة يس، آية ٧٨.
(٦) سورة الأنعام، آية ٩٤.
(٧) سورة فصلت، آية ٥٠.
(٨) سورة الكهف، آية ٣٦.

الشرط، ويدل لذلك قوله في الآيتين: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾[١]. يقول ابن عطية: قولهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾. وهو مذهب النبلاء منهم، فأمر الله رسوله - عليه الصلاة والسلام - أن يقررهم ويوبخهم لعلهم يعلمون أن الله عالم بأنباء من في السماوات والأرض لا يعلمها إلا هو[٢]، وقد كان الكفار يقولون: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾[٣].

٥٤-دعوة موسى على فرعون بين الإفراد والتثنية:

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمۡوَٰلًا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾[٤].

في هذه الآية نص على أن هذا الدعاء من موسى عليه السلام وحده، بينما قال الله في آية أخرى: ﴿قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا﴾[٥].

فكيف يكون التوفيق بينهما؟

نقول: الداعي موسى والمؤمِّن هارون. والمؤمِّن كالداعي؛ لذا جمع الله بينهما. قاله ابن كثير وآخرون[٦]. وبهذا استدل على أن قراءة الإمام تكفي المأموم إذا أمن له على قراءته؛ لأن تأمينه بمنزلة قراءته[٧]، أو لأن الرسالة أصلًا لموسى، وهارون وزيره؛ لذا كان الداعي موسى.

---

(١) سورة الكهف، آية ٣٦، وسورة فصلت، آية ٥٠. وانظر: دفع إيهام الاضطراب ص ١٤٩.

(٢) المحرر الوجيز ٧/ ١٢١.

(٣) سورة الزمر، آية ٣.

(٤) سورة يونس، آية ٨٨.

(٥) سورة يونس، آية ٨٩.

(٦) تفسير ابن كثير ٢/ ٤٦٠.

(٧) المرجع السابق، ودفع إيهام الاضطراب ص ١٥٠.

٥٥-دلالة الشرط على المستحيل:

قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾[١].

تفيد هذه الآية مخاطبة رسول الله ﷺ... لكن المُراد غيره من المتشككين؛ لأن القرآن نزل على رسول الله ﷺ بمذاهب العرب كلها، وهم قد يخاطبون الرجل بالشيء ويريدون غيره[٢].

يقول أبو السعود ما خلاصته: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ﴾. أي: في شك ما يسير على الفرض والتقدير، فإن مضمون الشرطية - إن - إنما هو تعليق شيء بشيء من غير تعرض لإمكان شيء منهما، كيف لا وقد يكون كلاهما ممتنعًا كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾[٣]. وقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[٤]. ونظائر هذه الآية كثيرة. ومراد الآية إظهار نبوته - عليه الصلاة والسلام - بشهادة الأحبار حسبما هو المسطور في كتبهم، لا تجويز صدور الشك منه ﷺ؛ لذا - قال عليه الصلاة والسلام -: «**لا أشك ولا أسأل**»[٥]. وقيل: الخطاب لمؤمني أهل الكتاب كعبد الله بن سلام، وكعب، وتميم الداري، وأضرابهم. وقيل: الخطاب للنبي ﷺ والمراد أمته، أو لكل من يسمع، وفيه تنبيه على أن من خالجته شبهة في الدين فعليه أن يسارع إلى أهل العلم[٦].

ويقول ابن عطية: «الجمهور على أن (إن) شرطية، والصواب في معنى الآية أنها مخاطبة للنبي ﷺ والمراد سواه من كل من يمكن أن يشك أو يعارض. وقال قوم: الكلام بمنزلة قولك: إن كنت ابني فبرني»[٧]. وبه قال أبو حيان في تفسيره[٨]، وبهذا يتم التوفيق والجمع بين الآيات.

---

(١) سورة يونس، آية ٩٤.

(٢) تأويل المشكل لابن قتيبة ص ٨١.

(٣) سورة الزخرف، آية ٨١.

(٤) سورة الزمر، آية ٦٥.

(٥) الدر المنثور ٤/ ٣٨٩.

(٦) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٤/ ١٧٥.

(٧) المحرر الوجيز ٧/ ٢١٧.

(٨) البحر المحيط ٦/ ٣٥٧.

سورة هود

٥٦-مجازاة الكافر على حسناته في الدنيا فقط:

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾[١].

هذه الآية تصرح بأن الكافر يجازى بحسناته في الدنيا من أعمال الخير دون الآخرة؛ لأنه تعالى قال: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾. أي: في الدنيا، ثم نص على بطلان أعمالهم في الآخرة بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾. ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾[٢]. وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾[٣].

كما جاءت آيات أخر تدل على بطلان عمل الكافر من أصله، بل وبطلانه في الدنيا والآخرة كما هو الحال في كفر الردة، فمن الآيات الدالة على بطلانه من أصله قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾[٤]. وآية الفرقان: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾[٥].

ومن الآيات الدالة على بطلان عملهم في الدنيا والآخرة قوله: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن

---

(١) سورة هود، آية ١٦.

(٢) سورة الشورى، آية ٢٠.

(٣) سورة الأحقاف، آية ٢٠.

(٤) سورة إبراهيم، آية ١٨.

(٥) سورة الفرقان، آية ٢٣.

دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ ﴾[1]. وغير ذلك من الآيات.

فما وجه التوفيق والجمع بين هذه الآيات:

هناك من الكفار من يجازيه الله على عمل الخير له في الدنيا بإعطائه مالًا وأولادًا... وغير ذلك من متاع الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[2]. ونفس النص يفيد أنه لا جزاء طيبًا لهم في الآخرة لأنها للمتقين، ومن الكفار من لا يثيبه في الدنيا على عمل؛ لقوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾[3]. فهذه الآية مخصصة لعموم قوله تعالى في بعض الكفار: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةَ ﴾[4]. وجمهور العلماء على حمل العام على الخاص، والمطلق على المقيد، أو أن أعمالهم في الدنيا باطلة ولا يعتد بها شرعًا؛ لأنها غير مقبولة ما دامت مجردة عن الإيمان، أما مطلق النفع الدنيوي فهو عند الله كـ (لا شيء)[5].

قال ابن عطية في **المحرر**: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾ الآية. قالت فرقة: ظاهرها العموم ومعناها الخصوص في الكفرة. هذا قول قتادة والضحاك، وقال مجاهد: هي في الكفرة وفي أهل الرياء من المؤمنين. وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في الرجل المتصدق، والمجاهد المقتول، والقائم بالقرآن ليله ونهاره وكل ذلك رياء: «**إنهم أول من تسعر بهم النار يوم القيامة**»[6].

ولما سمع معاوية رضي الله عنه ذلك بكى وقال: صدق الله ورسوله. وتلا: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ

(١) سورة البقرة، آية ٢١٧.

(٢) سورة الزخرف، الآيات ٣٣ - ٣٥.

(٣) سورة الإسراء، آية ١٨.

(٤) سورة الحج، آية ١١.

(٥) دفع إيهام الاضطراب ص ١٥١ - ١٥٤ بتصرف.

(٦) الحديث أخرجه الترمذي في سننه من حديث طويل. انظر: سنن الترمذي ٤/ ٥٩١ ح ٢٣٨٢، قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾. وبذلك يتم التوفيق بين الآيات فيما يوهم التعارض[1].

٥٧-ردُّ إبراهيم عليه السلام على الملائكة:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ﴾[2].

تدل هذه الآية الكريمة بظاهرها على أن إبراهيم - عليه السلام - رد السلام على الملائكة، بينما جاءت آية أخرى تفيد أنه وَجِل، ولم يرد السلام؛ لقوله في سورة الحجر: ﴿فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾[3].

وللتوفيق بين هذه الآيات نقول: إن الخليل - عليه السلام - أجاب الملائكة برد السلام وبأنه وَجِل مِنهم أيضًا فَذَكرَ أحدهما في هود والآخر في الحجر، يشير إلى صحة هذا التوفيق قوله في الذاريات: ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾[4]. فقوله: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾. فيه دِلالة أنه كان وجلًا منهم. وقوله في هود: ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾[5]. وفي الذاريات: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾[6].

قال ابن عاشور في التحرير والتنوير: «قال ابن عطية: حيّا الخليل بأحسن مما حُيِّيَ به، أي: نظرًا إلى الأدب الإلهي الذي علمه لنا القرآن: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾[7]. والسلام: التحية، فقد رد إبراهيم - عليه السلام - بعبارة من عبارة الرسل زيادة في الإكرام. وبذلك يتم التوفيق وينتفي التعارض.

(١) المحرر الوجيز ٧/ ٢٥٣.

(٢) سورة هود، آية ٦٩.

(٣) سورة الحجر، آية ٥٢.

(٤) سورة الذاريات، آية ٢٥.

(٥) سورة هود، آية ٧٠.

(٦) سورة الذاريات، آية ٢٨.

(٧) سورة النساء، آية ٨٦، وانظر: ١٢/ ١١٦.

٥٨-اجتماع الناس في عبادة الله، وافتراقهم:

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾(١).

المشار إليه في قوله: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾. هو اختلاف الناس إلى شقّي وسعيد، ولذلك الاختلاف خلقهم، فسبحانه خلق خلقًا للجنة، وخلق خلقًا للنار: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾(٢). ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ۚ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾(٣). وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾(٤).

وأخرج الشيخان في صحيحيهما من حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «**ثم يبعث الله إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات، فيكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقيٌّ أو سعيد**»(٥). وأخرج مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها: «**يا عائشة ! إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلًا وهم في أصلاب آبائهم، وخلق النار وخلق لها أهلًا وهم في أصلاب آبائهم**»(٦). وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله قدّر مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء**»(٧). وفي الصحيحين أيضًا من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال:

(١) سورة هود، الآيتان ١١٨، ١١٩.

(٢) سورة الشورى، آية ٧.

(٣) سورة الشورى، آية ٨.

(٤) سورة الأعراف، آية ١٧٩.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب خلق آدم ٤/ ١٦١، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر ٣/ ٢٠٣٦ ح ٢٦٤٣.

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب معنى «كل مولود يولد على الفطرة» ٣/ ٢٠٥٠ ح ٢٦٥٣.

(٧) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى - عليهما السلام - ٣/ ٢٠٤٤ ح ٢٦٥٣.

«كل امرئ ميسر لما خلق له»[١].

وإذا تقرر أن قوله: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾. معناه خلق البعض شقيًا، وخلق البعض سعيدًا، كما قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾[٢]. فما وجه التوفيق بين هذه الآيات وهذه الأحاديث مع قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[٣]؟!

نقول:

أولًا: الحكمة المقصودة من الخلق هي عبادته عز وجل وهي متحققة في السعداء، يشير إلى ذلك قوله: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾[٤]. وغاية ما يترتب على هذا الوجه أنه أطلق المجموع، وأراد البعض. ويقول ابن عطية عند قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾. اختلف الناس في معناه مع إجماع أهل السنة على أن الله تعالى لم يرد أن تقع العبادة من الجميع؛ لأنه لو أرادها لم يصح أن يقع الأمر بخلاف إرادته. ولذا قال علي بن أبي طالب وابن عباس رضي الله عنهم: المعنى: ما خلقت الجن والإنس إلا لآمرهم بعبادتي وليقروا لي بالعبودية. وقال زيد بن أسلم وسفيان: المعنى خاص، المراد وما خلقت الطائعين من الجن والإنس إلا لعبادتي. وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضًا: ليعبدون: ليتذللوا لي ولقدرتي. وعلى هذا فجميع الجن والإنس عابد متذلل، والكفار كذلك؛ فهم يتذللون عند المحن[٥]. وعلى ذلك يتم التوفيق ويزول إيهام التعارض.

ثانيًا: ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضًا واختاره ابن جرير أن معنى قوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾. أي: ليقروا بالعبودية طوعًا وكرهًا[٦].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾. ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي ٣/ ٢٠٤١ ح ٢٦٤٩.

(٢) سورة التغابن، آية ٢.

(٣) سورة الذاريات، آية ٥٦.

(٤) سورة الأنعام، آية ٨٩.

(٥) المحرر الوجيز ١٤/ ٤٠.

(٦) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٢٧/ ١٢.

ثالثًا: قد يكون المراد بقوله: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾. الإرادة الكونية القدرية، والمراد بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾. الإرادة الشرعية الدينية فبيَّن في قوله: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾. وقوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا﴾ الآية. أنه أراد بإرادته الكونية القدرية صيرورة قوم إلى السعادة، وآخرين إلى الشقاوة، وبيَّن بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾. أنه أراد العبادة بإرادته الشرعية الدينية من الجن والإنس فيوفق من شاء بإرادته الكونية فيعبده، ويخذل من شاء فيمتنع عن العبادة.

ووجه دلالة القرآن على هذا بيَّنه تعالى بقوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾[1]. فعمم الإرادة الشرعية بقوله: ﴿إِلَّا لِيُطَاعَ﴾. وبين التخصيص في الطاعة بالإرادة الكونية بقوله: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾. فالدعوة عامة والتوفيق خاص. فالإرادة الكونية أعم مطلقًا؛ لأن كل مراد شرعًا يتحقق وجوده في الخارج إذا أريد كونًا وقدرًا، كإيمان أبي بكر رضي الله عنه وليس يوجد ما لم يرد كونًا وقدرًا، ولو أريد شرعًا كإيمان أبي لهب. فكل مراد شرعي حصل فبالإرادة الكونية، وليس كل مراد كوني حصل مرادًا في الشرع، وأما بالنسبة إلى تعلق الإرادتين بعبادة الإنس والجن لله تعالى فالإرادة الشرعية أعم مطلقًا، والإرادة الكونية أخص مطلقًا؛ لأن كل فرد من أفراد الجن والإنس أراد الله منه العبادة شرعًا، ولم يردها من كلهم كونًا وقدرًا. فتعم الإرادة الشرعية عبادة جميع الثقلين، وتختص الإرادة الكونية بعبادة السعداء منهم[2].

يقول أبو السعود: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾. أي: في الحق. أي: مخالفين له. ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾. إلا قومًا هداهم الله بفضله إلى الحق فاتفقوا عليه ولم يخالفوه. ﴿وَلِذَٰلِكَ﴾. ولما ذكر من الاختلاف ﴿خَلَقَهُمْ﴾. أي: الذين بقوا بعد الثنيا وهم المختلفون - فاللام للعاقبة أو للترحم- فالضمير للناس كافة في خلقهم[3].

(١) سورة النساء، آية ٦٤.

(٢) دفع إيهام الاضطراب ص ١٥٩ بتصرف.

(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٤/ ٢٤٨.

سورة يوسف

٥٩- معنى قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾[١]

تدل هذه الآية بظاهرها على أن بعض الأنبياء ربما بعث من البادية بما في ذلك يعقوب - عليه السلام - وقد جاءت آيات أخر تدل على خلاف ذلك منها قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾[٢].

فما وجه التوفيق بين هاتين الآيتين؟

أولًا: قد يكون يعقوب - عليه السلام - في الحضر ثم انتقل إلى البادية بعد ذلك داعيًا البدو، وقد يكون المراد من البدو ما كان منه مستندًا إلى الحضر فهو في حكمه[٣].

ثانيًا: لا مانع أن يرسل الله رسلًا من أهل البادية وتكون كل آية على ظاهرها، فقد قال ابن عاشور في **التحرير والتنوير**: «فلا دلالة في قوله تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾. على نفي إرسال رسول من أهل البادية مثل يعقوب - عليه السلام - حين كان ساكنًا في البدو»[٤]. وعلى أي وجه فلا تنافيَ بين الآيات ولا تعارض، قال ابن عطية: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾. وكان منزل يعقوب - عليه السلام - بأطراف الشام في بادية فلسطين، وكان ربَّ إبل وغنم وبادية[٥]، وبذلك يتم التوفيق وينزه القرآن عن التنافي، ويكون معنى من البدو، أي: من مكان إقامتكم في البادية.

---

(١) سورة يوسف، آية ١٠٠.

(٢) سورة يوسف آية، ١٠٩.

(٣) دفع إيهام الاضطراب ص ١٦٢.

(٤) التحرير والتنوير ١٣/ ٦٨.

(٥) المحرر الوجيز ٨/ ٨٣.

سورة الرعد

٦٠- دلالة: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾(١)

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾.

تدل هذه الآية بظاهرها على أن لكل قوم هاديًا، وقد جاءت آيات أخر تقول: إن بعض الأقوام لم يكن لهم هاد. من ذلك قوله: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾(٢). وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾(٣). وقوله: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾(٤). وغير ذلك من الآيات التي يفيد ظاهرها أن هؤلاء ليس لهم هاد بالمعنى الخاص، أو ليس لهم هاد بالمعنى العام، نحو: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾(٥). وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾(٦). فالذين ماتوا في هذه الفترة لم يكن لهم هاد بالمعنى الأعم.

فما وجه التوفيق بين هذه الآيات؟

أولًا: قد يكون معنى قوله: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾. أي: داع يدعوهم إما إلى خير كالأنبياء، وإما إلى شر كالشياطين، وأنت يا محمد داع إلى كل خير، شأن كل الأنبياء قبلك. ذكر هذا المعنى

(١) سورة الرعد، آية ٧.

(٢) سورة الأنعام، آية ١١٦.

(٣) سورة غافر، آية ٥٩.

(٤) سورة يوسف، آية ١٠٣.

(٥) سورة يس، آية ٦.

(٦) سورة المائدة، آية ١٩.

ابن عباس رضي الله عنهما[1]. واستعمل الهدى في الشر كما جاء في قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾[2]. وقوله: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾[3]. كما جاءت آيات قرآنية أطلقت على داعي الشر أنه إمام في قوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾[4].

ثانيًا: وقد يكون المعنى: أنت يا محمد منذر وأنا الهادي لكل قوم. يشير إلى ذلك قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[5]. وقوله تعالى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾[6].

ثالثًا: قد يكون المراد من القوم الأمة، والمراد بالهادي النبي، فيكون معنى قوله: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾. أي: ولكل أمة نبي؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[7]. وكقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾[8]. فكثيرًا ما يطلق القرآن اسم القوم على الأمة، كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾[9]. وقوله: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ﴾[10]. وغير ذلك من الآيات.

وعلى هذا فالمراد بالقوم في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾. أعم من مطلق ما يصدق عليه اسم القوم لغة، يشير إلى ذلك حديث معاوية بن حيدة القشيري رضي الله عنه مرفوعًا: «**أنتم توفون سبعين أمة، أنتم خيرها وأكرمها على الله تبارك وتعالى**»[11]. ومعلوم أن ما يطلق عليه

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ١٦/ ٣٥٧، ٣٥٨.
(٢) سورة الحج، آية ٤.
(٣) سورة الصافات، آية ٢٣.
(٤) سورة القصص، آية ٤١.
(٥) سورة القصص، آية ٥٦.
(٦) سورة النحل، آية ٣٧، وانظر: المحرر الوجيز ٨/ ١٢٦ وما بعدها، وتفسير ابن كثير ٢/ ٥٤٠.
(٧) سورة فاطر، آية ٢٤.
(٨) سورة يونس، آية ٤٧.
(٩) سورة الأعراف، آية ٥٩.
(١٠) سورة الأعراف، آية ٦٥.
(١١) سنن ابن ماجه ٢/ ١٤٣٣، ومسند الإمام أحمد ٤/ ٤٤٧.

اسم القوم في اللغة أكثر من سبعين بأضعاف.

وحاصل هذا الوجه أن الآية كقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾. وقوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾. وعلى ذلك فلا إشكال، فآباء القوم الذين لم ينذروا والمذكورون في قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾. ليسوا أمة مستقلة، بل هم بعض أمة، وقوله: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾. لا يشكل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾(١). لأن المعنى أرسلنا إلى جميع القرى، بل إلى الناس عامة محمدًا ﷺ لعموم رسالته، وهذا أقرب الوجوه(٢).

وعليه فلا تعارض ولا تنافيَ بين الآيات.

وفي **التحرير والتنوير** يقول ابن عاشور: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾: «تذييل بالأعم؛ أي: إنما أنت منذر لهؤلاء ولكل قوم هاد أرسله الله لينذرهم لعلهم يهتدون»(٣).

ويقول ابن عطية في **المحرر**: «قال عكرمة: المراد بالهادي محمد ﷺ، وهاد عطف على منذر، كأنه قال: إنما أنت منذر وهاد.. وذلك يجري مع قوله ﷺ: **"بعثت إلى الأحمر والأسود"**»(٤).

وقال مجاهد: «ما أنت إلا منذر، ولكل أمة سلفت هاد أو نبي يدعوهم»(٥). وعلى كل وجه فلا تعارض.

٦١- الظلُّ الدائم في الجنة:

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾(٦).

تدل هذه الآية بظاهرها على أن الجنة فيها ظل دائم مع نظيرتها في قوله تعالى:

(١) سورة الفرقان، آية ٥١.

(٢) دفع إيهام الاضطراب ص ١٦٣ - ١٦٦ بتصرف.

(٣) التحرير والتنوير ١٣/ ٩٥.

(٤) مسلم في المساجد ١/ ٣٧٠ ح ٥٢١.

(٥) المحرر الوجيز ٨/ ١٢٦.

(٦) سورة الرعد، آية ٣٥.

﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾[1]. وهذا يوهم ظاهره المخالفة مع قوله تعالى في سورة الإنسان: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾[2].

فما وجه التوفيق بين هذه الآيات؟

يقول أبو السعود: قوله: ﴿وَظِلُّهَا﴾. دائم؛ أي: «لا تنسخه الشمس كما تنسخ ظلال الدنيا»[3]. وقال عند آية الإنسان: ليس فيها شمس محرقة، والمعنى أنه يمر عليهم هواء معتدل لا حار محم ولا بارد مؤذٍ، وفي لغة طيئ - الزمهرير - القر، وعلى هذا يكون المعنى أن هواءها مضيء بذاته لا يحتاج إلى شمس ثمت ولا قمر»[4].

ويستطرد أبو السعود قائلًا: «إن ظلال الأشجار زيادة في نعيمهم على معنى أنه لو كان هناك شمس مؤذية لكانت أشجارها مظلة عليهم؛ بمعنى أنه لا شمس ولا قمر»[5]. وحول آية الواقعة يقول: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾. «أي: مبسوط لا يتقلص ولا يتعاور كظل ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس»[6]. وظاهر هذه الآية أن نعيم الجنة دائم، وكذلك ظلها. وأنه لا شمس فيها محرقة، وأنها لا تنسخ الظلال، وبذلك يكون قد أزيل ما يوهم التعارض وتم التوفيق بين الآيات.

٦٢- المؤمنون من أَهلِ الكتاب:

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾[7].

هذه الآية تدل بظاهرها على إيمان أهل الكتاب؛ لأن الفرح بما أنزل على النبي ﷺ دليل

(١) سورة الواقعة، آية ٣٠.
(٢) سورة الإنسان، آية ١٣.
(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٥/ ٢٥.
(٤) المرجع السابق ٩/ ٧٣.
(٥) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٥/ ٢٥.
(٦) المرجع السابق ٨/ ١٩٣.
(٧) سورة الرعد، آية ٣٦.

الإيمان، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾[1]. وقد جاءت آيات تدل بظاهرها على خلاف ذلك كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾[2]. كما بين في موضع آخر أن الكافرين منهم كثرة في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[3].

فما وجه التوفيق بين هذه الآيات؟

نقول: إن الآية من العام الذي أريد به الخصوص من المؤمنين من أهل الكتاب، مثل عبد الله بن سلام ومن أسلم من اليهود والنصارى، ويدل على ذلك التبعيض في قوله: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾[4]. يقول أبو السعود في تفسيره: «والذين آتيناهم الكتاب هم المسلمون من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وكعب وأضرابهما، ومن آمن من النصارى وهم ثمانون رجلًا: أربعون بنجران، وثمانية باليمن، واثنان وثلاثون بالحبشة. ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾. إذ هو الكتاب الموعود في التوراة والإنجيل»[5]. فالآية من العام الذي أريد به الخصوص، وعلى هذا لا تعارض.

****

(1) سورة البقرة، آية ١٢١.

(2) سورة البينة، آية ٦.

(3) سورة آل عمران، آية ١١٠.

(4) سورة النساء، آية ١٥٩، وانظر: دفع إيهام الاضطراب ص ١٦٨.

(5) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٥/ ٢٥.

سورة الحجر

٦٣-الأصل في خلق الإنسان:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾(١).

تدل هذه الآية بظاهرها على أن آدم عليه السلام خلق من صلصال؛ أي: من طين يابس، وقد جاء في آيات أخر ما يدل على خلاف ذلك، كقوله: ﴿طِينٍ لَّازِبٍ﴾(٢). وقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾(٣). وقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾(٤). وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾(٥).

هذه الآيات توهم في مجموعها التعارض والاختلاف.

فما وجه التوفيق بينها؟

نقول: ذكرت الآيات الكريمة أطوارًا مختلفة للتراب الذي هو أصل خلق آدم بألفاظ مختلفة ومعانيها في أحوال مختلفة، فذكر طوره الأول بقوله: ﴿مِن تُرَابٍ﴾. ثم بُلَّ فصار طينًا لازبًا، ثم خُمِّر فصار حمأ مسنونًا، ثم يَبِسَ فصار صلصالًا كالفخار(٦).

ومرجع هذه الأشياء كلها إلى جوهر هو التراب.

(١) سورة الحجر، آية ٢٦.

(٢) سورة الصافات، آية ١١.

(٣) سورة آل عمران، آية ٢٩.

(٤) سورة الرحمن، آية ١٤.

(٥) سورة المؤمنون، آية ١٢.

(٦) دفع إيهام الاضطراب ص ١٧١.

ثم قوله بعد ذلك: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾[1]. وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾[2]. فذلك حكاية عن أصل النطفة التي هي خلاصة عصارة الأغذية، التي هي أصلًا من النبات المنزرع في الأرض، فتئول المسألة كلها أيضًا إلى الأرض، ولتظهر عظمة قدرة الخالق عز وجل، وبذلك يتضح أنه لا تعارض ولا تناقض؛ ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[3].

قال ابن عطية في **المحرر**: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾. هو الجنس والمراد به آدم، ودخل من بعده في ذلك إذ هو من نسله، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «خلق من ثلاثة: من طين لازب وهو الجيد، ومن صلصال الأرض الطيبة يقع عليها الماء ثم ينحسر فتتشقق وتصير مثل الخزف، ومن حمإٍ مسنون، وهو الطين فيه الحمأة»[4].

ويقول ابن عاشور في **التحرير والتنوير**: «والمقصود من ذكر هذه الأشياء التنبيه على عجيب صنع الله»[5].

****

(1) سورة المرسلات، آية ٢٠.

(2) سورة المؤمنون، آية ١٣.

(3) سورة النساء، آية ٨٢.

(4) المحرر الوجيز ٨/ ٣٠٣ وما بعدها.

(5) التحرير والتنوير ١٤/ ٤٢.

سورة النحل

٦٤- لكلٍّ إنسان وزر ضالًّا ومضلًّا:

قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[(١)].

تدل هذه الآية على أن هؤلاء الضالين يحملون أوزارهم كاملة ويحملون أيضًا من أوزار أتباعهم الذين أضلُّوهم، وقد جاءت آيات أخرى تدل على أنه لا يحمل أحد وزرَ غيره كقوله: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾[(٢)]. وقوله في سورة النجم: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[(٣)].

فما وجه التوفيق بين هذه الآيات؟

نقول: إن هؤلاء الضالين ما حملوا إلا أوزار أنفسهم؛ لأنهم تحملوا وزر الضلال ووزر الإضلال، فمن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها، لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئًا؛ لأن تسنينها لغيره ذنب من ذنوبه، فأخذ به[(٤)]، وقد قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾[(٥)].

يقول أبو السعود: «قوله: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾. أي: وبعض أوزار من ضلَّ بإضلالهم وهو وزر الإضلال؛ لأنهما شريكان: هذا يضله وهذا يطاوعه، فيتحاملان

---

(١) سورة النحل، آية ٢٥.

(٢) سورة فاطر، آية ١٨.

(٣) سورة النجم، آية ٣٨.

(٤) دفع إيهام الاضطراب ص ١٧٢.

(٥) سورة العنكبوت، آية ٤٠.

الوزر، وصيغة الاستقبال للدلالة على استمرار الإضلال»[1]. وبهذا يتضح أنه لا تعارض.

٦٥- تحريم المسكر:

قوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾[2].

هذه الآية تدل بظاهرها على أن السكر المتخذ من ثمرات النخيل والأعناب لا بأس به؛ لأن الله امتن به على عباده في سورة الامتنان (سورة النحل). وقد حرم الله الخمر بكل أنواعها وجعلها رِجْسًا من عمل الشيطان وأمر باجتنابها من أجل الفلاح قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[3]. وقد بين - عليه الصلاة والسلام - أن كُلَّ مُسْكِرٍ حَرام[4]. وأنَّ الخَمْرَ مَا خَامَر العَقْل[5].

فَمَا وجهُ التوفيق بين الآيتين؟

نَقُول: إن آية المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. الآية ناسخة لآية النحل: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾. وذلك على التحقيق؛ خلافًا لكثير من الأصوليين الذين يقولون: إن تحريم الخمر ليس نسخًا لإباحتها الأولى؛ لأن إباحتها الأولى إباحة عقلية، وهي المعروفة عند الأصوليين بالبراءة الأصلية، وتسمى استصحاب العدم الأصلي، والإباحة العقلية ليست من الأحكام الشرعية، حتى يكون رفعها نسخًا، ولو كان رفعها نسخًا لكان كل تكليف في الشرع ناسخًا للبراءة الأصلية من التكليف به، وإلى كون الإباحة العقلية ليست من الأحكام الشرعية.

يقول الشنقيطي: «وإنما قلنا: إن التحقيق هو كون تحريم الخمر ناسخًا لإباحتها؛ لأن قوله: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾. يدل على إباحة الخمر شرعًا، فَرَفْع هذه الإباحة المدلول عليها بالقرآن

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٥/ ١٠٧.

(٢) سورة النحل، آية ٦٧.

(٣) سورة المائدة، آية ٩٠.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأشربة، باب بيان أن كل مسكر خمر ٢/ ١٥٨٦ ح ١٧٣٣.

(٥) أخرجه أبو داود في سننه عن ابن عمر موقوفًا ٤/ ٧٨ ح ٢٦٦٩.

رفع حكم شرعي، فهو نسخ بلا شك. ولا يمكن أن تكون إباحتها عقلية إلا قبل نزول هذه الآية الكريمة كما هو ظاهر، ومعلوم أن الخمر نزل في شأنها أربع آيات في القرآن الكريم.

الأولى: هذه الآية آية النحل الدالة على إباحتها.

والثانية: آية البقرة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ﴾[1] الآية. فذكرت معايبها ومنافعها.

والثالثة: آية النساء التي حرمتها في أوقات الصلاة ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ﴾[2].

الرابعة: هي آية التحريم لها البتة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[3]. على ذلك فلا تعارض.

يقول ابن عاشور في **التحرير والتنوير**: «.. وهذا امتنان بما فيه لذتهم المرغوبة لديهم والمتفشية فيهم، وذلك قبل تحريم الخمر؛ لأن هذه الآية مكية وتحريم الخمر نزل بالمدينة»[4]. ويفهم من هذا - النسخ لتأخر آية التحريم في النزول عن آية الإباحة. والله أعلم.

٦٦- سلطان الشيطان بين الإثبات والنفي:

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَـٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾[5].

تدل هذه الآية بظاهرها على أن الشيطان له سلطان على أوليائه، ونظيرها قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾[6].

(١) سورة البقرة، آية ٢١٩.
(٢) سورة النساء، آية ٤٣.
(٣) سورة المائدة، الآيتان ٩٠ - ٩١، وانظر: دفع إيهام الاضطراب ص ١٧٤ بتصرف.
(٤) التحرير والتنوير ١٤/ ١٠٣.
(٥) سورة النحل، آية ١٠٠.
(٦) سورة الحجر، آية ٤٢.

وقد جاء في بعض الآيات ما يدل على نفي سلطانه عليهم كقوله تعالى في سورة سبأ: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢٠ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾[1].

وللتوفيق بين الآيات نقول: إن سلطان إبليس عليهم سلطان إضلال بتزيين المحرمات لهم، والسلطان المنفي هو سلطان الحجة، فليس لإبليس حجة عليهم، غير أنه دعاهم فأجابوه بلا حجة ولا برهان، فلم يجعل الله لإبليس سلطانًا عليهم البتة بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾[2].

ويقول ابن عطية في **المحرر**: «وهؤلاء الذين لا سلطان ولا رياسة لإبليس عليهم هم المؤمنون أجمعون؛ لأن الله تعالى لم يجعل سلطانه إلا على المشركين الذين يتولونه، والسلطان منفي هنا في الإشراك؛ إذ ليس عليهم ملكة في المعاصي أي ملكة، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾[3]. وهم الذين قال فيهم إبليس: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[4]. ويتولونه أي يجعلونه وليًا. والذين هم بسببه مشركون بالله»[5]. وبذلك ينتفي إيهام التعارض.

٦٧-مَعِيَّةُ الله لعباده بين الخصوص والعموم:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[6].

تدل هذه الآية بظاهرها على أن معية الله خاصة بالمتقين المحسنين، وقد جاءت آيات أخرى تفيد عموم هذه المعية كقوله تعالى في سورة المجادلة: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا

(١) سورة سبأ، آية ٢٠، ٢١.
(٢) سورة إبراهيم، آية ٢٢، وانظر: دفع إيهام الاضطراب ص ١٧٥.
(٣) سورة الحجر، آية ٤٢.
(٤) سورة الحجر، آية ٤٠.
(٥) المحرر الوجيز ٨/ ٥٠٨.
(٦) سورة النحل، آية ١٢٨.

هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾[٢]. وغير ذلك، فما وجه التوفيق؟

نقول: إن معية الله للمحسنين والمتقين هي معية خاصة بهم، معية نصر وتوفيق وعون وتيسير لأحسن الأحوال تكريمًا لهم؛ لطاعتهم له تعالى، ونحو هذه الآية قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ ﴾[٣]. وفي التوبة قوله تعالى: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾[٤].

وهناك معية عامة بكل الخلق معية إحاطة وعلم؛ فقد أحاط سبحانه بكل شيء علمًا؛ لقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾[٥]. وقوله: ﴿وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ﴾[٦]. فجميع الخلائق تحت قدرته ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾[٧]. ومن هنا يتبين أنه لا إيهام ولا تعارض بين الآيات.

****

(١) سورة المجادلة، آية ٧.

(٢) سورة الحديد، آية ٤.

(٣) سورة الأنفال، آية ١٢.

(٤) سورة التوبة، آية ٤٠.

(٥) سورة الطلاق، آية ١٢، وانظر: دفع إيهام الاضطراب ص ١٧٦.

(٦) سورة البروج، آية ٢٠.

(٧) سورة سبأ، آية ٣.

سورة الإسراء

٦٨-الخلاف حول قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[(١)]

هذه الآية تصرح بأن الله تعالى لا يعذب أحدًا حتى ينذره على ألسنة رسله - عليهم الصلاة والسلام - ونظيرها قوله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾[(٢)]. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ﴾[(٣)]. وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾[(٤)]. وغير ذلك من الآيات التي تصرح بأنه تعالى أرسل رسلًا في الدنيا لكل أهل النار بدليل قوله: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا﴾[(٥)].

ومعلوم أن صيغة (كلما) للعموم.

ونظيرها قوله: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[(٦)]. فقوله: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾. يعم كل كافر؛ لأن الموصول أيضًا مع صيغ العموم لشموله كل ما في صلته، وأمثال هذه كثيرة في القرآن مع أنه جاء في بعض الآيات ما يفهم منه أن أهل الفترة في النار، كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا

---

(١) سورة الإسراء، آية ١٥.

(٢) سورة النساء، آية ١٥.

(٣) سورة طه، آية ١٣٤.

(٤) سورة الأنعام، آية ١٣١.

(٥) سورة الملك، الآيتان ٨، ٩.

(٦) سورة الزمر، آية ٧١.

أن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾[1]. فإن عمومها يدل على دخول من لم يدرك النبي ﷺ، وكذلك عموم قوله تعالى: ﴿وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[2]. وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا﴾[3]. إلى غير ذلك من الآيات. وتوضيح المسألة فيما يلي:

أولًا: «من لم يأته نذير في الدنيا وظل كافرًا حتى مات، اختلف فيه العلماء: هل هو من أهل النار لكفره بذلك.. كما قال البعض، أو هو معذور؛ لأنه لم يأته نذير بذلك، كما قال البعض الآخر؟

فقد قال قوم: الكافر في النار ولو مات في زمن الفترة، وبذلك جزم النووي في شرح مسلم، وحكى القرافي في شرح التنقيح الإجماع على أن موتى أهل الجاهلية في النار لكفرهم. وفسر هؤلاء قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾. بالعذاب الدنيوي. وذلك لا ينافي العذاب الأخروي.

قال الشوكاني: وبذلك قال الجمهور[4]. ورد الشوكاني التخصيص بعذاب الدنيا بأنه خلاف الظاهر من الآيات، وبأن الآيات المتقدمة الدالة على اعتراف أهل النار جميعًا بأن الرسل أنذروهم في الدنيا، صريح في نفي العذاب عن أهل الفترة الذين لم يأتهم رسل [5].

ثانيًا: إن قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾. في غاية الوضوح على عدم تعذيبهم، أما عباد الأوثان فلا يعذرون؛ لأن جميع الكفار يرون بأن الله ربهم وخالقهم ورازقهم حسبما نطقت به الآيات.

أما كونهم يعبدون الأصنام لتقربهم إلى الله زلفى ولتكون شفعاءهم عند الله - فذلك

(١) سورة التوبة، آية ١١٣.

(٢) سورة النساء، آية ١٨.

(٣) سورة آل عمران، آية ٩١.

(٤) فتح القدير ٣/ ٢١٤.

(٥) المصدر السابق.

مغالطة منهم، والقرآن صريح بنفي العذاب عمَّن لم يأتهم نذير لقوله: ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴾[1]. وقوله: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾[2]. وكذلك قوله: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾[3]. وغير ذلك من الآيات.

وأجاب القائلون بأن أهل الفترة معذورون عن مثل قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾[4]. من الآيات المتقدمة بأنهم لا يتبين لهم أنهم من أصحاب الجحيم، ولا يحكم لهم بالنار ولو ماتوا كفارًا إلا بعد إنذارهم وامتناعهم عن الإيمان، كأبي طالب، وحملوا الآيات المذكورة على هذا المعنى[5]. واعترض على هذا الجواب بالحديث الذي ثبت في **الصحيح** من دخول بعض أهل الفترة النار كحديث: «**إن أبي وأباك في النار**». الثابت في مسلم[6]، واعترض بأنه خبر آحاد لا يقوى على معارضة قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾[7]. وصح بأنه لا يعذب حتى يقطع حجة المعذب بإنذار الرسل في الدنيا، وبين أن ذلك الإنصاف التام علة عدم التعذيب، فلو عذب إنسان واحد بدون إنذار لاختلت الحكمة ولثبت لذلك المعذب الحجة التي بعث الله الرسل لقطعها لقوله تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾[8]. وقوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا ﴾[9]. والذي يظهر رجحانه هو الجمع بين الأدلة؛ لأن الجمع واجب إذا أمكن بلا خلاف.

---

(١) سورة يس، آية ٦.

(٢) سورة السجدة، آية ١٣.

(٣) سورة القصص، آية ٤٦.

(٤) سورة التوبة، آية ١١٣.

(٥) دفع إيهام الاضطراب ١٨٠ – ١٨٢ بتصرف.

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أن من مات على الكفر فهو في النار ١/ ١٩١ ح ٢٠٣.

(٧) سورة الإسراء، آية ١٥.

(٨) سورة النساء، آية ١٦٥.

(٩) سورة طه، آية ١٣٤.

ووجه الجمع بين هذه الأدلة: هو عذرهم بالفترة، وامتحانهم يوم القيامة، بالأمر باقتحام نار فمن اقتحمها دخل الجنة، وهو الذي كان يصدق الرسل لو جاءته في الدنيا؛ لأن الله يعلم ما كانوا عاملين لو جاءتهم الرسل، وبهذا تتفق الأدلة فيكون أهل الفترة معذورين، ومنهم قوم من أهل النار بعد الامتحان وقوم منهم من أهل الجنة.

أما قول من قال: إن الآخرة دار جزاء لا دار عمل وابتلاء، فذلك مردود بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾[١]. فأمرهم بالسجود في عرصات الحشر تكليف، وثبت في الصحيح أن المؤمنين يسجدون يوم القيامة وأن المنافق لا يستطيع ذلك[٢]. وثبت أنه يقال لقارئ يوم القيامة اقرأ وارق واصعد فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها[٣].

ومن ذلك كله يتضح أنه لا منافاة بين الآيات ولا تعارض، وكأني بأبي السعود مع الرأي الراجح، وأنه لا يعذب إنسان بدون أن يأتيه نذير، يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ «بيان للعناية الربانية إثر بيان اختصاص آثار الهداية والضلال بأصحابها، وعدم حرمان المهتدي من ثمرات هدايته، وعدم مؤاخذة النفس بجناية غيرها، أي: وما صح وما استقام منا بل استحال في سنتنا المبنية على الحكم البالغة، أو ما كان في حكمنا الماضي، وقضائنا السابق أن نعذب أحدًا من أهل الضلال والأوزار اكتفاء بقضية العقل، حتى نبعث إليهم رسولًا يهديهم إلى الحق ويردهم عن الضلال، ويقيم الحجج ويمهد الشرائع حسب ما في تضاعيف الكتاب المنزل عليه.

والمراد بالعذاب المنفي إما عذاب الاستئصال وهو المناسب لما بعده أو الجنس الشامل للدنيوي والأخروي، وأيًا ما كان فالبعث غاية؛ لعدم صحة وقوعه في وقته المقدر له لا لعدم وقوعه مطلقًا كيف لا، والأخروي لا يمكن وقوعه عقيب البعث والدنيوي يقع في وقته المقدر له.. وقد تأخر العذاب بقوم نوح ألف سنة»[٤].

(١) سورة القلم، آية ٤٢.

(٢) الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي ٨/ ٢٥٦.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده ٢/ ١٩٢.

(٤) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٥/ ١٦٢.

وقال ابن عطية في **المحرر الوجيز** له: «﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾. قال الجمهور: وهذا في حكم الدنيا، وقال آخرون: هذا عام في الدنيا والآخرة»[1]. ويقول أيضًا: فالظاهر من كتاب الله في غير هذا الموضوع ومن النظر أن الله تعالى لا يعذب في الآخرة إلا بعد بعثه الرسل كقوله تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾[2].

وأما من جهة النظر فإن آدم بعث بالتوحيد، ونصب الأدلة على وجود الصانع مع سلامة الفطرة، فإن بعثة آدم بالتوحيد يوجب على كل أحد الإيمان بالله، واتباع شريعة الله، وتجدد ذلك مع نوح فيجوز على الفرض وجود قوم لم تصلهم رسالة، ومنهم أهل الفترات؛ حسابهم على عدم إيمانهم، ثم قال: وأما ما روي أن الله تعالى يبعث إليهم يوم القيامة وإلى المجانين والأطفال فحديث لم يصح [3]، على أن ابن كثير له رأي آخر فيما نحا إليه ابن عطية، فبعد أن سرد جملة من الأحاديث في هذا الباب قال: «الجواب عما قال: إن أحاديث هذا الباب منها ما هو صحيح.. ومنها ما هو ضعيف يتقوى بالصحيح والحسن، وإذا كانت أحاديث الباب الواحد متصلة متعاضدة على هذا النمط أفادت الحجة عند الناظر فيها»[4]. وبهذا ارتفع إيهام التعارض بين الآيات.

٦٩- حشر الكفار عُميًا وبُكمًا وصُمًّا:

قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾[5].

تدل هذه الآية بظاهرها على أن الكفار يبعثون يوم القيامة عميًا وبكمًا وصمًّا، وقد جاءت آيات أخرى تدل على خلاف ذلك كقوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[6]. وقوله: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾. وغير ذلك.

---

(١) المحرر الوجيز ٩/ ٣٧.

(٢) سورة الملك، آية ٨.

(٣) المحرر الوجيز ٩/ ٣٧.

(٤) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٤.

(٥) سورة الإسراء، آية ٩٧.

(٦) سورة مريم، آية ٣٨.

فما وجه التوفيق بين هذه الآيات؟

نقول: قد يكون المراد مما ذكر حقيقته، ويكون ذلك في مبدأ الأمر ثم يرد الله إليهم أبصارهم وسمعهم ونطقهم، وبذلك قال أبو حيان[1].

وقد يكون المراد أنهم لا يرون شيئًا يسرهم، ولا يسمعون كذلك ولا ينطقون بحجة كما أنهم كانوا في الدنيا لا ينطقون بحق، ولا يسمعون حقًا. أخرجه ابن جرير عن ابن عباس[2].

فنزل سمعهم وأبصارهم منزلة العدم لعدم الانتفاع به، وقد يكون المراد أن الله تعالى إذ قال لهم: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾[3]. وقع بهم ذلك العمى والصمم والبكم من شدة الكرب واليأس من الفرج؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمۡ لَا يَنطِقُونَ﴾[4]. وعلى هذا القول تكون الأحوال الثلاثة مقدرة[5]. كما يوصف البصر بأنه حسي، وكذلك العمى يوصف بأنه عقلي؛ ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾[6]. فالعمى هو عمى القلب، والكلام ليس هو التلفظ بألفاظ غير دالة، بل هو الألفاظ الدالة، والسمع ليس حسيًّا فقط، بل هو سمع غير حسي، فالحشر إذن بالحالة التي كانوا عليها من الضلال والإعراض، وبذلك يتم التوفيق بين الآيات ويزول إيهام التعارض.

٧٠- الآراء حول قوله: ﴿أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾[7].

تفيد هذه الآية أنه تعالى لا يأمر بالفحشاء، ونظيرها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ

(١) جامع البيان عن تأويل القرآن ١٥/ ١٦٧.

(٢) تفسير البحر المحيط ٦/ ٨٢.

(٣) سورة المؤمنون، آية ١٠٨.

(٤) سورة النمل، آية ٨٥.

(٥) الرد على الزنادقة والجهمية للإمام أحمد ص ٨٧، وانظر: دفع إيهام الاضطراب ص ١٨٧ بتصرف.

(٦) سورة الحج، آية ٤٦.

(٧) سورة الأعراف، آية ٢٨.

وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾[1]. وقوله: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾[2]. وغير ذلك من الآيات، وقد جاءت آية تقول: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾[3].

فما وجه التوفيق بين الآيات؟

نقول: إن آية الأعراف ونظائرها في الأمر الشرعي، والثانية في الأمر الكوني؛ أي: بمعنى القضاء والتقدير، والمراد أنه لا يأمر بالفحشاء شرعًا، ولكنه قضاء وقدر، وفرق بين الأمر الكوني والأمر الديني، وبذلك ينتفي التعارض.

يقول ابن عطية ما خلاصته: (أمرنا) على صيغة الماضي من أمر ضد نهى. وقال الطبري: «أمرناهم بالطاعة فعصوا وفسقوا فيها، وقرأ نافع (آمرناهم) بالمد. أي: كثرناهم - وقرأ أبو عمرو - بخلاف - (أمَّرنا) بالتشديد للميم من الإمارة؛ أي: ملكناهم على الناس. وقالوا: فلو أريد إمارة الملك في الآية لحسن ذلك؛ لأن الأمة إذا ملَّك الله تعالى عليها مترفًا ففسق ثم ولَّى مثله بعده ثم كذلك؛ عظم الفساد وتوالى الكفر، واستحقوا العذاب، فنزل بهم على الرجل الأخير من ملوكهم»[4]. وبذلك أيضًا يتم التوفيق.

ويقول أبو السعود كلامًا خلاصته: ﴿ أَمَرْنَا ﴾ بواسطة الرسول المبعوث إلى أهلها ﴿ مُتْرَفِيهَا ﴾: متنعميها وجباريها وملوكها، ﴿ فَفَسَقُوا فِيهَا ﴾ أي: خرجوا عن الطاعة، ﴿ فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ ﴾ بحلول العذاب، ﴿ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ بتدمير أهلها تدميرًا لا يعرف كنهه[5].

ويقول الزركشي: «أمَّرناهم وملَّكْناهم وأردنا منهم الصلاح فأفسدوا»[6]. وبذلك ينتفي إيهام التعارض ويتم التوفيق أيضًا.

(1) سورة النحل، آية ٩٠.
(2) سورة الإسراء، آية ٣٢.
(3) سورة الإسراء، آية ١٦.
(4) المحرر الوجيز ٩/ ٣٩.
(5) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٥/ ١٦٢.
(6) البرهان في علوم القرآن ٢/ ٥٩.

سُورَةُ مَرْيَمَ

٧١- البُكرةُ والعَشِيُّ في الجنة:

قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾(١).

ومعلوم أن البكرة أول النهار وأن العشي آخر النهار، يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾(٢) وقد وردت آية تدل على أن الجنة لا يرى فيها شمس؛ لقوله تعالى في سورة الدهر: ﴿مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾(٣).

فكيف نوفق بين هذه الآيات؟

نقول: قال ابن قتيبة في **مشكل القرآن**: «الناس يختلفون في مطاعمهم، فمنهم من يأكل الوجبة، ومنهم من عادته الغداء والعشاء، ومنهم من يزيد عليهما، ومنهم من يأكل متى وجد لغير وقت معين، فأعدل هذه الأحوال للطعام وأنفعها وأبعدها من البشم والطوى أي (التخمة والجوع) - على العموم - الغداء والعشاء، والعرب تستحب العشاء وتقول: ترك العشاء مهرمة، وترك العشاء يذهب بلحم الكاذة، ونحن لا نعرف دهرًا لا يختلف له وقت، ولا يرى فيه ظلام، ولا شمس، فأراد الله عز وجل أن يعرفنا من حيث نفهم ونعلم أحوال أهل الجنة في مأكلهم، واعتدال أوقات مطاعمهم، فضرب لنا البكرة والعشي مثلًا، حيث يدلان على العشاء والغداء.

وروى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة أنه قال: كانت العرب إذا أصاب أحدهم الغداء

(١) سورة مريم، آية ٦٢.

(٢) سورة آل عمران، آية ٤١.

(٣) سورة الإنسان، آية ١٣.

والعشاء أعجبه ذلك فأخبرهم الله تعالى أن لهم في الجنة هذه الحال التي تعجبهم في الدنيا، وأما قوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾[1] فإنه لم يرد أن ذلك يكون في الآخرة، وإنما أراد أنهم يعرضون عليها بعد مماتهم في القبور يدل على ذلك قوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾[2]، يقول العلامة أبو السعود: «قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ هذا ورد على عادة المتنعمين في هذه الدار، وقيل: المراد: رزقهم واستمراره وإلا فليس فيها بكرة وعشي»[3].

ويقول الشوكاني في فتح القدير: «قال المفسرون: ليس في الجنة بكرة ولا عشية ولكنهم يؤتون رزقهم على مقدار ما يعرفون من الغداء والعشي»[4]. وعلى كل فإيهام التعارض مرتفع ويكون قد تم التوفيق بين الآيات.

٧٢- أحوال ورود النَّاس النَّار:

قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾[5].

تدل هذه الآية على أن جميع الناس لا بد من ورودهم على النار، أكد ذلك بقوله تعالى: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ وقد جاءت آية أخرى تفيد أن بعض الناس مبعد عنها، ولا يسمع لها حسًّا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾[6]

فما وجه التوفيق بين الآيات؟

نقول: إن معنى قوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾. أي: من عذاب النار وألمها، أو إبعادهم عنها بَعْدَ أن يكونوا قَريبين منها، فقد أخرج الإمام أحمد عن أبي سمية قال: «اختلفنا في الورود

(١) سورة غافر، آية ٤٦.
(٢) تأويل مشكل القرآن ص ٨٢، ٨٣.
(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٥/ ٢٧٣.
(٤) فتح القدير ٣/ ٣٤٠.
(٥) سورة مريم، آية ٧١.
(٦) سورة الأنبياء، آية ١٠١.

فقال بعضنا: لا يدخلها مؤمن، وقال آخر: يدخلونها جميعًا ثم ينجي الله الذين اتقوا، فلقينا جابر بن عبد الله رضي الله عنه فذكرت ذلك له فقال: وأهوى بإصبعيه إلى أذنيه: صمتا إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يبق بر ولا فاجر إلا دخلها، فتكون على المؤمنين بردًا وسلامًا كما كانت على إبراهيم - عليه السلام - حتى إن للنار ضجيجًا من بردهم ثم ينجي الله الذين اتقوا**»[(١)].

وروى جماعة عن ابن مسعود رضي الله عنه: أن ورود النار هو المرور عليها؛ لأن الناس تمر على الصراط، وهو جسر منصوب على متن جهنم[(٢)]، واستدل القائلون بأن الورود نفس الدخول كابن عباس رضي الله عنهما بقول الله تعالى: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾[(٣)] وقوله: ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾[(٤)]، وقوله: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ فالورود في كل بمعنى: الدخول[(٥)]؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾[(٦)]، وعلى كل التأويلات لا تعارض بين الآيات.

وقال أبو السعود: ﴿إِلَّا وَارِدُهَا﴾. أي: واصلها وحاضر دونها يمر بها المؤمنون وهي خامدة، وعن جابر رضي الله عنه أنه - عليه الصلاة والسلام - سئل عنه - أي الورود - فقال: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة قال بعضهم لبعض: أليس قد وعدنا ربنا أن نرد النار؟ فيقال لهم: قد وردتموها وهي خامدة**»[(٧)].

أما قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ المراد: الإبعاد عن عذابها أو الورود على الصراط الممدود[(٨)].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٣/ ٣٢٨.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ١٦/ ١١٠.

(٣) سورة هود، آية ٩٨.

(٤) سورة الأنبياء، آية ٩٩، وانظر: دفع إيهام الاضطراب، ص ١٩٢.

(٥) جامع البيان ١٦/ ١١٠.

(٦) سورة القصص، آية ٢٣، وانظر: المرجع السابق.

(٧) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٣/ ٣٢٨.

(٨) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٥/ ٢٧٦.

٧٣-حَشر النّاس جمعًا وأفرادًا:

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾[(١)].

تدل الآيتان مع نظائرها على أن المتقين يحشرون وفودًا إلى ربهم، وأن المجرمين أيضًا يساقون جماعات بينما جاءت آيات بخلاف ذلك كقوله: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾[(٢)] وهذه تفيد أن كل شخص يأتي إلى ربه فردًا لا أحد معه.

فكيف التوفيق بين هذه الآيات؟

نقول: الحشر: الجمع، وقد صار في عرف ألفاظ الشرع البعث من القبور[(٣)]، وعلى ذلك يكون المراد من حشر المتقين وسوق المجرمين بعثهم من قبورهم، وظاهر هذه الوفادة أنها بعد انقضاء الحساب، والنهوض إلى الجنة، وكذلك سوق المجرمين للدخول إلى النار، أي: كل ذلك بعد الحساب، وعلى هذا فلا تعارض بين الآيات فالناس قدموا على ربهم فرادى، وبعد انتهاء الحساب المتقون يكرمون بتسييرهم وفودًا راكبين إلى الجنة، والمجرمون يساقون كالبهائم إلى النار.

يقول الشوكاني في **فتح القدير**: «ومعنى حشرهم إلى الرحمن هو حشرهم إلى جنته ودار كرامته، والسوق الحث على السير، والورد العطاش، كالإبل ترد الماء فهم يساقون إلى جهنم كالإبل العطاش التي تساق إلى الماء، وقد يكون المراد سوق المجرمين فردًا فردًا إلى جهنم»[(٤)].

والحشر يكون في الخير وفي الشر كقوله تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[(٥)] والآيات تكريم للمتقين، ولذا قيد الحشر بقوله: وفدًا، أي حشر

---

(١) سورة مريم، الآيتان ٨٥، ٨٦.

(٢) سورة مريم، آية ٩٥.

(٣) المحرر الوجيز ٩/ ٥٣٤.

(٤) فتح القدير ٣/ ٣٥١.

(٥) سورة الصافات، الآيتان ٢٢، ٢٣.

الوفود إلى الملوك، فإن الوفود تكرم، وهذه عادة العرب، فالقرآن خاطبهم بما يألفونه، وذكر الرحمن لمناسبة الوفد. أما الأنعام فهي التي تساق قدام رعاتها فالآية تكريم للمتقين، وإهانة للمجرمين، والآية بعد الحساب ونظيرها قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًا﴾[1]. والآية التي قبلها ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾[2].

قال المفسرون: «معنى وفدًا، أي: ركبانًا وهي عادة الوفود؛ لأنهم سراة الناس وأشرافهم، وأحسنهم شكلًا، فشبه أهل الجنة بأولئك تشبيه هيئة وكرامة»[3] وبهذا يزول التعارض، ويتم التوفيق بين الآيات.

****

(١) سورة الزمر، آية ٧٣.

(٢) سورة الزمر، آية ٧١.

(٣) فتح القدير للشوكاني ٣/ ٣٥١.

سورة طه

٧٤- استواء الرحمن على العرش حقيقة لا تشبيه ولا تعطيل:

قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾[١].

استدل المعتزلة بظاهر الآية على إنكار صفة الاستواء لله تعالى، وذهبوا في الاستواء إلى القدرة[٢] وفي هذا يقول القاضي عبد الجبار: «الاستواء ههنا يعني الاستيلاء والغلبة، وذلك مشهور في اللغة»[٣] ويرد على تأويلهم هذا، بما يلي:

١- أنه لو كان الاستواء بمعنى الاستيلاء، والملك والقهر والقدرة، لم يكن في تخصيصه بالعرش من فائدة؛ لأنه سبحانه وتعالى مسئول عن كل شيء، ومالك كل شيء، وهو قهار السماوات والأرض، والقادر على تصريف جميع الأمور، وإذا كان الأمر كذلك، لم يجز أن يكون الاستواء على العرش بمعنى ما ذكروه؛ لأن ما ذكروه عام في الأشياء كلها، فوجب أن يكون معنى الاستواء يختص بالعرش دون ما سواه.

٢- لو كان ما ذكروه صحيحًا، للزم من ذلك أن يكون الله مستويًا على الأرض، تعالى الله عن ذلك.

٣- إن ما ذكروه مخالف لما عليه سلف الأمة، فإن السلف الصالح فهموا من كلمة ﴿ٱسۡتَوَىٰ﴾ حقيقة الاستواء من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل[٤].

---

(١) سورة طه، آية ٥.

(٢) شرح الأصول الخمسة، ص ٢٢٦.

(٣) الإبانة عن أصول الديانة، ص ١٠٨.

(٤) آراء المعتزلة الأصولية – دراسة وتقويمًا – علي الضويحي.

قال ربيعة بن أبي عبد الرحمن شيخ مالك، لما سئل: كيف الاستواء؟ قال: «الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، ومن الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التصديق»[١].

وقال الإمام الأوزاعي: «كنا والتابعون متوافرون نقول: إن الله تعالى ذكره فوق عرشه، بائن من خلقه، ونؤمن بما وردت به السنة»[٢].

وقال ابن كثير، عند تفسير قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[٣]: «وإنما نسلك في هذا المقام، مذهب السلف الصالح: مالك، والأوزاعي، والثوري، والليث بن سعد، والشافعي، وأحمد وإسحاق بن راهويه، وغيرهم من أئمة المسلمين قديمًا وحديثًا، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل»[٤].

****

(١) تيسير العزيز الحميد لسليمان بن عبد الوهاب، ص ٦٧٤.

(٢) تذكرة الحفاظ للذهبي ١/ ١٨٠.

(٣) سورة الأعراف، آية ٥٤.

(٤) تفسير ابن كثير ٢/ ١٩٢.

سُورَةُ الأَنبِيَاءِ

٧٥- دلالة قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾[(١)]:

تدل هذه الآية بظاهرها على أن جميع المعبودات مع عابديها في النار، وقد أشارت بعض آيات أخرى إلى أن بعض المعبودين كعيسى - عليه السلام - والملائكة ليسوا من أهل النار؛ لعصمتهم، ولأن الملائكة فطروا على الطاعة، وعيسى رسول الله ومن أولي العزم، فهم براء من معبوديهم، يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾[(٢)]. وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾[(٣)]. وقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾[(٤)].

فما وجه التوفيق بين هذه الآيات؟

نقول: إن آية الأنبياء ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ لم تتناول عيسى - عليه السلام - ولا الملائكة؛ لأن - ما - لغير العاقل يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾[(٥)]. ويمكن القول بأن عيسى - عليه السلام - والملائكة خارجون من هذا النص لعصمتهما، ولقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾[(٦)].

---

(١) سورة الأنبياء، آية ٩٨.

(٢) سورة الزخرف، آية ٥٧.

(٣) سورة سبأ، آية ٤٠.

(٤) سورة الإسراء، آية ٥٧.

(٥) سورة الزخرف، آية ٥٨.

(٦) سورة الأنبياء، آية ١٠١.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[1]. فقد عبر في هذه الآية بلفظة ﴿إِنَّمَا﴾ الدالة على الحصر، وعليه فهي تدل على حصر الوحي في توحيد الألوهية، والأنبياء والملائكة أول الناس في ذلك، لذا فهم خارجون من الآية[2].

وبذلك يتم التوفيق بين الآيات ويزول إيهام التعارض.

يقول ابن عطية في **المحرر**: هذه آية الأنبياء مخاطبة لكفار مكة، أي: أنكم وأصنامكم حصب جهنم، والحصب: ما توقد به النار. وقال: وقوله: - وما تعبدون - يريد الأصنام وحرقها بالنار على جهة التوبيخ لعابدها، ومن حيث إن - ما - تقع لمن يعقل في بعض المواضع. اعترض ابن الزبعرى بما ذكرناه، ورد عليه بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ الآية، ثم قرر الأمر بالإشارة إلى الأصنام التي أرادها في قوله: - وما تعبدون - فقال: (لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها) وعبر عن الأصنام بهؤلاء من حيث هي عندهم بحال من يعقل[3] وبذلك تزاد المسألة تأكيدًا في التوفيق وإزالة إيهام التعارض. إن ما يعبدونه صنفان: صنف لا يقبل عبادتهم وهما: الملائكة عليهم السلام وعيسى عليه السلام، وهؤلاء مخرجون بعدم قبولهم وبوعد الله لهم بالنجاة من النار. أمَّا الصنف الثاني فهم حَصَب جهنم، لا، لأنهم قبلوا عبادة الكفار لهم، بل لأنهم غير مضارين بتأثير النَّار لهم، فهم لا يشعرون بها من وجه الألم والعذاب، وبذلك تزاد المسألة تأكيدًا في التوفيق وإزالة إيهام التعارض.

****

---

(١) سورة الأنبياء، آية ١٠٨.

(٢) دفع إيهام الاضطراب، ص ٢٠٣.

(٣) المحرر الوجيز ١٠/٢٠٩.

سورة الحج

٧٦- تأويل مقدار الأيام الثلاثة المذكورة في القرآن:

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾(١).

تدل هذه الآيات بظاهرها على أن مقدار اليوم عند الله ألف سنة، وكذلك قوله في سورة السجدة: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾(٢). وقد جاءت آية أخرى بخلاف ذلك وهي قوله: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾(٣).

فما وجه التوفيق بين هذه الآيات؟

ذكر السيوطي في **الإتقان**: «عن أيوب بن أبي مليكة قال: سأل رجل ابن عباس رضي الله عنهما عن قوله: ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ المعارج، فقال ابن عباس: يومان ذكرهما الله تعالى في كتابه، الله أعلم بهما. وأخرجه ابن أبي حاتم من هذا الوجه، وزاد: ما أدري ما هما، وأكره أن أقول فيهما ما لا أعلم.

وسئل ابن المسيب من السائل نفسه هذا السؤال، فقال: هذا ابن عباس قد اتقى أن يقول فيها وهو أعلم مني.

وذكر السيوطي عن ابن عباس أيضًا: إن يوم الألف هو مقدار سير الأمر وعروجه إليه،

(١) سورة الحج، آية ٤٧.

(٢) سورة السجدة، آية ٥.

(٣) سورة المعارج، آية ٤، وانظر: دفع إيهام الاضطراب، ص ٢٠٦.

ويوم الألف في سورة الحج هو أحد الأيام الستة التي خلق الله فيها السماوات، ويوم الخمسين ألفًا هو يوم القيامة[1].

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق سماك عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما - أن رجلًا قال له: ما هؤلاء الآيات في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة؟ وذكر الآيات آنفة الذكر فقال: يوم القيامة حساب خمسين ألف سنة، والسماوات في ستة أيام كان كل يوم يكون ألف سنة، و﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ الآية، قال ذلك مقدار المسير[2].

ويقول الزركشي في البرهان: «إنه باعتبار حال المؤمن والكافر بدليل قوله: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴾»[3].

وإنما أميل إلى رأي الزركشي؛ لأن الدقيقة في الشدة تمر كأنها دهر، والله أعلم، وعلى كل تفسير فلا إيهام ولا تعارض.

٧٧- تمني الرسل والأنبياء وما يلقيه الشيطان في أمنيتهم:

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[4].

تدل هذه الآية بظاهرها على أن كل رسول وكل نبي يلقي الشيطان في أمنيته، أي: تلاوته إذا تلا، ففي الحديث - في البخاري - عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه، والتمني بمعنى التلاوة[5]. وقال بعض العلماء: ﴿إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾: أحبَّ شيئًا، فكل نبي يتمنى إيمان أمته، والشيطان يلقي عليهم الوساوس والشبه ليصدهم عن سبيل الله.

(١) دفع إيهام الاضطراب، ص ٢٠٦.

(٢) الإتقان ٣/ ٨٤ بتصرف.

(٣) سورة الفرقان، آية ٢٦، وانظر: البرهان في علوم القرآن ٢/ ٦٢.

(٤) سورة الحج، آية ٥٢.

(٥) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة الحج ٥/ ٢٤١.

وهذه الآية لا تعارض بينها وبين الآية المصرحة، بأن الشيطان لا سلطان له على عباد الله المتوكلين، وخيار المؤمنين الأنبياء كما هو معلوم ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾(1). فلا سلطان للشيطان على الأنبياء ولا على المؤمنين المتوكلين المخلصين؛ لقوله: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾(2).

ووجه كون الآيات لا تعارض بينها أن سلطان الشيطان المنفي بمعنى الحجة، ولا حجة مع الشيطان البتة؛ لاعتراف الشيطان نفسه بذلك في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾(3) أو أنه لا تسلط له عليهم بإيقاعهم في ذنب يهلكون به، ولا يتوبون منه، فباب التوبة مفتوح، وخير الخطائين التوابون وعلى هذا فلا إشكال. أما ما ذكره المفسرون من أن أسباب نزول هذه الآية قراءة رسول الله سورة النجم بمكة، فلما بلغ ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾(4) ألقى الشيطان على لسانه، تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى، فلما بلغ آخر السورة سجد وسجد معه المشركون والمسلمون، وقال المشركون: ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم(5). وشاع أن أهل مكة أسلموا، ورجع المهاجرون من الحبشة فوجدوهم على كفرهم، فذلك باطل ومختلق، فإنه لو صح ذلك، فإن سلطان الشيطان يكون قد بلغ حدًّا أدخل به في القرآن على لسان النبي ﷺ الكفر البواح، حسبما يقتضيه ظاهر القصة المزعومة. من هنا نقول: إن قصة الغرانيق مستحيلة شرعًا، وصرح بعدم ثبوتها كثير من العلماء، فلم تثبت من طريق يصلح للاحتجاج، قال الشوكاني: لم يصح منها شيء(6). وقال ابن خزيمة: هي من وضع الزنادقة. وأبطلها عياض(7) وابن العربي المالكي(8) والفخر

(1) سورة النحل، آية ١٠٠، وانظر: دفع إيهام الاضطراب، ص ٢٠٨ بتصرف.

(2) سورة ص، آية ٨٢، ٨٣.

(3) سورة إبراهيم، آية ٢٢.

(4) سورة النجم، آية ١٩، ٢٠.

(5) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٤٢، وفتح القدير ٣/ ٤٦٢.

(6) فتح القدير ٣/ ٢٣١.

(7) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٤٢، وفتح القدير ٣/ ٤٦٢.

(8) أحكام القرآن ٣/ ١٣٠٣.

الرازي[١]، ومن أصرح الأدلة على بطلانها قراءة النبي ﷺ بعد ذلك قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾[٢]. وقراءة الرسول ﷺ سورة النجم بمكة، وسجود المشركين ثابت في الصحيح، ولم يذكر فيه شيء من قصة الغرانيق[٣]، وعلى ذلك فلا إشكال.

أما على القول بثبوتها كما هو رأي الحافظ ابن حجر في فتح الباري، وللعلماء على ذلك أجوبة منها:

أن النبي ﷺ كان يرتل سورة النجم ترتيلًا تتخلله سكتات، فلما قرأ: و﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾. قال الشيطان - لعنه الله - محاكيًا صوت رسول الله: تلك الغرانيق العلى.. إلخ. فظن المشركون أن الصوت صوته ﷺ وهو بريء من ذلك[٤]، وعلى ذلك أيضًا فلا تعارض بين الآيات، وقال ابن كثير: ذكر كثير من المفسرين قصة الغرانيق - ولكنها من طرق كلها مرسلة - ولم أرها مسندة من وجه صحيح. وقال القاضي عياض في كتابه **الشفاء**: «هذا الحديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة»[٥] وقال القاضي أبو محمد في **المحرر الوجيز**: «وهذا الحديث الذي فيه هذه الغرانقة لم يدخله البخاري ولا مسلم»[٦]. وبذلك يتم التوفيق بين الآيات.

* * * *

(١) التفسير الكبير، ٢٣/ ٥٠.

(٢) سورة النجم آية: ٢٣.

(٣) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب فاسجدوا لله واعبدوا ٦/ ٥١.

(٤) فتح الباري ٨/ ٤٤٠، ودفع إيهام الاضطراب، ص ٢١٢.

(٥) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٤٢.

(٦) المحرر الوجيز ١٠/ ٣٠٥.

سورة المؤمنون

٧٨- اختلاف إدراك الكفار للمدة التي مكثوها في القبور قبل بعثهم:

قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ الْعَادِّينَ﴾(١).

تدل هذه الآية الكريمة بظاهرها، على أن الكفار يزعمون يوم القيامة أنهم ما لبثوا إلا يومًا أو بعض يوم، وقد جاءت آيات أخرى يفهم منها خلاف ذلك كقوله: ﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾(٢) وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾(٣).

وللتوفيق بين هذه الآيات نقول:

إن وجه دلالة القرآن على ما ذكر أنه بين أن أقواهم إدراكًا، وأرجحهم عقلًا، وأمثلهم طريقة – هو الذي يقول: إن مدة لبثهم يوم، وذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾(٤). فدل ذلك على اختلاف أقوالهم في مدة لبثهم(٥).

وذكر أبو السعود في تفسيره عند قوله: ﴿قَالُوا لَبِثْنَا﴾ الآية. استقصارًا لمدة لبثهم فيها(٦). ونقول كيف يكون ذلك وقد قال عز وجل: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾.

---

(١) سورة المؤمنون، آية ١١٣.

(٢) سورة طه، آية ١٠٣.

(٣) سورة الروم، آية ٥٥.

(٤) سورة طه، آية ١٠٤.

(٥) دفع إيهام الاضطراب، ص ٢١٥.

(٦) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٦/ ١٥٣.

نقول ربما يكون صدور هذا القول من بعضهم دون إدراك لما يقولون، لا سيما عند ذهولهم؛ لأن حقيقة مكثهم طويلة.. قد يراه البعض كذلك، وقد يراه البعض غير ذلك، والله أعلم.

****

سورة النور

٧٩-القول حول الخبيثات للخبيثين والطيبات للطيبين:

قوله تعالى: ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾(١).

هذه الآية ظاهرها يتعارض مع قوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾(٢). وقوله أيضًا: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٣). وقد دلت الآية الأولى على خبث الزوجتين الكافرتين، امرأة نوح، وامرأة لوط، مع أن زوجيهما رسولان وهما نوح ولوط، ودلت الآية الثانية على طيبِ امرأةِ فرعون مع كفر زوجها وخبثه.

فكيف التوفيق بين هذه الآيات؟

نقول: قال كثير من المفسرين: إن معناها الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال.. والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء، وعلى ذلك فما نسبه المنافقون إلى عائشة رضي الله عنها من كلام خبيث هم أولى به، وهي أولى بالبراءة والنزاهة منهم؛ وقلنا ذلك لأن الآيات نزلت في براءة عائشة؛ لقوله عقب الآيات: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ﴾. أي: عائشة وأسرتها ورسول الله ﷺ، وعلى ذلك فلا إشكال، قال ذلك ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد ورواه عنهم ابن جرير وابن كثير وغيرهم(٤). كما يمكن القول بأن الآية ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ

---

(١) سورة النور، آية ٢٦.

(٢) سورة التحريم، آية ١٠.

(٣) سورة التحريم، آية ١١.

(٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري ١٨/ ١٠٦، ١٠٨، وتفسير ابن كثير ٣/ ٢٩١.

﴿لِلْخَبِيثِينَ﴾ من العام المخصوص، بدليل امرأة نوح وامرأة لوط وامرأة فرعون.. وعليه فالغالب: تقييد كل من الطيبات والطيبين والخبيثات والخبيثين لجنسه الملائم له في الخبث أو الطيب، مع أنه تعالى ربما قيد خبيثة لطيب كامرأة نوح وامرأة لوط، أو طيبة لخبيث كامرأة فرعون لحكمة بالغة، بدليل قوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ الآية. مع قوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾[1]. والحكمة في ذلك أن يعلم الناس أن القرابة من الصالحين لا تنفع الإنسان، وإنما ينفعه عمله فقط.

فدخول امرأة نوح وامرأة لوط النار أكبر دليل على ذلك قوله: ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ﴾[2]. ولعل ذلك يدفع الاغترار بالقرابة. كما أنه يفهم من الآية أن مخالطة الكفار بدون اختياره لا يضر صاحب العمل الصالح. فالخبيث خبيث وإن خالطه الصالحون والطيب طيب وإن خالطه الأشرار[3]. ويقول أبو السعود حول هذه الآية: المجانسة من دواعي الانضمام، والآيات في عائشة رضي الله عنها ورسول الله ﷺ وهو أطيب الطيبين، وخيرة الأولين والآخرين، والآية تبين أن الصديقة من أطيب الطيبات بالضرورة[4]. وعلى ذلك فلا إشكال أيضًا فتكون الآية عامة خصصت بآية التحريم، أو هي خاصة بعائشة رضي الله عنها ورسول الله ﷺ، كما يمكن القول بأن المراد بالطيبات والخبيثات أي: الكلمات الطيبات والكلمات الخبيثات. وبذلك يتم التوفيق وتزول شبهة التعارض.

****

(١) سورة العنكبوت، آية ٤٣.

(٢) سورة التحريم، آية ١٠.

(٣) دفع إيهام الاضطراب، ص ٢١٧.

(٤) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٦/ ١٦٧.

سورة الفرقان

٨٠-دلالة الغرفة والغرف والغُرفات:

قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾[(١)].

هذه الآية تدل بظاهرها على أن أهل الجنة يجزون غرفة واحدة، وقد جاءت آيات أخرى تدل على خلاف ذلك؛ كقوله تعالى: ﴿لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ﴾[(٢)] وقوله تعالى: ﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾[(٣)].

فما وجه التوفيق بين هذه الآيات؟

نقول: إن المراد بالغرفة: الدرجة العليا في الجنة، وقيل: الغرفة: الجنة، سميت بذلك لارتفاعها[(٤)]. يقول أبو السعود: «الغرفة الدرجة العالية من المنازل، أي: يثابون أعلى منازل الجنة، وهي اسم جنس أريد به الجميع كقوله تعالى: ﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾. وقيل: هي اسم من أسماء الجنة»[(٥)]. وقال الألوسي: «حول الآية: الغرفة الدرجة العالية من المنازل أيضًا، وقد فسرت على ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما ببيوت من زبرجد ودر وياقوت، أو المراد بها الجنس وهو ما يطلق على الجميع»[(٦)] وبذلك يتم التوفيق.

---

(١) سورة الفرقان، آية ٧٥.

(٢) سورة الزمر، آية ٢٠.

(٣) سورة سبأ، آية ٣٧.

(٤) دفع إيهام الاضطراب، ص ٢٢٤.

(٥) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٦/ ٢١٣.

(٦) روح المعاني ١٩/ ٥٣.

سورة الشعراء

٨١- تكذيب قوم نوح للمرسلين:

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾[(١)].

تدل هذه الآية بظاهرها على أن قوم نوح كذبوا جماعة من المرسلين، ثم بين ذلك بما يدل على خلاف ذلك، وأنهم إنما كذبوا رسولًا واحدًا هو نوح - عليه السلام - بقوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾[(٢)] إلى أن قال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾[(٣)].

فما وجه التوفيق بين الآيات؟

نقول: قال العلماء كانت دعوة الرسل واحدة وهي قولهم: لا إله إلا الله، فلما كان الأمر كذلك صار كل مكذب لأي رسول مكذبًا لكل الرسل، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[(٤)]، **وقوله:** ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[(٥)]. **وقد بين سبحانه أن مكذب بعضهم يعتبر مكذبًا لجميع الرسل بقوله:** ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾[(٦)]. **ويأتي هذا الإشكال أيضًا في قصة عاد في قوله:** ﴿كَذَّبَتْ

---

(١) سورة الشعراء، آية ١٠٥.

(٢) سورة الشعراء، آية ١٠٦.

(٣) سورة الشعراء، آية ١١٧.

(٤) سورة الأنبياء، آية ٢٥.

(٥) سورة النحل، آية ٣٦.

(٦) سورة النساء، الآيتان ١٥٠، ١٥١.

عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾[١]. وفي قوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾[٢]. وفي قصة لوط وشعيب - على نبينا وعليهم السلام - وما قيل في قصة نوح يقال في قصصهم[٣] وبذلك يتم التوفيق. يقول أبو السعود: «وتكذيبهم للمرسلين إما باعتبار إجماع الكل على التوحيد وأصول الشرائع التي لا تختلف باختلاف الأزمنة والأعصار، وإما لأن المراد بالجمع الواحد»[٤] وبذلك أيضًا يتم التوفيق. وفي الألوسي عند قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: «قوله: القوم يذكر ويؤنث كما في المصباح، وكذلك كل اسم جمع لا واحد له من لفظه نحو رهط ونفر». وقيل: هو مذكر ولحقت فعله علامة التأنيث على إرادة الأمة والجماعة منه، وجوز أن يراد بالمرسلين نوح - عليه السلام - بجعل اللام للجنس، كقولهم: فلان يركب الدواب[٥] وبذلك يتم التوفيق.

****

(١) سورة الشعراء، الآيتان ١٢٣، ١٢٤.

(٢) سورة الشعراء، الآيتان ١٤١، ١٤٢.

(٣) دفع إيهام الاضطراب ص ٢٢٥.

(٤) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٦/ ٢٥٤.

(٥) روح المعاني ١٦/ ١٠٦.

سورة النمل

٨٢- ثبات الجبال وحركتها:

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾(١).

تدل هذه الآية بظاهرها على أن الجبال يظنها الرائي ساكنة بينما هي تسير، وقد جاءت آيات أخر تدل على أن الجبال راسية، والراسي هو الثابت المستقر كقوله تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾(٢). وقوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾(٣). وقوله: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾(٤). وغير ذلك من الآيات.

فما وجه التوفيق بين هذه الآيات؟

نقول: قوله: ﴿أَرْسَىٰهَا﴾ ونحوه: في الدنيا فقد أرسى الله الجبال منذ خلقها، أما قوله: ﴿وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ فذلك في الآخرة بدليل قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾(٥). ثم عطف عليه قوله: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ﴾(٦). وهناك نصوص قرآنية أخرى تدل على أن سير الجبال يكون يوم القيامة كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ

(١) سورة النمل، آية ٨٨.

(٢) سورة النازعات، آية ٣٢.

(٣) سورة ق، آية ٧.

(٤) سورة النحل، آية ١٥.

(٥) سورة النمل، آية ٨٧.

(٦) سورة النمل، آية ٨٨.

ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾[(١)]. وفي سورة النبأ يقول عز وجل: ﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾[(٢)]. يقول أبو السعود مدللًا على أن سير الجبال يكون يوم القيامة: إن ذلك يكون بعد النفخة الثانية عند حشر الخلق، فعندئذ يبدل الله الأرض غير الأرض ويغير هيئتها، ويسير الجبال عن مقارها، كما نطق قوله تعالى في سورة طه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴾[(٣)]. وبذلك يتم التوفيق، وتزول شبهة الإيهام والتعارض. وقد ذكر الألوسي ما مفاده أن ذلك يكون يوم القيامة أيضًا فقال: «ذهب غير واحد إلى أن تبديل الأرض كالبروز بعد النفخة الثانية في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله أرأيت قول الله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾[(٤)]. فأين يكون الناس؟ قال: «على الصراط»[(٥)]. وفي البحر المحيط[(٦)] أن أول الصفات ارتجاجها، ثم صيرورتها كالعهن المنفوش، ثم كالهباء بأن تتقطع بعد أن كانت كالعهن، ثم نسفها بإرسال الرياح، ثم تطييرها بالريح في الجو كأنها غبار، ثم كونها سرابًا، وذلك يقتضي أن يكون قبل النفخة الثانية[(٧)]. وتحت أي توجيه يكون قد تم التوفيق بين الآيات وأزيلت شبهة التعارض.

****

---

(١) سورة الكهف، آية ٤٧.

(٢) سورة النبأ، آية ٢٠، وانظر: دفع إيهام الاضطراب، ص ٢٥٥.

(٣) سورة طه، الآيتان ١٠٥، ١٠٦، وانظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٦/ ٣٠٤.

(٤) سورة إبراهيم، آية ٤٨.

(٥) صحيح مسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم في البعث والنشور ٣/ ٢١٥٠ ح ٢٧٩١.

(٦) تفسير البحر المحيط ٧/ ١٠٠.

(٧) روح المعاني للألوسي ٢٠/ ٣٥.

سورة القصص

٨٣- نداء الله - تعالى - لموسى عليه السلام:

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[١].

تدل هذه الآية بظاهرها - كما يراه المعتزلة - أنها توجب حدوث النداء؛ لأنه جعل الشجرة ابتداء غايته، وهذا يوجب حدوثه فيها[٢]؟

فكيف ندفع ذلك الإيهام؟

نقول: إن الاستدلال بهذه الآية على أن الكلام خلقه الله تعالى في الشجرة، فسمعه موسى منها باطل، ودليل ذلك أول الآية وآخرها. فأما أولها: فقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ﴾. والنداء هو الكلام من بعد، فسمع موسى- عليه السلام - النداء من حافة الوادي، ثم قال: ﴿فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ أي: أن النداء كان في البقعة المباركة من عند الشجرة، كما تقول: سمعت كلام زيد من البيت، يكون من البيت ابتداء الغاية، لا أن البيت هو المتكلم، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ لابتداء الغاية، لا أن الشجرة هي المتكلمة. وأما آخر الآية: فقوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾. فإنه لو كان الكلام مخلوقًا في الشجرة لكانت هي القائلة هذا الكلام، وهو باطل وما يؤدي إلى الباطل فهو باطل مثله، ولو كان هذا الكلام بدءًا من غير الله لكان قول فرعون: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾[٣] صدقًا، إذ كل

---

(١) سورة القصص، آية ٣٠.

(٢) متشابه القرآن ٢/ ٥٤٥.

(٣) سورة النازعات، آية ٢٤.

من الكلامين - عندهم - مخلوق قد قاله غير الله ! وقد فرقوا بين الكلامين على أصول فاسدة، فزعموا أن ذلك من كلام خلقه الله في الشجرة، وهذا كلام خلقه فرعون، فحرفوا وبدلوا، واعتقدوا خالقًا غير الله[1]. وأيضًا: فإنه لو سمع موسى - عليه السلام - كلام الله تعالى من غير الله لما كان له - عليه السلام - فضل علينا؛ لأننا نسمع كلام الله تعالى من غيره[2]، وبذلك تبطل الشبهة[3]. والله أعلم.

****

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ١٨٦، ١٨٧.

(٢) الفصل في الملل والأهواء لابن حزم ٣/ ٥.

(٣) المعتزلة وأصولهم الخمسة، عواد المعتق ص ١٢١، ١٢٢.

سورة السجدة

٨٤- حصول الوفاة بأمر الله واستجابة ملك الموت للأمر وقبض الملائكة:

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾[(١)].

أسند في هذه الآية التوفي إلى ملك واحد هو ملك الموت، وأسنده في آيات أخر إلى جماعة من الملائكة كقوله تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾[(٢)]. وقوله تعالى: ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾[(٣)]. وأسنده في آية أخرى إلى نفسه - عز وجل - وهي قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾[(٤)]. فظاهر هذه الآيات وآية ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ التعارض بينها.

فما وجه التوفيق بين هذه الآيات؟

نقول: قال البغوي: «توفي الملائكة بالقبض والنزع، وتوفي ملك الموت بالدعاء والأمر يدعو الأرواح فتجيبه، ثم يأمر أعوانه بقبضها، وتوفي الله سبحانه خلق الموت فيه»[(٥)]. وزيادة في الإيضاح نقول: إسناد التوفي إلى نفسه - عز وجل -؛ لأن ملك الموت لا يقدر أن يقبض روح أحد إلا بإذنه ومشيئته تعالى، دليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾[(٦)]. ثم أسنده إلى ملك الموت؛ لأنه هو المأمور بقبض الأرواح، وأسنده إلى

(١) سورة السجدة، آية ١١.

(٢) سورة الأنعام، آية ٦١.

(٣) سورة النحل، آية ٢٨.

(٤) سورة الزمر، آية ٤٣.

(٥) معالم التنزيل بهامش لباب التأويل للخازن ٥/ ٢٢٢.

(٦) سورة آل عمران، آية ١٤٥.

الملائكة؛ لأن ملك الموت له أعوان من الملائكة تحت رئاسته يعملون بأمره، وينزعون الروح إلى الحلقوم فيأخذها ملك الموت[1]. والله أعلم. وفي **التحرير والتنوير** يقول ابن عاشور: «وملك الموت هو الملك الموكل بقبض الأرواح». وقد ورد ذكره في القرآن مفردًا كما هنا، ومجموعًا كما في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾[2]. وقوله: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾[3]. ذلك لأن الله جعل ملائكة كثيرين لقبض الأرواح، وجعل مبلغ أمر الله بذلك (ملك الموت)، فإسناد التوفي إليه كإسناده إلى الله في قوله: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾. وجعل الملائكة الموكلين بقبض الأرواح أعوانًا له، وأولئك يسلمون الأرواح إلى (ملك الموت)، فهو يقبضها ويودعها في مقارها التي أعدها الله لها»[4]. وبذلك يتم التوفيق وتزول شبهة التعارض.

****

(١) دفع إيهام الاضطراب ص ٢٣٦.

(٢) سورة الأنفال، آية ٥٠.

(٣) سورة الأنعام، آية ٦١.

(٤) التحرير والتنوير ٢١/ ٢٢٠.

سورة الأحزاب

٨٥- عدم التعارض بين خطاب النبي ﷺ خطابًا للمفرد والحديث عن أمته بصيغة الجمع:

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾(١).

جاءت الآية في أولها خطابًا للمفرد، وفي آخرها للجمع.

فما وجه التوفيق بين أولها وآخرها؟

نقول: كان آخر الآية بخطاب الجمع ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ لدخول الأمة تحت هذا الخطاب، وخاطبه لأنه قدوتهم ﷺ، ويمكن القول بأن الخطاب لرسول الله ﷺ والمراد أمته أو دوام تقواه لله. يقول أبو السعود: «نودي بعنوان النبوة تنويهًا لشأنه، وتنبيهًا على سمو مكانته، والمراد بالتقوى المأمور بها الثباتُ عليها والازدياد منها، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾. قيل: الخطاب لرسول الله والجمع للتعظيم، وقيل: له وللمؤمنين، وأيًّا ما كان فالجملة تعليل للأمر وتأكيد لموجبه، فلا بد من اتباع الوحي والعمل بمقتضاه حتمًا»(٢).

وبذلك يتم التوفيق بين أطراف الآية الكريمة.

---

(١) سورة الأحزاب، الآيتان ١، ٢.

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٧/ ٨٩.

٨٦- التوفيق بين آيتي: ﴿إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ﴾، و ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾:

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ﴾(١) هذه الآية تظهر إيهام تعارضها مع قوله: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾(٢).

وللتوفيق بينهما نقول: قال العلماء ما خلاصته: إن قوله: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾ منسوخ بقوله: ﴿إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ﴾... وذلك أحد الموضعين اللذين في المصحف ناسخهما قبل منسوخهما؛ لتقدمه في ترتيب المصحف مع تأخره في النزول على القول بذلك، وقيل: الآية الناسخة لها في قوله تعالى: ﴿تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ﴾(٣). وقال بعض العلماء: هي محكمة. وعليه فالمعنى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾. أي من بعد النساء اللاتي أحلهن الله لك في قوله: ﴿إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ﴾ الآية. فتكون آية ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ﴾ محرمة ما لم يدخل في آية ﴿إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ﴾ كالكتابيات، والمشركات، والبدويات على القول بذلك فيهن، وبنات العم، والعمات، وبنات الخال، والخالات، واللاتي لم يهاجرن معه على القول بذلك فيهن أيضًا. والقول بعدم النسخ قال به أبي بن كعب رضي الله عنه، ومجاهد، وعكرمة وغيرهم(٤). قال الشنقيطي: والذي يظهر لنا أن القول بعدم النسخ أرجح، وليس المرجح لذلك عندنا أنه قول جماعة من الصحابة ومن بعدهم، منهم علي وابن عباس وأنس وغيرهم رضي الله عنهم، ولكن المرجح له عندنا: أنه قول أعلم الناس بالمسألة: أعني أزواجه، فقد قالت بذلك عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: «**ما مات ﷺ حتى أحل الله له النساء**»(٥).

وبذلك قالت أم سلمة رضي الله عنها؛ قالت: «لم يمت رسول الله حتى أحل الله له أن يتزوج من النساء ما شاء إلا ذات محرم»(٦).

(١) سورة الأحزاب، آية ٥٠.

(٢) سورة الأحزاب، آية ٥٢.

(٣) سورة الأحزاب، آية ٥١.

(٤) تفسير ابن كثير ٣/ ٥٢٣، ودفع إيهام الاضطراب ص ٢٣٩.

(٥) سنن الترمذي ٥/ ٣٥٦ ح ٣٢١٦، وقال الترمذي: هذا حديث حسن.

(٦) تفسير ابن كثير ٣/ ٥٢٣.

وقد روى ذلك عن عائشة رضي الله عنها أحمد، والترمذي، والنسائي، والحاكم، وأبو داود في ناسخه، وغيرهم. وروي عن أم سلمة رضي الله عنها قاله ابن أبي حاتم، كما نقله عن ابن كثير وغيره، ومما يشهد لصحة ذلك أيضًا أن رسول الله ﷺ تزوج أم حبيبة، وجويرية رضي الله عنهما بعد نزول ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ﴾[1]. وبذلك يتم التوفيق بين الآيات.

* * * *

(١) دفع إيهام الاضطراب ص ٢٤١.

سورة يس

٨٧- إنذار النبي للناس بين الخصوص والعموم:

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ﴾[(١)].

تدل هذه الآية على خصوص الإنذار بالمنتفعين به. ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾[(٢)]. وقد جاءت آيات أخر تدل على عموم الإنذار كقوله: ﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾[(٣)]. وقوله: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾[(٤)]. وقوله: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾[(٥)].

فما وجه التوفيق بين الآيات؟

نقول: إن الإنذار عام وإنما خصص في بعض الآيات بالمؤمنين؛ لأنهم هم المنتفعون به دون غيرهم، بدليل قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[(٦)]

- فالإنذار وعدمه بالنسبة للأشقياء سواء؛ لقوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[(٧)].

- قال أبو السعود: «قوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾. أي: إنذارًا مستتبعًا للأثر. ﴿مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ أي:

---

(١) سورة يس، آية ١١.

(٢) سورة النازعات، آية ٤٥.

(٣) سورة مريم، آية ٩٧.

(٤) سورة الفرقان، آية ١.

(٥) سورة الليل، آية ١٤.

(٦) سورة الذاريات، آية ٥٥.

(٧) سورة البقرة، آية ٦، ودفع إيهام الاضطراب ص ٢٤٩.

القرآن بالتأمل فيه»[1] ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ﴾[2] أي: هذا هو المنتفع بالإنذار، وعليه فلا تعارض بين الآيات.

****

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٧ / ١٦٠.

(٢) سورة يس، آية ١١.

سورة الزمر

٨٨- قبول توبة المسرفين:

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾(١).

تدل هذه الآية على أمرين:

الأول: أن المسرفين ليس لهم أن يقنطوا من رحمة الله، مع مجيء آية تدل على خلاف ذلك، وهي قوله: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾(٢). ويجاب على ذلك: بأن الإسراف قد يكون بالكفر، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ وقد يكون بالمعاصي دون الكفر، وهذا هو المراد بقوله: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

الأمر الثاني: أنها دلت على غفران جميع الذنوب، وذلك مع ورود قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾(٣). فالشرك لا يغفر، أجيب بأن الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ مخصصة لهذه - أي آية الزمر -، وقال بعض العلماء: هذه مقيدة بالتوبة بدليل قوله: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾(٤). فإنه معطوف على قوله: ﴿لَا تَقْنَطُوا۟﴾ وعلى ذلك فلا إشكال(٥).

---

(١) سورة الزمر، آية ٥٣.

(٢) سورة غافر، آية ٤٣.

(٣) سورة النساء، آية ٤٨.

(٤) سورة الزمر، آية ٥٤.

(٥) دفع إيهام الاضطراب ص ٢٥٢.

قال ابن عاشور في **التحرير والتنوير**: «إن قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ عامة؛ وهي خطاب لجميع المشركين إذا أسلموا ودخلوا في الإسلام، ففي **صحيح البخاري** أن أناسًا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وأكثروا، وزنوا وأكثروا، فأتوا محمدًا ﷺ فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن، ولو تخبرنا لما عملنا كفارة، وقد سمعوا آيات الوعيد فنزل قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[1]. ونزل قوله: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[2] الآية. وبذلك يتم التوفيق ويزول التعارض.

****

(١) سورة الفرقان الآيات: ٦٨-٧٠.

(٢) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية ٥/ ٢٣، وانظر: تفسير ابن عاشور ٢٤/ ٤٠.

سورة الزخرف

٨٩- وحدانية الله فوق كل تأويل:

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾[(١)].

هذا العطف مع التنكير في هذه الآية يتوهم منه الجاهل تعدد الآلهة مع أن الآيات القرآنية المتعددة تصرح بأن الله واحد، من ذلك قوله في سورة محمد: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[(٢)]. وقوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟﴾[(٣)].

فما وجه هذه الآيات؟

نقول: إن معنى قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ﴾ أنه معبود أهل السماوات والأرض فقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ﴾ أي: معبود وحده في السماء كما أنه معبود بحق في الأرض[(٤)]. يقول أبو السعود: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ الظرفان متعلقان بالمعنى الوصفي الذي ينبئ عنه الاسم الجليل من معنى العبودية بالحق بناء على اختصاصه بالمعبود الحق، كأنه قيل: وهو الذي يستحق لأن يعبد فيهما[(٥)]. وعلى هذا يتم الجمع ويتضح المقام.

قال الألوسي: «ولا شك أن طرق عبادة أهل السماء له تعالى غير طريق عبادة أهل الأرض، على ما يشهد به تتبع الآثار، فإذا كان (إله) بمعنى معبود كان معنى الآية أنه تعالى معبود

---

(١) سورة الزخرف، آية ٨٤.

(٢) سورة محمد، آية ١٩.

(٣) سورة المائدة، آية ٧٣.

(٤) دفع إيهام الاضطراب ص ٢٥٩.

(٥) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٨/ ٥٦.

في السماء على وجه، ومعبود في الأرض على وجه آخر»[1]. وبذلك يتم التوفيق ويرتفع الإشكال.

****

(١) روح المعاني ٢٥/١٠٧.

سورة الأحقاف

٩٠- علم المستقبل عند الله وحده:

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾[(١)].

تدل هذه الآية على أنه ﷺ لا يعرف مصير أمره، وقد جاءت آية أخرى تدل على أنه ﷺ عالم بمصير أمره، وأن مصيره إلى خير، وهي قوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[(٢)]. فإن قوله: ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾ تنص على حسن عاقبته وخاتمته، وتوضيحًا للمقام نقول: إن الله تعالى أعلم رسوله ﷺ بعد أن كان لا يعلم، ويستأنس لذلك بقوله: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾[(٣)]. وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾[(٤)]. وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾[(٥)]. والإجابات هذه هي معنى قول ابن عباس رضي الله عنهما وآخرين بأنها منسوخة بقوله: ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾. ويصدق ذلك أن سورة الأحقاف مكية وسورة الفتح نزلت عام ست عقب رجوعه من الحديبية. وأجاب بعض العلماء بأن المراد ما أدري ما يفعل بي ولا بكم، أي: في الدنيا من الحوادث والوقائع[(٦)]، وعلى ذلك فلا إشكال.

ويقول أبو السعود: «كانوا يسألون رسول الله ويقترحون عليه آيات عجيبة. ويسألونه

(١) سورة الأحقاف، آية ٩.

(٢) سورة الفتح، آية ٢.

(٣) سورة النساء، آية ١١٣.

(٤) سورة الضحى، آية ٧.

(٥) سورة القصص، آية ٨٦.

(٦) دفع إيهام الاضطراب ص ٢٦٢.

عن المغيبات عنادًا ومكابرة، فأمر - عليه السلام - بأن يقول لهم: ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ قادرًا على ما لم يقدروا عليه، حتى آتيكم بكل ما تقترحونه، وأخبركم بكل ما تسألون عنه من الغيوب.

وقوله: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ أي: شيء يصيبنا مستقبلًا من أفعاله ومن قضاياه. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ما يفعل بي ولا بكم في الآخرة، وقال: هي منسوخة بقوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[(١)].

وقال أيضًا: «والأظهر أن - ما - عبارة عما ليس علمه من وظائف النبوة من الحوادث والوقائع الدنيوية، دون ما سيقع في الآخرة فإن العلم بذلك من وظائف النبوة، وقد ورد به الوحي»[(٢)] وبذلك يرتفع الإشكال.

٩١- القول في دخول الجن المؤمنين الجنَّة:

قوله تعالى: ﴿أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[(٣)] يفهم من ظاهر هذه الآية أنَّ جزاء المطيع من الجن غفران ذنوبه - وإجارته من عذاب أليم، لا دخوله الجنة، وقد تمسك جماعة من العلماء بظاهر هذه الآية، وقالوا إن المؤمنين من الجن لا يدخلون الجنة، من هؤلاء الإمام أبو حنيفة.

وقد جاءت آيات أخرى تدلل على أن المؤمنين من الجن يدخلون الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾[(٤)] عقب قوله: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[(٥)]. ويستأنس لهذا القول بقوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾[(٦)]. إن ذلك يشير إلى أن في الجنة جنًّا يطمثون

---

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٨/ ٧٩.

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٨/ ٧٩.

(٣) سورة الأحقاف، آية ٣١.

(٤) سورة الرحمن، آية ٤٦.

(٥) سورة الرحمن، آية ٤٥.

(٦) سورة الرحمن، الآية ٥٦.

النساء كالإنس. فكيف نوفق بين هاتين الآيتين؟

نقول: قال العلماء: إن آية الأحقاف نص الله - تعالى - فيها على الغفران والإجارة من العذاب، ولم يتعرض لدخول الجنة لا بنفي ولا إثبات. وآية الرحمن نص فيها على دخولهم الجنة؛ لأنه قال فيها: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾. ولقد تقرر أن الموصولات من صيغ العموم فقوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ﴾. يعم كل خائف مقام ربه من إنس أو جن؛ لأنه تعالى صرح بشمول ذلك في قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. من هنا يتبين أنه لا تعارض بين الآيتين؛ لأن إحداهما بينت ما لم تبينه الأخرى، ولأن قوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ﴾. يدل على أن دخولهم الجنة بعموم المنطوق، والمنطوق مقدم على المفهوم، كما تقرر عند علماء الأصول[1].

يقول أبو السعود في تفسيره: «يا قومنا أجيبوا... إلخ والأظهر أنهم في حكم بني آدم ثوابًا وعقابًا»[2]. وقال عند قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[3]. والعبادة جزاؤها في الآخرة، فمن أداها كما أمر الله أثابه الله، والجنة دار الثواب، كما أنه تعالى خاطب الجن والإنس في قوله: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾[4]. ومعنى هذا أن الرسل مرسلون للإنس والجن، فمن أطاع من الثقلين أثيب، ومن خالف عوقب، ولغيره من الآيات نقول: إن الجن يدخلون الجنة إذا آمنوا واتقوا حسب شريعة الله. وبذلك يكون قد تم الجمع بين الآيات، وأزيلت شبهة التعارض.

****

(١) دفع إيهام الاضطراب ص ٢٦٣ - ٢٦٨ بتصرف واختصار.

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٨/ ٨٩.

(٣) سورة الذاريات، آية ٥٦.

(٤) سورة الأنعام، آية ١٣٠.

سورة الطور

٩٢- عموم كسب المرء وخصوصه:

قوله تعالى: ﴿كُلُّ ٱمْرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾[١].

تدل هذه الآية بمقتضى ظاهرها على عموم رَهن كُلِّ إنسانٍ بعَمله، ولو كان من أصحاب اليمين؛ لشمولها المدلول عليه بلفظ: ﴿كُلُّ﴾، وقد جاءت آية أخرى تدل على عدم شمولها لأصحاب اليمين، وقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾[٢].

فما وجه التوفيق بين الآيتين؟

نقول: إن آية الطور تخصصها آية المدثر[٣]. يقول أبو السعود حول آية الطور: ﴿كُلُّ ٱمْرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾. أي: دائم ثابت، أي لا ينفك عن صاحبه[٤] وحول آية المدثر يقول: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾. أي: مرهونة عند الله بكسبها، والرهينة اسم بمعنى الرهن ﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾. فإنهم فاكون رقابهم بما أحسنوا من أعمالهم[٥] - فآية الطور عامة، وآية المدثر خاصة، وبذلك ينحل الإشكال ويتم التوفيق.

قال الألوسي: ﴿كُلُّ ٱمْرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾- أي بكسبه وعمله - رهين: أي مرهون عند الله كأن الكسب بمنزلة الدين، ونفس العبادة بمنزلة الرهن، ولا ينفكُّ الرَّهن ما لم يؤدَّ الدين، فإن

---

(١) سورة الطور، آية ٢١.

(٢) سورة المدثر، الآيتان ٣٨، ٣٩.

(٣) دفع إيهام الاضطراب ص ٢٧٥.

(٤) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٩/ ٦١.

(٥) المرجع السابق ٩/ ٦١.

كان العمل صالحًا فقد أدى حقه؛ لأنَّ العمل الصالح يقبله ربه سبحانه وتعالى ويصعد إليه عز وجل، وإن كان غير ذلك فلا أداء ولا خلاص، إذ لا يصعد إليه سبحانه غير الطيب، ولذا قال عز وجل: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴾ فإن المراد كل نفس رهن بكسبها عند الله غير مفكوك، إلا أصحاب اليمين، فإنهم فكوا رقابهم بما أصابوه من كسبهم[1].

****

(١) المحرر الوجيز ١٤/ ١٢٠.

سورة النجم

٩٣- ملك الإنسان لعمله وانتفاعه بعمل غيره:

قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[١].

تدل هذه الآية الكريمة على أنه لا يوجد أحد ينتفع بعمل غيره، وقد جاءت آية أخرى تدل على أنه ربما انتفع بعض الناس بعمل غيره، وهي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾[٢]. فرفع درجات الأبناء كبارًا أو صغارًا نفع حاصل بعمل آبائهم لا بعمل أنفسهم.

فما وجه التوفيق بين الآيتين؟

نقول: أولًا ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما من أن هذا كان شرعًا لمن قبلنا، ونسخ في شرعنا، فذلك غير صحيح، بل آية: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾. محكمة، كما أن القول بأن المراد بالإنسان خصوص الكافر غير صحيح أيضًا[٣].

وتتلخص الإجابة فيما يلي: أن الآية إنما دلت على ملك الإنسان لعمله، ولم تدل على عدم انتفاع الغير به، وفرق بين أن يكون سعي الغير ملكًا لساعيه إن شاء بذله لغيره فانتفع به ذلك الغير، وبين إبقائه لنفسه دون بذله لأحد، وقد أجمع العلماء كما يقول الشنقيطي على انتفاع الميت بالصلاة عليه والدعاء له، والحج عنه، ونحو ذلك مما ثبت الانتفاع بعمل الغير فيه.

---

(١) سورة النجم، آية ٣٩.

(٢) سورة الطور، آية ٢١.

(٣) دفع إيهام الاضطراب ص ٢٧٨، ٢٧٩ بتصرف كثير.

كما أن إيمان الذرية هو السبب الأصيل في رفع درجاتهم؛ لأنهم لو كانوا كفرة ما حصل لهم ذلك، فإيمان العبد وطاعته سعي منه في انتفاعه بعمل غيره من المسلمين، كما وقع في صلاة الجماعة، فصلاة بعضهم مع بعض سبب في زيادة الأجر، وتلك الزيادة انتفاع بعمل الغير، سعى فيه المصلي بإيمانه وصلاته في الجماعة، يشير إلى ذلك قوله: ﴿وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾. كما أن السعي الذي حصل به رفع الدرجات للأولاد هو من سعي الآباء، أقر الله به عيونهم فهو خارج عن قوله: ﴿ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾. فرفع الله درجات الأولاد ليتمتع الآباء برؤيتهم في الجنة. فالآية تصدق الأخرى ولا تنافيها؛ لأن المقصود بالرفع إكرام الآباء قبل إكرام الأبناء فانتفاع الأبناء تبع، فضلًا على أن الولد من سعي أبيه وتربيته على الإيمان والفضيلة على يد أبيه ليس أمرًا متروكًا، بل هو أمر يثاب عليه الآباء[1].

يقول الألوسي: ألحقنا بهم ذريتهم في الدرجة. فعن ابن عباس رضي الله عنهما رفعه إلى النبي ﷺ قال: «**إن الله ليرفع ذرية المؤمن معه في درجته في الجنة، وإن كانوا دونه في العمل لتقر بهم عينه ثم قرأ الآية**»[2]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده، فيقال له: إنهم لم يبلغوا درجتك وعملك فيقول: يا رب قد عملت لي ولهم فيأمر بإلحاقهم به.. وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما الآية**». وبذلك يتم التوفيق بين الآيتين ويزول ما يوهم التعارض.

****

(1) مجمع الزوائد للهيثمي ٧/ ١١٤.

(2) مجمع الزوائد ٧/ ١١٤، وانظر: روح المعاني للألوسي ٢٧/ ٣٢.

سورة الحديد

٩٤- دلالة قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[١]:

يدل هذا على أنه مستوٍ على عرشه عالٍ على جميع خلقه، وقد جاء ما يوهم خلاف ذلك، وهو قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ في الآية نفسها.

فما وجه التوفيق بين الآيتين؟

نقول: إنه تعالى مستوٍ على عرشه كما قال، بلا تكييف ولا تشبيه، استواء لائقًا بكماله وجلاله، وجميع الخلائق تحت قدرته وفي يده أصغر من حبة الخردل، فهو مع جميعهم بعلمه وقدرته وإحاطته الكاملة بكل الخلق، والعلم التام بكل ما يصدر عن جميع المخلوقات، سبحانه أحاط بكل شيء علمًا، وأحصى كل شيء عددًا[٢]. وقد قال الإمام مالك: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة، والإيمان به واجب. فلا منافاة بين علوه على عرشه ومعيته لخلقه، فسبحانه ليس كمثله شيء، والله أعلم وبذلك يزول التعارض.

****

---

(١) سورة الحديد، آية ٤.

(٢) دفع الاضطراب ص ٢٨٦.

سورة الممتحنة

٩٥- بِرُّ الكافرِ والإقساطُ إليه بين الاشتراط والمنع:

قوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[١].

تدل الآية على أن الكافر إذا لم يقاتل المؤمن في الدين.. إلخ لا يحرم البِرَّ والإقساطَ إليه، وقد جاءت آية أخرى تدُل على منع مُوالاة الكفار وموادّتهم مطلقًا، كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾[٢]. وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[٣]. وقوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾[٤] الآية.

فكيف يكون التوفيق بين هذه الآيات؟

من يقول بنسخ هذه الآية فلا إشكال فيه على هذا القول، وأمَّا على القول بأنَّها محكمة فوجه الجمع فيها أن الكافر الذي لم يُنْهَ عن بره والإقساط إليه مشروط بعدم قتاله للمسلمين في الدين، وإخراج المؤمنين من ديارهم، والكافر الذي يقاتل المؤمنين في الدين، ويعمل على إخراجهم من ديارهم المتعاون مع العدو، والمظاهر له ذلك هو المأمور بعدم بره والإقساط إليه[٥].

---

(١) سورة الممتحنة، آية ٨.

(٢) سورة المائدة، آية ٥١.

(٣) سورة الممتحنة، آية ٩.

(٤) سورة المجادلة، آية ٢.

(٥) دفع إيهام الاضطراب ص ٢٩٢.

أخرج البخاري وغيره عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت: أتتني أمي راغبة، وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا رسول الله ﷺ فسألت رسول الله أأصِلُها؟ فأنزل الله تعالى: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ﴾ إلخ. فقال - عليه الصلاة والسلام -: «**نعم صلي أمك**»[١]. وفي رواية للإمام أحمد وجماعة عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه قال: قدمت قتيلة بنت عبد العزى على ابنتها أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها بهدايا وهي مشركة، فأبت أسماء أن تقبل هديتها أو تدخلها بيتها، حتى أرسلت إلى عائشة رضي الله عنها أن تسأل رسول الله عن هذا، فسألته فأنزل الله هذه الآية ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ﴾ الآية[٢]. وقتيلة هذه كانت امرأة أبي بكر فطلقها في الجاهلية، وهي أم أسماء حقيقة[٣]. وبذلك يتم التوفيق ويزول التعارض.

****

(١) صحيح البخاري كتاب الهبة، باب الهدية للمشركين ٣/ ١٤٢.

(٢) مسند الإمام أحمد ٤/ ٤.

(٣) روح المعاني للألوسي ٢٨/ ٧٤.

سُورَةُ المُنَافِقُونَ

٩٦- كذب المنافقين في إظهار غير ما يبطنون:

قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾(١).

هذا الذي شهدوا عليه حق لا شك فيه؛ لأن الله حق، وقد كذبهم الله بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾. في نفس الآية مع أن قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ يفيد وكأنه تصديق لهم.

فما وجه التوفيق بين ذلك؟

نقول: إن تكذيب الله لهم منصب على إسنادهم الشهادة إلى أنفسهم في قوله: ﴿نَشْهَدُ﴾ وهم في باطن الأمر لا يشهدون برسالته، بل يعتقدون عدمها أو يشكون فيه، ويدل للأول قوله تعالى: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾. ويدل للثاني قوله: ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾(٢).

قال الألوسي: «والمراد بهؤلاء المنافقين عبد الله بن أبيّ وأصحابه، وقال: التكذيب راجع لقولهم: ﴿نَشْهَدُ﴾ وهو دعوى المواطأة في الشهادة، أي: والله يشهد إنهم لكاذبون فيما ضمنوه قولهم: ﴿نَشْهَدُ﴾ من دعوة المواطأة وتوافق اللسان والقلب في هذه الشهادة»(٣).

وقال الألوسي: وجوز بعض الأفاضل أن يكون المعنى ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ شأنهم الكذب

---

(١) سورة المنافقون، آية ١.

(٢) سورة التوبة، آية ٤٥، ودفع إيهام الاضطراب ص ٢٩٦.

(٣) روح المعاني ٢٨ / ٧٤.

وإن صدقوا في هذا الخبر [1]. وبذلك يتم التوفيق بين ما ذكر في الآية.

*****

(1) المرجع السابق.

سورة الطلاق

٩٧- عموم الخطاب في تطليق النّساء:

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾[١].

ظاهر هذه خصوص الخطاب لرسول الله ﷺ، وقوله تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾[٢] يقتضي خلاف ذلك، وخلاصة القول في التوفيق في الآية أن الخطاب لرسول الله ﷺ ولكنه عام لجميع الأمة[٣]، وأمثلة ذلك كثيرة.

ويقول ابن عطية في المحرر: «ذلك خروج من مخاطبة أفراد إلى مخاطبة جماعة، وقال آخرون: إن في نداء النبي ﷺ أريدت أمته معه»[٤]. وبذلك يتم التوفيق.

٩٨- دلالة (مَن) الشرطية على الإفراد والجمع:

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزۡقًا﴾[٥].

ووجه الإيهام هنا أنه أفرد الضمير في هذه الآية في قوله: ﴿يُؤۡمِنۢ﴾، وقوله: ﴿وَيَعۡمَلۡ﴾، وقوله: ﴿يُدۡخِلۡهُ﴾، وقوله: ﴿لَهُۥ﴾، وجمع في قوله: ﴿خَٰلِدِينَ﴾.

---

(١) سورة الطلاق، آية ١.

(٢) سورة الطلاق، آية ١.

(٣) دفع إيهام الاضطراب ص ٢٩٧.

(٤) المحرر الوجيز ١٤ / ٤٨٨.

(٥) سورة الطلاق، آية ١١.

وللتوفيق بين ذلك نقول: إن الإفراد باعتبار لفظ من، والجمع باعتبار معناها، وذلك كثير في القرآن، وفي هذه الآية رد على مَن زعم أن مراعاة المعنى لا تجوز بعدها مراعاة اللفظ؛ لأنه في هذه الآية راعى المعنى في قوله: ﴿خَٰلِدِينَ﴾ ثم راعى اللفظ في قوله: ﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾(1).

فالذين يشملهم الشرط جمع لأفراد، ومن ثم فإن الإِحالة إلى الجمع لا يتعارض مع كون الذين يؤمنون جمعًا عقلًا ونقلًا.

****

(1) دفع إيهام الاضطراب ص ٢٥٠، ٢٩٧.

سورة القلم

٩٩- القول في حالة يونس عندما نبذه الحوت:

قوله تعالى: ﴿فَنَبَذْنَـٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾(١). تفيد هذه الآية بنبذ يونس بالعراء، وقد جاءت آية أخرى توهم غير ذلك في قوله: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَـٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾(٢).

فما وجه التوفيق بين الآيتين؟

نقول: إن الامتناع المدلول عليه بحرف الامتناع - لولا - منصب على الجملة الحالية لا على وجوب لولا، وتقرير المعنى: لولا أن تداركته نعمة من ربه لنبذ بالعراء في هذه الحالة عمدة لا فضلة، أو أن المراد بالفضلة ما ليس ركنًا في الإسناد، وإن توقفت صحة المعنى عليه، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ﴾(٣)، وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا﴾(٤)؛ لأن النفي فيهما منصب على الحال لا على ما قبلهما(٥).

قال أبو السعود: «﴿فَنَبَذْنَـٰهُ بِٱلْعَرَآءِ﴾ أي: بأن حملنا الحوت على لفظه بالمكان الخالي، مما يغطيه من شجر أو نبات، روي أن الحوت سار مع السفينة رافعًا رأسه يتنفس فيه يونس - عليه السلام - ويسبح، ولم يفارقها حتى انتهوا إلى البر ولفظه سالمًا لم يتغير فيه شيء فأسلموا: ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ أي مما ناله»(٦). وبذلك يتم التوفيق والجمع بين الآيتين.

---

(١) سورة الصافات، آية ١٤٥.

(٢) سورة القلم، آية ٤٩.

(٣) سورة الدخان، آية ٣٨.

(٤) سورة ص، آية ٢٧.

(٥) دفع إيهام الاضطراب ص ٢٥٠.

(٦) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٧/ ٢٥٠.

ثم إن جملة الحال: وهو سقيم- تختلف من حيث الدلالة عن جملة الحال: وهو مذموم، فمذموم تتضمن معنى عدم الرضا، وأنه غير محمود إلى جانب تضمنها لمعنى السقم، وهذا ما نفاه الباري عن يونس - عليه السلام -.

****

سورة الجن

١٠٠- الفرق بين معنى القاسط والمقسط:

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾[١]. وقال: ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[٢] فكيف التوافق وظاهر الآيتين التعارض؟

نقول: معنى القاسط: الجائر، من قسط، أي ظلم، والمقسط: العادل من أقسط، فهما ضدان. قال الألوسي: وأما القاسطون، أي: الجائرون عن سنن الإسلام فكانوا لجهنم حطبًا، توقد بهم كما توقد بكفرة الإنس، أو هو خطاب من الله تعالى لنبيه - عليه الصلاة والسلام[٣] - كما يقول ابن عطية[٤]، أما قوله في الحجرات: ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟﴾. أي: اعدلوا في كل ما تأتون وما تذرون[٥]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾، فيجازيهم أحسن الجزاء، وبذلك يتم التوفيق.

****

---

(١) سورة الجن، آية ٥.

(٢) سورة الحجرات، آية ٩.

(٣) روح المعاني ٢٩/٩٨.

(٤) المحرر الوجيز ١٦/١٣٧.

(٥) روح المعاني للألوسي ٢٦/ ١٥٠.

سورة المدثر

١٠١- الوهم الواقع حول قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾:

قوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾[(١)].

تدل هذه الآية بظاهرها على أن قومًا يدخلون النار؛ لأنهم لم يكونوا يصلون، بينما جاءت آية أخرى تفيد أن الله ذم قومًا كانوا يصلون، فقال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾[(٢)].

فكيف نوفق بين الآيتين؟

نقول: قال الإمام أحمد: إن قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾. عني بها المنافقون ﴿الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾[(٣)]. حتى يذهب الوقت، ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾[(٤)]. يقول: إذا رأوهم صلوا، وإذا لم يروهم لم يصلوا. وأما قوله: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾. يعني الموحدين المؤمنين[(٥)]. أي: الصلاة الصحيحة سرًا وعلانية.

* * * *

---

(١) سورة المدثر، الآيتان ٤٢، ٤٣.

(٢) سورة الماعون، آية ٤.

(٣) سورة الماعون، آية ٥.

(٤) سورة الماعون، آية ٦.

(٥) الرد على الزنادقة والجهمية ص ٨٩.

سورة المرسلات

١٠٢- أحوال أهل النّار من حيث النطق وعدمه:

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝٣٥ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾[١].

تفيد هذه الآية أن أهل النار لا ينطقون ولا يعتذرون، وقد جاءت آيات أخر بخلاف ذلك كقوله: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[٢]. وقوله: ﴿فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ﴾[٣]. وقوله: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾[٤]. وغير ذلك من الآيات.

فما وجه التوفيق بين هذه الآيات؟

نقول: إن القيامة مواطن متعددة، بعضها أعنف من الآخر، ففي بعضها ينطقون وفي بعضها لا ينطقون، بما فيه فائدة لهم، أو أن كلامهم ينقطع بعد قول الله لهم: ﴿قَالَ اخْسَـُٔوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾[٥].

قال الألوسي: «الإشارة إلى وقت دخولهم النار أي هذا يوم لا ينطقون بشيء ينفعهم، فجعل نطقهم لعدم النفع كلا نطق، ثم قال: والظاهر أن نفي الاعتذار باعتبار بعض المواطن والمواقيت كنفي النطق، وجوز أن يكون المنفي حقيقة الاعتذار فلا منافاة بين ما هنا وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾[٦]. وبذلك يتم التوفيق.

---

(١) سورة المرسلات، الآيتان ٣٥، ٣٦.

(٢) سورة الأنعام، آية ٢٣.

(٣) سورة النحل، آية ٢٨.

(٤) سورة الأعراف، آية ٣٨.

(٥) سورة المؤمنون، آية ١٠٨، وانظر: دفع إيهام الاضطراب ص ٣٠٦.

(٦) سورة غافر، آية ٥٢، وانظر: روح المعاني للألوسي ٢٩/ ١٧٧.

سورة الانفطار

١٠٣- إفادة النكرة العموم في قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾:

قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾[١].

تدل هذه الآية بظاهرها أن الذي يعلم يوم القيامة هي نفس واحدة، وقد جاءت آيات أخر تدل على أن كل نفس تعلم.. نحو ﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾[٢]. وقوله: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾[٣]. وغير ذلك من الآيات.

فما وجه التوفيق بين هذه الآيات؟

نقول: إن المراد بقوله: ﴿نَفْسٌ﴾ كل نفس: والنكرة وإن كانت لا تعم إلا في سياق النفي أو الشرط أو الامتنان كما تقرر في علم الأصول، فالتحقيق أنها ربما أفادت العموم بقرينة السياق بدون نفي أو شرط أو امتنان كقوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾[٤]. وقوله: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾[٥]. وبذلك يتم التوفيق.

قال الألوسي: «وتنكير النفس المفيد لثبوت العلم لفرد من النفوس أو لبعض منها إيذانًا بأن ثبوته لجميع أفرادها قاطبة من الظهور والوضوح، بحيث لا يكاد يحوم حوله شائبة قطعًا يعرفه كل أحد»[٦].

---

(١) سورة الانفطار، آية ٥.

(٢) سورة يونس، آية ٣٠.

(٣) سورة الإسراء، آية ١٣.

(٤) سورة التكوير، آية ١٤.

(٥) سورة الزمر، آية ٥٦، وانظر: دفع إيهام الاضطراب ص ٣١١.

(٦) روح المعاني ٣٠/ ٥٧.

سورة الفجر

١٠٤- دلالة الملك على الجمع:

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾(١).

توهم هذه الآية أنه ملك واحد، وقوله: ﴿صَفًّا صَفًّا﴾ يفيد أنه أكثر من ملك، بل صفوف من الملائكة.

فما وجه التوفيق بين ما جاء في الآية؟

نقول: إن قوله: ﴿وَٱلْمَلَكُ﴾ معناه والملائكة، وذلك كقوله في سورة الحاقة: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا﴾(٢). فالملك اسم جنس يشمل كل الملائكة. قال أبو السعود: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾. أي: ظهرت آيات قدرته، وآثار قهره، أو جاء أمره وقضاؤه، ﴿وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾. أي: مصطفين فإنه ينزل يومئذ ملائكة السماء فيصطفون صفًّا بعد صف بحسب منازلهم محدقين بالجن والإنس(٣). وبهذا يتم التوفيق.

****

---

(١) سورة الفجر، آية ٢٢.

(٢) سورة الحاقة، آية ١٧، وانظر: دفع إيهام الاضطراب ص ٣٢٠.

(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٩/ ١٥٧.

سورة البلد

١٠٥- دلالة (لا) في قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾:

قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾[١].

تفيد هذه الآية أنه تعالى لا يقسم بهذا البلد الذي هو مكة المكرمة، مع أنه تعالى أقسم بها في قوله: ﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾[٢].

فما وجه التوفيق بين الآيتين؟

نقول: يرى الجمهور أن ﴿لَآ﴾ هنا صلة على عادة العرب فإنها ربما لفظت بلفظ دون قصد معناها الأصلي، بل لمجرد تقوية الكلام وتوكيده كقوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي﴾[٣]. يعني: أن تتبعني، وقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ﴾[٤]. أي أن تسجد على أحد القولين[٥].

قال السيوطي في الإتقان: في هذا الباب قال الخطابي: سمعت ابن أبي هريرة يحكي عن ابن عباس بن سريح قال: سأل رجل بعض العلماء عن قوله: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾. فأخبر أنه لا يقسم به ثم أقسم به في قوله: ﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾. فقال: أيهما أحب إليك؟ أجيبك ثم أقطعك أو أقطعك ثم أجيبك؟ فقال له: اعلم أن هذا القرآن نزل على رسول الله ﷺ بحضرة رجال،

(١) سورة البلد، آية ١.

(٢) سورة التين، آية ٣.

(٣) سورة طه، الآيتان ٩٢، ٩٣.

(٤) سورة الأعراف، آية ١٢.

(٥) دفع إيهام الاضطراب ص ٣٢١.

وبين ظهراني قوم كانوا أحرص الخلق على أن يجدوا فيه مغمزًا، وعليه مطعنًا، فلو كان هذا عندهم مناقضة لتعلقوا به، وأسرعوا بالرد عليه، ولكن القوم علموا وجهلت، ولم ينكروا منه ما أنكرت، ثم قال له: إن العرب قد تدخل - لا - في أثناء كلامهم وتلغي معناها..[1] وبذلك يكون قد تم التوفيق والجمع بين الآيتين.

١٠٦- دلالة لفظ مسكين مقيدة وغير مقيدة:

قوله تعالى: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾[2].

يدل ظاهر هذه الآية أن المسكين لاصق بالتراب ليس عنده شيء، فهو أشد فقرًا من مطلق الفقر، بينما جاءت آيات أخر بخلاف ذلك كقوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾[3]. فهؤلاء لهم سفينة، وأطلق عليهم مساكين.

فما وجه التوفيق بين الآيتين؟

نقول: إن لفظ مسكين إذا قيد بمن كان معدمًا كآية البلد، فذلك يعلم من القيد الزائد لا من مطلق لفظ المسكين، وإذا لم يقيد بأن كان عنده شيء لا يكفيه فيطلق عليه أيضًا مسكين فلا منافاة، وأما آية الكهف فقد قال فيها المفسرون: إنهم كانوا أجراء وليست ملكًا لهم، أو كانت مستأجرة، أو إن إطلاق مسكين عليهم ترحمًا لضعفهم وحالهم، وقد عقب الشنقيطي على هاتين الآيتين بعد سرده للأقوال التي قيلت في المراد بالمساكين في آية الكهف بقوله: «والذي يتبادر إلى أذن المنصف أن مجموع الآيتين على أن لفظ مسكين مشكك لتفاوت أفراده فيصدق بمن عنده ما لا يكفيه، بدليل آية الكهف، ومن هو لاصق بالتراب ما لا شيء عنده، بدليل آية البلد، كاشتراك الشمس والسراج في النور مع تفاوتهم.. والمشكك إذ أطلق ولم يقيد بوصف الأشد به انصرف إلى مطلقه، هذا ما ظهر. والعلم عند الله تعالى»[4].

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ٣/ ٨٨.

(٢) سورة البلد، آية ١٦.

(٣) سورة الكهف، آية ٧٩.

(٤) دفع إيهام الاضطراب ص ٣٢٧، ٣٢٨ بتصرف.

سورة الشمس

١٠٧- العبد بين الجبر والاختيار:

قوله تعالى: ﴿فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا﴾(١).

تدل هذه الآية على أن الله تعالى هو الذي يجعل الفجور والتقوى في القلب، وقد جاءت آيات أخر تدل على أن فجور العبد وتقواه باختياره ومشيئته لقوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾(٢). وقوله تعالى: ﴿ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾(٣).

قال الشنقيطي في هذه المسألة: وهذه المسألة التي ضل فيها القدرية والجبرية. أما القدرية فضلوا بالتفريط، حيث زعموا أن العبد يخلق أفعاله استقلالًا من غير تأثير لقدرة الله فيه، وأما الجبرية فضلوا بالإفراط، حيث زعموا أن العبد لا عمل له أصلًا، حتى يؤخذ به، وبغير ذلك قال أهل السنة والجماعة، فلم يُفرِطوا - ولم يُفرِّطُوا - فأثبتوا للعبد أفعالًا اختيارية، ومن الضروري عند جميع العقلاء أن الحركة الارتعاشية ليست كالحركة الاختيارية، وأثبتوا أن الله خلق كل شيء فهو خالق العبد، وخالق قدرته وإرادته، وتأثير قدرة العبد لا يكون إلا بمشيئة الله تعالى، فالعبد وجميع أفعاله بمشيئة الله تعالى، ومع أن العبد يفعل اختيارًا بالقدرة والإرادة اللتين خلقهما الله فيه فعلًا واختيارًا يثاب عليه ويعاقب، فلا مشيئة للعبد إلا مشيئة الله، فكل شيء صادر عن قدرته ومشيئته جل وعلا، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾(٤).

---

(١) سورة الشمس، آية ٨.

(٢) سورة فصلت، آية ١٧.

(٣) سورة البقرة، آية ١٣.

(٤) سورة الإنسان، آية ٣٠.

ويقول: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1].

وأما على قول من فسر الآية بأن المعنى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ أنه بيَّن لها طريق الخير وطريق الشر، فلا إشكال في الآية.

يقول أبو السعود: «أي: أفهمها إياهما وعرفها حالهما من الحسن والقبح وما يؤدي إليه كل منهما، ومكنها من اختيار أيهما شاءت»[2] . وبذلك يتم التوفيق بين الآيات.

* * * *

(١) سورة الأنعام، آية ١٤٩، وانظر: دفع إيهام الاضطراب ص ٣٣٠ بتصرف.

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٩/ ١٦٤.

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ

١٠٨- محاسبة المؤمنين وغير المؤمنين على أعمالهم:

قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾(١).

تدل هذه الآية على أن كل إنسان يجازى على عمله قليلًا كان أو كثيرًا، مسلمًا كان أو كافرًا، وقد جاءت آيات تدل على خلاف هذا العموم كقوله في الكفار: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٢). وقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾(٣). وقوله: ﴿أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾(٤). وغير ذلك من الآيات، وأما بالنسبة للمسلم وما يعمله من عمل شر فقد صرحت الآيات باحتمال مغفرته كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾(٥). وقوله: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾(٦).

فما وجه التوفيق بين هذه الآيات؟

نقول: إن آية الزلزلة من العام المخصوص، والمعنى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا

---

(١) سورة الزلزلة، الآيتان ٧، ٨.

(٢) سورة هود، آية ١٦.

(٣) سورة الفرقان، آية ٢٣.

(٤) سورة إبراهيم، آية ١٨.

(٥) سورة النساء، آية ٤٨، وآية ١١٦.

(٦) سورة النساء، آية ٣١.

يَـرَهُۥ﴾. إن لم يحبطه الكافر، بدليل آيات إحباط الكفر عمل الكفار، وقوله: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَـرَهُۥ﴾. إن لم يغفره الله، بدليل آيات احتمال الغفران والوعد به، وأيضًا قد تكون الآية على عمومها، ويكون معناها أن المؤمن يرى كل ما قدم من خير وشر، فيغفر الله له الشر ويثيبه على الخير، والكافر يرى كل ما قدم من عمل فيحبط ما قدم من خير، ويجازى بما فعل من شر، وأيضًا قد تكون على عمومها، وأن الكافر يرى جزاء كل عمله الحسن في الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا﴾[1]. وقوله: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾[2]. والمؤمن يرى جزاء عمله السيئ في الدنيا بالمصائب والابتلاءات[3]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: **«ليس من مؤمن ولا كافر عمل خيرًا أو شرًّا إلا أراه الله تعالى إياه، أما المؤمن فيغفر له سيئاته ويثيبه بحسناته، وأما الكافر فيرد حسناته تحسرًا ويعاقبه بسيئاته»**[4]. وبذلك يتم التوفيق بين الآيات.

وذكر الألوسي المسألة مفصلة فقال ضمن ما قال: «فقد التزم بعضهم كون المراد (بمن) الأولى السعداء، (وبمن) الثانية الأشقياء بناء على أن ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ﴾.. إلخ تفصيل لـ﴿يَصۡدُرُ ٱلنَّاسُ أَشۡتَاتٗا﴾. ويناسب قوله: ﴿فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾[5]. فالمناسب أن يرجع كل فقرة إلى فرقة ليطابق المفصل المجمل، ولأن الظاهر من قوله: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ﴾﴿وَمَن يَعۡمَلۡ﴾ بتكرير أداة الشرط يقتضي التغاير بين العاملين»[6].. وقال آخرون بالعموم. بما أوضحناه آنفًا فقد أخرج الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب عن أنس رضي الله عنه قال: بينما أبو بكر الصديق رضي الله عنه يأكل مع النبي ﷺ إذ نزلت عليه: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَـرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَـرَهُۥ﴾ الآية. فرفع أبو بكر يده، وقال: يا رسول الله، إني لراءٍ ما عملت من مثقال ذرة من شر؟ فقال - عليه الصلاة والسلام -: «يا أبا بكر أرأيت

(١) سورة هود، آية ١٥.

(٢) سورة النور، آية ٣٩.

(٣) دفع إيهام الاضطراب ص ٣٤١.

(٤) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ٧/ ٤٧.

(٥) سورة النور، آية ٣٩.

(٦) الدر المنثور ٨/ ٥٩٥.

ما ترى في الدنيا مما تكره فبمثاقيل ذر الشر، ويدخره لك مثاقيل ذر الخير، حتى توفاه يوم القيامة»[١].

وفي رواية ابن مردويه عن أبي أيوب رضي الله عنه أنه ﷺ قال له إذ رفع يده: «من عمل منكم خيرًا فجزاؤه في الآخرة، ومن عمل منكم شرًّا يره في الدنيا مصيبات وأمراضًا، ومن يكن فيه مثقال ذرة من خير دخل الجنة»[٢]. والله أعلم. وبذلك يتم الجمع والتوفيق بين الآيات وتزول شبهة إيهام التعارض.

****

(١) المرجع السابق ٨/ ٨٩٣.

(٢) المرجع السابق ٨/ ٥٩٤.

خاتمة البحث

تمت بحمد الله وتوفيقه الكتابة في هذا البحث المفيد، وإزالة ما ظاهره التعارض في الآيات التي تضمنها البحث، وهي عبارة عن مائة وثمانية مواضع مستوفاة، وموضحًا الآيات في سورها، وموفقًا بينها بما يزيل اللبس.

وبعد: فهذا جهد المقل، فإن كنت قد أصبت الحق، فبفضل الله وكرمه، وإن أخطأت فمني ومن الشيطان، وأستغفر الله.

ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربنا إنك غفور رحيم، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين.

الأنباء في ضوء القرآن والسنة
وموقف المجتمع منها قبولاً ورفضاً

مقدمة

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق هاديًا ورحيمًا، وأنزل القرآن عليه بشيرًا ونذيرًا؛ قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾(١).

وتفضل على هذه الأمة التي وصفها بالخيرية فقال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾(٢). ووصفها بالوسطية فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾(٣). وامتن بخاتم الأنبياء والمرسلين فقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾(٤).

والصلاة والسلام على رسوله الأمين محمد بن عبد الله، أدى الرسالة، وبلغ الأمانة، ونصح الأمة، وتركها على المحجة البيضاء ليلُها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

لقد كان فضل الله تعالى وإعانته لنا أن وفقنا في اختيار موضوع عن **(الأنباء في ضوء القرآن والسنة)** وهو المنهل العذب، والجديد الغض، الذي لا تنقضي عجائبه، أنزله سبحانه وتعالى ليكون للأمة الإسلامية دستورها الخالد، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وإذا كان القرآن كذلك فإن من أسرار إعجازه، أن كل جيل من الأجيال، وكل أمة من الأمم، تجد فيه طلبتها والعلاج الناجح لكل مشاكلها.

---

(١) سورة النساء، آية ١١٣.

(٢) سورة آل عمران، آية ١١٠.

(٣) سورة البقرة، آية ١٤٣.

(٤) سورة آل عمران، آية ١٦٤.

ولهذا كان هذا الموضوع من الموضوعات التي لم يتطرق إليها باحث بهذه الشمولية والإحاطة.

ولا ننكر أن الكثير من علماء الأمة بعامة، وعلماء التفسير بخاصة قد تناولوا آيات الأنباء بالتفسير والتأويل متفرقات غير مجتمعات، ومنفصلات غير مترابطات، أما بهذه الصورة المتكاملة، والمحيطة بكل جزئياته فنحسب - والله عليم خبير - أننا لم نُسبق إليه.

نرجو من الله تعالى أن يكتبه في أعمالنا يوم تعرض الأعمال، وتُجزى كل نفس بما كسبت، وأن ينفع به خاصة المسلمين وعامتهم، إنه سميع قريب، يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، هذا وبالله التوفيق.

****

النبأ لغة واصطلاحًا

ما النبأ في ضوء القرآن والسنة..؟

أهو الخبر الذي يذاع وينشر بين أفراد المجتمع..؟

أهو العلم النَّافع الذي يثري الحياة ويطور المعرفة، وينقل المجتمع إلى رحاب الإيمان والأخلاق..؟

أهو القرآن الكريم: حبل الله المتين، والذكر الحكيم، والصراط المستقيم، من قال به صدق، ومن عمل به أُجر، ومن حكم به عدل..؟

إن علماء الأصول يقولون: إن العلم بالشيء فرع عن تصوره، لهذا يطيب لنا أن نقطع رحلة متأنية مع علماء اللغة، وعلماء الشرع حتى يتبين لنا حقيقة النبأ كما جاء في محكم كتابه، وفي هدي رسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

أ- تعريف النبأ في اللغة:

يقال: نبأ الشيء نبئًا ونبوءًا: ارتفع وظهر. ونبأ على القوم: طَلَعَ عليهم وهجم، وأنبأه الخَبَرَ وبالخبرِ: أخبره.

وتنبأ: ادعى النبوة، وتنبأ بالأمر أخبر به قبل وقته.

والأنباء: جمع نبأ، والنبأ الخبر. يقال: نبأ وأنبأ: أي أخبر[1].

أنبأته بكذا أي أخبرته به، ويتضمن أيضًا معنى العلم، يقال: أنبأته كذا أي أعلمته كذا.

(١) لسان العرب لابن منظور مادة: (ن ب أ)، والمفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص ٤٨١.

ب- تعريف النبأ في الاصطلاح:

النبأ: خبر له قدر كبير وشأن خطير يحصل به عِلْم أو غلبة ظن، ويترتب عليه أثر عظيم.

والنبوءة: الإخبار عن الشيء قبل وقته حزرًا وتخمينًا، وسمي النبيّ نبيًّا؛ لأنه ينبئ عن الله عز وجل، أي: يخبر عنه.

قال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1]. وعلى هذا فهو فعيل بمعنى فاعل. وقال تعالى: ﴿نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾[2]. وعلى هذا فهو فعيل بمعنى مفعول، وجمع النبي أنبياء ونُـبَّاء؛ قال العباس بن مرداس:

يَا خَاتَمَ النُّبَّاءِ إِنَّكَ مُرْسَلٌ   بِالحَقِّ كُلُّ هُدَى السَّبِيلِ هُدَاكَا

والنبوءة: سفارة بين الله عز وجل وبين ذوي العقول لإزالة عللهم في أمر معادهم ومعاشهم[3]. وإذا كان الأمر كذلك. فما معنى النبأ في منهج القرآن الكريم..؟

معاني النبأ في كتاب الله تعالى:

إن القارئ لكتاب الله تعالى يرى أن النبأ قد ورد في آياته البينات على وجوه كثيرة:

أولًا: يأتي بمعنى العلم

لقد جاء النبأ بمعنى العِلْم الذي مصدره الوحي؛ قال الله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾[4].

وكان هذا من علم الغيب خُصَّ به يوسف عليه السلام، وبين أن الله تعالى خَصَّه به؛ لأنه ترك ملة قوم لا يؤمنون بالله ويتبعون معتقد الملك؛ لهذا فهو لا يخبر به تكهنًا ولا تنجيمًا، بل

(١) سورة الحجر، آية ٤٩.

(٢) سورة التحريم، آية ٣.

(٣) وتبدل الهمزة واوًا وتدغم فيقال: النبوة، والنبيء: المخبر عن الله عز وجل تبدل الهمزة ياء وتدغم فيقال النبي.

(٤) سورة يوسف، آية ٢٧.

هو وحي من الله عز وجل [1].

وهكذا يكون حال من سلك طريق الهدى واتبع طريق المرسلين وأعرض عن طريق الضالين، فإن الله يهدي قلبه، ويعلمه ما لم يكن يعلم، ويجعله إمامًا يُقتدى به في الخير، وداعيًا إلى سبيل الرشاد.

ومثله قوله تعالى: ﴿قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾[2]. أي: لا يقع تصديق لكم؛ لأن الله تعالى قد أعلمنا بالوحي ما هو مناف لصدق اعتذاركم.

ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾[3].

والوحي في أصل اللغة: إعلام في خفاء، ولذلك صار الإلهام يسمى وحيًا، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي ﴾[4]. وقوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾[5].

والعلم الذي يكتسبه الإنسان من النبأ يأتي على قسمين:

الأول: إدراك ذات الشيء.

الثاني: الحكم على الشيء بوجود شيء هو موجود له، أو نفي شيء هو منفي عنه.

فالأول: هو المتعدي إلى مفعول واحد؛ قال تعالى: ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾[6].

والثاني: المتعدي إلى مفعولين نحو قوله تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ﴾[7]. وقوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٩ / ١٩١.

(٢) سورة التوبة، آية ٩٤.

(٣) سورة آل عمران، آية ٤٤.

(٤) سورة المائدة، آية ١١١.

(٥) سورة النحل، آية ٦٨.

(٦) سورة الأنفال، آية ٦٠.

(٧) سورة الممتحنة، آية ١٠.

ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ قَالُواْ لَا عِلۡمَ لَنَآ﴾(1). إشارة إلى أن عقولهم قد طاشت.

ثانيًا: يأتي النبأ بمعنى التأويل.

قال الله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا﴾(2).

والتأويل: أصل من الأول وهو الرجوع ومنه الموئل: للموضع الذي يرجع إليه، وذلك هو رَدُّ الشيء إلى الغاية المرادة منه علمًا كان أو فعلًا، ففي العلم نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾(3).

وفي الفعل كقول الشاعر(4):

وَلِلنَّوى قَبْلَ يَوْمِ البَيْنِ تَأْوِيلُ

وقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ﴾(5). أي غايته.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾(6). أي: أحسن معنى وترجمة، وقيل: أحسن ثوابًا في الآخرة.

ولقد أخبره بأن رحمة الله تعالى هي التي اقتضت هذا التصرف، فهو أمر الله تعالى لا أمره؛ لأن الله تعالى هو الذي أطلعه على الغيب وأمره أن يعيب السفينة، ويقتل الغلام ويقيم الجدار ﴿رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ﴾(7).

لهذا جاء الخبر عن طريق التأويل وانكشف السِّتر عن حكمة ذلك التصرف، كما انكشف عن غيب الله الذي لا يُطلعُ عليه أحدًا إلا من ارتضى؛ قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ

(1) سورة المائدة، آية ١٠٩.

(2) سورة الكهف، آية ٧٨.

(3) سورة آل عمران، آية ٧.

(4) هو عبدة بن الطبيب، والبيت في ديوانه.

(5) سورة الأعراف، آية ٥٣.

(6) سورة النساء، آية ٥٩.

(7) سورة الكهف، آية ٨٢.

غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾[1].

ثالثًا: بمعنى الخبر.

قال الله تعالى: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[2].

أي: أخبركم بما أكل أحدكم الآن، وما هو مدخر له في بيته لغد.

وقال سعيد بن جبير: كان يخبر الصبيان في الكُتّاب بما يدخرون، عندها مُنع الأبناء من الجلوس معه.

ومثله قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾[3]. أي أخبركم بشر مما قلتموه وهو: (ما نعرف دينًا شرًّا من دينكم).

إنهم يحاربون المسلمين منذ أن قام للمسلمين كيان في المدينة، وتميزت لهم شخصية، وأصبح لهم وجود مستقل، ناشئ من دينهم في ظل منهج الله الفريد.

إنهم يشنّون على المسلمين هذه الحرب لأنهم مسلمون، ولا يمكن أن يطفئوا هذه الحروب إلا بأن يردوا المسلمين عن دينهم فيصبحوا غير مسلمين.

قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[4].

ويرد المسلمين عليهم بقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾[5].

فمن هؤلاء..؟

---

(١) سورة الجن، الآيتان ٢٦، ٢٧.

(٢) سورة آل عمران، آية ٤٩.

(٣) سورة المائدة، آية ٦٠.

(٤) سورة البقرة، آية ١٤٠.

(٥) سورة المائدة، آية ٥٩.

إنهم الذين لعنهم الله، وغضب عليهم، وجعل منهم القردة والخنازير.

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ﴾. أي: أخبركم بأكبر من نقمة أهل الكتاب على المسلمين، وما يكيدون لهم وما يؤذونهم بسبب إيمانهم، إنها نقمة الله تعالى عليهم حيث جعل منهم القردة والخنازير وعبدة الطاغوت ﴿أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾(١).

رابعًا: يتضمن معنى التهكم والسخرية:

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾(٢).

أي نرشدكم إلى رجل يقول لكم: إنكم تبعثون بعد البلى في القبور وهذا صادر عن فرط إنكاركم. لهذا قالوا: هل ندلكم على رجل عجيب غريب ينطق بقول منكر بعيد، حتى ليقول: إنكم بعد الموت والبلى والتمزق الشديد تخلقون من جديد وتعودون للوجود.

وهذا راجع لإنكارهم القيامة وقضية البعث كما قص الله تعالى مقولتهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾(٣). ثم يمضون في العجب والتهكم والاستنكار والتشهير فيقولون: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ﴾(٤).

خامسًا: بمعنى القرآن الكريم:

قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾(٥).

يقول ابن كثير: أي خبر عظيم، وشأن بليغ، وهو إرسال الله تعالى إياي إليكم. ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾. أي: غافلون(٦).

---

(١) سورة المائدة، آية ٦٠.

(٢) سورة سبأ، آية ٧.

(٣) سورة سبأ، آية ٣.

(٤) سورة سبأ، آية ٨.

(٥) سورة ص، الآيتان ٦٧، ٦٨.

(٦) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٦.

قال مجاهد وشريح القاضي: والذي في قوله عز وجل: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ﴾. يعني: القرآن الكريم [١]. ومثله قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ① عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾[٢].

فالقرآن نبأ وخبر وقصص وهو مما لا مراء ولا جدال فيه: نبأ عظيم الشأن.

ويؤيده قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ⑧⑦ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾[٣]. أي: صدق ما جاء به القرآن الكريم.

يقول صاحب **الظلال**: «وإنه لأمر أعظم من ظاهره القريب، إنه أمر من أمر الله تعالى في هذا الوجود كله، إنه قدر من قدر الله في نظام الوجود ليس منفصلًا ولا بعيدًا عن شأن السماوات والأرض وشأن الماضي السحيق والمستقبل البعيد.

ولقد جاء هذا النبأ العظيم ليتجاوز قريشًا في مكة والعرب في الجزيرة، ليؤثر في مستقبل البشرية كلها في جميع أعصارها وأقطارها، وكيف تكون مصائرها منذ نزوله إلى الأرض إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وقد نزل في أوانه المقدر له ليؤدي دوره في هذا الوقت الذي قدره الله له.

ولقد حول خط سير البشرية إلى الطريق الذي خطته يد القدرة بهذا النبأ العظيم، سواء في ذلك من آمن به، ومن صد عنه ، ومن جاهد معه ومن قاومه، ولم يمر بالبشرية في تاريخها كله حادث أو نبأ ترك فيها من الآثار ما تركه هذا النبأ العظيم.

لقد جاء هذا النبأ العظيم ليغير وجه الأرض، ويوجه سير التاريخ، ويحقق قدر الله في مصير هذه الحياة ويؤثر في ضمير البشرية وفي واقعها، وأنه ماض كذلك إلى يوم القيامة يؤدي دوره في توجيه أقدار الناس وأقدار الحياة»[٤].

فمتى يعي المسلمون هذا، ويعودون إلى كتاب ربهم ليُحَكِّموه في شئونهم كلها الكثير

(١) المصدر السابق ٤/٤٦.

(٢) سورة النبأ، الآيتان ١ - ٢.

(٣) سورة ص، الآيتان ٨٧، ٨٨.

(٤) راجع في ظلال القرآن، لسيد قطب ٧/ ١٠٨ بتصرف.

والقليل؟

متى يكون هذا الكتاب دستورهم في عصرهم هذا حتى يعودوا لسابق عهدهم. يمدون الدنيا، ويهذبون العالم، ويقرون الحق للبشرية كلها؟

متى يتم هذا إنا لمنتظرون..؟

سادسًا: يأتي بمعنى العذاب:

قال الله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾[1]. أي: العذاب الذي سيقع بهم.

ومثله قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾[2]. أي: يأتيهم عاقبة ما كذبوا به، أو الذي استهزءوا به. وهو تهديد مضمر مجمل مهول، وفي التعبير سخرية تناسب استهزاءهم بالوعيد ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾[3].

سيأتيهم أخبار العذاب الذي يستهزئون به، وهم لن يتلقوا أخبارًا، إنما سيذوقون العذاب ذاته ويصبحون هم أخبارًا فيه، يتناقل الناس ما حلَّ بهم منه، ولكنهم يستهزئون فيستهزأ بهم مع التهديد القريب.

وإذا كانت هذه بعض المعاني التي جاءت في كتاب الله تعالى وبعض الوجوه عن الأنباء. فإنه يطيب لنا أن نقسم الأنباء حسب مصدرها الذي جاءت منه.

أقسام الأنباء من حيث المصدر:

يرى علماء التفسير أنَّ الأنباء تنقسم بحسب مصادرها والمنابع التي تُستقى منها إلى قمسين:

القسم الأول: ما يكون يقينًا صادقًا عاريًا عن الكذب، وذلك كأخبار الله عز وجل وأخبار

(١) سورة الأنعام، آية ٥.

(٢) سورة الشعراء، آية ٦.

(٣) سورة الشعراء، آية ٦.

رسوله ﷺ والأخبار المتواترة أيضًا؛ من ذلك قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾[١].

والقص: الإخبار بأمر يسرد لا بكلام يروى شيئًا فشيئًا؛ لأن تلك المخاطبة ليست بقصص. وقوله تعالى: ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾. أي: يسرناهم للعمل الصالح والانقطاع إلى الله عز وجل، ومباعدة الناس والزهد في الدنيا.

ولهذا يقول الألوسي عند تفسيره لهذه الآية: «أي: نقص قصصًا ملتبسًا بالحق، أو نقصه ملتبسين به، أو نقص نبأهم ملتبسًا به أو نبأهم الملتبس به»[٢].

وهذا القسم من الأنباء قد ثبت بالأدلة العقلية والنقلية التي توجب تصديقها والتسليم بها والانقياد لها، وعدم التعدي عليها أو التفريط فيها؛ لأن المدار فيها على الوحي المنزل من لدن حكيم عليم. والمبلغ له الصادق الأمين الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، وكذلك الأخبار المتواترة التي جاءت عن جمع عرفوا بالصدق والأمانة. ولقد خصت الأمة الإسلامية بالأسانيد والمحافظة عليها حفظًا للوارد من دينها عن رسول الله ﷺ، وليست هذه الميزة عند أمة من الأمم السابقة[٣].

ومثله قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[٤].

أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: **«نحن - معاشر الأنبياء - إخوة لعلات، ديننا واحد»**[٥]. يعني بذلك التوحيد الذي بعث الله

(١) سورة الكهف، آية ١٣.

(٢) راجع روح المعاني ١٥/ ٢١٦.

(٣) راجع الملل والنحل لابن حزم ٢/ ٨١، ٨٤.

(٤) سورة المائدة، آية ٤٨.

(٥) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء ٤٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل ١٤٣، وأبو داود في سننه، كتاب السنة ١٢.

به كل رسول أرسله، وضمنه كل كتاب أنزله، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[2].

وأما الشرائع فمختلفة في الأوامر والنواهي، فقد يكون الشيء في هذه الشريعة حرامًا، ثم يحل في الشريعة الأخرى وبالعكس، وخفيفًا فيزداد في الشدة في هذه دون هذه؛ وذلك لما له تعالى في ذلك من الحكمة البالغة والحجة الدامغة.

قال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة: قوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[3]. يقول: سبيلًا وسنة، والسنن مختلفة، هي في التوراة شريعة، وفي الإنجيل شريعة، وفي الفرقان شريعة، يحل الله فيها ما يشاء، ويحرم ما يشاء؛ ليعلم من يطيعه ممن يعصيه، والدين الذي لا يقبل الله غيره: التوحيد[4].

ولهذا نجد الأنبياء جميعًا كانت دعوتهم إلى التوحيد الخالص؛ فنوح عليه السلام يقول لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾[5]. وصالح عليه السلام يقول لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾[6]. وهود عليه السلام يقول لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾[7]. وكذا كل الأنبياء وكل الرسل.

القسم الثاني: هو الذي لا يُعْلَم صِدْقُه أو كذبه إلا بعد التثبت والتوقف؛ امتثالًا لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾[8].

(١) سورة الأنبياء، آية ٢٥.

(٢) سورة النحل، آية ٣٦.

(٣) سورة المائدة، آية ٤٨.

(٤) راجع: تفسير ابن كثير ٢/ ٧١.

(٥) سورة الأعراف، آية ٥٩.

(٦) سورة الأعراف، آية ٧٣.

(٧) سورة الأعراف، آية ٦٥.

(٨) سورة الحجرات، آية ٦.

وللعلماء في هذا القسم من الأنباء قولان:

الأول: أنه يجب التوقف فيه حتى يثبت الأمر وتبين الحقيقة، كما قص الله تعالى عن واقعة الهدهد مع نبي الله سليمان عليه السلام حينما قال له: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾[1]. عندها لم يقبل سليمان عليه السلام مقولة الهدهد قضية مسلمة أو خبرًا صادقًا، ولكنه قال: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[2].

إنه هدهد عجيب، صاحب إدراك وذكاء وإيمان وبراعة في عرض النبأ، وصاحب يقظة إلى طبيعة موقفه وتلميحٍ وإيماءٍ أريب، فهو يدرك أنَّ هذه ملكة ، وأن هؤلاء رعية، ويدرك أنهم يسجدون للشمس من دون الله، ويدرك أن السجود لا يكون إلا لله الذي يُخرِج الخبء في السماوات والأرض، وأنه هو رب العرش العظيم. ومع هذا كله رأى سليمان عليه السلام أنه لا بد من التثبت والتيقن في قبول النبأ الذي جاء به.

ومثاله ما أخرجه البخاري في الصحيح عن المسور بن مخرمة حين استشار عمر رضي الله عنه الناس في إملاص[3] المرأة - وهي التي تضرب بطنها فتلقي جنينها - فقال المغيرة بن شعبة رضي الله عنه: شهدت النبي ﷺ قضى فيه بغرة أو أمة.

فقال عمر: ائتني بمن يشهد معك؟

قال: فشهد له محمد بن سلمة رضي الله عنه.

وفي رواية: فقال: لا تبرح حتى تأتي بالمخرج من ذلك.

يقول المغيرة: فخرجت فوجدت محمد بن سلمة فجئت به فشهد[4].

(١) سورة النمل، آية ٢٢.

(٢) سورة النمل، آية ٢٧.

(٣) الإملاص: السقط؛ أي إسقاطها الجنين.

(٤) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتصام ١٣، ومسلم في صحيحه، كتاب القسامة ٣٦، وأبو داود في سننه، كتاب النكاح ١١، والترمذي في سننه، كتاب الرضاع ٦، والديات ١٥، وأحمد بن حنبل في المسند ٢/ ٤٨.

يقول المراغي عند تناوله لهذه الآية: أي قال له سليمان: سنختبر مقالك، ونتعرف على حقيقة خبرك بالامتحان أصادق أنت فيما تقول، أم كاذب فيه لتتخلص من الوعيد...؟[1].

الرأي الثاني: أنه لا يتوقف في قبول النبأ؛ لأن التبين والتثبت مقيد بكون الناقل فاسقًا، فإذا انتفى القيد فلا حَرَج. وقد استدل أصحاب هذا الرأي بالآية على وجوب العمل بخبر الواحد إذا كان عَدْلًا، من حيثُ إنَّ الله تعالى أوجب التوقف في خبر الفاسق؛ فدل على أن خبر العدل لا يجب التوقف فيه.

نقول ذلك؛ لأن الأصل في الجماعة الإسلامية أن يكون أفرادُها موضعَ ثقتها، وأن تكون أنباؤهم مصدقة مأخوذًا بها. أما الفاسق، فهو موضع الشك حتى يثبت صدق خبره، وبذلك يستقيم أمر الجماعة وسطًا بين الأخذ والرفض لما يصل إليها من أنباء.

وأما أصحاب القول الأول فيرون أن في الآية دلالة على أن خبر الواحد لا يوجب العلم ولا العمل؛ لأن المعنى: «إن جاءكم من لا تأمنون أن يكون خبره كاذبًا فتوقفوا فيه، وهذا التعليل موجود في خبر من يجوز كونه كاذبًا في خبره».

ويترتب على هذين القولين إما قبول النبأ والإيمان به وإذاعته، وإما الإمساك عنه ورده وعدم التحدث به.

وإذا كان الأمر كذلك فهل هناك فرق بين النبأ والخبر أو أن كل خبر هو نبأ...؟

الفرق بين النبأ والخبر:

يقول صاحب الفروق اللغوية:

إن النبأ لا يكون للإخبار بما لا يعلمه المخبر، ويجوز أن يكون المخبر بما يعلمه وبما لا يعلمه.

ولهذا يقال: تخبرني عن نفسي ولا يقال: تنبئني عن نفسي.

وكذلك تقول: تخبرني عما عندي، ولا تقول: تنبئني عما عندي.

(١) تفسير المراغي لأحمد مصطفى المراغي ١٩/ ١٣٤.

قال الله تعالى: ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾[1].

وإنما استهزءوا به لأنهم لم يعلموا حقيقته، ولو علموا ذلك لَتَوَقَّوه - يعني العذاب الذي يحل بهم - وقال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ﴾[2]. وكان ﷺ لا يعرف شيئًا منها.

وقال علي بن عيسى[3]: في النبأ معنى عظيم الشأن، وكذلك أخذ منه صفة النبي ﷺ.

وقال أبو هلال العسكري: «ولهذا يقال: سيكون لفلان نبأ، ولا يقال: خبر»[4].

وقال الزجاج في قوله تعالى: ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾. أنباؤه: تأويله، والمعنى: سيعلمون ما يؤول إليه استهزاؤهم.

قلنا: وإنما يطلق عليه هذا لما فيه من عظم الشأن.

قال أبو هلال: والإنباء عن الشيء أيضًا قد يكون بغير حمل النبأ عنه. تقول: هذا الأمر ينبئ بكذا، ولا تقول: يخبر بكذا؛ لأن الأخبار لا يكون إلا بحمل الخبر.

ويقول صاحب المفردات: النبأ: خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن، ولا يقال للخبر في الأصل نبأ حتى يتضمن هذه الأشياء الثلاثة[5].

ولهذا يقال: إن بينهما عموم وخصوص.

ومن هنا قال صاحب البصائر: «الخُبْر - بالضم - العلم بالشيء». قال الله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾[6].

---

(١) سورة الشعراء، آية ٦.

(٢) سورة هود، آية ١٠٠.

(٣) هو علي بن عيسى بن الفرج أبو الحسن الربعي عالم بالعربية له تصانيف، منها كتاب في البديع وشرح الإيضاح لأبي علي الفارسي والتنبيه على خطأ ابن جني، توفى عام ٤٢٠هـ. تاريخ العلماء النحويين للتنوخي ص ٢٠.

(٤) راجع الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري ص ٢٩.

(٥) راجع: المفردات في غريب القرآن للراغب ص ٤٨١.

(٦) سورة الكهف، آية ٦٨.

«ويقال: صدق الخبر الخبر، ويقال: لأخبرن خبرك؛ أي: لأعلمن علمك»[1]. ويقول الرجل للرجل إذا توعده: لأنبئنك ولأعرفنك. ونبَّأْتُه أبلغ من أنبأته في الإخبار وأوكد، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾[2]. ولم يقل: أنبأني. بل عدل إلى (نبّأ) الذي هو أبلغ تنبيهًا على تحقيقه وكونه من قبل الله تعالى.

وإذا كان الأمر كذلك، فمن الضروري أن نتعرف على الأسس والقواعد التي يجب أن يتمسك بها المجتمع الإسلامي حال تلقيه للأنباء.

* * * *

(١) راجع: بصائر ذوى التمييز للفيروز آبادي ٢/ ٥٢٣.

(٢) سورة التحريم، آية ٣.

ضوابط تلقي الأنباء في المجتمع الإسلامي

المجتمع الإسلامي مجتمع طاهر الباطن والظاهر:

فهو طاهر الباطن؛ لأنَّه أبعد ما يكون عن أمراض القلب من الحقد والغل والحسد والتجسس والغيبة والنميمة؛ ولأنه أنس بحب الله تعالى. يقول الله سبحانه في محكم كتابه عن أفراد هذا المجتمع: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا﴾[1].

وطاهر الظاهر؛ لأن المسلمين يتطهرون خمس مرات في اليوم، فعن عقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه قال: كانت علينا رعاية الإبل، فجاءت نوبتي أرعاها فروحتها بالعشي، فأدركت رسول الله ﷺ قائمًا يحدث الناس، وأدركت من قوله: «**ما من مسلم يتوضأ فيحسن الوضوء، ثم يقوم فيصلي ركعتين يقبل عليهما بقلبه ووجهه إلا وجبت له الجنة**». فقلت ما أجود هذا؟ فإذا قائل بين يدي يقول: التي قبلها أجود. فنظرت فإذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: إني قد رأيتك جئت آنفًا. قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ الوضوء - أو يسبغ الوضوء - ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء**»[2].

فالمسلمون في المجتمع الإسلامي يطهرون أجسادهم بالماء فلا تمرض، ويطهرون أرواحهم بالصلاة فلا تنحرف[3]. قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَآءِ

---

(١) سورة الحجر، آية ٤٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ٣٤، كتاب الطهارة، باب الذكر المستحب عقب الوضوء، وأبو داود في سننه ١٦٩، ١٧٠، كتاب الطهارة، باب ما يقول الرجل إذا توضأ، والترمذي رقم ٥٥ في الطهارة، باب ما يقال بعد الوضوء، والنسائي ١/ ٩٢، ٩٣ في الطهارة، باب القول بعد الفراغ من الوضوء.

(٣) منهج القرآن في تربية الرجال لعبد الرحمن عميرة ص ١١٥.

﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾[1]. ويطهرون أموالهم بالزكاة فلا تنقص، قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[2].

وفي المجتمع الإسلامي الرفيع الكريم يعيش الناس آمنين على أنفسهم وعلى بيوتهم، آمنين على أسرارهم وعوراتهم، فالناس على ظواهرهم وليس لأحد أن يتعقب بواطنهم، وليس لأحد أن يظن أو يتوقع أو حتى يعرف أنهم يزاولون في الخفاء مخالفة ما فيتجسس عليهم ليضبطهم، وكل ما له أن يأخذهم بالجريمة عند وقوعها وانكشافها مع الضمانات الأخرى.

قال أبو داود: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، عن الأعمش، عن زيد بن وهب قال: أتي ابن مسعود رضي الله عنه فقيل له: هذا فلان تقطر لحيته خمرًا. فقال عبد الله: إنا قد نهينا عن التجسس، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به[3].

وروى الإمام أحمد بإسناده عن دجين كاتب عقبة قال: قلت لعقبة: إن لنا جيرانًا يشربون الخمر، وأنا داع لهم الشرط فيأخذونهم. قال: لا تفعل، ولكن عظهم. قال: ففعل فلم ينتهوا. قال: فجاءه دجين فقال: إني قد نهيتهم فلم ينتهوا، وإني داع لهم الشرط فيأخذونهم. فقال له عقبة: ويحك لا تفعل؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من ستر عورة مؤمن فكأنما استحيا موءودة من قبرها»**[4].

وإذا كان هذا في التجسس، فإن المجتمع الإسلامي يأخذ نفسه بالبعد عن الغيبة وتوابعها التزامًا بقول الله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾[5].

ويسري هذا النص في المجتمع الإسلامي فيتحول إلى سياج حول كرامة الناس وأعراضهم أن تمس أو أن ينال منها. وفي الحديث الذي أخرجه أبو داود بسنده عن أبي هريرة رضي

(١) سورة العنكبوت، آية ٤٥.
(٢) سورة التوبة، آية ١٠٣.
(٣) أخرجه أبو داود ٥/ ٢٠٠ ح ٤٨٩٠.
(٤) الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٤/ ١٤٧، ١٥٣، ١٥٨، ١٥٩ (حلبي).
(٥) سورة الحجرات، آية ١٢.

الله عنه قال: قيل: يا رسول الله، ما الغيبة؟ قال ﷺ: «**ذكرك أخاك بما يكره**». قال: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال ﷺ: «**إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته**»[1].

وأخرج أبو داود بإسناده عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**لما عرج بي مررت بقوم لهم أظافر من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم. قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لُحُومَ الناسِ ويقعون في أعراضهم**»[2].

وإذا كانت هذه صفات مجتمع المسلمين، مجتمع الترابط والتعاطف، مجتمع الإيمان والتقوى، فما موقف هذا المجتمع من تلقي الأنباء؟

نرى أن القرآن الكريم قد حسم هذه القضية بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾[3]. ومعنى الآية: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ﴾: الذي يخرج عن طاعة الله إلى معصيته، والفسق أعم من الكفر، ويقع على كثير الذنب وقليله، ومن هنا كان الكافر فاسقًا لإخلاله بما ألزمه العقل واقتضته الفطرة السليمة، قال تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾[4]. وقال: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾[5]. وقوله: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ﴾[6].

(1) الحديث أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب ٤٠، باب الغيبة ٤٨٧٤ بسنده عن أبي هريرة أنه قال: يا رسول الله ما الغيبة؟ وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب البر ح ٢٥٨٩ في تحريم الغيبة، والترمذي في سننه، كتاب البر، باب في الغيبة ح ١٩٣٥ وقال: هذا حديث حسن صحيح. ونسبه المنذري للنسائي.

(2) الحديث أخرجه أبو داود في كتاب الأدب برقم ٤٨٧٤ بسنده عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ، وذكره.

(3) سورة الحجرات، آية ٦.

(4) سورة النور، آية ٥٥.

(5) سورة المائدة، آية ٤٧.

(6) سورة السجدة، آية ١٨.

فإذا جاء لجماعة المسلمين من خرج عن طاعة الله إلى معصيته بنبأ عظيم، يترتب عليه إزهاق أرواح أو إيغار صدور المؤمنين، أو ما فيه تفرقة بين صفوفهم، فالواجب على هذه الجماعة أن تتبين حقيقة النبأ وأن تتثبت من صدقه، وأن تتريث عند الأخذ به حتى لا تندم على ما فعلت، أو أن تأخذ الناس بغير ما فعلوا، أو أن تعاقب من لا يستحق العقاب.

عندها سيكونون كأصحاب الحديقة الذين أعماهم الطمع والجشع عن التثبت: ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴾[١]. و لقد صدق الرسول ﷺ في قوله: **«التثبت من الله والعجلة من الشيطان»**[٢].

التثبت يكون القاعدة الصلبة للمجتمع الإسلامي إذا لجأ إلى الله تعالى، وعكف على مائدة القرآن الكريم يستلهمه الخير والسداد، إذا فر المجتمع إلى الله استجابة لقوله: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[٣]. ولجأ إلى كتابه يستفتيه في كل ما يعن له في رحلة الحياة القصيرة. قال تعالى عن هذا الكتاب: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾[٤]. وقال تعالى أيضًا: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾[٥].

يثبتهم بالتريث والصبر؛ حتى لا يستعملهم الشيطان جنودًا له، يثبتهم بالربط على قلوبهم فلا يتبعوا أهواءهم، يثبتهم عندما ينزل بهم العظيم من الأمور، ويثبتهم عندما يريدون تنظيم حياتهم، أو يعدون العدة لحماية ثغورهم، قال الله تعالى: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾[٦]. يربط على القلوب المؤمنة فلا تطير شعاعًا من هول المعركة، ويثبت

(١) سورة القلم، الآيتان ٣٠ - ٣١.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة وأبو يعلى وابن منيع والحارث عن أنس رفعه، وأخرجه البيهقي عنه أيضًا، وله شواهد عند الترمذي، وقال: حسن غريب بلفظ الأناة من الله والعجلة من الشيطان. والعسكري عن السهل بن سعد رفعه بلفظ: الأناة من الله والعجلة من الشيطان. راجع: كشف الخفاء ١/ ٣٥٠.

(٣) سورة الذاريات، آية ٥٠.

(٤) سورة الفرقان، آية ٣٢.

(٥) سورة النحل، آية ١٠٢.

(٦) سورة الأنفال، آية ١١.

أقدام المجاهدين وقلوبهم فلا تلوي عنانها عن الميدان هاربة.

ولن يتم هذا التثبيت إلا إذا كان المجتمع الإسلامي يحتكم إلى كتاب الله تعالى في العظيم والجليل من أموره، والصغير والقليل من شؤون حياته. أما إذا ابتعد المسلمون عن هذا الكتاب وجعلوه وراءهم ظهريًا، فلا شك أن الشيطان يوسوس لهم يستعجلهم في إشعال الحرب، فيشعلونها وهم ليسوا لها بأهل، فتكون الهزيمة الماحقة والخسارة الفادحة، ثم يكتوون في النهاية بنارها. ويطالبهم الشيطان باستعجال أمور دنياهم فيتبعونه فيما دعاهم إليه، عندها تنبهم أمامهم السبل، وتغلق في وجوههم المسالك ويلفهم ليل داج ليس له آخر.

يحدث هذا لاتباعهم طريق الشيطان وانصرافهم عن الصراط المستقيم؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[1]. من هنا قال رسول الله ﷺ: «**التأني من الله، والعجلة من الشيطان**».

وللمزي في تهذيبه في ترجمة محمد بن موسى عن مشيخة من فوقه مرسلًا، أن النبي ﷺ قال: «**الأناة في كل شيء إلا في ثلاث: إذا صيح: يا خيل الله اركبي. وإذا نودي بالصلاة، وإذا كانت الجنازة**»[2].

وسبب نزول الآية كما يرويها الحاكم بن عبد الله بسنده، عن الحارث بن ضرار يقول: قدمت على رسول الله ﷺ فدعاني على الإسلام فدخلت وأقررت، ودعاني إلى الزكاة فأقررت بها. فقلت: يا رسول الله، أرجع إلى قومي فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة فمن استجاب لي جمعت زكاته، فترسل لإبان[3] كذا وكذا لآتيك بما جمعت من زكاة.

فلما جمع الحارث بن ضرار ممن استجاب له وبلغ الإبان الذي أراد أن يبعث إليه رسول الله ﷺ، احتبس عليه الرسول فلم يأته. فظن الحارث أنه قد حدث فيه سخطة من

(١) سورة محمد، آية ٧.

(٢) راجع: كشف الخفاء ١/ ١٢.

(٣) الإبان: الوقت المحدد أو الوعد.

الله ورسوله، فدعا سروات [1] قومه فقال لهم: إن رسول الله ﷺ قد وقَّت لي وقتًا ليرسل إليّ ليقبض ما كان عندي من الزكاة، وليس من رسول الله ﷺ الخلف، ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطة فانطلقوا فنأتي رسول الله.

وبعث رسول الله ﷺ - الوليد بن عقبة - إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة، فما سار الوليد حتى بلغ إلى بعض الطريق فرق فرجع [2]. فقال: يا رسول الله إن الحارث منعني الزكاة وأراد قتلي. فضرب رسول الله البعث إلى الحارث، وأقبل الحارث بأصحابه فاستقبل البعث وقد فصل من المدينة، فلقيهم الحارث، فقالوا: هذا الحارث. فلما غشيهم قال لهم: إلى من بعثتم؟ قالوا: إليك. قال: ولم؟ قالوا: إن رسول الله ﷺ كان قد بعث إليك الوليد بن عقبة [3] فرجع إليه، فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله. قال: لا، والذي بعث محمدًا بالحق، ما رأيته ولا أتاني. فلما أن دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال: لا والذي بعثك بالحق، ما رأيت رسولك ولا أتاني، ولا أقبلت إلا حين احتبس علي رسولك؛ خشية أن يكون سخط من الله ورسوله.

قال: فنزلت في الحجرات: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ [4].

---

(١) سروات القوم: عظماؤهم وأهل الرأي فيهم.

(٢) أسباب نزول القرآن للواحدي ص ٤١٣، وسيرة ابن هشام ٣/ ٢٤٠.

(٣) والده عقبة بن أبي معيط، أحد الذين كان لهم دور كبير في الصد عن دين الله وتعذيب المستضعفين، وإيذاء الرسول ﷺ بالقول والفعل، ووقع أسيرًا في غزوة بدر فأمر الرسول ﷺ بقتله، فقال عقبة: أتقتلني يا محمد من بين قريش؟ قال: «لأنك يهودي من أصل صفورية». أسلم الوليد عند فتح مكة. عين واليًا على الكوفة، فعاش كما يعيش الملوك، حتى كان يوم وهو يصلي بالمسلمين صلاة الصبح - وكأنه كان قد شرب خمرًا - فصلى بهم أربع ركعات ثم التفت إليهم فقال: أأزيدكم؟ فأمر عثمان رضي الله عنه بجلده وعزله عن الولاية، ثم مات في خلافة معاوية بن أبي سفيان. راجع: الإصابة ٦/ ٦١٤.

(٤) سورة الحجرات، آية ٦.

الآداب المستقاة من قوله تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ﴾:

هناك آداب كثيرة وحكم بليغة تتضمنها الآية الكريمة، ويطيب لنا أن نحصرها في آداب أربعة:

الأدب الأول: التثبت في الأمور:

الأمر لجماعة المسلمين بالتثبت في الأمور والتبصر في حقيقة الأنباء التي تتردد في مجتمعاتهم، أو عند قبولهم الأخبار التي تأتي من خارج بلادهم حتى لا يندم المسلمين على شيء فعلوه بجهالة، وبدون علم أو دراية، مما يكون في العادة نتيجة للتسرع وعدم التريث.

وفي تلك الواقعة التي حدثت في عهد الرسول ﷺ تأدب المسلمون بهذا الأدب الرفيع، من ضبط النفس والتحسس والتبصر لما وصل إلى أسماعهم. ولولا ذلك لحدث ما لم تحمد عقباه من الهجوم على جماعة مسلمة يؤمنون بالله ويصدقون برسوله، وتتحرق نفوسهم شوقًا لملاقاته وتقديم زكاة أموالهم إليه.

الأدب الثاني: البعد عن الغيبة ونهش الأعراض:

قال الحسن رحمه الله: (والله للغيبة أسرع في دين المؤمن من الأكلة في جسده)[١]. وعن قتادة رضي الله عنه قال: (ذُكر لنا أن عذاب القبر ثلاثة أثلاث: ثلث من الغيبة، وثلث من البول، وثلث من النميمة)[٢].

وعن أبي برزة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا معشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه، لا تتبعوا عورات المسلمين ولا عثراتهم، فإنه من يتبع عثرات المسلمين يتبع الله عثرته، ومن يتبع الله عثرته يفضحه وإن كان في بيته**»[٣].

(١) كتاب الصمت وآداب اللسان لابن أبي الدنيا ص ٣١٨.

(٢) السابق.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه ٤/ ٢٧٠، والترمذي في سننه ٤/ ٣٧٨، وأحمد في المسند ٤/ ٤٢٠، ٤٢١، وانظر: كتاب الصمت وآداب اللسان لابن أبي الدنيا ص ٣٠٣.

بهذه الآداب العالية، والتوجيهات السليمة نشأ المجتمع الإسلامي الأول الذي لا نظير له في المجتمعات الأخرى.

مجتمع تأدب بأدب القرآن وتتلمذ في مدرسة النبوة، فكانوا نماذج فذة فريدة، يعجز أن تتكرر مرة أخرى إلا إذا عاد المسلمون إلى كتاب ربهم يستلهمون العظة والعبرة، ويعبون من آدابه وتوجيهاته، عندها يفرح المسلمون بنصر الله، ويتحقق ما أمر الله به: بأن نكون حقًّا وصدقًا خلفاء له في أرضه، ونتيه فرحًا وغبطة بوصف الله تعالى لنا في قوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾[1].

ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾[2].

ففي هذه الآية ينهاهم الله سبحانه وتعالى:

أولًا: عن إصدار الأحكام أو اتخاذ القرارات بناء على الظن.

ثانيًا: النهي عن التجسس وتتبع عورات الآخرين وكشف سترهم.

ثالثًا: عدم الغيبة والبعد عن نهش الأعراض.

نهاهم عن الظن؛ لأن الظن أكذب الحديث[3] كما قال رسول الله ﷺ، والظن تهمة للآخرين بلا سبب يوجبه، ودليل كون الظن هنا بمعنى التهمة - قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا۟﴾. وذلك أنه قد يقع له خاطر التهمة ابتداء، ويريد أن يتجسس حتى يتحقق من إلصاق هذه التهمة، فنهى النبي ﷺ عن ذلك.

وذلك إذا كان المظنون به ممن شوهد منه الستر والصلاح وأونس منه.

(١) سورة الفرقان، الآيتان ٦٣، ٦٤.

(٢) سورة الحجرات، آية ١٢.

(٣) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب لا يخطب على خطبة أخيه، ومسلم في البرح ٢٥٦٣، باب تحريم الظن، وأبو داود ٥/ ٢١٦ ح ٤٩١٧.

الأدب الثالث: عدم التحدث بكل ما يسمعه الإنسان وما يتبع ذلك من تشهير وإذاعة للأنباء، صحت أو لم تصح، صدقت أو لم تصدق.

وحقيقة التشهير: إذاعة السوء عن شخص أو طائفة، وهو في الحقيقة داخل في دائرة الغيبة والبهتان، وكلاهما أذية، وقائلهما لا يتأدب بأدب الرسول ﷺ في قوله: «**أربى الربا عند الله استحلال عرض امرئ مسلم**». ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾(١).

وهذا المشهر به إن كان بريئًا فالتشهير به إفك وبهتان عظيم، كما قال تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾(٢).

وقال أيضًا: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾(٣).

وقد يكون المشهر به غير مجاهر بفسقه، فالتشهير به محرم، ومن المقرر شرعًا أن الستر على المسلم واجب لمن ليس معروفًا بالفساد، قال ﷺ: «**من ستر مسلمًا ستره الله عز وجل يوم القيامة**»(٤).

فإذا كان مجاهرًا بفسقه ففيه يقول الإمام أحمد: إذا كان الرجل معلنًا بفسقه فليس لنا غيبة؛ لقول رسول الله ﷺ: «**كل أمتي معافًى إلا المجاهرين، وإن من الإجهار أن يعمل العبد عملًا بالليل، ثم يصبح وقد ستر الله عليه فيقول: يا فلان، عملت البارحة كذا وكذا. وقد بات يستره الله عز وجل يكشف ستر الله عز وجل عليه**»(٥).

ومع ذلك وكما قال القرافي في كتاب **الفروق**: (سألت جماعة من المحدثين والعلماء

---

(١) سورة الأحزاب، آية ٥٨، وانظر الدر المنثور ٦/ ٦٥٨.

(٢) سورة النور، آية ١٢.

(٣) سورة النور، آية ١٦.

(٤) الحديث أخرجه البخاري في المظالم ٣، ومسلم في البر والصلة ٥٨، ٧٢، وأبو داود في الأدب ٣٨، والترمذي في الحدود ٣، وأحمد بن حنبل في المسند ٢/ ٩١، ٢٥٢، ٢٩٦، (حلبي).

(٥) الحديث أخرجه الإمام البخاري في كتاب الأدب ٦٠، ومسلم في كتاب الزهد ٨، باب النهي عن هتك الإنسان ستر نفسه ٥٢ ح ٢٩٩٠ بسنده عن أبي هريرة يقول: سمعت رسول الله ﷺ، وذكره.

الراسخين في العلم: عمن يروى قوله: (لا غيبة لفاسق)؟ فقالوا لي: لم يصح، ولا يجوز التفكه بعرض الفاسق، فاعلم ذلك)[1].

إذن هؤلاء الذين يغتبطون بإذاعة الأخبار، وتضيق نفوسهم ذرعًا بكتمها فتراهم يتشدقون بما يعلمون وما لا يعلمون، غير مبالين بصحة النقل ولا عدالة الناقل، ولا الخوف من الله تعالى: هؤلاء أمرهم الله سبحانه وتعالى أن يتأدبوا بأدب القرآن، وأن يتبعوا سنة نبيه ﷺ؛ حتى يكبحوا جماح نفوسهم، ولا يستمعوا لوسوسة شياطينهم، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَـٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[2].

يقول الشوكاني: كانوا إذا سمعوا شيئًا من أمر المسلمين فيه أمن، نحو ظفر المسلمين وقتل عدوهم، أو فيه خوف نحو هزيمة المسلمين وقتلهم أفشوه وهم يظنون أنه لا شيء عليهم في ذلك. ولو ردوا ذلك الخبر إلى الرسول ﷺ وأولي الأمر منهم؛ أهل العلم والعقول الراجحة الذين يرجعون إليهم في أمورهم، لعلمه الذين يستخرجونه بتدبيرهم وصحة عقولهم.

يعني: أنهم لو تركوا الإذاعة للأخبار حتى يكون النبي ﷺ هو الذي يذيعها، أو يكون أولو الأمر منهم الذين يتلون ذلك؛ لأنهم هم الذين يعلمون ما ينبغي أن يفشى وما ينبغي أن يكتم.

ثم قال: وقيل: إن هؤلاء الضعفة كانوا يسمعون إرجافات المنافقين على المسلمين فيذيعونها، فتحصل بذلك المفسدة[3].

ويقول صاحب الفتوحات: وهذا ظاهر في إشاعة الخبر بالهزيمة، وأما إشاعة الخبر بالنصر والظفر فلا يظهر فيه الضعف، وإنما يتبادر منه فرح المؤمنين والاعتزاز بقوتهم[4].

(١) راجع: الفروق ٤/ ٢٠٨.
(٢) سورة النساء، آية ٨٣.
(٣) فتح القدير للشوكاني ١/ ٤٩١.
(٤) الفتوحات الإلهية ١/ ٤٠٥.

ولقد وصفت السنة النبوية أولئك الثرثارين الذين يتحدثون بكل ما يسمعونه بدون قيد أو شرط، وقبل التحري والضبط، بصفة تنافي الإيمان الكامل، ألا وهي صفة الكذب، حيث يقول الرسول ﷺ: «**كفى بالمرء كذبًا أن يحدث بكل ما سمع**»(١).

فمتى يتخلص المجتمع الإسلامي من الذين يغتابون الآخرين، وينهشون أعراض المؤمنين الصابرين؟

متى يتخلص المجتمع من هذا الزيف الذي جاءنا من وراء الحدود والسدود؛ ففرق جمعنا، وشتت كلمتنا، وجعل بأسنا بيننا شديدًا، ولكن علينا بالصبر والتثبت، وكما قيل: لا يسلم شجي من خلي.

يقول ابن حزم رحمه الله: «والعقل والراحة في اطراح المبالاة بكلام الناس، والاهتمام بكلام الخالق عز وجل؛ لأن من قدر أنه يسلم من طعن الناس وعيبهم، فهو مجنون(٢)، والعاقل من يلتزم بتعاليم ربه حتى يأتي أجله، وقديمًا قال أبو العلاء:

إذا عَيَّر الطائيَّ بالبخل مَادِرٌ — وعير قُسًّا بالسفاهة باقلُ
وقال السها للشمس أنتِ ضئيلة — وقال الدجى للصبح لونك حائلُ
وطاولت الأرض السماء سفاهة — وفاخرت الشهب الحصى والجنادلُ
فيا موت زر إن الحياة ذميمة — ويا نفس جدي إن دهرك هازلُ(٣)

وقال أبو الدرداء: كلمة سمعها معاوية من رسول الله ﷺ نفعه الله تعالى بها. وعن المقدام بن معد يكرب عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: «**إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم**».

وقال عبد الرحمن بن عوف: حرست ليلة مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالمدينة، إذ

---

(١) الحديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، المقدمة ٣، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع، بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ، وذكره.

(٢) كتاب الأخلاق والسير لابن حزم الأندلسي ص ١٧.

(٣) راجع: الديوان ٢/ ١٢٠.

تبين لنا سراج في بيت بابه مجاف على قوم لهم أصوات مرتفعة ولغط، فقال عمر: هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف، وهم الآن شرب فما ترى؟ قلت: أرى أنا قد أتينا ما نهي عنه. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾. وقد تجسسنا، فانصرف عمر وتركهم.

وقال زيد بن أسلم: خرج عمر وعبد الرحمن يعسان، إذ تبينت لهم نار فاستأذنا ففتح الباب؛ فإذا برجل وامرأة تغني وعلى يد الرجل قدح.

فقال عمر: وأنت بهذا يا فلان؟

فقال: وأنت بهذا يا أمير المؤمنين؟

قال عمر: فمن هذه منك؟

قال: زوجتي.

قال: فما في هذا القدح؟

قال: ماء زلال.

ثم قال الرجل: ما بهذا أمرنا يا أمير المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾.

قال عمر: صدقت.

وقال عمرو بن دينار: كان رجل من أهل المدينة له أخت فاشتكت، فكان يعودها، فماتت فدفنها، فكان هو الذي نزل في قبرها، فسقط من كمه كيس فيه دنانير، فاستعان ببعض أهله فأحضروا له الكيس. ثم عنَّ له أن ينزل في قبرها ليرى ما آل إليه حال أخته، فكشف عنها فإذا القبر مشتعل نارًا. فجاء إلى أمه فقال: أخبريني ما كان عمل أختي؟ فقالت له أمه: قد ماتت أختك فما سؤالك عن عملها؟ فلم يزل بها حتى قالت له: كان من عملها أنها كانت تؤخر الصلاة عن مواقيتها، وكانت إذا نام الجيران قامت إلى بيوتهم، فألقمت أذنها أبوابهم، فتتجسس عليهم ثم تفشي أسرارهم.

فقال: بهذا هلكت[1].

(١) الأخلاق والسير لابن حزم ص ١٧.

أمر من الله سبحانه وتعالى لجماعة المسلمين إذا خرجوا في سبيل الله داعين إليه عاملين لإعلاء كلمة التوحيد. أن يكونوا هداة ودعاة إلى الله الواحد الأحد. فإذا سمعوا كلمة (لا إله إلا الله) قبلوها ممن نطق بها، وحكموا عليه بظاهر حاله. وتركوا سريرته إلى علام الغيوب.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴾[(١)].

أخرج الإمام مسلم بسنده عن أسامة بن زيد قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سرية، فصبحنا الحرقات[(٢)] من جهينة، فأدركت رجلًا فقال: لا إله إلا الله. فطعنته فوقع في نفسي من ذلك. فذكرته للنبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «**أقال: لا إله إلا الله وقتلته؟**» قال: قلت: يا رسول الله، إنما قالها خوفًا من السلاح. قال: «**أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا؟**». قال: فما زال يكررها علي حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ. قال: فقال سعد: وأنا والله لا أقتل مسلمًا. قال رجل: ألم يقل الله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾[(٣)]؟ فقال سعد: قد قاتلنا حتى لا تكون فتنة، وأنت وأصحابك تريدون أن تقتلوا حتى تكون فتنة[(٤)].

وقوله تعالى: ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾. أي: تأملوا وتثبتوا، وفي هذا أوكد؛ لأن الإنسان قد يتثبت ولا يتبين، والتبين والتثبت واجب حضرًا وسفرًا ولا خلاف فيه، وإنما خص بالسفر؛ لأن الحادثة التي فيها الآية وقعت في السفر، ولقد ذكرت كلمة ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾ في الآية مرتين، وهذا أمر الله سبحانه وتعالى مؤكد حتى لا يقضى في الأمور برأي خطير، أو بخاطرة عجلة أملاها

---

(١) سورة النساء، آية ٩٤.

(٢) مكان بأرض الحجاز قريب من جهينة.

(٣) سورة الأنفال، آية ٣٩.

(٤) الحديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان ١٢٨ (٩٦) بسنده عن أسامة بن زيد قال رسول الله ﷺ، وذكره.

الشيطان ووسوس بها، ولقد حذرنا الله سبحانه وتعالى من ذلك بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾[1]. وقال أيضًا: ﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾[2].

****

(١) سورة البقرة، آية ٢٠٨.

(٢) سورة الأحزاب، آية ٥٨.

خاتمة

إن الباحث في كتاب الله تعالى والمتصفح لأقوال العلماء من المفسرين في كل عصر ومصر تهوله كثرة الآراء، وتأخذ بلبه عمق الاستنباطات والمعالجات لآيات القرآن الكريم، والتي لا شك أنها كانت مناسبة لحياة الأمم والأفراد في تلك الظروف التي قيلت فيها.

ولا شك أنها نظمت لهم شؤونهم العامة والخاصة، ووضعت الحلول العملية لمشكلاتهم، ولكننا عندما نفكر في عصرنا الراهن، وما جد فيه من تطورات خارقة في عالم المادة، نرى أن الواجب على المسلمين أن يعودوا إلى كتاب الله تعالى مباشرة، يستلهمون آياته في تنظيم حياتهم وتقعيد أمورهم، والوصول من خلالها إلى الدواء الناجح لكل ما يعن لهم من عوائق ومشكلات.

وهذا - والحق يقال - ما قصدنا إليه عند إعدادنا هذا البحث، آملين من الله تعالى أن يكون شمعة على الطريق تبدد بعض ما تعانيه الأمة الإسلامية من سدف الظلام الشاملة، وما نحسه من حيرة العقول التي لا تدري ما تأتي وما تدع من أمورها.

وإذا كنا قد تناولنا حقيقة الأنباء في منهج القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة والتي تكتنف حياة المجتمعات الإسلامية، فلم يغب عن ذهننا - عند إعدادنا هذا البحث - ما للشائعات من أخطار جسيمة في تفتيت ترابط المجتمع وتمزق وحدته. وهل الشائعة إلا نبأ مصطنع يريد به من في قلوبهم مرض تدمير المجتمع وحل عراه؟

إن الشائعة التي لازمت حادثة الإفك في صدر الإسلام أوشكت أن تشعل حربًا بين الإخوة المتحابين الذي وصفهم الله تعالى بالفلاح والبعد عن لغو الحديث بقوله: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ

ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾[1]. ولم ينته ما بينهم من تشاحن وتلاحم حتى استمعوا إلى صوت الوحي يستل من صدورهم ما ران عليها من غبش الجاهلية بقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾[2].

إن الشائعة يمكن أن تموت في مهدها لو أن السامع أو السامعة لها تأدبا بأدب الله تعالى وخاطب نفسه ومن حولها قائلًا: ﴿مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾.

إن التحدث بالشائعة أو ما يسميه القرآن بالنبأ الكاذب - غول مدمر يدعو إلى خداع الناس، وبلبلة أفكارهم، وإثارة الشكوك والريب في مجتمعاتهم. ولا شك أن الشائعة تعمل عن طريق وسوسة الشيطان إلى فقدان ثقة الأفراد بأنفسهم وحكوماتهم، وهذا بلاء كبير.

وفضلًا عن هذا تعمل الشائعة على نشر الفتن وتحريك الضغائن بين الطوائف والطبقات، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[3].

يقول ابن عاشور في معرض تفسيره لهذه الآية: (ومن أدب هذه الآية أن شأن المؤمن ألا يحب لإخوانه المؤمنين إلا ما يحب لنفسه، فكما أنه لا يحب أن يشيع عن نفسه خبر سوء كذلك يجب عليه ألّا يحب إشاعة السوء عن إخوانه المؤمنين. ولشيوع أخبار الفواحش بين المؤمنين بالصدق أو بالكذب مفسدة أخلاقية، فإن ما يزع الناس عن المفاسد تهيبهم وقوعها، وتجهمهم، وكراهتهم سوء سمعتها، وذلك مما يصرف تفكيرهم عن تذكرها، بل الإقدام عليها رويدًا رويدًا حتى تنسى وتمحى صورها من النفوس، فإذا انتشر بين الأمة الحديث بوقوع شيء من الفواحش تذكرتها الخواطر، وخف وقع خبرها على الأسماع، فلا تلبس النفوس الخبيثة أن تقدم على اقترافها، وبمقدار تكرار وقوعها وتكرار الحديث عنها تصير متداولة.

(1) سورة المؤمنون، الآيات ١ - ٣.

(2) سورة النور، آية ١٦.

(3) سورة النور، آية ١٩.

هذا إلى ما في إشاعة الفاحشة من لحاق الأذى والضر بالناس ضرًّا متفاوت المقدار على تفاوت الأخبار في الصدق والكذب.

ولهذا ذيل هذا الأدب الجليل بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾. أي: يعلم ما في ذلك من المفاسد فيعظكم لتجتنبوا، وأنتم لا تعلمون، فتحسبون التحدث بذلك لا يترتب عليه ضر، وهذا كقوله: ﴿وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ﴾[1])[2].

وبعد، فنرجو من الله تعالى أن يكون هذا العمل خالصًا لله تعالى، وأن ينفع به المسلمين، وأن يجعلهم على الجادة، إنه سميع قريب مجيب الدعوات...

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾[3].

(١) سورة النور، آية ١٥.

(٢) تفسير التحرير والتنوير ١٨/ ١٨٥.

(٣) سورة آل عمران، آية ٨.

مُوسى الكليم عليه السَّلام وفتاهُ والعبد الصَّالح

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، وأفضل الخلق أجمعين، سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين.. وبعد:

فقد امتنَّ الله على رسوله - عليه الصلاة والسلام - بالمعجزة الكبرى، وهي القرآن الكريم الذي حوى منهج الحياة على الأرض؛ من أحكام مبينة، وأخلاق وفضائل، تذكر مستقلة تارة، وتنساب في قصصه تارة أخرى، بألوان بيانية متعددة تدهش العقل الصحيح وتنميه، وتربي النفس وتزكيها.

وقد حظي القصص بالقسط الأوفر منها؛ إذ غلب عليه مكارم الأخلاق في ثياب العظات والعبر ذات الطابع التوجيهي التربوي، والإرشادي المهذب، قال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾[2]. فدل قوله تعالى: ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ على أن القصص القرآني نهج فيه نهجًا مختلفًا، فضلًا عن ذلك فقد أبصر أهل العلم أن الغرض من سوقها ليس قاصرًا على التنويه بأصحاب تلك القصص في عناية الله بهم، أو تشويه الأشياء وأوائلها، بل الغرض من ذلك أسمى وأجل.

إن في تلك القصص لعبرًا تربوية وفوائد منهجية؛ ولذلك نرى القرآن يأخذ من كل قصة

(١) سورة يوسف، آية ١١١.

(٢) سورة يوسف، آية ٣.

أشرف مواضعها ويعرض عما عداه؛ ليكون تعرضه للقصص منزهًا عن قصد التفكه بها. من أجل ذلك لم تأت القصص في القرآن متتالية متعاقبة في سور متتالية ككتب التاريخ، بل كانت مفرقة موزعة على مقامات تناسبها؛ لأن معظم الفوائد الحاصلة منها لها علاقة بذلك التوزيع، هي التذكير والموعظة لكل قارئ وسامع[١]، كذلك فالقصة استخدمتها التربية القرآنية وسيلة من وسائلها الناجعة في تحقيق أهدافها التربوية؛ لما لها من أثر عظيم في نفوس المتعلمين، خاصة إذا وضعت في أسلوب عاطفي مؤثر. ولا يقتصر أمر استخدام القصة على التربية فقط، بل إنها تمتد إلى ما هو أبعد من هذا، إلى إطار أهم وأشمل، ونحن نرى في حياتنا العادية، مدى ما تحققه القصة في النفس الإنسانية من أثر، عندما تكون ذات قيمة، وبقدر ما يكون لصاحب القصة من أثر وانتشار، ولكن القصة بهذه الطريقة لا تستطيع أن تتحدث عن مسائل الحياة الحقيقية، وإنما تعرضها فقط[٢].

إلى جانب هذا نجد أن الله تعالى قد ساق لنا من قصص الأنبياء والرسل في القرآن الكريم ما يدل على أنه قد ربى من اصطفاهم، وتعهدهم بالرعاية، وطهرهم من كل ما يتنافى وعصمتهم، كما ورد ما يتضمن أن الله تعالى كان يعلم رسله ويربيهم ويهذبهم؛ بأن يضعهم أمام موقف يستكشفون من خلاله الحقائق والعبر، كقوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[٣].

وفي قصة يوسف عليه السلام مع إخوته وما آل إليه من تبوئه عرش الملك، وكأن الله تعالى يذكر رسوله محمدًا ﷺ معاملة قومه له: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾[٤].

قال ابن عاشور في تفسيره لهذه الآية: «إن الاعتبار بالقصة لا يحصل إلا إذا كانت خبرًا

(١) تفسير التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور ١/ ٦٤ بتصرف يسير.

(٢) فلسفة التربية الإسلامية لعلي خليل أبو العينين، ص ٢٣٤.

(٣) سورة الأنبياء، الآيتان ٨٧ - ٨٨.

(٤) سورة يوسف، آية ١١١.

عن أمر وقع؛ لأن ترتب الآثار على الواقعات تَرَتب طَبَعِي، فمن شأنها أن تترتب أمثالها كُلَّما حَصَلَتْ في الواقع، ولأنَّ حُصُولَها ممكنٌ إذِ الخَارج لا يَقَعُ فيه المُحَال ولا النَّادِر، وذلك بخلاف القصص الموضوعة بالخيال والتكذيب؛ فإنها لا يحصل بها اعتبارٌ لاستبعاد السامع وقوعها؛ لأن أمْثَالَها لا يعهد، مثل مبالغات الخرافات وأحاديث الجن والغول عند العرب، وقصة رستم وأسفنديار عند العجم، فالسامع يتلقاها تلقي الفكاهات والخيالات اللذيذة، ولا يتهيأ للاعتبار بها إلا على سبيل الفرض والاحتمال؛ وذلك لا تحتفظ به النفوس»[1].

ويمكن أن نضيف إلى ذلك أن القصة إذا كانت واقعية، أو متفقة مع المنطق الصحيح والطبع السليم - فإن الاعتبار يمكن أن يتحقق بها. ثم إن القصة القرآنية تحقق أهداف التربية تمامًا، وتدعو الإنسان وتثير عواطفه وعقله إلى طَلَبِ العلم، وهذا ما يمكن أن يُطلق عليه قصص توجيهي علمي وعملي[2]، كما في موضوع بحثنا هذا: قصة موسى عليه السلام والعبد الصالح في سورة الكهف. إذا تأملت هذه القصة، رأيت أنها تتضمن أهدافًا تربوية تُسهم في ترقية النَّفسِ وتهذيبها، وحثّها على التواضع في حضرةِ الحكيمِ العليم.

وتأسيسًا على هذه الرؤية كان تناولي لقصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح، فبينت البحث، وقسمته إلى: مقدمة، وتمهيد، وتسعة مطالب، وخاتمة؛ جاءت على النحو التالي:

مقدمة: عرضت فيها الإطار العام للبحث والأسس النظرية عرضًا موجزًا.

تمهيد: فصلت فيه ما يتصل بالبحث من قضايا نظرية وموضوعية.

المطلب الأول: عرض ودراسة الآيات التي وردت فيها القصة.

المطلب الثاني: التعريف بأشخاص القصة.

المطلب الثالث: سبب القصة.

المطلب الرابع: الشريعة المتمثلة في موسى عليه السلام، ومفهوم العلم اللدني المتمثل

(1) تفسير التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور ١٣/ ٧٢.

(2) فلسفة التربية الإسلامية في القرآن الكريم لعلي خليل أبو العينين، ص ٢٣٥.

في العبد الصالح، والعلاقة بينهما.

المطلب الخامس: الأحداث التي فصلتها القصة، وكان محورها العبد الصالح.

المطلب السادس: تفسير أحداث القصة.

المطلب السابع: تحقيق القول في العبد الصالح: حياته، موته، نبوته.

المطلب الثامن: ملامح الاتفاق والاختلاف بين موقف موسى عليه السلام من العبد الصالح ومواقفه السابقة.

المطلب التاسع: الدروس والعبر المستفادة من القصة.

خاتمة البحث: وتشتمل على خلاصة له.

والله أسأل العون والتوفيق، وأن ينفعنا بما علمنا، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

****

تمهيد

نتناول فيه الأساس النظري للدراسة، فنعرض لمفهوم القصة القرآنية، ثم الغاية منها وهي الاعتبار.

قال الراغب الأصفهاني في مفرداته: القص: تتبع الأثر. يقال: قصصت أثره. والقصص: الأثر، قال الله تعالى: ﴿فَارْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾[1]. وقال تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾[2].

والقصص: هو الأخبار المتتبعة، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾[5].

والقصاص: تتبع الدم بالقود[6]. وقيل المراد بالقصة: الخبر عن حادثة غائبة عن المخبر بها[7].

وليس بالضرورة أن تكون القصة مجهولة بالنسبة للمتلقي، فقد يكون عالمًا بها، ولكن هذا العلم يظل ناقصًا ما لم يقترن بمقتضاه، «فكمال العلم بمقتضى الخبر حدوث مقتضاه، فإذا لم يحصل كمال العلم»[8]. ولهذا يمكن أن نضيف إلى ذلك ما يقترن بالقصة من عبرة أو ما ترشد إليه.

---

(١) سورة الكهف، آية ٦٤.

(٢) سورة القصص، آية ١١.

(٣) سورة آل عمران، آية ٦٢.

(٤) سورة القصص، آية ٢٥.

(٥) سورة يوسف، آية ٣.

(٦) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، ص ٤٠٤.

(٧) تفسير التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور ١/ ٦٤.

(٨) الإشارات والتنبيهات لمحمد علي الجرجاني، تحقيق عبد القادر حسين، ص ٢١.

وقصص القرآن عن السابقين هو القصص الحق، وروايته لبعض تلك الأحداث هي الصدق والصواب؛ لأن الله هو الذي يقص علينا ذلك القصص... فوصف القرآن لقصصه بأنه قصص حق، وإخباره بأنه سوف يقص قصص السابقين بالحق، يوحي لنا بالمنهج العلمي الرصين في فهم قصص الحق، وبحثه وتدبره[1].

هذا وقد وردت مادة: (قصص) في القرآن الكريم بصيغ مختلفة، فقد وردت (قص) مرة واحدة، و(قصصنا)مرتين، و(قصصناهم)مرة واحدة، و(تقصص) مرة واحدة، و(نقص) خمس مرات، و(نقصص) ثلاث مرات، و(فلنقصن) مرة واحدة، و(نقصه) مرة واحدة، و(يقص) مرتين، و(يقصون) مرتين، و(فاقصص) مرة واحدة، و(قصيه) مرة واحدة، و(القصص) أربع مرات، و(قصصا) مرة واحدة، و(قصصهم) مرة واحدة، و(القصاص) أربع مرات.

وفي سياق النظر والتدبر في القصص القرآني نلحظ أنه يتضمن عنصرًا تربويًّا فعالًا، وهذا ما نجده في كتابات من تعرض للقصة بوصفها وسيلة من وسائل التربية الإسلامية، فقد ذكر علي خليل أبو العينين في كتابه: **فلسفة التربية الإسلامية في القرآن الكريم**؛ نقلًا عن عماد الدين خليل قوله: تستخدم التربية القرآنية أسلوب القصة في تحقيق أهدافها التربوية؛ لما لها من أثر عظيم في نفوس المتعلمين[2]. وقد سار على هذا النحو عبد الرحمن عميرة في كتابه: **منهج القرآن في تربية الرجال**، فقال: «القصة: إحدى عوامل التربية في القديم والحديث. كل رجال التربية لا ينكرون ما للقصة من آثار في نفوس السامعين»[3]... ثم أردف قائلًا: «والقرآن الكريم فيه مجموعة من القصص جاءت لأمور جوهرية أرادها الله سبحانه وتعالى، ومن أولى هذه الأمور تربية الأمة الإنسانية وتنشئة هذا الجيل الذي نزل في عهده القرآن - وما يأتي بعده من أجيال إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها - على عظائم الأمور واطراح سفسافها»[4].

(١) مع قصص السابقين في القرآن لصلاح عبد الفتاح الخالدي ١/ ١٨.

(٢) فلسفة التربية الإسلامية في القرآن الكريم ص ٢٤٣.

(٣) منهج القرآن في تربية الرجال ص ١٧٣.

(٤) مرجع سابق، ص ١٧٤.

وفي منحى آخر يذكر عبد الحافظ عبد ربه في **بحوث في قصص القرآن**: أن مفهوم القصة في القرآن يحدده ما ورد فيه من أنباء خاصة سيقت على وجه العبرة للمصدقين، والردع والزجر للمكذبين الضالين، فهي تارة توجه الأولين إلى الثبات على الحق، وأخرى تحثهم على الاستزادة من عمل الخير والبر، كما تصرف المتهيئ من المكذبين عن الباطل والشر بأنواعه بقدر ما فيهم من استعداد وتهيؤ؛ فالعديد من الظواهر قد ذكرها الله في كتابه العزيز فكانت عظة وتذكرة لمن غفل وزلزل في عقيدته، أو فتن في آدابه وامتحن في أخلاقه، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾[1].

فهذه الدراسات التربوية المعاصرة ذكرت القصة من حيث وسائلها في التربية والمعالجة، وقد حددنا تصورًا للغاية من القصة وهو العبرة، وهي غاية تربوية، والتربية أصل اشتقاقها من الرب، والرَّبُّ أطلق في اللغة على المالك والسيد، والمدبِّر، والمربِّي، والمتمم. والرباني: العالم المعلم الذي يغذو الناس بصغار العلوم قبل كبارها[2]. قال البيضاوي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[3]: «الرَّب في الأصل مصدر بمعنى التربية، وهي تبليغ الشيء إلى كماله شيئًا فشيئًا، ثم وصف به للمبالغة»[4]. فتربية الناشئ على هذا الأصل، هي العمل على إيصال الناشئ إلى كماله شيئًا فشيئًا [5].

إذن، فالتربية هي عملية تحقيق النمو المتزن المنسجم لجميع استعدادات الفرد: الجسمية والنفسية والعقلية، حتى يصل إلى كماله[6].

وقد ورد في القرآن الكريم ما يتضمن أن الله كان يعلِّم رسله ويربيهم ويهذبهم؛ بأن

(١) سورة الأعراف، آية ١٧٥، وانظر: بحوث في قصص القرآن لعبد الحافظ عبد ربه، ص ٤٥.

(٢) تاج العروس للزبيدي، مادة: ربب ٢/ ٤٦١.

(٣) سورة الفاتحة، آية ١.

(٤) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ١/ ٧.

(٥) منهج القرآن في تربية الرجال لعبد الرحمن عميرة، ص ٦.

(٦) مرجع سابق.

يضعهم أمام مواقف يستكشفون من خلالها الحقائق، وللتدليل على حقيقة ذلك ننوه عن بعضها في مواقف الأنبياء والرسل من خلال القصص القرآني، ففي قصة نوح عليه السلام مع ابنه نجد شخصية النبي الصابر الحريص على جلب الخير لقومه مهما كلفه ذلك، ومهما لقي في سبيله، فها هو يدعو قومه نهارًا لا يفتر، بل في الليل كذلك، غير مقتصر على التخويف فحسب، وإنما على الترغيب والتبشير، وقد ابتلاه الله بقومه وابنه إذ أعرض عن توحيد ربه وطاعته، وعصى أباه وعانده، فلما أدركه الغرق دعا نوح ربه، فعاتبه الله في هذا الشأن، وهو موقف عصيب أن يرى ابنه يغرق مع جملة الكافرين المعاندين، فيعلم الله نوحًا درسًا له ولذريته: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾[1]. ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[2].

فالأهلية أهلية العقيدة أولًا وقبل كل شيء، أما الوشائج وصلات القربى، فكلها تتضاءل وتتلاشى إن لم تربطها العقيدة بروابطها المحكمة، وهذا أول ما ينبغي أن يعلمه الناس، فضلًا عن الأنبياء، ويرجع نوح إلى نفسه معتذرًا إلى ربه، ويطلب مغفرته ورحمته حتى لا يكون من الخاسرين، ويكرم الله نوحًا فيستجيب له: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[3].

وفي قصة هود عليه السلام وما أصاب قومه من الغطرسة والشدة والقوة والبطش، وهو يبذل كل ما في وسعه ليستأصل تلك القسوة من قلوبهم، ويزيل هذه الجفوة من بينهم وبين الحق، ولكن القوم مع ذلك يعلنون أن لا أحد أشد منهم قوة، ومع هذا فقد كان عليه السلام

(١) سورة هود، الآيتان ٤٢، ٤٣.

(٢) سورة هود، الآيتان ٤٥، ٤٦.

(٣) سورة هود، الآيتان ٤٧، ٤٨، وانظر: القصص القرآني لفضل حسن عباس، ص ٨٩.

يسايرهم ويلاطفهم؛ لعلهم يرعوون وينتهون، ولكنهم استعصوا، فكان لا بد من إنزال العذاب عليهم[1]: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾[2].

وفي قصة نبي الله صالح عليه السلام مع قومه كان الوضع شبيهًا بقصة هود مع قومه، فكان التكذيب منهم، والامتحان والابتلاء، فنزل العذاب بهم: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾[3].

وفي قصة إبراهيم عليه السلام بيّن القرآن أن الله قد اختبره وابتلاه بأوامره ونواهيه، فقام بحقهن وأتمهن، فاستحق أن يكون إمامًا، ويسأل ذلك لذريته، ولكن الله يبين له أن ذلك الشرف لا يكون للظالمين الخارجين: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[4]. وقد ابتلاه الله بذبح ابنه، فيتغلب على كل عاطفة وحنان، وأي حلم أعظم من أن تطيب نفس هذا الابن المذبوح لما يريده أبوه، فيذعن لهذا الحكم بكل رضا ومحبة من غير مداراة وتردد صابرًا محتسبًا، وتبدأ عملية الذبح بكل جدية وحزم، وينادى إبراهيم وقد تل ولده للجبين: قد صدقت الرؤيا. حقًا إنها أعلى مراتب الإحسان من الأب والابن معًا لا بد للمحسن أن يجازى بإحسانه، وحقًا إنه ابتلاء عظيم، ويكرم الله إبراهيم بالفداء جزاء إحسانه الذي يجمع بين عز الإيمان وخضوع العبودية، وهما

---

(١) القصص القرآني لفضل عباس، ص ١٠٤.

(٢) سورة الشعراء، الآيات ١٢٣ – ١٤٠.

(٣) سورة الشمس، الآيات ١١ – ١٥.

(٤) سورة البقرة، آية ١٢٤.

مقاما الافتقار والافتخار. وهذا الموقف من إبراهيم عليه السلام وما فيه من مشاهد مؤثرة ووقفات - يربي الضمائر ويهذب النفوس، فيرتفع بها ويلقنها أروع الدروس: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾(١).

وفي قصة لوط عليه السلام يبتليه الله بقوم يأتون الفاحشة من الذكران، فلم يترك وسيلة من وسائل العلاج إلا وسلكها معهم، فلما لم تفلح الوسائل جميعها أرسل الله إليه رسلًا من الملائكة لإنزال العذاب عليهم: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾(٢).

وقصة شعيب عليه السلام مع قومه، ونقصانهم المكيال والميزان؛ وما ذاك إلا لشحهم بالمال رغبة فيه.

وقصة موسى عليه السلام بدءًا من ولادته، ونشأته في بيت فرعون، وقتله للقبطي، وهروبه إلى مدين وزواجه من ابنة شعيب، واصطفاء الله له رسولًا لبني إسرائيل، وموقفه مع سحرة فرعون، وموقفه من عبادة قومه العجل، وغضبه على أخيه هارون، وانتهاء بغرق فرعون في البحر.

(١) سورة الصافات، الآيات ٩٩ - ١١٣، وانظر: القصص القرآني لفضل حسن عباس، ص ١٥٠.

(٢) سورة الشعراء، الآيات ١٦٠ - ١٧٥.

ذكر القرآن هذه المواقف، فبين شخصية موسى فيها، في قالب من الإحساس والشعور بعظمة المواقف وشخصية موسى منها.

وفي قصة يونس عليه السلام يحدثنا القرآن أنه من أولئك الذين أعدهم الله ليقودوا أمة زمانه، فكان لا بد أن يكون أكثر تحملًا، وأكثر تقبلًا، وأقدر على التصرف، وأجدر بتبديد الضعف، لكنه لما لم يكن كذلك جعل الله منه درسًا؛ فقد ذهب مغاضبًا ظانًّا أن الله لن يضيق عليه ولن يؤاخذه، وقد ترك قومه دون إذن؛ سآمة وضجرًا، فابتلاه الله بأن التهمه الحوت، ثم منَّ الله عليه فأنجاه من هذا الهم، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾(١).

وفي قصة داود وسليمان عليهما السلام مواقف عدة، منها ما ذكرته سورة ص: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ﴿٢١﴾ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗاۤ وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾(٢). من أن داود عليه السلام قد أصدر حكمًا دون أن يسمع من الآخر نصًّا، فعوتب على هذا واستغفر ربه وخر راكعًا وأناب، فغفر الله له ذلك وأكرمه بالقربى وحسن المنقلب.

وفي قصة أيوب عليه السلام أنه ابتلي بمرض وببعض المصائب، ولكنه صبر وتضرع إلى ربه، فمنَّ الله عليه بالشفاء، وهداه إلى ماء يمكن أن يغتسل به ويشرب منه؛ ليكون برءًا لمرضه: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ

(١) سورة الأنبياء، الآيتان ٨٧ – ٨٨، وانظر: القصص القرآني لفضل عباس، ص ٣٥٠.

(٢) سورة ص، الآيات ٢١ – ٢٦.

إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾[1].

وفي قصة يوسف عليه السلام: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴾[2]. ابتلي يوسف عليه السلام وعانى صنوفًا من هذه الابتلاءات، وعاش فترة من حياته في محن متلاحقة، ومع هذا ظل صابرًا محتسبًا، فكان الجزاء أن خلصه الله مما هو فيه، ومكّنه في الأرض وجمعه مع إخوته وأبويه، وجعل مقاليد الحكم بيده؛ ليصرف بها أمور أمته بما وهبه الله سبحانه وتعالى من العلم والحفظ[3]: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٦ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾[4].

وقد يبتلى الإنسان في نفسه فتصيبه العلل والأمراض، وقد يبتلى في رزقه فتضيق عليه الأرض بما رحبت، وقد يبتلى في أهله وولده، فيغريهم الشيطان ويتبعون أهواءهم، وقد يبتلى بكثرة الرزق وإقبال الدنيا وكثرة خيراتها: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾[5]. فإن قاوم نفسه وجاهد هواه، وصمد أمام هذه المغريات، وصارع الشيطان حتى صرعه، عندها سيكون جزاؤه جزاء يوسف: التمكين في الأرض، والعلم بسياسة الأمم[6]. من كل هذا نلحظ هدفًا تربويًّا من إيراد القصة القرآنية، فهي تتضمن أهدافًا عظيمة؛ لأنها تهذب النفوس، وتربيها، وترتقي بها، فضلًا عن أنها إحدى وسائل إبلاغ الدعوة الإسلامية وتثبيتها. ويمكن تلخيص أهم أهداف القصة القرآنية بما يلي:

١- كان الغرض من القصة القرآنية في عهد الرسول ﷺ يتحدد أولًا في إثبات الوحي

(١) سورة ص، الآيات ٤١ - ٤٤، وانظر: القصص القرآني لفضل حسن عباس، ص ١٥٠.
(٢) سورة يوسف، الآيات ٧ - ٩.
(٣) منهج القرآن في تربية الرجال لعبد الرحمن عميرة، ص ١٧٤ - ١٧٨ بتصرف.
(٤) سورة يوسف، الآيتان ٥٦ - ٥٧.
(٥) سورة الأنبياء، آية ٣٥.
(٦) منهج القرآن في تربية الرجال لعبد الرحمن عميرة، ص ١٨٢.

والرسالة، وتحقيق القناعة بأن محمدًا ﷺ يتلو على قومه العديد من القصص من كلام ربه، وقد جاء بعضها في دقة وإسهاب، فلا يشك عاقل أنها وحي من الله، وأن محمدًا رسول الله قد بعث ليبلغ رسالة ربه، والقرآن ينص على هذا الغرض في مقدمات بعض القصص أو في أواخرها؛ فقد جاء في أول سورة يوسف قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾[1].

وقوله في سورة هود: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[2].

٢- بيان أن الدين من آدم ونوح إلى محمد - عليهم الصلاة والسلام - كله من عند الله، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾[3]. فهذا التوحيد أساس العقيدة يشترك فيه جميع الأنبياء في جميع الأديان، وجميع قصصهم في القرآن الكريم تؤكد الغرض الخاص، وأنهم جاءوا بعقيدة التوحيد، وعدم الإشراك بالله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[4]. كما تبين أن الله ناصر رسله، وناصر عقيدة التوحيد، فكل قصص القرآن يهدف إلى أغراض ينتفع بها في الدنيا، ومن ذلك قصص موسى عليه السلام.

٣- أن الله ينصر رسله والذين آمنوا، ويرحمهم من المآزق والكروب، وفي هذا شد لأزر المؤمنين، وتسلية لهم عما يلاقونه من الهموم والمصائب، وتثبيت للرسول محمد ﷺ ومن تبعه من أمته، وتأثير في نفوس من يدعوهم القرآن إلى الإيمان، وأنهم هالكون لا محالة إن لم يؤمنوا، وموعظة وذكرى للمؤمنين: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ

(١) سورة يوسف، الآيتان ٢ - ٣.

(٢) سورة هود، آية ٤٩.

(٣) سورة الشورى، آية ١٣.

(٤) سورة النحل، آية ٣٦.

مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[1].

٤- تنبيه أبناء آدم إلى خطر غواية الشيطان، وإبراز العداوة الخالدة بينه وبينهم منذ أبيهم إلى أن تقوم الساعة[2].

٥- الجانب التربوي في القصة القرآنية يمثل هدفًا بارزًا، فالقصة تتضمن إرشادًا إلى تعديل سلوك الإنسان وترقيته وحثه على طلب العلم، والتأمل والتفكير والاعتبار، كقصة الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه، وغيرها من القصص.

٦- ما تحققه القصة القرآنية من سعادة روحية للمؤمنين، وحقائق تتعلق بالكون والإنسان، فضلًا عما فيها من بديع النظم وجمال الأسلوب، وأسرار بلاغية يعرفها البلغاء.

وبعد، فقصة موسى والخضر عليهما السلام هي قصة هذه الحياة، وقصة هذا الكون الذي نعيش فيه. إنها قصة تثبت في صورة عملية واضحة رائعة، أن وراء المعلومات والمكشوفات في هذا العالم وفي هذه الحياة - مجهولات كثيرة، وأن ما يجهله الإنسان أكثر مما يعلمه، وأنه دائمًا يبني حكمه على ما يشاهده ويشعر به، ولذلك يخطئ كثيرًا ويتعثر كثيرًا، وأنه لو انكشفت له حقائق الحياة، وبواطن الأمور وعواقبها، لتغير حكمه كثيرًا، ونقض ما أبرم من أجله، وتثبت أنه لا ثقة بأحكامه وأقضيته، وميوله وانطباعاته، وأن لا إحاطة بهذا الكون الواسع، ولا يصح الإسراع في الحكم، والإلحاح على سوانح الآراء، فإن الحياة غامضة ملتوية، وإن الكون واسع فسيح، وكثيرًا ما يختلف الباطن عن الظاهر، والآخر عن الأول، وأن في هذه الحياة ألغازًا لم يستطع الإنسان على ذكائه وعلمه وحرصه أن يحلها، وأن في هذا الكون عُقدًا وغوامض لم يستطع العقل البشري مهما اتسع وارتفع أن يكشفها، وأن حياتنا اليومية العامة مليئة بالأخطاء الفاحشة، والأحكام السريعة، والخطوات المتهورة، والآراء المرتجلة، وأنه لو أسندت إليه إدارة هذا العالم الفسيح، ومنح الحرية التامة والتصرف

(١) سورة هود، آية ١٢٠.

(٢) التصوير الفني في القرآن لسيد قطب، ص ١٤٤ - ١٥٥ بتصرف، ودراسة ناقدة لأساليب التربية المعاصرة في ضوء الإسلام لفتحية عمر الحلواني، ص ٧٣، ٧٤.

المطلق؛ لأفسد العالم، وأهلك الحرث والنسل؛ لأن نظره قاصر، وعمله محدود، وقد خلق من عجل، وفطر على السرعة وقلة البصر. وفي قصة موسى عليه السلام والعبد الصالح اختار الله لتقرير هذه الحقيقة العظيمة - التي هي أساس الأديان أو الإيمان بالغيب - أعظم شخصية في عصره، الذي أوتي علمًا كثيرًا وخيرًا كثيرًا، هو موسى عليه السلام أحد أولي العزم من الرسل[1]، وفي ذلك تعليم وتنويه بشأن العلم والهدى، وتربية للمتقين.

****

(١) تأملات في سورة الكهف لأبي الحسن الندوي، ص ٩٠ - ٩١.

المطلب الأول

عرض ودراسة للآيات التي وردت فيها القصة

وردت هذه القصة في سورة الكهف، وهي سورة مكية بالاتفاق[1]، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ
قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا
حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾
قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ
عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا
وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ
مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾
قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ
قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى
بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ
جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ
قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا
يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ
تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ
سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا
رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ

---

(١) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروز آبادي ١/ ٢٩٧.

أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾(١).

***

(١) سورة الكهف، الآيات ٦٠ - ٨٢.

المطلب الثاني

التعريف بأشخاص القصة

يدور هذا المطلب على شخصيات ثلاث:

١- موسى الكليم عليه السلام.

٢- فتى موسى.

٣- العبد الصالح.

أولًا: من هو موسى الكليم؟

هو موسى بن عمران[١] النبي الرسول، فهو ثالث أولي العزم، ورسول بني إسرائيل، وكليم الله، وصاحب المعجزات، أنزلت عليه التوراة، وحين يذكر موسى في القرآن فهو موسى بن عمران الذي أنزلت عليه التوراة.

ثانيًا: أما فتاه:

فهو يوشع بن نون عليه السلام، وقد ورد ذلك صراحة في سياق القصة في صحيح البخاري مرفوعًا من حديث أبيّ بن كعب[٢].

---

(١) تاريخ الطبري ١/ ٣٨٥، والكامل في التاريخ لابن الأثير ١/ ١٦٩، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/ ٣٩٥، والبداية والنهاية ١/ ٢٣٧، وقصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار، ص ٢٢١.

(٢) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ ٥/ ٢٣٤، ونصه: (حدثني قتيبة بن سعيد، حدثني سفيان بن عيينة بن دينار، عن سعيد بن جبير =

ثالثًا: أما العبد الصالح:

فهو الخضر عليه السلام في قول الجمهور، وبمقتضى الأحاديث الثابتة[1]، وخالف في ذلك قوم: وقالوا: ليس هو الخضر، ولكنه عبد صالح[2]. والصحيح أنه الخضر، وبذلك ورد الخبر عن النبي ﷺ[3]، وفي هذا الحديث: «**إنما سمي الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء، فاهتزت تحته خضراء**»[4]. والفروة هنا وجه الأرض، قاله الخطابي وغيره[5]. وقد اختلف في اسمه واسم أبيه: «بليا، وقيل: اسمه إلياس، وقيل: اليسع، وقيل: عامر، وقيل: خضرون. وقد رجح ابن حجر الاسم الأول: بليا بن ملكان بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفشخذ بن سام بن نوح». فعلى هذا يكون مولده قبل إبراهيم عليه السلام؛ لأنه يكون ابن عم جد إبراهيم[6]، وقد حكى غيره أقوالًا كثيرة، نص عليها الشنقيطي في تفسيره، وليس فيها قول راجح؛ إذ قال: «والله أعلم بحقيقة الواقع»[7].

علاوة على ذلك فالقرآن الكريم لم ينص على اسمه ولا اسم الفتى؛ لأنه لا يهتم بالأسماء، والعبرة بالحدث نفسه والنتيجة.

= قال: قلت لابن عباس: إن نوفًا البكالي يزعم أن موسى نبي الله ليس بموسى الخضر. فقال: كذب عدو الله، حدثنا أبيّ بن كعب عن رسول الله ﷺ قال: قام موسى خطيبًا في بني إسرائيل، فقيل له أي الناس أعلم؟ قال: أنا. فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، وأوحى إليه: بلى، عبد من عبادي بمجمع البحرين هو أعلم منك. قال أي ربي، كيف السبيل إليه؟ قال: تأخذ حوتًا في مكتل، فحيثما فقدت الحوت فاتبعه. قال فخرج موسى ومعه فتاه يوشع بن نون ومعهما الحوت حتى انتهيا إلى الصخرة، فنزلا عندها... الحديث.

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١١/ ١٦.
(٢) المحرر الوجيز ٩/ ٣٥٦، والجامع لأحكام القرآن ١١/ ١٦.
(٣) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ﴾ ٥/ ٢٣٤.
(٤) سنن الترمذي ٥/ ٣١٣ ح ٣١٥١، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.
(٥) الجامع لأحكام القرآن ١١/ ١٦.
(٦) فتح الباري ٦/ ٤٣٣، والمحرر الوجيز ٩/ ٣٨٥ - ٣٨٦.
(٧) أضواء البيان ٤/ ١٩٣.

المطلب الثالث

سبب القصة

أما سبب القصة: يقول ابن كثير: سبب قول موسى لفتاه هذا الكلام - أي الذي تضمنته الآيات - أنه ذكر أن عبدًا من عباد الله بمجمع البحرين[1] عنده من العلم ما لم يحط به موسى، فأحب الذهاب إليه، وقال لفتاه: لا أبرح[2]. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: سأل موسى عليه السلام قال: أي رب، أي عبادك أحب إليك؟ قال: الذي يذكرني ولا ينساني. قال: فأي عبادك أقضى؟ قال: الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى. قال: أي رب، أي عبادك أعلم؟ قال: الذي يبتغي علم الناس إلى علم نفسه؛ عسى أن يصيب كلمة تهديه إلى الهدى أو ترده عن ردى. قال: رب، فهل في الأرض أحد أعلم مني؟ قال: نعم. قال: رب، فمن هو؟ قيل له: عند الصخرة التي عندها العين. فخرج موسى عليه السلام يطلبه حتى كان ما ذكر الله تعالى[3].

وفي إحدى روايات البخاري: (قال ابن عباس رضي الله عنهما، حدثني أبيّ بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**موسى رسول الله عليه السلام قال: ذكر الناس يومًا، حتى إذا فاضت العيون، ورقت القلوب - ولى، فأدركه رجل فقال: أي رسول الله،**

---

(١) مجمع البحرين: هو ملتقى مكان لقاء موسى بالخضر عليه السلام، وأما تحديد الموقع فقد سكت عنه القرآن الكريم والسنة الصحيحة، ولم أعثر على نص ثابت صحيح في ذلك، ولا طائل من معرفته. والله أعلم.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٩٨.

(٣) جامع البيان عن تأويل القرآن للطبري ١٥/ ٢٧٧.

هل في الأرض أحد أعلم منك؟ قال: لا. فعتب عليه إذ لم يرد العلم إلى الله. قيل: بلى. قال: أي رب فأين؟ قال: بمجمع البحرين. قال: أي رب اجعل لي عَلَمًا أعلم ذلك منه. فقال لي عمرو[1]: قال: حيث يفارقك الحوت..»[2]. وكان ذلك لونًا من ألوان العتاب لموسى؛ لأن بعض الروايات تقول: سئل موسى من أعلم الناس؟ قال: أنا. فأوحى الله إليه أن أعلم منك عبدًا لي بمجمع البحرين.. وذكر الحديث)[3].

وجاء في روايات البخاري لما أجاب موسى بأنه أعلم الناس، وقال الله له: إن عبدًا من عبادي بمجمع البحرين أعلم منك. قال موسى: يارب فكيف لي به؟ قال: تأخذ معك حوتًا فتجعله في مكتل، فحيثما فقدت الحوت فهو ثَمَّ. فأخذ حوتًا فجعله في مكتل ثم انطلق، وانطلق معه فتاه يوشع بن نون، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رأسهما فناما، واضطرب الحوت في المكتل فخرج منه فسقط في البحر، فاتخذ سبيله في البحر سربًا، وأمسك الله عن الحوت جريةَ الماء فصار عليه مثل الطاق، فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما، حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه: آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبًا. قال: ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمر الله به، فقال له فتاه: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾. قال: فكان الحوت سربًا، ولموسى ولفتاه عجبًا. فقال موسى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾. فقال: رجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجلٌ مسجى ثوبًا، فسلم عليه موسى.. وذكر الحديث[4].

قلت: هذا هو سبب القصة كما جاء في روايات البخاري[5]، وكما جاءت في كتب قصص

(١) عمرو بن دينار المكي، أبو محمد الأثرم، الجمحي مولاهم، ثقة ثبت، من الرابعة، مات سنة ١٢٦هـ. تقريب التهذيب ٢/ ٩٦.

(٢) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ ٥/ ٢٣٢.

(٣) المرجع السابق ٥/ ٢٣٠.

(٤) المرجع السابق ٥/ ٢٣٠.

(٥) رواه البخاري في صحيحه في كتاب الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى عليه السلام ٤/ ١٢٦، وفي العلم، باب ما ذكر في ذهاب موسى في البحر إلى الخضر عليه السلام ١/ ٢٦، وفي العلم، =

الأنبياء[1]. وقد أجمع العلماء على أن سبب القصة هو ما ذكر.

والحقب: قال عبد الله بن عمرو: الحقب: ثمانون سنة. وقال مجاهد: سبعون خريفًا. وروى معمر عن قتادة قال: الحقب: زمان. وقال النحاس: الذي يعرفه أهل اللغة أن الحقب والحقبة: زمان من الدهر مبهم، غير محدود، كما أن قومًا ورهطًا مبهم غير محدود، وجمعه أحقاب[2].

طلب العلم: يفهم من الآية: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾ ففي النص تصميم لموسى عليه السلام على الارتحال - ولو لسنين عدة - ليطلب العلم وليستزيد منه، واستعان على ذلك بخادمه المطيع فتاه يوشع بن نون، ولا مندوحة من اغتنام لقاء الفضلاء والعلماء وإن بعدت أقطارهم كما يقول القرطبي، وذلك دأب السلف الصالح، فقد رحل جابر بن عبد الله رضي الله عنه مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس في حديث[3]. ولا بأس من الاستعانة بالمال والزاد والأصحاب في طلب العلم، فقد استعان موسى بفتاه.

وخلاصة القول: إن طلب العلم يدعو للارتحال، والتزود له ولو بالصاحب القوي الفتي، وقد رحل موسى عليه السلام ليتعلم، وليتزود من العلم إلى عبد مجهول وصف له مكانه، وقد التقى عليه السلام بهذا العبد، وكان ما كان بينهما مما سنوضحه خلال القصة إن شاء الله تعالى.

= باب ما يستحب للعالم إذا سئل: أي الناس أعلم؟ فيكل العلم إلى الله ١/ ٣٨، وفي التفسير، باب قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾ الآية، ٥/ ٢٣٢، وباب قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ ٥/ ٢٣٤، وفي التوحيد، باب المشيئة والإرادة ٨/ ١٩٣.

(١) تاريخ الطبري ١/ ٣٦٦، والكامل لابن الأثير ١/ ١٦٠، والبداية والنهاية ١/ ٢٩٥، ١١/ ١٢.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٤/ ٢٦٤، والجامع لأحكام القرآن ١١/ ١٢.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١١/ ١٢.

لقاء موسى بالعبد الصالح:

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾[١].

تفسير الآيات: الضمير في قوله: ﴿بَيْنِهِمَا﴾ للبحرين، والسرب: المسلك، قال مجاهد، وقال قتادة: جمد الماء فصار كالسرب[٢]. وجمهور المفسرين: أن الحوت بقي موضع سلوكه فارغًا، وأن موسى مشى عليه متبعًا للحوت حتى أفضى به الطريق إلى جزيرة في البحر، وفيها وجد الخضر[٣]. هذا وإن كان ليس مستبعدًا على موسى، فهو المؤيد بالمعجزات الكبرى، فقد انفلق له البحر وصار يبسًا بأمر الله، ولكن ظاهر الكتاب والروايات أنه إنما وجد الخضر في ضفة البحر؛ أي: على الشاطئ[٤].

قوله: ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾. كان النسيان من الفتى وحده، فقد قيل: المعنى نسي أن يعلم موسى بما رأى من حاله، فنسب النسيان إليهما للصحبة. كقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾[٥]. وإنما يخرج من المالح[٦]، وقوله: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾[٧]. وإنما الرسل من الإنس لا من الجن، وروى البخاري: فقال لفتاه: لا أكلفك إلا أن تخبرني بحيث يفارقك الحوت. قال: ما كلفت كثيرًا، فذلك قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾. قال: فبينا هو في ظل صخرة ثَرْيان[٨]، اضطرب الحوت وموسى نائم، فقال فتاه: لا أوقظه. حتى إذا

(١) سورة الكهف، الآيات ٦١-٦٥.
(٢) المحرر الوجيز ٩/ ٣٥١، والجامع لأحكام القرآن ١١/ ١٢.
(٣) الجامع لأحكام القرآن ١١/ ١٢.
(٤) المحرر الوجيز ٩/ ٣٥٣.
(٥) سورة الرحمن، آية ٢٢.
(٦) محاسن التأويل للقاسمي ١/ ٤٠٧٧.
(٧) سورة الأنعام، آية ١٣٠.
(٨) ثريان: بمثلثة مفتوحة وراء ساكنة ثم تحتانية؛ أي: مبلول. فتح الباري ٨/ ٤١٥.

استيقظ نسي أن يخبر، وتضرّب الحوت حتى دخل البحر، فأمسك الله عنه جرية البحر حتى كان أثره في حجر. قال لي عمرو[١]: هكذا كان أثره في حجر، وحلق بين إبهاميه واللتين تليانهما[٢]. وفي رواية: وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق، فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما[٣].

يلاحظ هنا أن الأمر العجيب كهذا يستبعد نسيانه، حوت مملح يأكل منه، يحيا ويندفع في البحر، ويأخذ طريقًا في وسط الماء، والماء كالطاق فوقه أمر عجيب!! لكن لما كانت الرحلة كلها يمكن أن نسميها رحلة المفاجآت نسي الفتى أن يخبر موسى بما حدث؛ وهذا لحكمة أيضًا. ولم يتذكر إلا بعد أن سارا يومهما وليلتهما، وبعد أن كانا في حاجة للطعام، فلما كان من الغد قال موسى لفتاه: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾. ولم يجد موسى النصب حتى جاوزا المكان الذي أمر الله به، وذلك لحكمة أيضًا ليكون للحدث أثره، وفرحته، فقال له فتاه: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾. قيل: إن النسيان كان منهما؛ لقوله تعالى: ﴿نَسِيَا﴾ فنسب النسيان إليهما، وذلك أن بدء حمل الحوت كان من موسى؛ لأنه الذي أمر به، فلما مضيا كان فتاه الحامل له، حتى إذا أويا إلى الصخرة نزلا.

والذي أراه - والله أعلم - أن الفتى نسي الحوت وهو في مكتله، أي لم يندفع إلى البحر أمامه، وإلا فكيف يقول: فإني نسيت الحوت لو كان نزل البحر؟

قوله: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾. يعني الحوت هناك - فنسياه - أي متروكًا، فلما سأل موسى الغداء، نسب الفتى النسيان إلى نفسه عند المخاطبة تأدبًا منه، وإنما ذكر الله نسيانهما عند بلوغ مجمع البحرين وهو الصخرة، فقد كان موسى شريكًا في النسيان؛ لأن النسيان التأخير، ومن ذلك قولهم: (أنسأ الله في أجلك)[٤]، فلما مضيا من الصخرة أخر حوتهما عن حمله، فلم

---

(١) عمرو بن دينار، سبقت ترجمته ص ٣٣٩.

(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾ ٥/ ٢٣٢.

(٣) المرجع السابق ٥/ ٢٣٠، والجامع لأحكام القرآن ١١/ ١٢، ١٣.

(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١١/ ١٣.

يحمله واحد منهما، فجاز أن ينسب إليهما؛ لأنهما مضيا وتركا الحوت[1]. ومرة أخرى أقول: كون موسى وفتاه ينسيان زادهما وهما مسافران، وعلى الرغم من ذلك ينسيان قوتهما.

قوله: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾. قول من موسى لفتاه عندما شعر بالجوع، وحان وقت الغداء، ومن هذه الجملة نستنبط ضرورة تزود المسافر بما يحتاج إليه في سفره، فهذا موسى كليم الله ورسوله من أهل الأرض، اتخذ الزاد مع معرفته بربه وتوكله عليه[2]. وفي صحيح البخاري أن ناسًا من أهل اليمن كانوا يحجون ولا يتزودون ويقولون نحن المتوكلون، فإذا قدموا سألوا الناس، فأنزل الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾[3]. وقد كان الحوت دليلًا على موضع الخضر؛ لقوله في الحديث: «**احمل معك حوتًا في مكتل، فحيث فقدت الحوت فهو ثَمَّ**»[4].

قوله: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ يفيد أنهما تعبا، فالنصب: التعب والمشقة، وقد قال في أول القصة: ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾؛ أي: أنه عازم على السفر ولو استمر سنين عديدة. قال العلماء: يستنبط من الجملة: إخبار الإنسان بما يحدث له من الألم والمرض، وأن ذلك لا يقدح في الرضا ولا في التسليم للقضاء إذا كان الإخبار غير صادر عن ضجر أو سخط[5].

ثم قال: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾؛ أي: ما أنساني ذكره إلا الشيطان، وقد ذكر يوشع هذا في معرض الاعتذار لقول موسى له: لا أكلفك إلا أن تخبرني بحيث يفارق الحوت. فقال: ما كلفت كثيرًا. فاعتذر بذلك القول. ويفهم من ذلك أن ذكر عدم المشيئة قد يتسبب في النسيان، فلم يقل يوشع: إن شاء الله. لذلك نسي أن يخبر موسى باندفاع الحوت في الماء رغم غرابة هذا التصرف الذي لا ينسى، ومن هنا ينبغي ألّا يستهان بأمر ما.

---

(١) المرجع السابق.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١١/ ١٣.

(٣) سورة البقرة، آية ١٩٧. وانظر: صحيح البخاري، كتاب الحج، باب قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ ٢/ ١٤١.

(٤) تقدم تخريجه، هامش ص ٣٣٩.

(٥) الجامع لأحكام القرآن ١١/ ١٤.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾. يحتمل أن يكون من قول يوشع لموسى؛ لأن يوشع هو الذي رأى انفلات الحوت - أي: اتخذ الحوت سبيله عجبًا للناس - ويحتمل أن تكون الجملة من تمام الخبر.

قلت: الصواب - والله أعلم - أن يوشع لم ير انفلات الحوت، وإلا فما معنى ذكر النسيان. ثم استأنف التعجب، فقال من نفسه: عجبًا لهذا الأمر. وموضع العجب أن يكون حوت مملح أكل منه، ثم حيي بعد ذلك.

والأسلم القول: إن الله أحيى الحوت بسبب أو بغير سبب ليلتقي موسى بالعبد الصالح، وكان من الممكن لقاء موسى بالعبد الصالح دون هذه الأمارة. ولكن الله ربط الأسباب بالمسببات، وليعلم موسى وغيره أن التنقل لطلب العلم هدف ومغنم.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾؛ أي: إننا كنا نبغي فقد الحوت ونطلبه؛ لأن الرجل الذي جئنا له موجود مكان فقد الحوت، فرجعا يقصان آثارهما حتى لا يخطئا طريقهما. ويفهم من ذلك أنهما يسيران في طريق غير معهود. قال البخاري: فوجدا خضرًا على طنفسة خضراء على كبد البحر مسجى بثوبه؛ قد جعل طرفه تحت رجليه وطرفه تحت رأسه، فسلم عليه موسى، فكشف عن وجهه، وقال: هل بأرضك من سلام؟ من أنت؟ قال: أنا موسى. قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم. قال: ما شأنك؟ قال: جئت لتعلمني مما علمت رشدًا.. الحديث. وقال الثعلبي في كتاب العرائس[1]: إن موسى وفتاه وجدا الخضر وهو نائم على طنفسة خضراء على وجه الماء وهو متشح بثوب أخضر، فسلم عليه موسى، فكشف عن وجهه، فقال: وأنى بأرضنا السلام؟ ثم رفع رأسه، واستوى جالسًا، وقال: وعليك السلام يا نبي بني إسرائيل. فقال له موسى: وما أدراك بي؟ ومن أخبرك أني نبي بني إسرائيل؟ قال: الذي أخبرك بي ودلك علي. ثم قال: يا موسى لقد كان لك في بني إسرائيل شغل. قال موسى: إن

(١) كتاب العرائس المسمى بعرائس المجالس أو قصص الأنبياء، مؤلفه: أبو إسحاق أحمد بن محمد ابن إبراهيم النيسابوري المعروف بالثعلبي، مات سنة ٤٢٧هـ، والمؤلف معروف بولعه بالأخبار والقصص دون تحري الصحة والضبط. انظر: مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ص ١٩، وسير أعلام النبلاء للذهبي ١٧/ ٤٣٥، والتفسير والمفسرون للذهبي ١/ ٢٣٢.

ربي أرسلني إليك لأتبعك وأتعلم من علمك. ثم جلسا يتحدثان، فجاءت خطافة وحملت بمنقارها من الماء، فقال الخضر: يا موسى، ما مثل علمي وعلمك من علم الله إلا كما حمل هذا الطائر من الماء[1].

****

(١) المصدر السابق ص ١٩.

المطلب الرابع

الشريعة المتمثلة في موسى عليه السلام

ومفهوم العلم اللدني المتمثل في العبد الصالح والعلاقة بينهما

﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾. الرحمة في هذه الآية النبوة، وقيل: النعمة. والراجح أنها النبوة؛ وذلك لقوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[1]. فالرحمة أيضًا هنا النبوة[2].

قوله: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾؛ أي: علم الغيب. قال ابن عطية: كان علم الخضر علم معرفة بواطن الأمور، قد أوحيت إليه، لا تعطي ظواهر الأحكام أفعاله بحسبها، وكان علم موسى علم الأحكام والفتيا بظاهر أقوال الناس وأفعالهم[3].

من هنا كانت الشريعة متمثلة في موسى باعتباره نبيًا صاحب شريعة، وصاحب كتاب يحكم على الأمور بمقتضاه، أما الخضر فشيء آخر، أفعاله لا علاقة لها بالظواهر، وإنما هي موحى بها إليه؛ لقوله في آخر القصة: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾[4]. فالعلم اللدني الذي أشارت إليه الآية، الذي علمه الله للخضر عليه السلام: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾. هو علم النبوة والوحي[5]،

---

(١) سورة الزخرف، آية ٣٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١١/ ١٦، ١٦/ ٨٣.

(٣) المحرر الوجيز ٩/ ٣٥٧.

(٤) المرجع السابق.

(٥) أضواء البيان للشنقيطي ٤/ ١٧٣.

وإن العلاقة بينهما واحدة، فكلاهما من عند الله تعالى[1].

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾.

قوله: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾؟ سؤال فيه لطف وأدب غاية في الملاطفة وحسن الأدب، وهكذا ينبغي أن يكون عليه الطالب مع معلمه، وهنا تبرز قيمة طلب العلم، وتبرز ما ينبغي أن يكون عليه التلميذ من أستاذه. يقول موسى في تواضع جم: هل أتبعك؟ أي: أتأذن لي أن

(١) لكن بعض الصوفية استغلوا تسمية العلم اللدني مسوغًا لمنهجهم الباطني؛ كي لا يتقيدوا بأحكام الشريعة، ومن هؤلاء ما ذكره علي بن إبراهيم المهايمي في تفسيره: (تبصير الرحمن وتيسير المنان) عندما تطرق للآيات المتعلقة بالقصة، فقال: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾. وهو التجلي الشهودي من غير فناء، و(لذلك) علمناه (بلا واسطة بشر وملك) من لدنا علمًا جليلًا، لا يعطى كثيرًا من الأنبياء... ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ﴾ من لدن ربك ﴿رُشْدًا﴾ فوق هداية أهل الظاهر، كمعرفة أسرار الحق في بعض الأعمال التي يظهر قبحها.. ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى﴾ في علومي ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ﴾؛ فضلًا عن الإنكار عليه، فهذا العلم ليس بطريقة السؤال والجواب، بل بطريق الفيض، فلا بد من انتظاره، ولا بد من الصبر ﴿حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ﴾ في قلبك - ولو بطريق الفيض ولو مع اللسان - ﴿مِنْهُ ذِكْرًا﴾ يذكر به ما كمن فيه ا.هـ بتصرف ١/ ٤٥١ - ٤٥٢.

وهذا المنحى في دعوى القول بالعلم اللدني تولى الرد عليهم جماعة من المفسرين، أمثال أبي العباس شيخ القرطبي حيث قال: «ذهب قوم من زنادقة الباطنية إلى سلوك طريق تلزم منه هذه الأحكام الشرعية، فقالوا: هذه الأحكام الشرعية العامة إنما يحكم بها على الأغنياء والعامة، وأما الأولياء وأهل الخصوص فلا يحتاجون إلى تلك النصوص، بل إنما يراد منهم ما يقع في قلوبهم، ويحكم على ما يغلب عليهم من خواطرهم، وقالوا: وذلك لصفاء قلوبهم عن الأكدار، وخلوها عن الأغيار، فتتجلى لهم العلوم الإلهية، والحقائق الربانية، فيقفون على أسرار الكائنات ويعلمون أحكام الجزئيات، فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات، كما اتفق الخضر؛ فإنه استغنى بما تجلى له من العلوم، عما كان عند موسى من تلك الفهوم... وهذا القول زندقة وكفر يقتل قائله ويستتاب.. ا.هـ بتصرف. الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١١/ ٤٠، ٤١. ومثل ذلك قال به أبو العز في شرح العقيدة الطحاوية، ص ٥٧٧، والشنقيطي في أضواء البيان ٤/ ١٧٣، ١٧٤.

أكون تلميذًا لك؟ هل يتفق لك ويخف عليك؟ وهذا كما في الحديث: «**هل تستطيع أن تريني كيف كان رسول الله ﷺ يتوضأ؟**»[1].

وفي هذه الآية أيضًا دليل على أن المتعلم تبع للمعلم أو للعالم، وإن تفاوتت المراتب. ولا يظن أن في تعلم موسى من الخضر ما يدل على أن الخضر كان أفضل من موسى، فقد يشذ عن الفاضل ما يعلمه المفضول، والفضل لمن فضله الله.

وعندما نقف على سبب القصة ندرك أن لا تفضيل للخضر على موسى عليهما السلام، فالأمر يقف عند حد عدم قبول ادعاء أي إنسان بلوغ قمة العلم، فموسى عليه السلام عندما سأله رجل من بني إسرائيل: هل هناك من هو أعلم منك؟ أجاب بالنفي، فأعلمه الله أن هناك من هو أعلم منه، ولعل هذا الأمر يرشدنا إلى جانب تعليمي في تربية الرب لأنبيائه ورسله، وكذلك حثهم على طلب العلم والاستزادة منه.

قال الخضر: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾. أي: يا موسى، لن تستطيع أن تصبر على ما تراه من علمي؛ لأن ظواهر علمك لا تجيزه، وكيف تصبر على ما تراه خطأ ولم تخبر بوجه الحكمة فيه. وذلك معنى قوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾. والأنبياء لا يقرون على منكر، ولا يجوز لهم التقرير - أي السكوت - على حكمك وعادتك، والخبير بالأمور هو العالم بخفاياها وبما يختبر منها[2]، وتنكير (صبرًا) في سياق النفي وهي تفيد العموم، كأنه قال: لا تصبر معي أصلًا ولو شيئًا يسيرًا من الصبر. قال موسى ما قاله الله تعالى: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾. أي: سأصبر بمشيئة الله تعالى، ولا أعصي لك أمرًا، فقد ألزمت نفسي بطاعتك. وهكذا يكون طالب العلم الذي يريد أن يتعلم بصبر ليستفيد. وهل قوله: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ يشمل قوله: ﴿وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ وقد استثنى في الصبر فصبر؟

الراجح أن الاستثناء يشمل الجميع كقوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾. وقيل: لم يستثن في قوله: ﴿وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ فاعترض وسأل. قال القرطبي: قال علماؤنا:

(١) أخرجه أبو داود في سننه ١/ ٨٧ ح ١١٨.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١١/ ١٧.

إنما كان ذلك منه لأن الصبر أمر مستقبل ولا يدري كيف يكون حاله فيه، ونفي المعصية معزوم عليه حاصل في الحال، فالاستثناء فيه ينافي العزم عليه. ويمكن التفريق بينهما بأن الصبر ليس مكتسبًا لنا بخلاف المعصية فعلها وتركها، فإن كله مكتسب لنا[1]. والاستثناء يشمل الصبر وعدم الاعتراض على الأمور، لكن ما حدث من الخضر لا يمكن السكوت عليه، لا سيما من شخص كموسى صاحب شريعة وكتاب، فضلًا عن كونه سريع الغضب، فغير خافٍ علينا قتل القبطي المصري: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِ﴾[2]، وما حدث منه مع أخيه هارون، وقول هارون له: ﴿قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ﴾[3]، وغير ذلك من المواقف، فكان عليه السلام إذا غضب رفع شعر رأسه قلنسوته، ورفع شعر صدره جبته[4]، فكيف يسكت موسى على فعل ما هو مخالف لشريعته دون جدال؟ فضلًا عن المفاجآت لهذه الأفعال التي تنسيك ما التزمت به.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا﴾. هذا شرط الخضر، ومن حق الشيخ أن يشترط على تلاميذه، وهذا يعطينا تصور مدى أهمية الأستاذ بالنسبة للطالب. قال الخضر: لا تسألني عن تفسير أي حدث أو فعل أفعله حتى أفسره لك، وهذا من الخضر تأديب وإرشاد لما يقتضي دوام الصحبة، قال الزمخشري: فمن شرط اتباعك لي أنك إذا رأيت مني شيئًا وقد علمت أنه صحيح إلا أنه غُبِّي عليك وجه صحته، فحميت وأنكرت في نفسك - ألا تفاتحني بالسؤال ولا تراجعني فيه حتى أكون أنا الفاتح عليك، وهذا من آداب المتعلم مع العالم والمتبوع مع التابع[5]، فلو صبر ودأب لرأى العجب، لكنه أكثر من الاعتراض فتعين الفراق والإعراض.

* * * *

(١) الجامع لأحكام القرآن ١١/ ١٧ - ١٨.

(٢) سورة القصص، آية ١٥.

(٣) سورة طه، آية ٩٤.

(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٧/ ٢٨٧، والدر المنثور للسيوطي ٣/ ٥٦٤.

(٥) الكشاف للزمخشري ٣/ ٤٩٣.

المطلب الخامس

الأحداث التي فصلتها القصة وكان محورها العبد الصالح

الحدث الأول:

قوله تعالى: ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴾.

جاء في صحيحي البخاري ومسلم: **«فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرت سفينة، فكلموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر، فحملوه بغير نول - أي أجرة - فلما ركبا في السفينة لم يفاجأ موسى إلا والخضر قد قلع لوحًا من ألواحها بالقَدُّوم، فقال له موسى: قوم حملونا بغير نول؛ عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها، لقد جئت شيئًا إمرًا. قال: ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرًا. قال: لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرًا»**[1].

قال رسول الله ﷺ: وكانت الأولى من موسى نسيانًا. قال: وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر نقرة من البحر، فقال له الخضر: ما علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقر هذا العصفور من هذا البحر. وحرف السفينة طرفها، وحرف كل شيء طرفه، ومنه حرف الجبل وهو أعلاه المحدد، والعلم هنا بمعنى العلوم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾[2]،[3]. أي من معلوماته، وهذا من الخضر تمثيل، أي معلوماتي ومعلوماتك لا أثر لها

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ ٥/ ٢٣١، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب من فضائل الخضر عليه السلام ٢/ ١٨٤٧.

(٢) سورة البقرة، آية ٢٥٥.

(٣) المرجع السابق.

في علم الله، كما أن ما أخذ العصفور من هذا البحر لا أثر له بالنسبة لماء البحر، وإنما مثل له ذلك بالبحر لأنه أكثر ما يشاهده مما بين أيدينا. وإطلاق لفظ النقص هنا تجوز قصد به التمثيل والتفهيم؛ إذ لا نقص في علم الله. وهذا صحيح، فكل علم العلماء على ظهر الأرض لا يساوي شيئًا بالنسبة لعلم الله، وصدق الله إذ يقول: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾[(١)]. فلا نقص في علم الله ولا نهاية لمعلوماته، وقد أوضح هذا المعنى البخاري فقال في روايته: «**والله ما علمي وما علمك في جنب علم الله إلا كما أخذ هذا الطير بمنقاره من البحر**»[(٢)].

وعن أبي العالية قال: «لم ير الخضر حين خرق السفينة غير موسى، وكان عبدًا لا تراه إلا عين من أراد الله له أن يراه، ولو رآه القوم لمنعوه من خرق السفينة، وقيل: خرج أهل السفينة إلى جزيرة وتخلف الخضر فخرق السفينة»[(٣)]. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لما خرق الخضر السفينة تنحى موسى ناحية، وقال في نفسه: ما كنت أصنع بمصاحبة هذا الرجل، وكنت من بني إسرائيل أتلو كتاب الله عليهم غدوة وعشية فيطيعوني؟ قال له الخضر: يا موسى، أتريد أن أخبرك بما حدثت به نفسك؟ قال: نعم. قال: كذا وكذا. قال: صدقت. ذكره الثعلبي في كتاب العرائس[(٤)]. وفي خرق السفينة دليل على أن للولي أن ينقص مال اليتيم إذا رآه صلاحًا، كأن يخاف على ريعه ونتاجه من ظالم، فيخرب بعضه.

قوله: ﴿لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ «رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن هذا من معاريض الكلام، وقيل: نسي فاعتذر. ففيه ما يدل على أن النسيان لا يقتضي المؤاخذة، وأنه لا يدخل تحت التكاليف، ولا يتعلق به حكم طلاق ولا غيره، ولو نسي في الثانية لاعتذر»[(٥)].

---

(١) سورة الكهف، آية ١٠٩.

(٢) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا﴾ ٥/ ٢٣٣.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١١/ ١٣.

(٤) قصص الأنبياء المسمى بعرائس المجالس ص ١٩٩، المرجع السابق.

(٥) الجامع لأحكام القرآن ١١/ ١٩.

الحدث الثاني:

قوله تعالى: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا﴾.

جاء في البخاري قوله: قال يعلى: قال سعيد: وجد غلمانًا يلعبون فأخذ غلامًا كافرًا فأضجعه ثم ذبحه بالسكين، قال: أقتلت نفسًا زكية بغير نفس، لم تعمل بالحنث[1]. وفي الصحيحين، وصحيح الترمذي: «**ثم خرجا من السفينة، فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلامًا يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه بيده، فأقتلعه بيده فقتله، فقال له موسى:** ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾، **قال: وهذا أشد من الأولى.** ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا﴾» لفظ البخاري[2]. وروى ابن كثير الرواية هكذا[3]. قال القرطبي: «وفي التفسير أن الخضر مر بغلمان يلعبون فأخذ بيده غلامًا ليس فيهم أضوأ منه، وأخذ حجرًا فضرب به رأسه حتى دمغه، فقتله، قال أبو العالية: لم يره إلا موسى، ولو رأوه لحالوا بينه وبين الغلام»[4].

ولعل الصواب ما جاء في الصحيح، وربما كان الهدف من هذه الرحلة كل هذه الأمور، والله يسبب الأسباب، وكان من الممكن أن يعلم الخضر موسى بغير هذه الرحلة، وقد يكون رأي أبي العالية صحيحًا، فلو أن أصحاب السفينة رأوا الخضر وهو يخرقها لمنعوه، واعترضوا عليه، ولحدثت بينهم أمور، وكذلك الغلمان لو أنهم رأوا الخضر وهو يذبح الغلام لمنعوه وساروا ضده، لا سيما وهو غريب، ولكانت القرية اعترضته، وصنعت به الأصانيع.

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾ الآية / ٢٣٣.

(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾ الآية، ٥/ ٢٣١، وصحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب من فضائل الخضر عليه السلام ٢/ ٢٨٤٩، ح ١٧٠، وسنن الترمذي ٥/ ٣١٠ ح ٣١٤٩.

(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ١٠٠.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١١/ ٢٠.

فقد يكون من الأرجح رؤية موسى فقط لأفعال الخضر، ولا غرابة في ذلك.

قوله: «نفسًا زكية»: وقرئ: زاكية - بالألف - أي التي لم تذنب، وقيل: الزكية التي أذنبت ثم تابت(1).

قوله تعالى: ﴿غُلَمًا﴾. قال القرطبي: «قال الكلبي: كان بالغًا يقطع الطرق بين قريتين، وأبوه من عظماء أهل القريتين، وأمه من عظماء القرية الأخرى، فأخذه الخضر، وصرعه، ونزع رأسه عن جسده، قال الكلبي: اسم الغلام شمعون، واسم أمه رحمى(2)، وغير ذلك من الأسماء والأقوال، ومعرفة الأسماء لا ضرورة لها، لذا لم يذكرها القرآن.

ولكن الجمهور يرى أنه لم يكن بالغًا، ولذا قال موسى «نفسًا زكية» - لم تذنب - وهذا الذي يقتضيه لفظ الغلام، ويتمشى مع ظاهر الآية، ولفظ الغلام في القرآن يؤيد ذلك: ﴿يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾(3)، ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾(4)، وقوله: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾(5). وقول الرسول ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «**يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك..**» الحديث(6). فالغلام يقال لمن لم يبلغ من الرجال، ومثله الجارية في النساء فيطلق على من لم تبلغ، وقد قتل الخضر الغلام لما علم من سره، وأنه طبع كافرًا كما في صحيح الحديث(7)، وأنه لو أدرك لأرهق أبويه كفرًا، وقتل الصغير غير مستحيل إذا أذن الله في ذلك؛ فإن الله تعالى فعال لما يريد. وفي كتاب **العرائس**: لما قتل الخضر الغلام، وقال موسى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ الآية. غضب الخضر، واقتلع كتف الصبي الأيسر وقشر اللحم عنه، وإذا في عظم كتفه مكتوب: كافر لا يؤمن بالله أبدًا(8).

---

(1) الحجة في القراءات السبع لابن خالويه، ص٢٧٧.

(2) الجامع لأحكام القرآن ١١/ ٢١.

(3) سورة يوسف، آية ١٩.

(4) سورة الحجر، آية ٥٣.

(5) سورة الصافات، آية ١٠١.

(6) سنن الترمذي ٤/ ٦٦٧ ح ٢٥١٦، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(7) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب من فضائل الخضر عليه السلام ٢/ ١٨٥٢ ح ١٧٢.

(8) الجامع لأحكام القرآن ١١/ ٢١.

قوله: ﴿بِغَيۡرِ نَفۡسٖ﴾ يقتضي أنه لو كان عن قتل نفس لم يكن بذلك بأس، فإنه يعتبر قصاصًا. قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان شابًا يقطع الطريق. وذهب ابن جبير إلى أنه بلغ سن التكليف[1]. ولكن ذلك خلاف الظاهر كما سبق ذكره. وأبواه كانا مؤمنين بلا خلاف، وقالوا: لا يطلق عليه كافرًا إلا بالبلوغ. وما رجحته أولى، وهو أنه كان غلامًا دون البلوغ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا﴾. لا يفيد أنه كان بالغًا وكان كافرًا.

قوله: ﴿نُّكۡرٗا﴾. فهل نكرًا أبلغ أم إمرًا؟ قال جماعة: إن القتل هنا قتل بيِّن فقيل: نكرًا. وهناك مترقب، فنكرًا أبلغ. وقالت جماعة: هنا قتل واحد، وهناك قتل جماعة فإمرًا أبلغ. قال أبو عطية: هما لمعنيين، قوله: إمرًا: أفظع وأهول من حيث هو متوقع عظيم، ونكرًا بين الفساد؛ لأن مكروهه قد وقع، وهذا بين[2]، وهو الذي تنكره العقول وتستقبحه، فهو أشد من الشيء الإمر؛ لأنه فساد حاصل والآخر ذريعة فساد[3]. قوله: ﴿قَالَ إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ﴾ شرط وهو لازم، والمسلمون على شروطهم، وأحق الشروط أن يوفى به ما التزمه الأنبياء، والتزم للأنبياء.

قوله: ﴿قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا﴾. هذا يدل على قيام الاعتذار بالمرة الواحدة، وبقيام الحجة من المرة الثانية بالقطع. قال ابن العربي[4]: قال ابن عطية: ويشبه أن تكون هذه القصة أصلًا للآجال في الأحكام التي هي ثلاثة أيام، وأيام التلوُّم ثلاثة[5]، ويؤخذ من هذا قبول الأعذار من الأصحاب لثلاث مرات.

قوله: ﴿فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ﴾. أي: لا تتابعني، أو فلا تتركني أصحبك، ﴿قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا﴾: أي بلغت مبلغًا تعذر به في ترك مصاحبتي. أسند الطبري قال: كان رسول الله ﷺ إذا دعا لأحد

(١) المرجع السابق.
(٢) المحرر الوجيز ٩/ ٣٦٦.
(٣) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور ١٥/ ٣٧٨.
(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٢٤٦.
(٥) المحرر الوجيز ٩/ ٣٦٧.

بدأ بنفسه، فقال يومًا: «**رحمة الله علينا وعلى موسى، لو صبر على صاحبه لرأى العجب، ولكنه قال**: ﴿فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا﴾»[1]. وفي صحيح مسلم، قال رسول الله ﷺ: «**رحمة الله علينا وعلى موسى لولا أنه عجل لرأى العجب، ولكنه أخذته من صاحبه ذمامة، ولو صبر لرأى العجب**»[2]، قال: وكان إذا ذكر أحدًا من الأنبياء بدأ بنفسه: «**رحمة الله علينا وعلى أخي كذا**»[3]. وفي رواية عنه قال النبي ﷺ: «**يرحم الله موسى، لوددت أنه صبر حتى يقص علينا من أخبارهما**»[4]. والذمامة بالذال المفتوحة: بمعنى المذمة - بفتح الذال وكسرها - وهي الرقة والعار من تلك الحرمة، يقال: أخذتني منك مذَمة ومذِمة وذمامة، وكأنه استحيا من تكرار مخالفته، مما صدر عنه من تغليظ الإنكار[5].

الحدث الثالث:

قوله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ٧٧ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا﴾.

هذا هو الحدث الثالث في القصة، ففي صحيح مسلم عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ﴾ **لئامًا فطافا في المجالس فاستطعما أهلها**، ﴿فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾- يقول: مائل. **قال الخضر بيده هكذا فأقامه، قال له موسى: قوم أتيناهم فلم يضيفونا ولم يطعمونا**، ﴿لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ٧٧ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا﴾. قال رسول الله ﷺ: «**يرحم الله موسى، لوددت أنه كان صبر حتى يقص علينا من أخبارهما**»[6].

---

(١) جامع البيان عن تأويل القرآن ١٥/ ٢٨٨.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب من فضائل الخضر ٢/ ١٨٥١.

(٣) المرجع السابق.

(٤) المرجع السابق.

(٥) منال الطالب لابن الأثير، ص ٤٠٢، والجامع لأحكام القرآن ١١/ ١٨٥٢.

(٦) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب فضائل الخضر عليه السلام ٢/ ١٨٥٢.

وفي الآية أمور:

١- قال العلماء: كان موسى عليه السلام حين سقى لبنتي صاحب مدين أحوج منه حين أتى القرية مع الخضر، ولم يسأل قوتًا بل سقى ابتداء وبدون أجر. وفي القرية التي معنا سألا القوت، ومرجع ذلك: إما لأنه كان منفردًا في مدين، وفي قصة الخضر كان تبعًا لغيره، وهذا يتمشى مع قوله: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾، فأصابه الجوع مراعاة لفتاه يوشع، وقيل: لما كان هذا سفر تأديب وكل إلى تكلف المشقة، وكان في ذلك سفر هجرة فوكل إلى العون والنصرة بالقوت.

٢- في الآية دليل على سؤال القوت، وأن من جاع وجب عليه طلب ما يرد جوعه، والاستطعام: سؤال الطعام، والمراد هنا الضيافة؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾. فاستحق أهل القرية لذلك الذم والملامة، ووصفوا باللؤم والبخل، قال قتادة: شر القرى التي لا تضيف الضيف ولا تعرف لابن السبيل حقه، ويظهر من ذلك أن الضيافة كانت عليهم واجبة، وأن الخضر وموسى سألا حقهما(١).

٣- قوله: ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾. أي: جدار مبني يؤول للسقوط، يريد أن ينقض فأقامه؛ أي: اقترب أن يسقط.

٤- قوله: ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾ أي هدمه ثم قعد يبنيه، فقال موسى للخضر: لو شئت لاتخذت عليه أجرًا. لأنه فعل فعلًا يستحق عليه الأجر، وقال سعيد بن جبير: مسحه بيده فأقامه.

والصواب أن يقال: إن الله عز ذكره أخبر أن موسى وصاحبه وجدا جدارًا يريد أن ينقض، فأقامه صاحب موسى، بمعنى: عدل ميله حتى عاد مستويًا، وجائز أن يكون ذلك بإصلاح بعد هد، وجائز أن يكون برفع منه له بيده، فاستوى بقدرة الله، وزال عنه ميله بلطفه، ولا دلالة من كتاب الله ولا خبر للعذر قاطع بأن ذلك كان من أيٍّ(٢).

(١) الجامع لأحكام القرآن ١/ ٢٤.
(٢) جامع البيان في تأويل آي القرآن للطبري ١٥/ ٢٩٠.

٥- قوله: ﴿لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾. فيه دليل على صحة جواز الإجارة، وهي سنة الأنبياء، وصدرت هذه الجملة من موسى سؤالًا على جهة العرض، لا بقصد الاعتراض، فعند ذلك قال له الخضر: هذا فراق بيني وبينك - بحكم ما شرطت على نفسك - وتكريره ﴿بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ وعدوله عن ﴿بَيْنَنَا﴾ لمعنى التأكيد، كقولهم: أخزى الله الكاذب مني ومنك؛ أي منا. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: وكان قول موسى في السفينة والغلام لله، وكان قوله في الجدار لنفسه لطلب شيء من الدنيا، فكان سبب الفراق، قال وهب بن منبه: كان الجدار طوله في السماء مائة ذراع[١].

****

(١) الجامع لأحكام القرآن ١١/ ٢٣.

المطلب السادس

تفسير أحداث القصة

لما انتهت هذه الأحداث وكان الفراق بين موسى والخضر، كان لزامًا على الخضر أن يوضح المراد من هذه الأحداث التي يخالف ظاهر فعلها شريعة موسى، فقال: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾. أي: إني أخبرك لم فعلت ما فعلت؟ وقيل في تفسير هذه الآيات التي وقعت لموسى مع الخضر: إنها حجة على موسى – وعجبًا له – كيف؟ ذلك أنه لما أنكر خرق السفينة نودي: يا موسى، أين كان تدبيرك هذا وأنت في التابوت مطروحًا في اليم؟ ولما أنكر أمر الغلام قيل له: أين إنكارك هذا من وكزك القبطي وقضائك عليه؟ فلما أنكر إقامة الجدار قيل له: أين هذا من رفعك حجر البئر لبنتي شعيب دون أجر(1).

تفسير الحدث الأول:

وجاء ذلك في قوله تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾. استدل بهذا من قال: إن المسكين أحسن حالًا من الفقير. قيل: إنهم كانوا تجارًا، ولكن من حيث إنهم مسافرون عن قلة في لجة البحر، وبحال ضعف عن مدافعة خطب؛ عَبَّر عنهم بمساكين؛ إذ هم في حالة يشفق عليهم بسببها، كقولك لرجل غني وقع في خطب: مسكين. وإلا فالمسكين أصلًا من كانت يده والتراب؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾(2).

---

(1) روح المعاني للألوسي ١٦/ ٨.

(2) سورة البلد، آية ١٦، وانظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١١/ ٣٤.

قال كعب وغيره: كانت لعشرة إخوة مساكين ورثوها من أبيهم؛ خمسة زمنى وخمسة يعملون في البحر. وقيل: كانوا سبعة بكل واحد منهم زمانة ليست بالآخر. وقد ذكر النقاش أسماءهم[1].

وعلى أي تفسير فالقرآن قال: ﴿فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ﴾. وظاهر الآية يفيد أنهم كانوا يعملون في البحر أجراء للسفينة أو مالكين لها، (هم مساكين)، وهم جماعة عشرة أو أكثر أو أقل، وفي قراءة غير متواترة «لمسّاكين» - بتشديد السين[2]. ولذا قيل: هم ملاحو السفينة؛ وذلك لأن المالك هو الذي يمسك رجل السفينة؛ أي: دفتها التي تتحرك بها في الاتجاهات المختلفة، وكل الخدمة تصلح لإمساكه فسمي الجميع مساكين، ولكن الأظهر قراءة التخفيف وهي جمع مسكين، والمعنى أن السفينة لقوم ضعفاء ينبغي أن يشفق عليهم[3]، وهذا أصح التفاسير - إن شاء الله - ولو كانوا أجراء وليسوا مالكين لها ما خرقها الخضر؛ لأنه إنما فعل ذلك ليعيبها لتبقى لهم يتعايشون بها.

قوله: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾. أي: أحدث فيها عيبًا فتصبح ذات عيب فلا يطمع في أخذها أحد. ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾. قرأ ابن عباس وعثمان بن عفان رضي الله عنهم (صالحة)، و(وراء) أصلها بمعنى خلف، فقال بعض المفسرين: إنه كان خلفهم وكان روعهم عليه، ولكن الأظهر أن معنى «وراءهم»: أمامهم لقراءة ابن عباس رضي الله عنهما: (وكان أمامهم ملك)[4]. قال ابن عطية: ووراءهم على بابه، وذلك أن هذه الألفاظ إنما تجيء مراعى بها الزمان؛ وذلك أن الحدث المقدم الموجود هو الأمام، والذي يأتي بعده هو الوراء وهو ما خلف، وذلك بخلاف ما يظهر بادئ الرأي[5]. الآية معناها أن هؤلاء وعملهم وسعيهم يأتي بعده من الزمان غصب هذا الملك، وتفسير ابن عطية تفسير جيد، ولا ضرورة لخلافه،

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المحرر الوجيز ٩/ ٣٣٧.

(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١١/ ٣٤.

(٥) المحرر الوجيز ٩/ ٣٧٨.

فهناك ملك غاصب وراءهم أو أمامهم، ومن قرأ «أمامهم» أراد في المكان. ولفظ أمامهم أو قراءة (أمامهم) قراءة صالحة؛ لعلها كانت قراءة ثم نسخت، فهي قراءة ليست متواترة، ومن قرأ: «أمامهم» - أي كأنهم يسيرون إلى بلد، وذلك كقوله - عليه الصلاة والسلام: «**الصلاة أمامك**»[1] يريد: في المكان، وإلا فكونهم في ذلك الوقت كان أمام الصلاة في الزمان، ووقع لقتادة في تفسير الطبري: «﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾، قال قتادة: أمامهم، ألا تراه يقول: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ وهي بين أيديهم؟ قالوا: وهذا القول غير مستقيم، وهذه هي العجمة»[2].

ولتحقيق القول في قوله: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾. قال العلماء: اختلف أهل العربية في استعمال (وراء) موضع (أمام) على ثلاثة أقوال:

الأول: أنه يجوز استعمالها بكل حال وفي كل مكان، وهو من الأضداد، قال تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾[3]. أي: أمامهم.

الثاني: أن وراء تستعمل في موضع أمام في المواقيت والأزمان؛ لأن الإنسان يجوزها فتصير وراءه، والتي معنا هنا من هذا الاستعمال، ولا يجوز في غيرها.

الثالث: أنه يجوز في الأجسام التي لا وجه لها كحجرين متقابلين كل واحد منهما وراء الآخر، ولا يجوز في غيرها[4].

واختلف في اسم هذا الملك على أقوال، أشهرها أنه هدد بن بدد، والغلام المقتول اسمه جيسور، وبذلك قال البخاري[5]، وكان يأخذ - أي الملك - كل سفينة جيدة غصبًا، فلذلك عابها الخضر وخرقها خرقًا بحيث يعتبر عيبًا، ولكنها تظل صالحة للاستعمال فينتفع بها

(١) صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب إسباغ الوضوء ١/ ٤٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب استحباب إدامة الحاج للتلبية حتى يشرع في رمي جمرة العقبة يوم النحر ١/ ٩٣١ ح ١٢٨٠.

(٢) جامع البيان في تأويل آي القرآن ١٦/ ١، والجامع لأحكام القرآن ١١/ ٣٥.

(٣) سورة الجاثية، آية ١١.

(٤) النكت والعيون للماوردي ٢/ ٥٠١.

(٥) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾ ٥/ ٢٣٣.

أصحابها المساكين[1]. وجاء في صحيح مسلم أن وجه الحكمة في خرق السفينة أنه إذا جاء الذي يسخرها وجدها منخرقة فتجاوزها، فأصلحوها بخشبة[2]. ويقول ابن كثير في **البداية والنهاية**: «سدوها بقارورة أو بالقار»[3]. ونحصل من هذا الموقف الحض على الصبر في الشدائد، فكم في ذلك المكروه من الفوائد، وهذا معنى قوله: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾[4]، وقوله: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾[5].

تفسير الحدث الثاني:

قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا﴾ الآية.

جاء في صحيح الحديث أنه طبع يوم طبع كافرًا[6]، وهذا يؤيده ظاهره أنه غير بالغ، ويحتمل أن يكون خبرًا عنه مع كونه بالغًا، وقد سبق إيضاحه. قوله: ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا﴾. قيل: هو من كلام الخضر عليه السلام، وهو الذي يشهد له سياق الكلام، وهو قول كثير من المفسرين، والمعنى أي: خفنا أن يرهقهما طغيانًا وكفرًا، وكان الله قد أباح له الاجتهاد في قتل النفوس على هذه الجهة. وقيل: هو كلام الله تعالى، وعنه عبر الخضر[7]. قال ابن جرير الطبري: معناه فعلمنا[8]، وكذا قال ابن عباس رضي الله عنهما؛ أي: فعلمنا[9]. وحكي أن أُبيًّا رضي الله عنه قرأ: «فعلم ربك». وقيل: الخشية بمعنى الكراهة، يقال: فرقت بينهما خشية أن يقتتلا؛ أي: كراهة ذلك[10]. قال ابن عطية: والأظهر عندي في توجيه هذا التأويل وإن كان

(١) الجامع لأحكام القرآن ١١/ ٣٦.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب من فضائل الخضر عليه السلام ٢/ ١٨٥٢ح ٢٣٨٠.

(٣) ١/ ٢٩٨.

(٤) سورة البقرة، آية ٢١٦.

(٥) سورة النساء، آية ١٩.

(٦) تقدم تخريجه ص٣٥٧.

(٧) الجامع لأحكام القرآن ١١/ ٣٦.

(٨) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ١٦/ ٢.

(٩) الجامع لأحكام القرآن ١١/ ٣٦.

(١٠) المرجع السابق.

اللفظ يدافعه - أنها استعارة، أي: على ظن المخلوقين والمخاطبين لو علموا حاله لوقعت منهم خشية الرهق لأبويه[١]. و﴿يُرۡهِقَهُمَا﴾. أي: يجشمهما ويكلفهما بشدة، والمعنى أن يلقيهما حبهما في اتباعه فَيُضِلا، أي أنهما يضلان غيرهما، والصواب فَيضِلا ويتدينا بدينه[٢].

قال الألوسي: فخشينا أن يرهقهما، أي فخفنا خوفًا شديدًا أن يغشى الوالدين المؤمنين - لو بقي حيًّا - طغيان؛ أي: مجاوزة للحدود الإلهية، وكفر بالله تعالى؛ وذلك بأن يحملهما حبه على متابعته.

وعطف الكفر على الطغيان لتفظيع أمره، ولعل ذكر الطغيان - مع أن ظاهر السياق الاقتصار على الكفر - ليتأتى هذا التفظيع، أو خشية يدني إيمانهما أولًا أو يزله آخرًا[٣].

وقال ابن عطية أيضًا: إن الخوف والخشية كالترجي بلعل ونحوها الواقع في كلامه تعالى المصروف للمخاطبين، وإلا فالله تعالى منزه عن ذلك[٤].

قوله تعالى: ﴿فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا﴾. خيرًا منه زكاة أي دينًا وصلاحًا، يقال: بدل وأبدل، ونزل وأنزل، وأقرب رحمًا أي رحمة، يقال: رحمه رحمة ورحمًا. والمعنى أن يرزقهما الله بدلًا منه ولدًا خيرًا منه زكاة - أي دينًا - وهو تفسير باللازم والكثير، قالوا: أي طهارة من الذنوب والأخلاق الرديئة. وفي التعرض لعنوان الربوبية والإضافة إليهما ما لا يخفى من الدلالة على إرادة وصول الخير إليهما، وأقرب رحمًا أي رحمة - وهما مصدران كالكثير والكثرة - والمراد أقرب رحمًا عليهما وبرًّا بهما[٥]. وعن سعيد بن جبير وابن جريج أنهما بدلا جارية. قال الكلبي: فتزوجها نبي من الأنبياء فولدت له نبيًّا فهدى الله تعالى على يديه أمة من الأمم. قال قتادة: ولدت اثني عشر نبيًّا. وعن ابن جريج أيضًا أن أم الغلام يوم قتل كانت حاملًا بغلام مسلم، وكان المقتول كافرًا، فرزقا بولد كان أحب إليهما من الغلام

(١) المحرر الوجيز ٩/ ٣٨٢.

(٢) المصدر السابق.

(٣) روح المعاني ١٦/ ١١.

(٤) المحرر الوجيز ٩/ ٣٨٢.

(٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١١/ ٣٧.

المقتول لحسن خُلُقِه وخَلْقِه[١].

ويستفاد من هذه الآية تهوين المصائب بفقد الأولاد، وإن كانوا قطعًا من الأكباد، ومن سلم لقضاء أسفرت عاقبته عن اليد البيضاء، قال قتادة: لقد فرح به أبواه حين ولد وحزنا عليه حين قتل، ولو بقي كان فيه هلاكهما، فالواجب على كل امرئ الرضا بقضاء الله وقدره، فإن قضاء الله لمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب[٢]. وقد ذكر أبو حيان أن أفعل هنا ليست للتفضيل في قوله: ﴿وَأَقْرَبَ﴾ لأنه لا زكاة من الغلام ولا رحمة[٣]، وتعقب ذلك بأنه كان زكيًا من الذنوب بالفعل إن كان صغيرًا، وبحسب الظاهر إن كان كبيرًا لقول موسى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾[٤]. قال الخفاجي: الجواب الصحيح هنا أن يكتفي بالاشتراك التقديري؛ لأن الخضر عليه السلام كان عالمًا ببواطن الأمور، فهو يعلم أنه لا زكاة فيه ولا رحمة[٥].

تفسير الحدث الثالث:

قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾. هذان الغلامان صغيران بقرينة وصفهما باليتم، واليتيم: من فقد أباه، واسمهما على ما ذكر أصرم وصريم[٦]، قال ﷺ: «**لا يُتم بعد احتلام**»[٧]، هذا هو الظاهر، ويحتمل أن يبقى عليهما اسم اليتيم بعد البلوغ إن كانا يتيمين على معنى الشفقة عليهما، واليتيم في الناس من فقد أباه، وفي الحيوان من فقد أمه، وقوله: ﴿فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾: دل على أن القرية تسمى مدينة، ومنه الحديث: «**أمرت بقرية تأكل القرى**»[٨]،

(١) المصدر السابق.
(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ١٠٥.
(٣) تفسير البحر المحيط ٦/ ١٥٥.
(٤) روح المعاني ١٦/ ١٢.
(٥) المرجع السابق.
(٦) الجامع لأحكام القرآن ١١/ ٣٨.
(٧) سنن أبي داود ٣/ ٢٩٣ ح ٢٨٧٣.
(٨) صحيح مسلم، كتاب الحج، باب المدينة تنفي شرارها ١/ ١٠٠٦ ح ١٣٨٢.

وفي حديث الهجرة: لمن أنت؟ فقال: لرجل من أهل المدينة - يعني مكة[1]. والجدار - هو الجدار المعروف -، والمدينة هي القرية المذكورة في الآية السابقة، والتعبير عنها بالمدينة للاعتداد بها من أجل الاعتداد باليتيمين، وأبيهما الصالح.

قوله: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ قال عكرمة وقتادة: كان مالًا جسيمًا، وهو الظاهر من اسم الكنز[2]، إذ الكنز في اللغة المال المجموع، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان علمًا في صحف مدفونة، وعنه أيضًا: كان لوحًا من ذهب مكتوب فيه بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن؟ وعجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب؟ وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح؟ وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل؟ وعجبت لمن يؤمن بالدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن لها؟ لا إله إلا الله محمد رسول الله. وروي نحوه عن عكرمة[3]، وقد ذكر البخاري في تاريخه أن الكنز مال مدفون من ذهب وفضة[4]، وذكر ذلك الترمذي[5] والحاكم وصححه من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه[6]. وهذا هو الظاهر من الآية، ومن أجل ذلك أقامه الخضر حفاظًا عليه حتى يبلغ اليتيمان.

قال الراغب: الكنز جعل المال بعضه على بعض[7]، ولا ينافي هذا كون أبيهما صالحًا، فالكنز المذموم هو الذي لم يؤد زكاته، وحقوق الفقراء فيه، وفي الأثر: «كل مال لا تؤدى زكاته فهو كنز»[8]. والوصف بالصلاح قرينة على أنه ليس من الكنز المذموم، وعلى أن الكنز حرام مطلقًا، فهذا لم يكن في شرع من قبلنا. قوله: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ ظاهر لفظ أنه

(١) صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب في حديث الهجرة ٣/ ٢٣٠٩ ح ٢٠٠٩.
(٢) روح المعاني ١٦/ ١٢.
(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري ١٦/ ٤٠٣، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١١/ ٨٣، وبصائر ذوي التمييز ٤/ ٣٩٠ - ٣٩١.
(٤) التاريخ الكبير ٨/ ٣٦٩.
(٥) سنن الترمذي ٥/ ٣١٣ ح ٣١٢٥.
(٦) المستدرك للحاكم ٢/ ٣٦٩.
(٧) المفردات في غريب القرآن ص ٤٤٢.
(٨) أثر ابن عمر أخرجه الطبري ١٤/ ٢١٨.

والدهما القريب المباشر لهما، وقيل هو الأب السابع، وقيل العاشر فحفظا، وإن لم يذكر بصلاح، وكان يسمى كاشحًا قاله مقاتل واسم أمهما دنيا. ذكره النقاش[1]. وأيًا كان ففي الآية دلالة على صلاح الآباء يفيد العناية بالأبناء. وأخرج ابن أبي شيبة قال عيسى عليه السلام: طوبى لولد المؤمن طوبى لهم يحفظون من بعده. ثم تليت الآية[2]. وقد روي أن الله تعالى يحفظ الرجل الصالح في سبعة من ذريته، وعلى هذا يدل قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[3].

وقوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾. أي: مالكك ومدبر أمورك، وفي إضافة الرب إلى ضمير موسى عليه السلام دون ضميرهما تنبيه له على تحتم كمال الانقياد بالاستسلام لإرادته سبحانه، ووجوب الاحتراز عن المناقشة فيما وقع. قوله: ﴿أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾. أي: الحلم وكمال الرأي، وحسن التصرف، وفي الصحاح: القوة، وهو ما بين ثماني عشر إلى ثلاثين[4]. ﴿وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا﴾. أي: من تحت الجدار، ولولا أني أقمته لنقض وخرج الكنز من تحته قبل اقتدارهما على حفظه والانتفاع به، وذكر أن اليتيمين كانا غير عالمين بالكنز، ولهما وصي يعلم به لكنه كان غائبًا، والجدار قد شارف على السقوط، ولو سقط لضاع، فلذا أقامه[5]. ﴿رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾. والكلام فيه تقدير: فعلت ما فعلت رحمة من ربك، بتقدير: إرادة أو رجاء رحمة ربك، والرحمة بمعنى الوحي، أي: برحمة من ربك ووحيه. يقول الرازي: ولما قرر العالم هذه الجوابات قال: رحمة من ربك؛ يعني إنما فعلت هذه الفعال لغرض أن تظهر رحمة الله تعالى؛ لأنها بأسرها ترجع إلى حرف واحد، وهو تحمل الضرر الأدنى لدفع الضرر الأعلى[6].

(١) الجامع لأحكام القرآن ١١/ ٣٨.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ١٩٤.

(٣) سورة الأعراف، آية ١٩٦، والحديث ذكره ابن عطية في تفسيره، انظر: المحرر الوجيز ٩/ ٣٨٤.

(٤) تهذيب الصحاح للزنجاني ١/ ٢٢٥.

(٥) روح المعاني ١٦/ ١٤.

(٦) التفسير الكبير ٢١/ ١٥٩.

قوله: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ ذلك يقتضي أن الخضر نبي، أي ما فعلته عن رأيي واجتهادي، تأكيدًا لذلك قال: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى كل ما ذكر من الأحداث التي وقعت، وظاهرها بخلاف الباطن المقصود منها، وذلك فيه ما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد الدرجة في الفخامة. و﴿تَسْطِع﴾: أي تستطيع، وهو مضارع استطاع على وزن استفعل، والمعنى ذلك مآل وعاقبة الذي لم يستطع عليه صبرًا من الأمور التي رأيت، فيكون إنجازًا للتنبئة الموعودة، وجوز أن تكون الإشارة إلى البين نفسه، فيكون التأويل بمعناه المشهور[1]. ويقول ابن عطية في تفسيره: «وجاء في أنباء الخضر عليه السلام في أول القصة: (فأردت أن أعيبها)، وفي الثانية: (فأردنا أن يبدلهما)، وفي الثالثة: (فأراد ربك أن يبلغا أشدهما). وإنما تفرد أولًا في الإرادة لأنها لفظة عيب، فتأدب بأن لم يسند الإرادة فيها إلا لنفسه، كما تأدب إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[2]، فأسند الفعل قبل وبعد إلى الله تعالى، وأسند المرض إلى نفسه؛ إذ هو معنى نقص ومصيبة، وإنما قال الخضر في الثانية: (فأردنا)؛ لأنه أمل كان قد رواه - من قولهم: روى فلان في الأمر بمعنى: نظر فيه وتفكر. وإنما أسند الإرادة في الثالثة إلى الله تعالى لأنها في أمر مستأنف في الزمن الطويل، غيب من الغيوب، فحسن إفراد هذا الموضع بذكر الله تعالى، وإن كان الخضر قد أراد أيضًا ذلك الذي أعلمه الله تعالى أنه يريده. اهـ»[3].

****

(١) روح المعاني ١٦/ ١٤.

(٢) سورة الشعراء، آية ٨٠.

(٣) أضواء البيان ٤/ ١٩٢-١٩٣.

المطلب السابع

تحقيق القول في العبد الصالح

سبق أن تطرقت لشخصية الخضر عليه السلام في المطلب الثاني، وفي هذا المطلب أسوق الحديث عنه من حيث: هل هو ولي؟ هل هو نبي؟ هل هو حي أو ميت؟

خلاصة القول في هذا أن العبد الصالح فعل أمورًا لا تحدث من شخص عادي أبدًا، إنما من شخص أطلعه الله على علم بعض الأمور، وأخبره بخفايا بعض الأشياء وإن كانت تخالف الظاهر من الشرع والعرف. وأرجح الأقوال أنه نبي؛ لما يأتي:

أولًا: قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ قال القرطبي: «الخضر نبي عند الجمهور، والآية تشهد بنبوته؛ لأن بواطن الأفعال التي صدرت منه لا تكون إلا بوحي، وأيضًا فإن الإنسان لا يتعلم ولا يتبع إلا من فوقه، وليس يجوز أن يكون فوق النبي من ليس بنبي»[1]. نعم لا مانع أن يتعلم موسى وهو رسول على الخضر نبيًّا أو وليًّا.

ثانيًا: قوله تعالى في آخر القصة: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾. قال القرطبي: «يقتضي هذا أن الخضر نبي»[2]. ويقول الألوسي عند هذه الآية: «والجمهور على أنها - أي رحمة - الوحي والنبوة، وقد أطلقت على ذلك في مواضع من القرآن، فالجمهور على أنه نبي وليس برسول،

(١) الجامع لأحكام القرآن ١١/ ١٦، والزهر النضر في نبأ الخضر لابن حجر العسقلاني، شرحه وعلق عليه سمير حلبي ص ٢٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١١/ ١٦.

وقيل: هو رسول، وقيل: هو ولي، وعليه القشيري وجماعة»[1]. والأرجح ما عليه الجمهور، وشواهده من الآيات كثيرة، منها: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[3]، ومجموع هذه الآيات مع الأحاديث الواردة في ذلك يفيد اليقين بنبوته.

وهل الخضر حي أو ميت؟ الراجح أنه مات لعدة أمور، منها:

أولًا: ذهب جماعة أنه ليس بحي، وسئل البخاري عنه وعن إلياس عليهما السلام هل هما حيان؟ فقال: كيف يكون هذا، وقد قال النبي ﷺ؛ أي قبل وفاته بقليل: «**لا يبقى على رأس المائة ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد**»[4]. والذي في صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ قبل موته: «**ما من نفس منفوسة اليوم تأتي عليها مائة سنة وهي حية يومئذ**»[5]. وهذا أبعد عن التأويل. وسئل عن ذلك غيره من الأئمة، فقرأ قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾[6]. وسئل شيخ الإسلام ابن تيمية، فقال: لو كان الخضر حيًّا لوجب عليه أن يأتي إلى النبي ﷺ، ويجاهد بين يديه، ويتعلم منه[7]. وقد قال النبي ﷺ يوم بدر: «**اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض**»[8]. وكانوا يومئذ ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلًا معروفين بأسمائهم وأسماء آبائهم

(١) روح المعاني ١٥/ ٣٢٠.

(٢) سورة الزخرف، آية ٣٢.

(٣) سورة الأنبياء، آية ١٠٧.

(٤) صحيح البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، في الفقه والخير بعد العشاء ١/ ١٤٩، وفتح الباري ٦/ ٤٣٤.

(٥) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب قوله ﷺ: «لا تأتي مائة سنة وعلى الأرض نفس منفوسة اليوم» ٢/ ١٩٦٦ ح ٢٥٣٨.

(٦) سورة الأنبياء، آية ٣٤، وانظر: تفسير ابن كثير ٣/ ١٠٧.

(٧) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٢٧/ ١٠٠.

(٨) صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر ٢/ ١٣٨٢ ح ١٧٦٣.

وقبائلهم، فأين كان الخضر حينئذ؟ [1]. وسأل إبراهيم الحربي أحمد بن حنبل عن بقائه، فقال: من أحال على غائب لم ينتصف منه، وما ألقى هذا بين الناس إلا الشيطان[2]. ونقل عن أبي الفضل المرسي القول بموته. وكيف يعقل وجود الخضر ولا يصلي مع رسول الله الجمعة والجماعة، ويلتقي به ﷺ، ولا يشهد معه الجهاد وهو سنام الإسلام، وقد قال ﷺ: «**والذي نفسي بيده لو كان موسى حيًا ما وسعه إلا أن يتبعني**»[3]. لِمَ لا وقد قبل موسى أن يتبع الخضر؟ وفارق بين الخضر ورسول الله ﷺ، وقد قال عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[4]. ولو أن الخضر حي لذكره القرآن الكريم؛ لأنه أمر نادر حينئذ يستدعي ذكره، وكذلك السنة. فالقرآن والسنة والإجماع وجمهور العلماء على أنه مات. وكان ما يقال عن حياته في أخبار فردية مردودة لا سند لها، كما أن الخضر فارق موسى ولم يصاحبه، وقال: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ﴾. فكيف يرضى مفارقة موسى كليم الله، ورواية الحديث تقول: «**ممن على ظهر الأرض**»، من هو من أهلها ومتوطن فيها عرفًا. ولا شك أن هذا شامل لمن كان في البحر، ولو لم يعد من في البحر ممن هو على ظهر الأرض. ولو كان الخضر موجودًا لكان ممن يشاهده الناس كالمعتاد، وكونه عليه السلام خارجًا عن ذلك، فلا يثبت إلا بدليل، ولا دليل، ولا يحتج بأنه كان هناك مؤمنون ولم يأتوه كالنجاشي وغيره، ولا عبرة بمن يقول كان الخضر يأتي رسول الله ﷺ ويتعلم منه، لكن على وجه الخفاء لعدم كونه مأمورًا بإتيانه علانية لحكمة إلهية اقتضت ذلك، وهناك أخبار كثيرة تقول بحياته منها ما ذكره الألوسي، قال: «نقل الثعلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال علي كرم الله وجهه: «**إن رسول الله ﷺ لما توفي، وأخذنا في جهازه خرج الناس، وخلا الموضع، فلما وضعه على المغتسل إذ بهاتف يهتف من زاوية البيت بأعلى صوت: لا تغسلوا محمدًا فإنه طاهر طهر فوقع في قلبي شيء من ذلك، وقلت: ويلك من**

(١) روح المعاني الألوسي ١٥/ ٣٢٠.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٤/ ٣٣٧.

(٣) جامع المسانيد والسنن لابن كثير ٢٤/ ١٧٩.

(٤) سورة آل عمران، آية ٨١، وانظر: روح المعاني للألوسي ١٥/ ٣٢٠ بتصرف.

أنت؟ فإن النبي ﷺ بهذا أمرنا، وهذه سنته. وإذ بهاتف آخر يهتف بي من زاوية البيت بأعلى صوته: غسلوا محمدًا، فإن الهاتف الأول كان إبليس الملعون، الهاتف الثاني الخضر - يريد جسد محمد ﷺ أن يدخل في قبره مغسولًا - فقلت: جزاك الله خيرًا قد أخبرتني أن الهاتف الأول كان إبليس من أنت؟ قال: أنا الخضر حضرت جنازة محمد ﷺ»(١). ومن الأخبار ما رواه ابن عساكر أن إلياس والخضر يصومان شهر رمضان في بيت المقدس، ويحجان كل سنة، ويشربان من زمزم شربة تكفيهما إلى مثلها من قابل(٢)، وغير ذلك كثير من الروايات. رواها الألوسي بصدد تفسيره للقصة والآيات. ثم قال أخيرًا: واعلم أن الأخبار الصحيحة النبوية، والمقدمات الراجحة تساعد القائلين بوفاته، وتعاضدهم على دعواهم معاضدة قوية، ولا عدول عن ذلك، أما الحكايات المروية، والأخبار المسرودة القائلة بحياته فهي روايات مردودة(٣)، والله أعلم.

****

(١) روح المعاني ١٥/ ٣٢٢.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق ١٥/ ٣٢٨.

المطلب الثامن

ملامح الاتفاق والاختلاف

بين موقف موسى عليه السلام

من العبد الصالح ومواقفه السابقة

تتسم شخصية موسى عليه السلام في أكثر مواقفه التي تحدث عنها القرآن الكريم بأنها شخصية قوية، تتميز بالجرأة والحدة في المزاج والصراحة، وقد ظهر ذلك في أكثر مواقفه قبل رسالته وبعدها، حتى مع الخضر عليه السلام الذي اشترط عليه لاتباعه أن يتحلى بالصبر وعدم مبادرته بالسؤال والاستفسار، هذا من حيث ما غلب على ظاهر شخصيته في أكثر حياته. أما بالنظر إلى مواقفه الثلاثة مع الخضر مع المقارنة بما سبق من مواقف قبل ذلك مشابهة لها، فيبدو - في الظاهر - التعارض بينها، ولكن عند النظر والتأمل بين تلك المواقف المتباينة نلحظ التالي:

الموقف الأول:

يدور هذا الموقف حول مقابلة الإحسان بالإحسان، لا بالإساءة؛ حيث إن ربان السفينة أركبوا موسى والخضر معهم إحسانًا بدون أجر، وإذ بالخضر يقابل ذلك بالإساءة في الظاهر، فقلع منها لوحًا عائبًا إياها، لذا اعترض عليه موسى عليه السلام، عندئذ انطلاقًا من تلك القاعدة الخلقية: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ يقابل ذلك في حياة موسى عليه

السلام إنكار فرعون عليه، بعد أن خرج على فرعون داعيًا إياه وبني إسرائيل إلى عبادة الله وحده، عندئذ ذكره فرعون بالإحسان الذي قدمه إليه عندما كان وليدًا يرعى بين يديه: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾[(1)]. وبالمقارنة بين الموقفين يظهر أن ما قام به الخضر من إعادة السفينة هو عين الإحسان في الحقيقة، وما قام به موسى من مقابلة إحسان فرعون له بدعوته إلى الله هو عين الإحسان في الواقع. أما إنكار موسى على الخضر إعابة السفينة فدل ذلك على تمسكه بشريعته، كما يدل على أنه يوجد عند الخضر علم لا يوجد لدى موسى، هذا من جهة. أما إنكار فرعون على موسى فكان حسب ما ظهر لهواه وانحرافه. وأما فعل موسى فكان قائمًا على أسس الحق والشريعة التي أنزلها الله عز وجل، من جهة أخرى.

الموقف الثاني:

موقفه من القبطي الذي وكزه موسى بيده فقضى عليه، وفر هاربًا بدينه ونفسه من بطش فرعون وآله، قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾[(2)]. فهذه الآيات تصور شخصية موسى عليه السلام حارة الوجدان، شديدة الاندفاع، فنراه لم يتحمل الظلم والطغيان، لقد عاش موسى عليه السلام في كنف فرعون، بيت الملك والجبروت، فرأى بعينيه ظلمه وظلم حاشيته لقوم موسى، مما نمّى في نفسه دافع النصرة لمن استغاثه، وقد أحس موسى بأن عمله تجاوز الحد فرجع إلى نفسه من فعلته فاستغفر ربه، وآلى على نفسه ألّا يكون ظهيرًا للمجرمين. فموقفه في هذه الآيات يتفق مع العبد الصالح في عدم صبره واحتمال رؤية فتى يقتل دون وجه حق: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾، علاوة على ذلك، فوكزه للقبطي كان قبل الرسالة فعله بدافع النصرة، ثم لما دعي إليه مرة أخرى نفر منه بدافع الفطرة الإنسانية، وبعد الرسالة عندما رأى الخضر يفعله أنكر عليه فعل ذلك على ضوء الشريعة والفطرة.

(1) سورة الشعراء، آية ١٨.

(2) سورة القصص، الآيات ١٥ – ١٧.

الموقف الثالث:

موقفه من ابنتي صاحب مدين وسقيه لهما دون أن يطلب على ذلك أجرًا، فسقى لهما ثم تولى إلى الظل، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[1]. فهاتان الآيتان تصوران موقف موسى من ابنتي صاحب مدين، اللتين ذهبتا تستسقيان فلم تستطيعا لضعفهما، فتجلت مروءة موسى وشهامته من غير أن يعرفهما، فقام بمساعدتهما دون أن يطلب أجرًا أو مثوبة غير المثوبة من الله على إحسانه، لقد كان وحيدًا، ضعيفًا، وقدم خائفًا من بطش فرعون وملئه، فلم يثنه ذلك عن تلبية نداء الشهامة والمروءة والنجدة والمعروف، وإقرار الحق الطبيعي الذي تعرفه النفوس المستقيمة. قال الزمخشري: «والمعنى: أنه وصل إلى ذلك الماء، وقد ازدحمت عليه أمة من الناس مختلفة متكاثفة العدد، ورأى الضعيفتين من ورائهم مع غنيماتهما مترقبتين لفراغهم، فما أخطأت همته في دين الله تلك الفرصة مع ما كان به من النصب وسقوط خف القدم والجوع، ولكنه رحمهما فأغاثهما، وكفاهما أمر السقي في مثل تلك الزحمة بقوة قلبه وقوة ساعده؛ وما آتاه الله من الفضل في متانة الفطرة ورصانة الجبلة، وفيه مع إرادة اقتصاص أمره وما أوتي من البطش والقوة وما لم يفضل عنه على ما كان به من انتهاز فرصة الاحتساب ترغيب في الخير وانتهاز فرصه، وبعث على الاقتداء في ذلك بالصالحين والأخذ بسيرهم ومذاهبهم»[2]. فسقى عليه السلام لهاتين المرأتين، ولم يطلب أجرًا بدافع الشهامة والمروءة في حين أنه في أمس الحاجة إلى قوت وإيواء، لكنه أنكر مثل هذا الموقف من الخضر عندما أقام الخضر الجدار مطالبًا إياه بأخذ الأجر؛ نظرًا لأنهما طلبا القرى من أهل القرية، فامتنعوا، وهذا أمر معيب. أما عدم طلبه لأجر السقيا فلأن صاحب مدين من أهل الكرم، وقد قابلوه بمثل صنيعه: ﴿إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾[3].

(١) سورة القصص، الآيتان ٢٣ - ٢٤.

(٢) الكشاف للزمخشري ٣/ ١٧٠.

(٣) سورة القصص، آية ٢٥.

المطلب التاسع

الدروس والعبر المستفادة من القصة

كان لقصة موسى والخضر عليهما السلام صلة وثيقة بالقيم الصحيحة التي اشتملت عليها سورة الكهف، وبالموازين المختلفة والقيم الزائفة التي تبناها المنحرفون والمفسدون، فكل قصة احتوت عليها السورة كانت نورًا يضيء الطريق، ويميز بين الحق والباطل، ولعل هذا يوضح لنا جانبًا من سر قول الرسول ﷺ: «**من قرأ عشر آيات من الكهف عصم من فتنة الدجال**»[1]. والحكمة من قصة موسى والخضر كالحكمة من كل قصص السورة، فمن أدركها أدرك المنهج الصحيح في العلم والتعلم، وعلم أن الباقيات الصالحات هي خير ثوابًا وخير عقبًا. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۝١ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢ مَّـٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝٣ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِـَٔابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥ فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾[2].

قصة موسى والخضر كغيرهما من القصص حقيقة واقعة بكل أحداثها، وما تم من حوار بين موسى والعبد الصالح، وتصميم موسى على طاعته وأخذ العلم منه - رغم تحذير العبد الصالح له من عدم صبره - يقدم صورة فريدة من صور الجدل بين المعلم وطالب العلم: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ۝٦٦ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾. فنحن نرى

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المسافرين، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي ١/ ٥٥٥، والنسائي في فضائل القرآن، ص ٤٦.

(2) سورة الكهف، الآيات ١ - ٦.

التأدب في طلب العلم، واللطف في التعبير، إن طلب العلم للعلم - مع الأدب - يكون مثمرًا ونافعًا، وطلب العلم بدون أدب لا يجدي، بل يكون ضررًا على صاحبه وعلى الآخرين، فنجد فقدان أدب الطلب عند بعض طلبة العلم، فإذا قرأ الواحد منهم مسألة أو مسألتين، وحفظ حديثًا أو حديثين ظن نفسه عالمًا مجتهدًا، يجب أن يشار إليه بالبنان فيتعالى على العلماء، ويظهر على حسابهم، فيعمل على ذمهم وانتقاصهم(١).

إن الهدف من طلب العلم والتعلم تحصيل الرُّشد، فالعلم النافع هو الذي ينتج الرشد، فيقود إلى العمل وحسن التصرف(٢)، فضلًا عما تكتسبه النفوس من آداب وأخلاق.

إن موسى عليه السلام لما مشى في طلب العلم لحقه الجوع من بعض يوم: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾(٣) ولما واعده ربه ثلاثين ليلة، فصامها موسى وطواها، فلما تم الميقات استاك بلحاء شجرة، فأمره الله أن يكمل بعشر أربعين(٤). قال ابن قيم الجوزية: «لما سافر موسى إلى الخضر وجد في طريقه مس الجوع والنصب، فقال لفتاه: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾. فإنه سفر إلى مخلوق، ولما واعده ربه ثلاثين ليلة وأتمها بعشر فلم يأكل فيها، لم يجد مس الجوع ولا النصب؛ فإنه سفر إلى ربه تعالى. وهكذا سفر القلب وسيره إلى ربه، لا يجد فيه من الشقاء والنصب ما يجده في سفره إلى بعض المخلوقين»(٥).

تتضمن القصة بُعدًا تربويًا تعليميًا؛ إذ الأنبياء يمثلون العبودية الحقيقية لله تعالى، وهم الأسوة لغيرهم من البشر: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾(٦).

---

(١) مع قصص السابقين في القرآن لصلاح عبد الفتاح الخالدي ٢/ ٢١٠.

(٢) المرجع السابق.

(٣) سورة الكهف، آية ٦٢.

(٤) تفسير ابن كثير ٢/ ٦١.

(٥) الضوء المنير على التفسير ٤/ ١٦٥.

(٦) سورة النساء، آية ١٧٢.

معرفة الخضر لطبيعة موسى عليه السلام، وهي ما عليه النفس الإنسانية إذ فطرها الله على حب الاستطلاع، ومعرفة ما يجري حولها من أحداث ووقائع، وهذا ما نراه في استفسار موسى عن صنيع الخضر[1]. ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾[2]. وقوله: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾[3]. فإذا ما رأى أشياء لا يفهمها، فقد يسرع إلى الإنكار والاعتراض، أو على الأقل يطلب التوضيح والبيان.

كان انفعال موسى في قتل الغلام أقوى من خرق السفينة؛ لأن الخرق فيه احتمال النجاة، أما في الغلام فقد تم القتل بالفعل، على الرغم من أنه قتل غلامًا من قبل؛ لأن القتل هناك كان له ما يبرره، أما هنا فهو غير مقترن بعلة ظاهرة.

إنه لا يجوز لأحد أن يقتدي بالخضر في القتل، فلا يجوز لشخص أن يقتل غلامًا بحجة أنه يعرف أنه سيكفر إن كبر؛ لعدم علمه بالغيب - بخلاف فعل الخضر فإن الله قد أخبره بذلك، وكشف له عن مستقبل الغلام؛ لأن مستقبله من الغيب، ولا يعلم الغيب إلا الله[4]. ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾[5]. وقال سبحانه: ما قاله الخضر: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾[6].

جواز إتلاف العقار إذا كان في ذلك مصلحة ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾.

رؤية المنكر - حسب الظاهر - أنست موسى عهده الذي قطعه على نفسه، وهذا يكشف عن حساسيته تجاه أي منكر، كما يكشف رفضه النفسي له[7].

(١) الضوء المنير على التفسير ٤/ ١٦٥.

(٢) سورة الكهف، الآيتان ٦٧ - ٦٨.

(٣) سورة الكهف، آية ٧٨.

(٤) الضوء المنير على التفسير ٤/ ١٦٥.

(٥) سورة الكهف، آية ٨٠.

(٦) سورة الكهف، آية ٨٢.

(٧) مع قصص السابقين في القرآن لصلاح عبد الفتاح الخالدي ٢/ ٢١٨.

إن الأنبياء قد ينسون، ونسيانهم لا ينافي العصمة. قال الله لرسوله محمد ﷺ: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾(١). وقال لآدم عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾(٢). وهناك أحاديث صحيحة عن نسيان النبي، منها قوله - عليه الصلاة والسلام -: «**ولكن إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني**»(٣). ونسيان الأنبياء من عوارض البشرية، فهم بشر، والنسيان ملازم لبني الإنسان، وهذا النسيان ليس من الشيطان؛ لأنه لا سلطان له على الأنبياء.

إن من اشترط شرطًا ليس في كتاب الله، فليس له، وإن شرط مائة شرط، فشرط الله أحق وأوثق.

فارق الخضر موسى دون أن ينتظر منه جوابًا أو إقرارًا؛ فإن الأمر من الواضح بمكان: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾(٤).

بيان الفارق بين الحكمة الإنسانية القرآنية القريبة العاجلة، والحكمة الكونية البعيدة الآجلة. إنها توبيخ وتأديب لليهود الذين يشكلون الطرف الثاني في اختبار صدق محمد ﷺ.

****

---

(١) سورة الكهف، آية ٢٤.

(٢) سورة طه، آية ١١٥.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب التوجه نحو القبلة.

(٤) سورة الكهف، آية ٧٨.

خاتمة البحث

بعد أن عرضنا للقصة، وتحليلنا لعناصرها وأحداثها، واللقاء بين موسى والخضر عليهما السلام؛ نلحظ معنًى تربويًّا وتعليميًّا في آن واحد، هو أنه ليس لأحد من البشر أن يَدَّعي بلوغ ذروة العمل والتعلم مهما كان، فالله سبحانه وتعالى أمر نبيه محمدًا ﷺ - وهو النبي الرسول - أن يدعوه بقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[1].

لكن موسى عليه السلام عندما سئل: هل هناك أحد أعلم منك؟ أجاب بالنفي، فأعلمه الله تعالى أن بمجمع البحرين من هو أعلم منك، فتتبع موسى عليه السلام ذلك حتى علم يقينًا مدى قصور علمه، وأن علم الله أوسع من أن يحيط به مخلوق كائنًا من كان، فهو العليم، وهو اللطيف الخبير، وفي الرحلة مجاهدة جسدية وفكرية تعرض لها موسى عليه السلام؛ ليقف على الحقيقة، كان هذا الجانب لبنة في منهج رباني أراده الله لهذه الأمة - أمة الإسلام - يضاف إلى ذلك نمط بياني رصين، فالقصة تسهم في ترقية النفس الإنسانية وتهذيبها، وترشد إلى وجوب التواضع في حضرة المولى عز وجل ، وإسناد كل ما هو كائن إليه سبحانه وتعالى، ومن هنا ندرك أهمية التربية في حياة الأفراد بعامة، وعلى الرسل المبلغين عن الله تعالى بخاصة.

هذا ونسأل الله التوفيق والسداد، وأن ينفع بهذا البحث طلاب العلم وكل من يطلع عليه، ونعتذر عما يكون فيه من تقصير، فالكمال لله وحده، والعصمة للرسل - عليهم السلام - والله نعم المولى ونعم النصير.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) سورة طه، آية ١١٤.

التوبة في منهج القرآن الكريم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين القائل في محكم كتابه: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾(١)، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين الذي بعث بالشريعة السمحة التي أساسها اليسر بالخلق ورفع الحرج عنهم، وغايتها تحقيق مصالحهم والعدل بينهم، وعلى آله وصحبه الذي خلفوه في حراسة شريعته، وهداية أمته، فكانوا مشاعل بدّدت ظلام الجهالة، فأرشدوا البشرية، وقرروا الحق للناس قاطبة.

وبعد: فإن دراسة كتاب الله تعالى والعيش في رحابه نعمة لأولي الألباب الذين يعرفون أن الدنيا دار ممر وليست دار مقر، وأن هذا الإنسان استخلفه الله على أرضه ليتخذ من شريعته منهجًا ودليلًا يرشده إذا ضل، ويعلمه إذا جهل، ويأخذ بيده في مزالق الطرق، ومتاهات الفيافي والقفار.

ولكن الإنسان عرضة لوسوسة الشيطان، ومجال لرمي سهامه، مصداقًا لقوله الذي قصه رب العزة: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٤٠ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ۝٤١ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾(٢).

فإذا استجاب الإنسان لهذه الغواية، واتبع سبيل الضلال ألقى به الشيطان في بحر تلاطم أمواجه، والظلام يحيط به من كل جانب عندها يحس بالندم، ويأخذ الله بمجامع

(١) سورة تبارك، الآيتان ١، ٢.

(٢) سورة الحجر، الآيات ٣٩ - ٤٢.

قلبه فيتخبط قلبه يمنة ويسرة، ويأخذ في الإقدام والإحجام، ويقرر الفرار إلى ربه والهجرة إلى مولاه؛ لقوله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾[(1)]. فيضيء قلبه، وتهدأ نفسه، ويتذكر قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[(2)]. فيسهل الله له طريق التوبة، يرشده إليها عندما يسلك طريق الصلاح والخير فيعود إلى ربه نادمًا، ويتقدم إليه تائبًا، ويتحقق فيه وفي غيره من التائبين قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾[(3)]. ولكن متى تكون التوبة صادقة؟ ومتى يتقبل الله توبة العبد؟

إن الله يقول في محكم كتابه: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[(4)].

فهل تكون التوبة صادقة لله وصاحبها لم يزل في اتباع الهوى؟ هل تكون التوبة صادقة وحالة العبد متأرجحة بين الضلال والهدى، ونفسيته تواقة إلى الإيمان ومشتاقة إلى فعل المنكرات؟ كما ذكر الله عن ذلك بقوله: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾[(5)]. هل تكون التوبة صادقة ونصوحة وقد ولى شبابه، وذهبت أيامه وضاعت قوته، وأصبح شيخًا فانيًا لا حول له ولا طول، وليست عنده رغبة يرغبها أو شهوة يريدها؟

إن التوبة تكون صادقة كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[(6)].

وإذا كان الأمر كذلك، فمتى يقبل الله توبة عبده؟ وما الدليل على قبولها؟ وما الشروط التي يجب أن يلزم العبد بها نفسه حتى يكون من هؤلاء الذين قال الله فيهم: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[(7)].

(١) سورة الذاريات، آية ٥٠.
(٢) سورة الزمر، آية ٥٣.
(٣) سورة التوبة، آية ١١٨.
(٤) سورة المائدة، آية ٢٧.
(٥) سورة النساء، آية ١٤٣.
(٦) سورة النساء، آية ١٧.
(٧) سورة الشورى، آية ٢٥.

إن هذا البحث (**التوبة في منهج القرآن الكريم**) يُعد باكورة لعمل متواصل - بمشيئة الله - وثمرة صادقة لمعايشتي كتاب الله تعالى وسنة نبينا ﷺ، ولقد كتب على هذا النمط ليلائم طبيعة العصر، عصر الأزرار الفاتكة، والتقنية الباهرة وكل ما يدعو إلى الدهشة ويصيب الرؤوس بالدوار، وهدفه في النهاية عودة هؤلاء الشاردين الذين احتضنتهم مدنية الغرب بزيها المغري، وبريقها الخادع، والرجوع بهم مرة أخرى إلى رحاب الله تعالى حيث صفاء الإيمان ومرتبة الإحسان.

وعناصر هذا البحث لا تخرج عن هذا النطاق، وهي:

- التوبة واقترانها بالإيمان.
- التوبة واقترانها بالصلاة والزكاة.
- التوبة والعمل الصالح.

أسأل الله تبارك وتعالى أن يكون بداية خير، وقنطرة إلى التوبة النصوح، عندها يفرح المؤمن بنصر الله ينصر من يشاء.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

****

التوبة لغة واصطلاحًا

التوبة عند علماء اللغة:

يقال: تاب إلى الله توبًا، ومتابًا، وتابة، وتتوبةً: رجع عن المعصية، وهو تائب، وتاب الله عليه. وهو تواب على عباده، واستتابه: سأله أن يتوب[1].

وقال ابن منظور: التوبة: الرجوع عن الذنب، وتاب إلى الله يتوب توبًا، وتوبة ومتابًا: أناب ورجع عن المعصية إلى الطاعة، وتاب الله عليه: وَفَّقَهُ لها، ورجل تواب: تائب إلى الله، والله تواب: يتوب على عبده[2]. وفي الحديث: «**الندم توبة**»[3].

ويكاد يكون المعنى الذي تناوله علماء اللغة عن التوبة متقاربًا لفظًا ومعنى. فهي الرجوع والإنابة إلى الله تعالى.

التوبة في الاصطلاح:

قال ابن قدامة: «إن التوبة عبارة عن ندم يورث عزمًا وقصدًا، وذلك الندم يورث العلم بأن تكون المعاصي حائلًا بين الإنسان وبين محبوبه»[4].

وما يقوله ابن قدامة يتفق مع حديث رسول الله ﷺ: «**الندم توبة**». هذا الندم يتولد عنه

(١) راجع: بصائر ذوي التمييز ٢/ ٣٠٤.

(٢) راجع: لسان العرب، مادة: (توب).

(٣) الحديث أخرجه الإمام أحمد في المسند ١/ ٤٢٣ وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٤٤٧٦.

(٤) المغني لابن قدامة ١٤/ ١٩٢.

العزم للإقلاع عن المعصية.

ويقول ابن عاشور في تفسيره: «لما كانت التوبة رجوعًا من التائب إلى الطاعة، ونبذًا للعصيان، وكان قبولها رجوعًا من المتوب إليه إلى الرضى وحسن المعاملة، وصف بذلك رجوع العاصي عن العصيان ورجوع المعصي عن العقاب، فقالوا: تاب فلان لفلان فتاب عليه؛ لأنهم ضمنوا الثاني معنى عطف ورضى، فاختلاف مفادَيْ هذا الفعل باختلاف الحرف الذي يعدى به، وكان أصله مبنيًا على المشاكلة».

ويرى ابن عاشور أن التوبة تتركب من علم، وحال، وعمل؛ **فالعلم**: هو معرفة الذنب. **والحال**: هو تألم النفس من ذلك الضرر، ويسمى ندمًا. **والعمل**: هو الترك للإثم، وتدارك ما يمكن تداركه، وهو المقصود من التوبة. وأما الندم فهو الباعث على العمل. كما جاء في الحديث: «**الندم توبة**»[1].

فإذا أردنا أن نتعرف على ما يقوله صاحب **التعريفات** بشأن التوبة نراه يقسمها إلى قسمين: التوبة فقط، والتوبة النصوح. ويعرف الأولى: بالرجوع إلى الله بحل عقدة الإصرار عن القلب ثم القيام بكل حقوق الرب[2].

أما عن التوبة النصوح، فيرى أنها توثيق العزم على ألا يعود لمثله. قال ابن عباس رضي الله عنهما: التوبة النصوح: الندم بالقلب، والاستغفار باللسان، والإقلاع بالبدن، والإصرار على ألا يعود.

وقيل: التوبة في اللغة: الرجوع عن الذنب، وكذلك التوب، قال الله تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾[3].

وقيل: التوب: جمع توبة، والتوبة في الشرع: الرجوع عن الأفعال المذمومة إلى

(1) راجع: تفسير ابن عاشور ١/ ٤٣٨.

(2) التعريفات للجرجاني ص٨٣.

(3) سورة غافر، آية ٣.

الممدوحة، وهي واجبة على الفور عن عامة العلماء، أما الوجوب فلقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1].

وأما الفورية، فلما في تأخيرها من الإصرار المحرم.

والإنابة: قريبة من التوبة لغة وشرعًا.

وقيل: التوبة النصوح: ألا يبقى على عمله أثر من المعصية سرًّا وجهرًا.

وقيل: هي التي تورث صاحبها الفلاح عاجلًا وآجلًا. وقيل: التوبة: الاعتراف والندم والإقلاع[2].

ولا شك أن صاحب **التعريفات** قد أضاف إلى ما ذكره العلماء من تعريفات التوبة: الوجوب، والفورية. ولقد جاءت آيات كثيرة في كتاب الله تدل على وجوب التوبة، من ذلك: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾[3]. وقوله أيضًا: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾[4]. وأما عن الفورية فقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾[5].

قال ابن عباس رضي الله عنهما والسدي: معناه قبل المرض والموت.

ورُوي عن الضحاك أنه قال: كل ما كان قبل الموت فهو قريب. ولقد أحسن محمود الوراق حيث قال:

قَدِّمْ لِنَفْسِكَ تَوبَةً مَرْجُوةً ... قَبْلَ الْمَمَاتِ وَقَبْلَ حَبْسِ الأَلْسُنِ
بَادِرْ إِلَى غَلْقِ[6] النُّفُوسِ فَإِنَّها ... ذخرٌ وَغُنْمٌ لِلْمُنِيبِ الْمُحْسِنِ

(١) سورة النور، آية ٣١.
(٢) التعريفات ص ٨٣.
(٣) سورة هود، آية ٣.
(٤) سورة هود، آية ٥٢.
(٥) سورة النساء، آية ١٧.
(٦) يقال: غلق الرهن: إذا لم يقدر على افتكاكه. يريد: بادر بالتوبة قبل ضياع الفرصة.

وقد روى الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «**إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر**»(١).

ومعنى ما لم يغرغر: ما لم تبلغ روحه حلقومه.

وإذا كان الأمر كذلك فيطيب لي أن أعرض معاني التوبة التي جاءت في كتاب الله تعالى عن طريق الإيجاز غير المخل، أو التطويل غير الممل.

* * * *

(١) الحديث أخرجه الترمذي في الدعوات ٩٨، وابن ماجه في الزهد ٣٠، وصاحب الموطأ في الحدود ٢، وأحمد بن حنبل في المسند ٢/ ١٩٢، ٤٢٠.

معاني التوبة في القرآن الكريم

يرى صاحب البصائر أن التوبة جاءت في القرآن الكريم على ثلاثة أوجه:

الأول: بمعنى التجاوز والعفو، وهذا مقيد بـ (على)[1]. قال تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾[3]. قاتلوهم يجعلكم الله ستار قدرته، وأداة مشيئته، فيعذبهم بأيديكم، ويخزهم بالهزيمة، وينصركم عليهم، ويشف صدور جماعة من المؤمنين ممن آذاهم وشردهم المشركون؛ يشفها بهزيمة الباطل، وتشريد المبطلين.

فانتصار المسلمين قد يرد بعض المشركين إلى الإيمان، ويفتح بصيرتهم على الهدى، حين يرون المسلمين ينصرون، ويحسون أن قوة غير قوة البشر تؤيدهم، ويرون آثار الإيمان في موافقتهم - وهذا ما كان فعلًا - وعندئذ ينال الإسلام قوة جديدة تضاف إلى قوته بهؤلاء المهتدين التائبين[4].

الثاني: بمعنى الرجوع، والإنابة، وهذا مقيد بـ (إلى) قال الله تعالى: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾[5]. وقال تعالى: ﴿تُوبُوا إِلَى اللَّهِ﴾[6].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: تبت إليك: رجعت عن الأمر الذي كنت عليه.

---

(١) بصائر ذوي التمييز ٢/٣٠٨.

(٢) سورة البقرة، آية ٥٤.

(٣) سورة التوبة، الآيتان ١٤ - ١٥.

(٤) راجع: في ظلال القرآن لسيد قطب ٤/١٥٧.

(٥) سورة الأحقاف، آية ١٥.

(٦) سورة التحريم، آية ٨.

وذلك شأن الرجل المؤمن صاحب الفطرة السليمة المستقيمة مع ربه، الذي عاد ورجع إليه تائبًا مستغفرًا، وأما شأن ربه معه فقد ذكره القرآن الكريم بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾(١).

وفي الآية الأخرى: تذكر التوبة النصوحة، وهي التوبة عن الذنب والمعصية، تبدأ بالندم على ما كان، وتنتهي بالعمل الصالح والطاعة، فهي من هذا المنطلق تنصح القلب فتُخَلِّصه من رواسب المعاصي، وتدفعه إلى العمل الصالح.

ثم تظل تذكر القلب فلا يعود إلى الذنوب، ولا يفكر في المعصية، ولا يقترب منها، ولا يكون للشيطان عليه من سلطان، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾(٢).

الثالث: بمعنى الندامة على الزلة، وهذا غير مقيد لا بـ(إلى) ولا بـ(على)، قال الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ﴾(٣).

هؤلاء يفتح القرآن لهم هذه النافذة المضيئة - نافذة التوبة - يفتحها فتتنسم نسمة الأمل في الصدور، وتقود القلوب إلى مصدر النور فلا تيأس من رحمة الله.

وكيف يحدث هذا والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾(٤).

وكيف يخالجها قنوط والله تعالى يقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾(٥). السيئات جميعها جليلها وحقيرها، عظيمها وكبيرها.

وكيف لا يكون كذلك والله قد أعلن في كتابه عن ذلك بقوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ

(١) سورة الأحقاف، آية ١٦.

(٢) سورة الإسراء، آية ٦٥.

(٣) سورة البقرة، آية ١٦٠.

(٤) سورة الزمر، آية ٥٣.

(٥) سورة الشورى، آية ٢٥.

ٱلرَّحْمَةَ ﴾[1]؟ فهذا إخبار منه سبحانه بأنه رحيم بعباده، لا يعجل عليهم بالعقوبة، ويقبل منهم الإنابة والتوبة، وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قضى الله الخلق كتب في كتابه على نفسه فهو موضوع عنده: إن رحمتي تغلب غضبي»[2].

وإذا كان الأمر كذلك وأن الله تعالى قد فرض التوبة على عباده وأوجبها عليهم قبل أن يظلهم الموت، أو أن تنزل عليهم آثاره، فما هي شروط التوبة؟

الشروط الواجب توافرها للتوبة:

اتفق العلماء على أن الذنب الذي يريد أن يقلع عنه العبد ويتوب منه هو ما بينه وبين ربه، فيشترط لذلك شروط ثلاثة:

الأول: الندم عل ما سلف منه في الماضي. والندم والندامة التحسر، قال تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ﴾[3].

يندم هؤلاء عندما يجيء أمر الله، يندم أولئك الذين في قلوبهم مرض على المسارعة والاجتهاد فيما يغضب الله تعالى، وعلى النفاق الذي انكشف أمره، عندما يندمون - ولا ينفعهم الندم - ولا ينجيهم من هذا الهول إلا العودة إلى الله تعالى، تائبين آيبين مقرين بذنوبهم.

الثاني: الرجوع والإقلاع عنه في الحال.

يقال: رجعت عن كذا رجعًا، ورجعت الجواب، نحو قوله تعالى: ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ ﴾[4]. وقد جاء الرجوع بمعنى محاسبة النفس والرجوع إليها، قال تعالى: ﴿ فَرَجَعُوٓاْ

---

(١) سورة الأنعام، آية ٥٤.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في التوحيد ٥٥، وبدء الخلق ١، ومسلم في التوبة ١٤، ١٦، وابن ماجه في الزهد ٣٥، وأحمد بن حنبل ٢/ ٢٤٢، ٢٦٠، ٣٥٨.

(٣) سورة سبأ، آية ٣٣.

(٤) سورة التوبة، آية ٨٣.

إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[(1)]. وبمعنى التوبة، قال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[(2)].

وظلت العناية الإلهية تواليهم بالابتلاءات: تارة بالنعماء، وتارة بالبأساء؛ لعلهم يرجعون إلى ربهم، ويتوبون إلى رشدهم ويستقيمون على طريقهم.

أما عن الإقلاع في الحال على الفورية، فهذا كان نهج المسلمين الأول، يتلقون الأوامر على الوحي المتتابع فتعيه قلوبهم، وتنفذه جوارحهم، من ذلك عندما نزل قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[(3)].

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: «كنا نشرب الخمر وبعضنا شربته في يده، والبعض الآخر رفعها إلى فمه فسمعنا منادي الرسول ﷺ: ألا إن الخمر قد حرمت، فكسرنا الدنان وأريقت الخمر، حتى جرت في سكك المدينة، وتوضأ بعضنا، واغتسل البعض الآخر، وذهبنا إلى مسجد الرسول ﷺ ونحن نردد: انتهينا انتهينا»[(4)].

إجابة فورية، وإقلاع عما كانوا عليه من الحلال عندما تحول إلى حرام.

الثالث: العزم على ألا يعاوده في المستقبل. والعزم والعزيمة عقد القلب على إمضاء الأمر، يقال: عزمت الأمر وعزمت عليه واعتزمت، قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾[(5)]، وقال أيضًا: ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[(6)]، وقال أيضًا: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾[(7)]. أي: محافظة على ما أُمر به، وعزيمة على القيام بالتكاليف. ويرى النقاش: أن العزم والحزم واحد، والحاء

(1) سورة الأنبياء، آية ٦٤.
(2) سورة الأعراف، آية ١٦٨.
(3) سورة المائدة، آية ٩٠.
(4) راجع: تفسير القرطبي ٦/ ٢٩٢.
(5) سورة آل عمران، آية ١٥٩.
(6) سورة آل عمران، آية ١٨٦.
(7) سورة طه، آية ١١٥.

مبدلة من العين.

وقال ابن عطية: وهذا خطأ؛ فالحزم: جودة النظر في الأمر وتنقيحه والحذر من الخطأ فيه. والعزم: قصد الإمضاء، والعرب تقول: (قد أحزم لو أعزم. يقول: أعرف وجه الحزم، فإن عزمت فأمضيت الرأي فأنا حازم، وإن تركت الصواب وأنا أراه وضيعت العزم لم ينفعني الحزم).

هذه هي الشروط الثلاثة للتوبة، إذا كان الذنب والمعصية التي يريد التوبة منها بينه وبين ربه، أما إذا كانت المعصية تتعلق بحقوق العباد فقد أضاف العلماء شرطًا آخر هو:

الرابع: أن يبرأ من حق صاحبها، فإن كان مالًا أو عقارًا رده لصاحبه، كما قال الرسول ﷺ: «**من استطاع منكم أن يكون مثل صاحب فرق الأرز فليكن مثله**» قالوا: ومن صاحب فرق الأرز يا رسول الله؟ فذكر حديث الغار حين سقط عليهم الجبل، فقال كل واحد منهم: اذكروا أحسن عملكم. قالا، وقال الثالث: «**اللهم إنك تعلم أني استأجرت أجيرًا بفرق أرز، فعرضت عليه حقه فأبى أن يأخذه وذهب، فثمرته له حتى جمعت له بقرًا ورعاءها. فلقيني فقال أعطني حقي؟ فقلت: اذهب إلى تلك البقر ورعائها فخذ... فأخذه**»[1].

إن حقوق الآخرين، لا تسقط بأي حال من الأحوال إلا إذا تنازل عنها صاحبها. وهناك أحاديث كثيرة، منها قول الرسول ﷺ: «**من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه يوم القيامة**»[2]، ويوم القيامة: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾[3]. السرائر المكنونة المطوية على الأسرار المحجوبة، بأن هذا ضرب هذا، وهتك عرض ذلك، وتقوّل على ثالث، وقذف رابعًا، وعندها هو متجرد من كل قوة، ومن كل ناصر: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾[4]. فإذا رغب في التوبة لينجو من هول هذا اليوم

(١) الحديث أخرجه البخاري في البيوع، ومسلم في كتاب الذكر، حديث ٢٧٤٣ باب قصة أصحاب الغار، وأبو داود في كتاب البيع، حديث ٣٣٨٧.

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في الديات ٢١، والبخاري في بدء الخلق ٢، ومسلم في كتاب المساقاة ١٣٧، ١٣٩، وأحمد بن حنبل في المسند ١/ ١٨٧، ٣/ ٤٣٢، ١٩٠، ٣٨٧.

(٣) سورة الطارق، آية ٩.

(٤) سورة الطارق، آية ١٠.

فعليه أن يبرأ من حقوق الآخرين، فإذا كان حد قذف ونحوه مكنه منه، أو طلب عفوه، وإن كان غيبة استحله منها، وإلا فلا توبة له. ويوم القيامة يرى حقوق الآخرين قد سبقته إلى يوم الحشر العظيم تأخذ بتلابيبه، كما قال تعالى: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾(١).

وإذا كان الأمر كذلك فيطيب لي أن أعرض أمام القارئ أقوال العلماء، واستنباطات المفكرين والإسلاميين عن المعاني الآتية في منهج القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، وهي:

١- التوبة واقترانها بالإيمان.

٢- التوبة واقترانها بالصلاة والزكاة.

٣- التوبة واقترانها بالعمل الصالح.

هذا وعلى الله قصد السبيل، ومنه التوفيق والسداد.

أولًا: التوبة واقترانها بالإيمان:

سبق وأن تناولنا مفهوم التوبة عند علماء اللغة وعند علماء الاصطلاح، وجلينا حقيقتها بما يسره الله لنا من آيات القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، ونرى قبل البدء في طرح التوبة واقترانها بالإيمان، أن نضع أمام القارئ نبذة مختصرة عن الإيمان من خلال آيات القرآن الكريم.

جاء الإيمان بمعنى التوحيد في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾(٢).

قال القرطبي: أي: بما أنزل على محمد. وقال أبو الهيثم: ومن يكفر بالإيمان؛ أي: يجحده. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد أن المعنى: ومن يكفر بالله. قال

(١) سورة الكهف، آية ٤٩.

(٢) سورة المائدة، آية ٥.

الحسن بن الفضل: إن صحت هذه الرواية فمعناها برب الإيمان(١).

وجاء الإيمان بمعنى التصديق في السر والإعلان، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾(٢). أي: الذين صدقوا بما جاء به الرسل، وما نزل به الوحي. وأخرج ابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله، من أكرم الخلق على الله؟ قال: «**يا عائشة أما تقرئين**: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾»(٣).

وجاء الإيمان بمعنى الصلاة، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(٤). أخرج الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما وُجه النبي ﷺ إلى الكعبة. قالوا: يا رسول الله، كيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾. قال: هذا حديث صحيح. فسمى الصلاة إيمانًا لاشتمالها على نية وقول وعمل.

وقال أبو القاسم: الإيمان يستعمل تارة اسمًا للشريعة التي جاء بها محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾(٥). ويوصف به كل من دخل في شريعته مقرًّا بالله ومعترفًا بنبوته. وتارة يستعمل على سبيل المدح ويراد به إذعان النفس للحق على سبيل التصديق، وذلك باجتماع ثلاثة أشياء:

تحقيق بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بحسب ذلك بالجوارح، ويقال لكل واحد من الاعتقاد والقول: الصدق، والعمل الصالح: إيمان(٦).

وبعد هذه الكلمة عن الإيمان يطيب لي أن أستعرض أقوال العلماء في اقتران الإيمان بالتوبة، والله الهادي إلى سواء السبيل.

---

(١) راجع: تفسير القرطبي ٦/ ٧٩.

(٢) سورة البينة، آية ٧.

(٣) الدرر المنثور ٨/ ٥٨٩.

(٤) سورة البقرة، آية ١٤٣.

(٥) سورة البقرة، آية ٦٢.

(٦) راجع: بصائر ذوي التمييز ٢/ ١٥٠.

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1].

قال ابن عطية: «تضمنت هذه الآية الوعد بأن الله عز وجل يغفر للتائبين، والإشارة إلى من تاب من بني إسرائيل، وفي الآية ترتيب الإيمان بعد التوبة، والمعنى في ذلك أنه أراد بقوله: ﴿وَآمَنُوا﴾. أن التوبة نافعة لهم منجية فتمسكوا بها، فهذا إيمان خاص بعد الإيمان على الإطلاق، ويحتمل أن يريد بقوله: ﴿وَآمَنُوا﴾. أي: وعملوا عمل المؤمنين حتى وافوا على ذلك، ويحتمل أن يريد التأكيد فذكر التوبة والإيمان؛ إذ هما متلازمان، إلا أن التوبة - على هذا - تكون من كفر ولا بد، فيجيء ﴿تَابُوا﴾، ﴿وَآمَنُوا﴾ بمعنى واحد، وهذا لا يترتب في توبة المعاصي، فإن الإيمان متقدم لتلك ولا بد. هو وتوبة الكفر متلازمان. وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ إيجاب ووعد مرج، قال: ويحتمل قوله: ﴿تَابُوا﴾، ﴿وَآمَنُوا﴾ أن يكون لم تقصد رتبة الفعلين على حرف الواو في أنها لا توجب رتبة، ويكون ﴿وَآمَنُوا﴾ بمعنى وهم مؤمنون قبل وبعد»[2].

إن ما قاله المفسر الكبير ابن عطية من أن هذه الآية إشارة إلى من تاب من بني إسرائيل، ونحن نعلم أن بني إسرائيل قد آمنوا بموسى، وخرجوا مع نبيهم فارين من فرعون وجبروته، فارين إلى الله تعالى، كما قال: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾[3].

وعندما تركهم موسى؛ رجعوا عن إيمانهم باتخاذهم العجل إلهًا، قال تعالى في الآية السابقة على هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾[4].

ثم ماذا؟ ثم تابوا عن فعلتهم الشنيعة عندما استقر الإيمان مرة أخرى في قلوبهم. فالآية

---

(١) سورة الأعراف، آية ١٥٣.

(٢) راجع: المحرر الوجيز ٦/ ٩١.

(٣) سورة الذاريات، آية ٥٠.

(٤) سورة الأعراف، آية ١٥٢.

على هذا التخريج لا تحتاج إلى هذه الاحتمالات الكثيرة التي ذكرها هذا المفسر الكبير.

ويؤكد الذي ذهبت إليه ما ذكره القرطبي عند حديثه عن هذه الآية بقوله: «ثم أخبر الله تعالى أنه يقبل توبة التائب من الشرك وغيره ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؛ أي: الكفر والمعاصي. ﴿ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا﴾؛ أي: من بعد فعلها. ﴿وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا﴾؛ أي: من بعد التوبة. ﴿لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾»(١).

فإذا تركنا الإمام القرطبي، واتجهنا إلى صاحب **زاد المسير** لنرى ما ارتآه عند تفسيره لهذه الآية، نجده يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ فيها قولان:

أحدهما: أنها الشرك.

والثاني: الشرك وغيره من الذنوب. ﴿ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا﴾ يعني: السيئات. وفي قوله: ﴿وَءَامَنُوٓاْ﴾ قولان:

أحدهما: آمنوا بالله، وهو يخرج على قول من قال: السيئات هي الشرك.

والثاني: آمنوا بأن الله تعالى يقبل التوبة(٢).

فإذا اتجهنا إلى مفسر قريب العهد بابن الجوزي، وهو الإمام القرطبي، نراه يفرع هذه المسألة، ويستعرض أقوال العلماء والفرق الذين أدلوا بدلوهم في اقتران التوبة بالإيمان، فنراه يقول عند حديثه عن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾(٣).

هذه الآية عامة لكل من عمل ذنبًا، وقيل: لمن جهل فقط، والتوبة لكل من عمل ذنبًا في

(١) راجع: تفسير القرطبي ٩/ ٢٩٢.

(٢) راجع: زاد المسير ٣/ ٢٦٦.

(٣) سورة النساء، الآيتان ١٧، ١٨.

موضع آخر، واتفقت الأمة على أن التوبة فرض على المؤمنين لقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[1].

وتصح من ذنب مع الإقامة على غيره من غير نوعه - خلافًا للمعتزلة في قولهم: لا يكون تائبًا من أقام على ذنب، ولا فرق بين معصية ومعصية - هذا مذهب أهل السنة.

وإذا تاب العبد فالله سبحانه بالخيار إن شاء قبلها، وإن لم يشأ لم يقبلها، وليس قبول التوبة واجبًا على الله من طريق العقل - كما قال المخالف - لأن من شرط الواجب أن يكون أعلى رتبة من الموجب عليه، والحق سبحانه خالق الخلق ومالكهم والمكلف لهم؛ فلا يصح أن يوصف بوجوب شيء عليه، تعالى الله عن ذلك. غير أنه قد أخبر سبحانه - وهو الصادق في وعده - بأنه يقبل التوبة عن العصيان من عباده بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[2]. وقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾[3]. وقوله: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾[4].

فإخباره سبحانه وتعالى عن أشياء أوجبها على نفسه، يقتضي وجوب هذه الأشياء، والعقيدة أنه لا يجب عليه شيء عقلًا، فأما السمع فظاهره قبول توبة التائب. قال أبو المعالي[5] وغيره: وهذه الظواهر إنما تعطي غلبة ظن، لا قطعًا على الله تعالى بقبوله التوبة.

قال ابن عطية: وقد خولف أبو المعالي وغيره في هذا المعنى، فإذا فرضنا رجلًا قد تاب توبة نصوحًا، تامة الشروط، فقال أبو المعالي: يغلب على الظن قبول توبته. وقال غيره: يقطع

(١) سورة النور، آية ٣١.

(٢) سورة الشورى، آية ٢٥.

(٣) سورة التوبة، آية ١٠٤.

(٤) سورة طه، آية ٨٢.

(٥) هو عبد الملك بن عبد الله، أبو المعالي، الملقب بإمام الحرمين، أعلم المتأخرين من أصحاب الشافعي، ذهب إلى مكة والمدينة فأفتى ودرس جامعًا لطرق المذاهب، له العديد من المصنفات، منها: (البرهان في أصول الفقه) و(العقيدة النظامية في الأركان الإسلامية)، وغير ذلك، توفي عام ٤٧٨هـ. انظر: وفيات الأعيان ٣/ ١٦٧، والعبر ٣/ ٢٩١.

على الله تعالى بقبول توبته، كما أخبر عن نفسه جل وعز. قال ابن عطية: وكان أُبيّ رحمه الله يميل إلى هذا القول ويرجحه، وبه أقول: والله أرحم بعباده من أن ينخرم في هذا التائب المفروض معنى قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾[1]. وقوله: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾[2]. وإذا تقرر هذا فاعلم أن في قوله: (على الله) حقًا وليس على ظاهره، وإنما المعنى: على فضل الله ورحمته بعباده، وهذا نحو قوله ﷺ لمعاذ: «**أتدري ما حق العباد على الله**»؟ قال: الله ورسوله أعلم. قال: «**أن يدخلهم الجنة**»[3]، فهذا كله معناه على فضله ورحمته بوعده الحق، وقوله الصدق، دليله قوله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾[4]. أي: وعد بها. أي أنه وعد، ولا خلف في وعده أنه يقبل التوبة إذا كانت بشروطها المصححة لها..[5]. هذا ما قاله القرطبي عن التوبة واقترانها بحقيقة الإيمان. ثم تناول شروط التوبة - التي سبق الحديث عنها - ومضيفًا لها أن يكون الإقلاع عن الذنب أو عدم الرغبة، أو قلة الحديث التي يمكن أن تحقق له أهدافه في المعصية أو الجريمة التي تتوق نفسه لارتكابها.

ويطيب لي أن أختم موضوع اقتران التوبة بالإيمان بما قرره أحد العلماء المعاصرين، وهو العالم الجليل ابن عاشور رحمه الله صاحب التفسير المشهور، ولا شك أنه أضاف جديدًا إلى ما توصل إليه السابقون من علماء الإسلام الأجلاء، فهو يقول: «اعتراض بأنهم إن تابوا وآمنوا يغفر الله لهم على عادة القرآن من تعقيب التهديد بالترغيب، والمغفرة ترجع إلى عدم مؤاخذتهم في عقاب الآخرة، وإلى ارتفاع غضب الله عنهم في المستقبل، والمراد بالسيئات: ما يشمل الكفر، وهو أعظم السيئات، والتوبة منه وهي الإيمان، وعطف الإيمان على التوبة، مع أن التوبة تشكل من حيث إن الإيمان توبة من الكفر، إما للاهتمام به؛ لأنه أصل الاعتداد

---

(١) سورة الشورى، آية ٢٥.

(٢) سورة طه، آية ٨٢.

(٣) هذا جزء من حديث طويل أخرجه البخاري في اللباس ١٠١ والتوحيد ١، ومسلم في الإيمان ٤٨، ٤٩، والترمذي في الإيمان ١٨، وابن ماجه في الزهد باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة.

(٤) سورة الأنعام، آية ١٢.

(٥) راجع: تفسير القرطبي ٥/ ٩٠ وما بعدها بتصرف.

بالأعمال الصالحة عند الله تعالى كقوله: ﴿مَا ٱلۡعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ۝١٤ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ۝١٥ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ۝١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ﴾[(١)]، ولئلا يظن أن الإشراك لخطورته لا تنجي منه التوبة. وإما أن يراد بالإيمان، إيمان خالص فيشمل عمل الواجبات»[(٢)]. هذا ما قاله العلماء، وما أضافه ابن عاشور عن اقتران التوبة بالإيمان.

ولا شك أن الجميع من خلق الله تعالى، وهم تحت مشيئته وإرادته، لا يملكون التوبة إلا أن يتوب الله عليهم؛ مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْ﴾[(٣)]. أي: قبل مشيئته لا يملكون التوبة، ولا يقدرون عليها، والرأي الذي نرتضيه نتيجة لما سبق أن توبة التائب بشروطها مقبولة؛ مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[(٤)]. وإذا كان الأمر كذلك فعلينا أن نجلي أقوال العلماء وردودهم في التوبة واقترانها بالصلاة والزكاة. وعلى الله قصد السبيل.

ثانيًا: التوبة واقترانُها بالصَّلاةِ والزَّكاة

قبل أن نتناول هذا الموضوع بالتبيين والتوضيح، وعرض أقوال العلماء ومفكري الإسلام بشأنه، نرى أن نقدم بين يدي هذا البحث نبذة مختصرة عن مفهوم الصلاة والزكاة في منهج الإسلام.

الصلاة من العبادات التي لم تنفك شريعة منها، وإن اختلفت صورها بين شرع وآخر، ولذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾[(٥)].

وقال بعضهم: أصل الصلاة من الصلي، ومعنى صلى الرجل: أزال عن نفسه بهذه العبادات الصلي الذي هو نار الله الموقدة.

(١) سورة البلد، الآيات ١٢ - ١٧.

(٢) راجع: تفسير ابن عاشور ٩/ ١٢٠.

(٣) سورة التوبة، آية ١١٨.

(٤) سورة الشورى، آية ٢٥.

(٥) سورة النساء، آية ١٠٣.

والصلاة: هي الصلة بين العبد وربه، والرابطة التي تربط الأرض بالسماء، ومعراج المؤمنين إلى ربهم، والمطية السريعة التي تنقلنا إلى رحاب الله سبحانه وتعالى. عندها يزول العبد، وتنمحي المسافات؛ مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾(١).

والصلاة رحمة مهداة من الله إلى عباده، ومن الملائكة الأبرار إلى العباد المخلصين. يقول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾(٢).

والصلاة رحمة؛ لأنها تخرج المؤمنين من ظلمات الضلالة إلى نور الإيمان، ومن العماية إلى الهدى، ومن الطريق المشتبه إلى الطريق الواحد المستقيم.

وصلاة الملائكة رحمة واستغفار، قال تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾(٣).

وصلاة الرسول ﷺ لأمته رحمة ودعاء، قال الله تعالى مخاطبًا رسوله الكريم ﷺ: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾(٤).

هذه هي الصلاة في منهج الإسلام، فماذا عن الزكاة؟

الزكاة: النمو الحاصل عن بركة الله تعالى، ومنه الزكاة لما يخرجه الإنسان من حق الله تعالى إلى الفقراء، وتسميته بذلك لما يكون فيه من رجاء البركة، أو لتزكية النفس؛ أي تنميتها بالخيرات والبركات.

وبزكاة النفس وطهارتها يصير الإنسان مستحقًا في الدنيا الأوصاف المحمودة، وفي الآخرة الأجر والثواب. والتطهير ينسب تارة إلى العبد لاكتسابه ذلك، نحو قوله تعالى: ﴿قَدْ

---

(١) سورة العلق، آية ١٩.

(٢) سورة الأحزاب، آية ٤٣.

(٣) سورة غافر، آية ٧.

(٤) سورة التوبة، آية ١٠٣.

أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾[١]. وتارة إلى الله تعالى؛ لكونه فاعلًا لذلك في الحقيقة، نحو: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾[٢]. وتارة إلى النبي ﷺ لكونه وساطة في وصول ذلك إليهم، نحو قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[٣].

أما اقترانها بالتوبة فذلك لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾[٤].

يقول الماوردي[٥] عند تفسيره لهذه الآية: «أي: أسلموا؛ لأن التوبة من الكفر تكون بالإسلام.

﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾. **فيها وجهان:**

أحدهما: أي: اعترفوا بإقامتها، وهو مقتضى قول أبي حنيفة؛ لأنه لا يقتل تارك الصلاة إذا اعترف بها.

الثاني: أنه أراد فعل الصلاة، وهو مقتضى قول مالك والشافعي؛ لأنهما يقتلان تارك الصلاة وإن اعترف بها.

﴿وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾. يعني: اعترفوا بها على الوجهين معًا؛ لأن تارك الزكاة لا يقتل مع الاعتراف بها، وتؤخذ من ماله جبرًا. وهذا إجماع»[٦].

(١) سورة الشمس، آية ٩.

(٢) سورة النساء، آية ٤٩.

(٣) سورة التوبة، آية ١٠٣.

(٤) سورة التوبة، آية ٥.

(٥) هو علي بن محمد بن حبيب أبو الحسن الماوردي، الفقيه الشافعي. كان من وجوه الفقهاء الشافعية، ولد في البصرة عام ٣٦٤هـ، وتوفي ببغداد عام ٤٥٠هـ، من مصنفاته: الأحكام السلطانية، والنكت والعيون، والحاوي في فقه الشافعية، وغير ذلك. انظر: طبقات الشافعية ٣/ ٣٠٣، وفيات الأعيان ٣/ ٢٨٢.

(٦) راجع: تفسير الماوردي ٢/ ١٢٠.

هذا ما قاله الماوردي. ولا شك أن وظيفته كقاض يمحِّص الأحكام، ويقوّم معوجها عن طريق الأدلة والبراهين، كان لها أعمق الأثر فيما خطه بقلمه، سواء في مجال السياسة وإقامة الدولة، أو في تفسيره لآيات الكتاب العزيز.

أما الإمام القرطبي فيقول: «هذه الآية فيها تأمل، وذلك أن الله تعالى علق القتل على الشرك، ثم قال: ﴿فَإِن تَابُواْ﴾. والأصل: أن القتل متى كان للشرك يزول بزواله، وذلك يقتضي زوال القتل بمجرد التوبة، من غير اعتبار إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وهذا بيّن في هذا المعنى، غير أن الله تعالى ذكر التوبة وذكر معها شرطين آخرين، فلا سبيل إلى إلغائهما، نظيره قوله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإن فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله**»[(١)].

قال ابن العربي[(٢)]: فانتظم القرآن والسنة واطردا. ولا خلاف بين المسلمين أن من ترك الصلاة وسائر الفرائض مستحلًّا كفر، ومن ترك السُّنَّة متهاونًا فسق، ومن ترك النوافل لم يحرج، إلا أن يجحد فضلها فيكفر؛ لأنه يصير رادًّا على الرسول ﷺ ما جاء به وأخبر عنه.

وقال أيضًا: هذه الآية دالة على أن من قال: قد تبت. أنه لا يجتزأ بقوله حتى ينضاف إلى ذلك أفعاله المختلفة للتوبة؛ لأن الله عز وجل شرط هنا مع التوبة إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة ليحقق بهما التوبة[(٣)].

ونرى أن القرطبي في كلمته هذه فرق بين القتل وبين قبول التوبة، فإذا تاب رُفع عنه القتل. ولكن تحقيق التوبة ودخوله في زمرة المؤمنين لا يكون إلا بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة. أي:

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في الإيمان ١٧، ٢٨، والصلاة ٢٨، والزكاة ١، ومسلم في كتاب الإيمان ٣٢، ٣٦، وأبو داود في الجهاد ٩٥، والترمذي في التفسير سورة ٨٨، وابن ماجه في الفتن ١.

(٢) هو محمد بن عبد الله بن محمد المعافري، أبو بكر بن العربي، قاض من حفاظ الحديث، ولد في إشبيلية عام ٤٦٨هـ، ورحل إلى المشرق، وبلغ رتبة الاجتهاد في علوم الدين، وصنف في الحديث والفقه والأصول والتفسير والأدب والتاريخ، توفي عام ٥٤٦هـ. راجع: وفيات الأعيان ٤/ ٢٩٦، والعبر ٤/ ١٢٥.

(٣) راجع: تفسير القرطبي ٨/ ٧٤.

أن يحقق القول الفعل. وإذا كانت هذه تصورات السابقين من رجالات التفسير، فيطيب لنا أن نتعرف على أقوال بعض المعاصرين بالنسبة للآية التي معنا.

يقول سيد قطب: «لقد كانت هناك وراءهم اثنتان وعشرون سنة من الدعوة والبيان، ومن إيذائهم للمسلمين، وفتنتهم عن دينهم، ومن حرب للمسلمين وتأليب على دولتهم، ثم من سماحة هذا الدين ورسوله وأهله معهم.. وإنه لتاريخ طويل، ومع هذا كله فقد كان الإسلام يفتح لهم ذراعيه؛ فيأمر الله نبيه والمسلمين الذين أوذوا وفتنوا وحوربوا وشردوا وقتلوا.. كان يأمرهم أن يكفوا عن المشركين إن هم اختاروا التوبة إلى الله تعالى، والتزموا شعائر الإسلام التي تدل على اعتناقهم هذا الدين، واستسلامهم له وقيامهم بفرائضه، وذلك أن الله لا يرد تائبًا مهما تكن خطاياه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

ثم يقول: (ما جاء في الآية) هو نص كان يواجه واقعًا في مشركي الجزيرة يومذاك. فما كان أحدهم ليعلن توبته، ويقيم الصلاة ويؤتي الزكاة إلا وهو يعني الإسلام كله، ويعني استسلامه له ودخوله فيه. فنصت الآية على التوبة، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة؛ لأنه ما كان ليفعل هذا منهم في ذلك الحين إلا من نوى الإسلام وارتضاه بكامل شروطه وكامل معناه، وفي أولها الدينونة لله وحده، وشهادة أن لا إله إلا الله، والاعتراف برسالة محمد ﷺ بشهادة أن محمدًا رسول الله ﷺ. فليست هذه الآية بصدد تقرير حكم فقهي، إنما هي بصدد إجراء واقعي له ملابساته»[2].

ومع تقديرنا واحترامنا لصاحب **الظلال**، نرى أن الآية قد تضمنت حكمًا فقهيًا، وهو عدم القتل وعصمة أموالهم، وذلك من منطلق حديث الرسول ﷺ الذي يقول فيه: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله. فإذا قالوها عصموا مني دمائهم وأموالهم...**»[3] إلخ.

فهذا الحديث أمر من الله تعالى بمقاتلتهم وسفك دمائهم وغنيمة أموالهم. ثم جاءت الآية

---

(١) سورة التوبة، آية ٥.

(٢) راجع: في ظلال القرآن لسيد قطب ٣/ ١٦٠١، ١٦٠٢.

(٣) سبق تخريج هذا الحديث ص ٤٠٦.

وكأنها تقول للرسول ﷺ: كف عن قتلهم وأخذ أموالهم بقوله تعالى: ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾[1]. وهل التخلية إلا الكف والمنع؟ فكيف لا تكون الآية متضمنة حكمًا فقهيًا. وإذا كانت هذه الآية قد تضمنت «التخلية لينطلقوا إلى حال سبيلهم، فإن الآية التي جاءت بعدها في السورة نفسها قد أوجبت على المسلمين مؤاخاتهم في الدين ومراعاتهم في شئون الحياة، قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[2] الآية.

الثانية: قال الله تعالى: ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾[3]. قال ابن الجوزي في تفسيره: أي: فتجاوز عنكم وخفف بنسخ إيجاب الصدقة. وقال مقاتل بن حيان: إنما كان ذلك - أي النسخ - لعشر ليال. وقال قتادة: ما كان إلا ساعة من نهار»[4].

فابن الجوزي يرى أن قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ﴾[5]. قد نسخت بقوله تعالى: ﴿وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾.

فإذا أردنا أن نتعرف على رأي ابن عطية في تفسيره لهذه الآية، فنراه ينفي قضية النسخ. ونص كلامه في ذلك: «ومن قال: إن هذه الصدقة منسوخة بآية الزكاة. فقوله ضعيف لا يحصل كيفية النسخ، وما ذكر في نحو هذا عن ابن عباس رضي الله عنه لا يصح عنه. والله تعالى أعلم»[6].

وقضية النسخ التي قال بها ابن الجوزي واستبعدها ابن عطية، لم تجد حلًّا لها عند المفسر المعاصر ابن عاشور. فنراه يقول: «المشهور عند جمع من سلف من المفسرين - أنها نزلت بعد عشرة أيام من التي قبلها، وذلك أن بعض المسلمين القادرين على تقديم الصدقة قبل النجوى شق عليهم ذلك، فأمسكوا عن مناجاة النبي ﷺ فأسقط الله وجوب الصدقة.

(١) سورة التوبة، آية ٥.

(٢) سورة التوبة، آية ١١.

(٣) سورة المجادلة، آية ١٣.

(٤) راجع: زاد المسير ٨/ ١٩٥.

(٥) سورة المجادلة، آية ١٢.

(٦) تفسير ابن عطية ١٤/ ٣٥٥.

وقد قيل: لم يعمل بهذه الآية غير علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ولعل غيره لم يحتج إلى نجوى الرسول ﷺ واقتصد مما كان يناجيه». ثم يتابع حديثه قائلاً: «قال المفسرون: على أن هذه الآية ناسخة للتي قبلها، فسقط وجوب تقديم الصدقة لمن يريد مناجاة الرسول ﷺ، وروي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنه واستبعده ابن عطية»(١).

إن ابن عاشور رحمه الله لم يضف جديدًا إلى ما قاله ابن الجوزي وما اعترض به ابن عطية، الأمر الذي يقتضينا أن نتعرف على رأي صاحب **الظلال** لعلنا نجد عنده إضافة جديدة في تفسير هذه الآية. قال صاحب **الظلال**: «وهكذا يتولى القرآن تربية النفوس وتهذيبها، وتعليمها الفسحة والسماحة، والطاعة بأسلوب التشويق والاستجاشة، فالدين ليس بالتكاليف الحرفية، كذلك يعلمهم القرآن أدبًا آخر في علاقتهم برسول الله ﷺ، فيبدو أنه كان هناك تزاحم على الخلوة برسول الله ﷺ ليحدثه كل فرد في شأن يخصه، ويأخذ فيه توجيهه ورأيه، أو ليستمتع بالانفراد به، مع عدم التقدير لمهام رسول الله ﷺ الجماعية، وعدم الشعور بقيمة وقته، وبجدية الخلوة به، وأنها لا تكون إلا لأمر ذي بال، فشاء الله أن يشعرهم بهذه المعاني بتقرير ضريبة للجماعة من مال الذي يريد أن يخلو برسول الله ﷺ، ويقتطع من وقته الذي هو من حق الجماعة، في صورة صدقة يقدمها قبل أن يطلب المناجاة والخلوة.. ولكن الأمر شق على المسلمين، وعلم الله ذلك منهم، وكان الأمر قد أدى غايته، وأشعرهم بقيمة الخلوة التي يطلبونها، فخفف الله عنهم ونزلت الآية التالية برفع هذا التكليف، وتوجيههم إلى العبادات والطاعات المصلحة للقلوب»(٢).

إن صاحب **الظلال** قد وضع يده على الأهداف السامية التي أرادها الله سبحانه وتعالى من الجماعة الإسلامية، وهو إحساسهم بقيمة الوقت بالنسبة للرسول ﷺ، وهذا الوقت يجب أن يكون خالصًا لجماعة المسلمين بعامة، إلا إذا كانت هناك ضرورة ملحة لبعض الأفراد بالانفراد برسول الله ﷺ؛ شريطة ألا يطغى ذلك على مصلحة الجماعة. ولقد استجاب المسلمون لهذه التربية العالية التي أمرهم بها ربهم جل وعلا.

---

(١) راجع: تفسير ابن عاشور ٢٨/ ٤٦.

(٢) راجع: في ظلال القرآن ٨/ ٢١ بتصرف.

وإذا كان الأمر كذلك، فيطيب لنا أن نتناول بالعرض والإبانة الموضوع الثالث: وهو اقتران التوبة بالعمل الصالح. والله الهادي إلى ما يحب ويرضى.

ثالثًا: التَّوْبَةُ والعَمَلُ الصَّالِحُ

خلق الله تعالى الإنسان وزوده بقوى وطاقات لا حصر لها، وما زال العلم يكشف عنها يومًا بعد يوم، مما يجعل العقول تصاب بالدهشة والانبهار.

والإسلام يعمل دائمًا على توجيه هذه الطاقات توجيهًا حسنًا في طريق العمل والإنتاج، على أساس من شرائعه ومبادئه. والعمل في منهج الإسلام، هو العمل المقبول عند الله تعالى؛ لأنه يسير حسب شرائعه ووحيه. قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾[1]. وقال أيضًا: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[2].

يجزيهم الله أحسن ما عملوا؛ لأنهم لا يغفلون عن أداء حق الله في الصلاة، وأداء حق العباد في الزكاة: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾[3].

تتقلب فلا تثبت على شيء من الهول والكرب والاضطراب، وهم يخافون ذلك اليوم؛ فلا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، وهم مع هذا الخوف يعلقون رجاءهم بثواب الله: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾. والعمل في منهج الإسلام دعامة الحياة، ووسيلة لتحقيق دور الخلافة في الأرض. قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[4].

إن الندم والتوبة ليسا نهاية المطاف، ولكنه العمل الذي يعقب الندم والتوبة، وللنية الطيبة

---

(١) سورة الأحقاف، آية ١٦.

(٢) سورة النور، آية ٣٨.

(٣) سورة النور، آية ٣٧.

(٤) سورة التوبة، آية ١٠٥.

مكانها، ولكنها هي بذاتها ليست مناط الحكم والجزاء، إنما تحسب مع العمل، فتحدد قيمة العمل، وهذا معنى الحديث: «**إنما الأعمال بالنيات**»(١). الأعمال.. لا مجرد النيات. ولهذا لما سئل الرسول ﷺ: أي الكسب أطيب؟ قال: «**عمل الرجل بيده وكل بيع مبرور**»(٢). وعن أنس رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر، فمنا الصائم ومنا المفطر. قال: فنزلنا منزلًا في يوم حار، أكثرنا ظلًّا صاحب الكساء، فمنا من يتقي الشمس بيده. قال: فسقط الصُّوام - إعياء - وقام المفطرون فضربوا الأبنية وسقوا الركاب. فقال الرسول ﷺ: «**ذهب المفطرون اليوم بالأجر كله**»(٣).

بل إن الإسلام عدَّ الإقبال على العمل والتشمير عن ساعد الجد فيه ضربًا من الجهاد في سبيل الله. مر رجل على النبي ﷺ فرأى أصحاب الرسول من جَلدِه ونشاطه في الاكتساب والارتزاق ما حملهم على الكلام فيه، قالوا: يا رسول الله، لو كان في سبيل الله هذا. فقال الرسول ﷺ: «**إن كان خرج يسعى على ولده صغارًا فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياء ومفخرة فهو في سبيل الشيطان**»(٤).

ومن هنا جاءت التوبة مرتبطة بالعمل الصالح في كثير من آيات القرآن الكريم، من ذلك قول الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾(٥).

فإذا أردنا أن نتعرف على أقوال المفسرين في هذه الآية، نرى الإمام الطبري يستهل حديثه عن هذه الآية بقوله: «إلا من أناب من كتمانه ذلك منهم، وراجع التوبة بالإيمان بمحمد ﷺ،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ١/ ٢ كتاب بدء الوحي، ومسلم في صحيحه ٢/ ١٥١٥، كتاب الإمارة، باب بيان قدر ثواب من غزا فغنم ومن لم يغنم.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٤/ ١٤١ عن رافع بن خديج.

(٣) الحديث أخرجه مسلم في الصيام ٩٧، وأبو داود في الصوم ٤٢، والترمذي في الصوم ١٩.

(٤) الحديث أخرجه مسلم في الزكاة ٣٨، والترمذي في البر ٤٢، وأحمد بن حنبل في المسند ٥/ ٢٨٤.

(٥) سورة البقرة، آية ١٦٠.

والإقرار به وبنبوته، وتصديقه فيما جاء به من عند الله، وبيان ما أنزل الله في كتبه التي أنزل إلى أنبيائه؛ من الأمر باتباعه، وأصلح حال نفسه بالتقرب إلى الله من صالح الأعمال بما يرضيه عنه، وبين الذي علم من وحي الله الذي أنزله إلى أنبيائه وعهد إليهم في كتبه فلم يكتمه، وأظهره فلم يخفه. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾. يعني هؤلاء الذين فعلوا هذا الذي وصفت منهم، هم الذين أتوب عليهم، فأجعلهم من أهل الإياب إلى طاعتي والإنابة إلى مرضاتي»(١).

فنرى الطبري اشترط لتوبة الله على عباده شروطًا ثلاثة:

أولًا: الإيمان الكامل بنبوة محمد ﷺ والتصديق بكل ما جاء به من عند ربه.

ثانيًا: إصلاح حال نفسه بالتقرب إلى ربه، والعمل على مرضاته، والمداومة على هذا العمل.

ثالثًا: عدم كتمان ما أنزل الله على رسوله، بل عليه إذاعته وإشاعته بين الناس، حتى يكون من المقبولين الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟﴾(٢). ويقول ابن عطية: ثم استثنى الله تعالى التائبين الذين أصلحوا في أعمالهم وأقوالهم. ثم يوضح أن توبة الله على عبده هي رجوعه به من المعصية إلى الطاعة(٣). ولا نرى أن ابن عطية قد أضاف جديدًا عما وضحه وبيّن معالمه شيخ المفسرين الطبري.

أما عند الإمام القرطبي فهو يقول عند تفسيره لهذه الآية: «استثنى الله تعالى التائبين الصالحين لأعمالهم وأقوالهم، المنيبين لتوبتهم، ولا يكفي في التوبة عند علمائنا قول القائل: قد تُبتُ. حتى يظهر منه في الثاني خلاف الأول. فإن كان مرتدًا رجع إلى الإسلام مظهرًا شرائعه، وإن كان من أهل المعاصي ظهر منه العمل الصالح، وجانب أهل الفساد والأحوال التي كان عليها، وإن كان من أهل الأوثان جانبهم وخالط أهل الإسلام، وهكذا يظهر عكس ما كان عليه»(٤).

(١) راجع: تفسير الطبري ٣/ ٢٥٩.

(٢) سورة التوبة، آية ١١٨.

(٣) المحرر الوجيز لابن عطية ٢/ ٤٥.

(٤) تفسير القرطبي ٣/ ٢٦٠.

إن الإمام القرطبي وضع نصب عينيه عند تفسيره لهذه الآية أن التوبة إسلام جديد، والإسلام كما قال الرسول ﷺ: «يَجُبُّ ما قبله»[١]. فهو يرى أن التائب يعود إنسانًا جديدًا في كل تصرفاته وأحواله، ينسلخ من جهالته الأولى ليكون المؤمن التقي الورع الذي يخاف الله ويخشاه، ويجعل بينه وبين حياته الأولى وتصرفاته السابقة سدًّا منيعًا من الحصانة والوقاية، وخشية الله تعالى في السر والجهر.

فإذا تركنا الإمام القرطبي واتجهنا إلى العالم المعاصر ابن عاشور، نراه يتأثر بما قاله ابن مسعود رضي الله عنه: إن الآية خاصة بمن تاب من اليهود. يقول: «وشرط للتوبة أن يصلحوا ما أفسدوا، وهو بإظهار ما كتموه وأن يبينوه للناس، فلا يكفي اعترافهم وحدهم، أو في خلواتهم، فالتوبة هنا الإيمان بمحمد ﷺ، فإنه رجوع عن كتمانهم الشهادة له الوارد في كتبهم، وإطلاق التوبة على الإيمان بعد الكفر وارد كثيرًا في كتاب الله؛ لأن الإيمان هو توبة الكافر من الكفر، وإنما زاد بعده: ﴿وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ﴾. لأن شرط كل توبة أن يتدارك التائب ما يمكن تداركه مما أضاعه بفعله الذي تاب عنه»[٢].

ثانيًا: قال تعالى: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا﴾[٣].

قال الإمام القرطبي: ﴿فَـَٔاذُوهُمَا﴾. قال قتادة والسدي: معناه التوبيخ والتعيير. وقالت فرقة: هو السب والجفاء ذو تعيير. قال ابن عباس رضي الله عنهما: النيل باللسان والضرب بالنعال.

واختلف العلماء في تأويل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي﴾. وقوله: ﴿وَٱلَّذَانِ﴾. فقال مجاهد وغيره: الآية الأولى في النساء عامة محصنات وغير محصنات، والآية الثانية في الرجال خاصة. وبين لفظ التثنية صنفي الرجال: من أحصن ومن لم يحصن، فعقوبة النساء الحبس، وعقوبة

(١) الحديث أخرجه الإمام أحمد في المسند ٤/ ١٩٩، ٢٠١، ٢٠٥.

(٢) تفسير ابن عاشور ٢/ ٢٧.

(٣) سورة النساء، آية ١٦.

الرجال الأذى، وهذا قول يقتضيه اللفظ، ويستوفي نص الكلام أصناف الزناة، ويؤيده من جهة اللفظ قوله في الأولى: ﴿مِن نِّسَآئِكُمْ﴾. وفي الثانية: ﴿مِنكُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَابَا﴾. أي: من الفاحشة. ﴿وَأَصْلَحَا﴾. يعني العمل فيما بعد ذلك. ﴿فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَآ﴾. أي: اتركوا أذاهما وتعييرهما. وإنما كان هذا قبل نزول الحدود. فلما نزلت الحدود نسخت هذه الآية. وليس المراد بالإعراض الهجرة، ولكنها متاركة معرض، وفي ذلك احتقار لهم بسبب المعصية المتقدمة، وبحسب الجهالة في الآية الأخرى. والله تواب. أي: راجع بعباده عن المعاصي[(١)].

لقد جلى القرطبي الآية ووضحها وأزال ما وقع فيه العلماء من لبس وتخبط لا يسنده دليل، ولا يؤيده نص، ومع هذه التجلية جاء في النهاية وأيد ما قاله العلماء من نسخ هذه الآية، ولكنه لم يوضح لنا العقوبة على الرجلين اللذين يأتيان هذه الفاحشة المنكرة بعد نزول الحدود.

وإذا كان هذا ما قاله صاحب **الجامع لأحكام القرآن** في القرن السابع الهجري، فماذا يمكن أن يضيفه صاحب **الظلال** في القرن الرابع عشر للهجرة.

يقول سيد قطب في قوله تعالى: ﴿فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَآ﴾. فالتوبة والإصلاح - كما سيأتي - تعديل أساسي في الشخصية والكينونة، والوجهة والطريق، والعمل والسلوك، ومن ثم تقف العقوبة، وتكف الجماعة عن إيذاء المنحرفين الشاذين، وهذا هو الإعراض عنهما في هذا الموضوع، أي: الكف عن الإيذاء. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾. وهو الذي شرع العقوبة، وهو الذي يأمر بالكف عنها عند التوبة والإصلاح، ليس للناس من الأمر شيء في الأولى، وليس لهم من الأمر شيء في الأخيرة، إنما هم ينفذون شريعة الله وتوجيهه، وهو تواب رحيم، يقبل التوبة ويرحم التائبين.

واللمسة الثانية في هذه الإيماءة، هو توجيه قلوب العباد للاقتباس من خلق الله، والتعامل فيما بينهم بهذا الخلق، وإذا كان الله توابًا رحيمًا، فينبغي لهم أن يكونوا هم فيما بينهم

(١) راجع: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٥/٨٦، ٩٠.

متسامحين رحماء أمام الذنب الذي سلف، وأعقبه التوبة والإصلاح. إنه ليس متسامحًا في الجريمة وليس رحمة بالفاحشين، فهنا لا تسامح ولا رحمة، ولكن سماحة ورحمة بالتائبين المتطهرين المصلحين، وقبولهم في المجتمع، وعدم تذكيرهم وتعييرهم بما كان منهم من ذنب تابوا عنه، وتطهروا منه، وأصلحوا حالهم بعده، فينبغي - حينئذ - مساعدتهم على استئناف حياة طيبة نظيفة كريمة، ونسيان جريمتهم حتى لا يثير في نفوسهم التأذي كلما واجهوا المجتمع بها، مما قد يحمل بعضهم على الانتكاس والارتكاس واللجاج في الخطيئة، وخسارة أنفسهم في الدنيا والآخرة، والإفساد في الأرض، وتلويث المجتمع، والنقمة عليه في ذات الأوان.

وقد عدلت هذه العقوبة كذلك - فيما بعد - فروى أهل السنن حديثًا مرفوعًا عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من رأيتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به**»(١).

وتبدو في هذه الأحكام عناية المنهج الإسلامي بتطهير المجتمع الإسلامي من الفاحشة، ولقد جاءت هذه العناية مبكرة. فالإسلام لم ينتظر حتى تكون له دولة في المدينة، وسلطة تقوم على شريعة الله، وتتولاها بالتنفيذ؛ فقد ورد النهي عن الزنا في سورة الإسراء المكية، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾(٢).

كما ورد في سورة المؤمنون: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾(٣).

(١) الحديث أخرجه أبو داود في كتاب الحدود ٢٩، باب فيمن عَمِلَ عَمَلَ قوم لوط ٤٤٦٢ بسنده عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «...» وذكره، والترمذي في الحدود ح ١٤٥٦، باب في حد اللوطي، وابن ماجه في الحدود ح ٢٥٦٤، باب من عَمِل عَمَل قوم لوط، ونسبه المنذري للنسائي أيضًا ولفظه عنده: «**لعن الله من عَمِل عَمَل قوم لوط**». كررها ثلاثًا.

(٢) سورة الإسراء، آية ٣٢.

(٣) سورة المؤمنون، الآيات من ١ - ٦.

وكرر هذا القول في سورة المعارج[1]. ويتابع صاحب الظلال حديثه قائلًا: «ولكن الإسلام لم تكن له في مكة دولة، ولم تكن له فيها سلطة، فلم يسن العقوبات لهذه الجريمة التي نهى عنها في مكة، إلا حين استقامت له الدولة والسلطة في المدينة، ولم يعتبر النواهي والتوجيهات وحدها كافية لمكافحة الجريمة، وصيانة المجتمع من التلوث، فلما أن أصبحت له دولة أخذ يزاول سلطته في صون المجتمع من الفاحشة عن طريق العقوبة والتأديب، إلى جانب التوجيه والموعظة»[2].

إن صاحب الظلال يحصر تصوراته في هذه الآية في نقاط ثلاث:

الأولى: ما أطلق عليه تعديل أساسي في الشخصية الإنسانية التي كانت منحرفة عن الطريق السويّ، فهي تسير على غير هديٍ من وحيٍ، أو دليلٍ من عقلٍ، وتتخبط من جراء وسوسة الشيطان لها، حتى إذا تابت وآبت واستقامت على الصراط المستقيم، أصبحت لا يغريها لهو الحديث، ولا يأخذ بلبها بهرج الدنيا وزخرفها.

الثانية: على المجتمع الإسلامي الاتباع لا الابتداع، والتخلق بأخلاق الله تعالى التي أمرنا بها، وما دام الله قد حَرَّم الظلم على نفسه، وأمرنا بعدم التظالم، فعلينا السمع والطاعة.

وما دام الله رؤوفًا رحيمًا، فعلينا أن نرحم هؤلاء الذين عادوا إلى طريق الإيمان؛ فلا نؤذيهم بقارع القول، ولا نكون عونًا للشيطان عليهم، بل علينا أن نساعدهم لاستئناف حياتهم الجديدة الطاهرة الملتزمة بتعاليم الإسلام.

الثالثة: حرص الإسلام على سلامة مجتمعه من الفحش والتفاحش حتى قبل أن تكون له دولة تقيم الحدود، وترد الباغين عن تلويث المجتمع، كانت له توجيهاته السليمة في التنفير من الزنا وأساليب المنكر، واستمر الوضع على ذلك حتى أقيمت دولته، عندما شرعت الحدود، وقننت العقوبات؛ لأن الله يزع بالسلطان ما لم يزع بالقرآن.

ثالثًا: قال الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ

(١) سورة المعارج، الآيتان ٢٩، ٣٠.

(٢) في ظلال القرآن بتصرف ٢/ ٢٧٧، ٢٧٨.

مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[١]. قال الله سبحانه وتعالى ذلك بعد قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾[٢]. وسنحاول بمشيئة الله أن تكون لنا سياحة مع المفسرين، وأقوال المفكرين الإسلاميين لنتعرف على تفسيرهم لهذه الآية.

قال ابن الجوزي في تفسيره: «قال مقاتل: سبب نزولها أن قومًا قالوا عند ذكر مستقر المنافقين: فقد كان فلان وفلان منافقين، فتابوا، فكيف يفعل بهم؟ فنزلت هذه الآية. وعلى هذا يكون المعنى: إلا الذين تابوا من النفاق وأصلحوا أعمالهم بعد التوبة[٣].

وكان الصحابة رضوان الله عليهم قد تعجبوا من توبة المنافقين الذين وصفهم الله تعالى: بأنهم في الدرك الأسفل من النار. دليله ما رواه الإمام البخاري في **صحيحه** بسنده عن الأسود قال: كنا في حلقة عبد الله، فجاء حذيفة حتى قام علينا فسلم، ثم قال: لقد نزل النفاق على قوم خير منكم. قال الأسود سبحان الله! إن الله يقول: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[٤]. فتبسم عبد الله، وجلس حذيفة في ناحية المسجد، فقام عبد الله، فتفرق أصحابه، فرماني بالحصى فأتيته، فقال حذيفة: عجبت من ضحكه وقد عرفت ما قلت، لقد أنزل النفاق على قوم كانوا خيرًا منكم ثم تابوا، فتاب الله عليهم.

قال الحافظ ابن حجر: ويستفاد من قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[٥]. صحة توبة الزنديق على ما عليه الجمهور[٦].

وما قاله ابن عاشور لا يخرج عما جاء في **صحيح البخاري** من أن الآية نزلت في توبة المنافقين.

وقال صاحب **الظلال**: «وفي مواضع أخرى كان يكتفي بأن يقول: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟﴾.

(١) سورة النساء، آية ١٤٦.
(٢) سورة النساء، آية ١٤٥.
(٣) زاد المسير لابن الجوزي ٢/ ٢٣٤.
(٤) سورة النساء، آية ١٤٥.
(٥) سورة النساء، آية ١٤٦.
(٦) فتح الباري ١٢/ ٤٩٧.

فالتوبة والإصلاح يتضمنان الاعتصام بالله، وإخلاص الدين لله؛ لأنه يواجه نفوسًا تذبذبت، وتولت غير الله؛ فناسب أن ينص عند ذكر التوبة والإصلاح على التجرد لله، والاعتصام به وحده، وخلاص هذه النفوس من تلك المشاعر المذبذبة، وتلك الأخلاق المخلخلة؛ ليكون في الاعتصام بالله وحده قوة وتماسك، وفي الإخلاص لله وحده خلوص وتجرد. وبذلك تخف تلك الثقلة التي تهبط بالمنافقين في الحياة الدنيا إلى اللصوق بالأرض، وتهبط بهم في الحياة الآخرة إلى الدرك الأسفل من النار. وبذلك يرتفع المؤمنون منهم إلى مصاف المؤمنين المعتزين بعزة الله وحده، المستعلين بالإيمان، المنطلقين من ثقلة الأرض بقوة الإيمان، ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[1].

وبهذه اللمسات المنوعة يكشف حقيقة المنافقين في المجتمع المسلم ويقلل من شأنهم، وينبه المؤمنين إلى مزالق النفاق ويحذرهم مصيره، ويفتح باب التوبة للمنافقين، يحاول من فيه خير أن يخلص نفسه، وينضم إلى الصف المسلم في صدق وحرارة وفي إخلاص[2].

وفي هذه الآية تتجلى شفافية صاحب **الظلال**، فنراه يبرز نقاطًا جديدة في تفسير الآية، تستروحها نفوس القابضين على دينهم في القرن العشرين، فتأخذ بمجامع قلوبهم، وتزيدهم قوة إيمان، وتسلحهم بأسلحة واقية ضد طغيان المادية وضلالات أصحابها. ومن هذه النقاط:

أ- أنه أبرز الجديد الذي تتفرد به هذه الآية عن نظيراتها من الآيات الأخرى وهو الاعتصام بالله، واللجوء إلى حِماه، حتى تستقر نفوسهم، وتطمئن قلوبهم، ويهجروا النفاق إلى غير رجعة.

ب- أن الله تعالى هو مقلب قلوب العباد وأمرهم بيده، فلا غضاضة ولا مشاحة في نقل هؤلاء الذين توعدهم بأنهم في الدرك الأسفل من النار إلى مصاف المؤمنين الآيبين العائدين إلى ربهم: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[3].

(1) سورة النساء، آية ١٤٦.

(2) في ظلال القرآن لسيد قطب ٢/ ٥٦٥.

(3) سورة يس، آية ٨٢.

جـ- التهوين من شأن المنافقين المُصرين على نفقاهم في المجتمع الإسلامي، وأن أمرهم إلى بوار، وكيدهم إلى ضلال، وأموالهم التي ينفقونها للصد عن سبيل الله ستكون عليهم حسرة وندامة، كما قال تعالى: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾(1).

رابعًا: قال الله تعالى: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(2).

قال ابن عاشور في تفسيره: «أي: من تاب من السارقين من بعد السرقة تاب الله عليه، أي: قبلت توبته، وليس في الآية ما يدل على إسقاط عقوبة السرقة عن السارق إن تاب قبل عقابه؛ لأن ظاهر (تاب - وتاب الله عليه) أنه فيما بين العبد وبين ربه في جزاء الآخرة، فقوله: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ﴾. ترغيب لهؤلاء العصاة في التوبة، وبشارة لهم. ولا دليل في الآية على إبطال حكم العقوبة في بعض الأحوال، كما في آية المحاربين، فلذلك قال جمهور العلماء: توبة السارق لا تسقط القطع ولو جاء تائبًا قبل القدرة عليه. ويدل لصحة قولهم أن النبي ﷺ قطع يد المخزومية، ولا شك أنها تائبة»(3). وقال في ذلك لأسامة بن زيد: «**أتشفع في حد من حدود الله، والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها**»(4).

ثم ذكر ابن عاشور رواية عن عطاء: إن جاء السارق تائبًا قبل القدرة عليه سقط عنه القطع، ونقل هذا عن الشافعي، وهو من حمل المطلق على المقيد حملًا على حكم المحارب، وهذا يشبه أن يكون من متحد السبب، مختلف الحكم والتحقيق.

(1) سورة الأنفال، آية ٣٦.

(2) سورة المائدة، آية ٣٩.

(3) تفسير ابن عاشور ٧/ ١٩٣.

(4) أخرجه البخاري في الأنبياء ٤/ ٣١٢، باب حدثنا أبو اليمان.. إلخ، وفي الحدود ٨/ ٩ باب كراهة الشفاعة في الحد، ومسلم في الحدود ح ١٦٨٨ باب قطع السارق الشريف وغيره، والترمذي في الحدود ح ٢٥٤٧، باب الشفاعة في الحدود ٤، وأبو داود في الحدود باب في الحد يشفع فيه ح ٤٣٧٣.

ثم رد ابن عاشور على هذه الرواية بقوله: «إن آية الحرابة ليست من المقيد، بل هي حكم مستفاد استقلالًا، وإن الحرابة والسرقة ليسا سببًا واحدًا، فليست المسألة من متحد السبب، ولا من قبيل المطلق الذي قابله مقيد»[١].

وما قاله العالم الجليل ابن عاشور قد سبقه إليه الإمام القرطبي عند تناوله لهذه الآية حيث قال: «إن الله تعالى لما ذكر حد المحارب قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡ﴾[٢]. وعطف عليه حد السارق وقال: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِ﴾[٣]. فلو كان مثله في الحكم ما غاير الحكم بينهما.

قال ابن العربي: ويا معشر الشافعية، سبحان الله! أين الدقائق الفقهية والحكم الشرعية التي تستنبطونها من غوامض المسائل؟ إلى أن قال: «وإذا ثبت أن الحد لا يسقط بالتوبة، فالتوبة مقبولة، والقطع كفارة له»[٤].

ونحن نميل إلى ما ذهب إليه ابن عاشور، والإمام القرطبي، وابن العر بي في أن التوبة لا تسقط حد السرقة.

وإذا كان الأمر كذلك فما موقف صاحب **الظلال** من هذه الآية؟

يقول: يفتح الله باب التوبة لمن يريد أن يتوب، على أن يندم ويرجع ويكف، ثم لا يقف عند هذه الحدود السلبية، بل يعمل عملًا صالحًا ويأخذ في خير إيجابي. ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾[٥].

فالظلم عمل شرير مفسد، ولا يكفي أن يكف الظالم عن ظلمه ويقعد، بل لا بد أن يعوضه بعمل إيجابي خير مصلح. على أن الأمر في المنهج الرباني أعمق من هذا، فالنفس الإنسانية

(١) تفسير ابن عاشور ٧/ ١٩٣.

(٢) سورة المائدة، آية ٣٤.

(٣) سورة المائدة، آية ٣٩.

(٤) تفسير ابن عاشور ٧/ ٣٧٣.

(٥) سورة المائدة، آية ٣٩.

لا بد أن تتحرك، فإذا هي كفت عن الشر والفساد ولم تتحرك للخير والصلاح؛ بقي فيها فراغ وخواء قد يرتدان بها إلى الشر والفساد، بهذه الإيجابية وبهذا الامتلاء.. إن الذي يربي بهذا المنهج هو الله الذي خلق والذي يعلم ما خلق.

وعلى ذكر الجريمة والعقوبة، وذكر التوبة والمغفرة، يعقب السياق القرآني بالمبدأ الكلي الذي تقوم عليه شريعة الجزاء في الدنيا والآخرة، فخالق هذا الكون ومالكه هو صاحب المشيئة العليا فيه، وصاحب السلطان الكلي في مصائره. هو الذي يقرر مصائره ومصائر من فيه، كما أنه هو الذي يشرع للناس في حياتهم، ثم يجزيهم على عملهم في دنياهم وآخرتهم(١).

ونأخذ مما قاله ابن عاشور، والقرطبي، وسيد قطب، من مضامين هذه الآية النقاط التالية:

أ- أن حكم الحرابة مباين لحكم السارق، وأن توبة السارق لا تسقط عنه الحد.

ب- أن الندم توبة، والتوبة ليست عملًا سلبيًا تقف عند الإقرار بالذنب، والإنابة إلى الله تعالى والتوبة إليه، بل يجب أن تتحول إلى عمل إيجابي يتمثل في عمل الصالحات، والكف عن المحرمات والمساهمة الفعلية في إقامة شرع الله في الأرض.

جـ- أن الله سبحانه وتعالى هو الخالق لهذا الكون بكل ما فيه وعليه، ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾(٢)، وما دام الأمر كذلك فهو المتصرف الحاكم لخلقه، ﴿يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾(٣). فلا يتحركون إلا بأمره، ولا يتوبون إلا بإذنه، قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟﴾(٤). فَقَبل إرادته ومشيئته ما كانت لهم توبة،

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ٢/ ٨٨٦.

(٢) سورة فاطر، آية ٣.

(٣) سورة الشورى، آية ١٣.

(٤) سورة التوبة، آية ١١٨.

وما وجد لهم عزم عليها.

خامسًا: قال الله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(١).

وإذا كان الأمر كذلك فما هي الجهالة في مفهوم الشرع وعند علماء اللغة؟

يقال: الجهل نقيض العلم، وهو جاهل وجهول، والجمع جُهُل وجُهَّال، ويقسمه بعضهم إلى ثلاثة أضرب:

الأول: خلو النفس من العلم. وقد جعل بعض المتكلمين الجهل معنى مقتضيًا للأفعال الخارجة عن النظام، كما جعل العلم معنى مقتضيًا للأفعال الجارية على النظام.

الثاني: اعتقاد الشيء على خلاف ما هو عليه.

الثالث: فعل الشيء بخلاف ما حقه أن يفعل، سواء اعتقد فيه اعتقادًا صحيحًا أو فاسدًا(٢).

والجهالة عند الإمام القرطبي تعم الكفر والمعاصي، فكل من عصى ربه فهو جاهل حتى ينزع عن معصيته. قال قتادة: أجمع أصحاب النبي ﷺ على أن كل معصية فهي بجهالة، عمدًا كانت أو جهلًا. وقاله ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة والضحاك ومجاهد والسدي، وروي عن الضحاك ومجاهد أنهما قالا: الجهالة هنا العمد.

وقال عكرمة: أمور الدنيا كلها جهالة. يريد الخاصة بها، الخارجة عن طاعة الله. وهذا القول جار مع قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾(٣).

وقال الزجاج: يعني قوله: ﴿بِجَهَالَةٍ﴾. اختيارهم اللذة الفانية على اللذة الباقية. وقيل: ﴿بِجَهَالَةٍ﴾. أي: لا يعلمون كنه العقوبة(٤).

---

(١) سورة الأنعام، آية ٥٤.

(٢) راجع: بصائر ذوي التمييز ٢/ ٤٠٦.

(٣) سورة محمد، آية ٣٦.

(٤) راجع: تفسير القرطبي ٥/ ٩٢.

وقد رأى المفسرون في هذه الآية وضوحًا وبيانًا؛ فلم يقفوا عندها كثيرًا، وتكاد تكون آراؤهم التي ذكروها فيها متقاربة ومتحدة، سواء ما ذكره الإمام ابن كثير(١)، أو ما دبجته يراعة الألوسي(٢)، أو ابن عاشور(٣)، ولهذا اكتفينا بما ذكره القرطبي عن الجهالة والجهل.

سادسًا: قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾(٤). ولقد تناول هذه الآية العديد من الشراح والمفسرين. من ذلك أن ابن عطية بدأها بقوله:

«ولما حذر الله تبارك وتعالى غضبه والطغيان في نعمه، فتح باب الرجاء للتائبين؛ لأن التوبة فرض على جميع الناس؛ لقوله تعالى في سورة النور: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

والناس فيها مراتب: أما مواقع الذنوب وقدرته على ذلك باقية، فتوبته الندم على ما مضى، والإقلاع التام عن مثله في المستقبل. وأما الذي واقع الذنب ثم زالت قدرته على ذلك ممن شاخ أو بآفة، فتوبته الندم واعتقاد الترك إن كانت له قدرة. وأما من يواقع ذنبًا فتوبته العزم على ترك كل ذنب.

والتوبة من ذنب تصح مع الإقامة على غيره، وهي توبة مقيدة، وإذا تاب العبد ثم عاود الذنب بعينه بعد مدة، فيحتمل عند حذاق أهل السنة ألا يعيد الله تعالى عليه الذنب الأول؛ لأن التوبة قد كانت محضة، ويحتمل أن يعيده؛ لأنها توبة لم يُوَفَّ بها»(٥).

وخلاصة ما قاله ابن عطية في هذا الصدد يمكن إجماله فيما يأتي:

أ- أن التوبة فرض فرضه الله تعالى على جميع خلقه، ويؤيده ما جاء في الحديث: **«كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون»**(٦).

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ١٤٦.

(٢) تفسير الألوسي ٧/ ١٦٤.

(٣) تفسير ابن عاشور ٦/ ٢٥٩.

(٤) سورة النور، آية ٣١.

(٥) راجع: المحرر الوجيز لابن عطية ١٠/ ٦٨.

(٦) الحديث أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد ٤٢٥١ بسنده عن قتادة، عن أنس قال: =

ب- قسم التوبة بحسب الذنب وطبيعة مرتكب الذنب إلى عدة مراتب.

جـ- عودة التائب إلى ارتكاب المعصية التي تاب عنها موكول أمره إلى خالقه تعالى، إن شاء حاسبه على ما قدم وأخر، وإن شاء تجاوز له عما كان قد تاب عنه.

هذه خلاصة مركزة لتخريجات ابن عطية في هذه الآية، الذي عاش في القرن السادس الهجري، فماذا تراه يقول صاحب **الظلال** الذي عاش في قرننا هذا، وشاهد عن كثب سلوكيات النفس البشرية وهي تتحرر وتنسلخ من الكثير الذي نادت به الشرائع وأمر به خالق الإنسان؟

يقول سيد قطب: «التوبة ليست كما تقال، وإنما هي عزيمة في القلب يتحقق مدلولها بالإيمان والعمل الصالح، ويتجلى أثرها في السلوك العملي في عالم الواقع، فإذا وقعت التوبة، وصح الإيمان، وصدَّقه العلم، فهنا يأخذ الإنسان في الطريق على هدي من الإيمان، وعلى ضمانه من العمل الصالح، فالاهتداء هنا ثمرة ونتيجة للمحاولة والعمل»[1].

إن صاحب **الظلال** يترجم للتوبة؛ فيرفض أن تكون كلمة تقال باللسان فقط، وهو بهذا يتوافق مع ما قرره علماء الشرع من أن التوبة إسلام جديد. والإسلام إقرار باللسان، وتصديق بالجنان، وعمل بالأركان.

إذ لا بد من تحقق العمل الصالح بعد الدخول في التوبة، العمل الذي لا تشوبه شائبة، ولا يميل عن الشرع قيد أنملة. فإذا تم ذلك وأصبح العمل الصالح سلوكًا ومنهجًا للتائب، كانت له المغفرة من ربه، ووجده معه بالرعاية والعناية والكلاءة والحفظ في كل عمل يؤديه، وعند كل همسة يهمس بها، وعند كل خلجة يختلجها. قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[2].

معنا بالرعاية التي لا تقف عند حد، معنا بالتوفيق والسداد في أعمالنا وشؤون حياتنا، معنا بالمغفرة والتجاوز عن صغائر الذنوب، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا

= قال رسول الله ﷺ... وذكره، والترمذي في القيامة ٤٩، والدارمي في الرقاق ١٨، وأحمد بن حنبل في المسند ٣/ ١٩٨.

(١) راجع: في ظلال القرآن ٥/ ٤٨٩.

(٢) سورة الحديد، آية ٤.

ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾[1].

سابعًا: قال الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[2].

يقول الإمام الفخر الرازي: قال أصحابنا: إنه بعد التوبة لا بد من مضي مدة عليه لظهور حسن الحال حتى تقبل شهادته، وتعود ولايته، ثم قدروا تلك المدة بسنة، كما يضرب للعنين أجل سنة[3].

فقوله: ﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾. فيه دليل على أن التوبة وحدها لا تكفي، بل لا بد من ظهور أمارات الصلاح عليه، فإن هذا الذنب مما يتعلق بحقوق العباد؛ ولذلك شدد فيه.

ويقول صاحب **الظلال**: «قد اختلف الفقهاء في هذا الاستثناء، هل يعود إلى العقوبة الأخيرة وحدها؛ فيرفع عنه وصف الفسق ويظل مردود الشهادة؟ أم أن شهادته تقبل كذلك بالتوبة؟ فذهب الأئمة: مالك وأحمد والشافعي - إلى أنه إذا تاب قبلت شهادته، وارتفع عنه حكم الفسق. وقال الإمام أبو حنيفة: إنما يعود الاستثناء إلى الجملة الأخيرة فيرتفع الفسق بالتوبة، ويبقى مردود الشهادة. وقال الشعبي والضحاك: لا تقبل شهادته وإن تاب، إلا أن يعترف على نفسه أنه قال البهتان فيما قذف، فحينئذ تقبل شهادته».

وهذا القول الأخير هو الذي اختاره صاحب **الظلال**؛ لأنه - في رأيه - إعلان براءة المقذوف باعتراف مباشر من القاذف، وبذلك يمحى آخر أثر للقذف[4].

ونحن أيضًا نرى أن تنفيذ هذا الرأي فيه تطهير للمجتمع، وتنظيم لسلوك أفراده، وتصفية لقلوبهم، وتربية لنفوسهم؛ فلا يدفعها الهوى والغرض، أو الحقد والشنآن على البغي على الآخرين، وقذفهم بما لم يقترفوه، دون دليل واضح أو بينة قائمة.

---

(١) سورة النجم، آية ٣٢.

(٢) سورة النور، آية ٥.

(٣) راجع: تفسير الفخر الرازي ٢٣/ ١٦٣، وتفسير آيات الأحكام للصابوني ٢/ ٥٩.

(٤) راجع: في ظلال القرآن ٦/ ٦٣، ٦٤.

خاتمة البحث

من نعم الله سبحانه وتعالى على عبده أن يبدأ عملًا ما، ثم تحوطه رعاية الله وعنايته حتى يفرغ منه، وأهم الأعمال في هذه الحياة ما كان خالصًا لله تعالى، يبغي به رضا ربه، وشكر نعمته عليه، وأن يكون لمعة مضيئة على طريق الهداية لهؤلاء الذين تفرقت بهم السبل، وانبهمت أمامهم المسالك، فأهملوا شرع ربهم، وكانوا للشيطان أولياء.

ولقد كان من توفيق الله لي أن هداني للكتابة عن التوبة، التوبة الخالصة التي أوجبها الله على عباده، منذ أن خلق البشرية، حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

وتبين لي من خلال إعداد هذا البحث أن التوبة من ألزم اللوازم لكل من خلق الله تعالى، لا تنفك عنهم لحظة، ولا يغفلوا عنها طرة؛ امتثالًا لقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(1).

فآدم أبو البشر يخدعه الشيطان؛ فيستجيب لإغوائه، ثم يتذكر معصيته لربه فيتوب إليه. قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾(2). والمستعرض لحياة الأنبياء والرسل- صلوات الله وسلامه عليهم - يجد أن التوبة كانت من ألزم اللوازم لهم. من ذلك أن موسى عليه السلام يسارع إلى التوبة من فعلته وتجرئه على ربه. قال تعالى على لسان موسى: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(3). أي: أنا أول من آمن أنه لا ينظر إليك أحد إلا مات، وقيل: أنا أول من آمن أنه لا يراك أحد في الدنيا.

---

(1) سورة النور، آية ٣١.

(2) سورة البقرة، آية ٣٧.

(3) سورة الأعراف، آية ١٤٣.

ويونس يجأر بالتوبة إلى خالقه ومولاه آيبًا راجعًا متبتلًا في عبادة ربه. قال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(١).

روى الترمذي عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له»**(٢).

ولقد قبل الله تعالى توبة الرسول ﷺ والمهاجرين لما حدث في غزوة العسرة. قال الله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾(٣).

واختلف العلماء في هذه التوبة التي تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: كانت التوبة على النبي ﷺ لأجل إذنه للمنافقين في القعود. دليله قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾(٤). وعلى المؤمنين من ميل قلوب بعضهم إلى التخلف عنه، وقيل: توبة الله عليهم استنقاذهم من شدة العسر. وقيل: خلاصهم من نكاية العدو.

وإذا كان هذا حال التوبة مع الرسل والأنبياء وأتباعهم، فنجد أن التاريخ وكتب السير تحفظ لنا الكثير من توبة الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى وقتنا هذا.

من ذلك توبة أبي لبابة رضي الله عنه التي يقول عنها: لما أرسلت قريظة إلى رسول الله ﷺ يسألونه أن يرسلني إليهم - حين اشتد الحصار عليهم - دعاني رسول الله ﷺ وقال: «اذهب إلى حلفائك؛ فإنهم أرسلوا إليك من بين الأوس». قال فدخلت عليهم وقد اشتد عليهم

(١) سورة الأنبياء، آية ٨٧.

(٢) سنن الترمذي ٥/٥٢٩.

(٣) سورة التوبة، آية ١١٧.

(٤) سورة التوبة، آية ٤٣.

الحصار، فهشوا إلي وقالوا: يا أبا لبابة، نحن مواليك دون الناس جميعًا. وسألوني: ماذا يريد بهم الرسول ﷺ؟ فأومأت إلى حلقي - يعني الذبح - قال: فندمت واسترجعت، وذهبت إلى المسجد، وربطت نفسي في سارية، حتى مضى عليَّ سبعة أيام، لا أذوق طعامًا ولا شرابًا، حتى قبل الله توبتي وبشرت بذلك، وجاء الرسول ﷺ وحل وثاقي من السارية، فقلت له: يا رسول الله، إن من توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب، وأن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله. قال: «يجزئك الثلث يا أبا لبابة»[1].

ومن توبة الصحابة أيضًا ما فعله حنظلة الأسدي رضي الله عنه؛ حيث رمى نفسه بالنفاق، يقول: نافق حنظلة يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: **«وما ذاك؟»** قال: يا رسول الله، نكون عندك تذكرنا بالجنة والنار حتى كأنا نراهما رأي العين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج، وداعبنا الأولاد، ونسينا كل شيء. فقال رسول الله ﷺ: **«والذي نفسي بيده: لو تداومون على ما تكونون عليه عندي** (من ذكر وعبادة) **لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة»** يكررها ثلاث مرات[2].

هكذا كان إحساس الصحابة الذين تربوا في رحاب الإسلام، مراقبة تامة لربهم، وتدقيق في كل عمل يقومون به، وخوف من الله تعالى أن يعمل أحدهم عملًا؛ فينزل في شأنه قرآن يعاتبه فيه ربه، أو يلومه على شيء صدر منه. كما قال تعالى لرسوله الكريم: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾[3]. ومن قبل الصحابة، وعن الأمم السابقة يحدثنا الرسول ﷺ عن توبة أصحاب الغار. قال رسول الله ﷺ: **«بينما ثلاثة نفر يمشون إذ أخذهم المطر؛ فأووا إلى غار في جبل، فانحطت عليهم في غارهم صخرة من الجبل فأطبقت عليهم باب الغار. فقال بعضهم لبعض: ادعوا الله بصالح أعمالكم. فدعوا الله عز وجل ، فقال أحدهم: اللهم إنه كان لي أبوان شيخان كبيران وامرأة وصبيان، فكنت أرعى عليهم، فإذا رحلت حلبت، فبدأت بوالديّ أسقيهما قبل بنِيّ، وإنه نأى بي طلب الشجر[4] فلم آت حتى أمسيت، فوجدتهما**

(1) راجع: الاستيعاب ٤/ ١٦٧ بتصرف.

(2) صحيح مسلم ٣/ ٢١٠٦ ح ٢٧٥٠.

(3) سورة الأحزاب، آية ٣٧.

(4) أي: بعد طلب المرعى.

قد ناما، فحلبت كما كنت أحلب، فجئت فقمت عند رؤوسهما أكره أن أوقظهما، وأكره أن أبدأ بالصبية قبلهما، فجعلوا يتصايحون عند قدمي، فلم أزل كذلك حتى طلع الفجر، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج[1] عنا فرجة. ففرج الله عز وجل لهم فرجة. وقال الآخر: اللهم إنه كانت لي ابنة عم فأحببتها كأشد ما يحب الرجل النساء، فطلبت إليها نفسها، فأبت علي حتى آتيها بمائة دينار، فجئتها بها، فلما قعدت بين رجليها قالت: يا عبد الله، اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه. فقمت عنها، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا فرجة. ففرج الله لهم فرجة. وقال الآخر: اللهم إني استأجرت أجيرًا، فلما قضى عمله قال: أعطني حقي. فعرضته عليه فتركه ورغب عنه، فثمرته حتى اشتريت له بقرًا ورعاءها، فجاءني بعد حين فقال: اتق الله ولا تظلمني حقي. فقلت: إني لا أستهزئ بك، فخذ تلك البقر ورعاءها. فأخذها وذهب، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا ما بقي. ففرجها الله عنهم»[2].

إن هؤلاء الثلاثة الذين أصابهم هذا الكرب الشديد عن طريق إطباق الغار عليهم، يطلبون من الله تعالى أن يفرِّج عنهم كربهم، ويزيح عنهم بلاءهم، ويقدمون بين طلبتهم هذه صوالح أعمالهم؛ لأنهم دائمًا يحرصون على مرضاة خالقهم، عن طريق تنفيذ أوامره واجتناب نواهيه، وهم مع هذا كله يتوبون إليه عندما يقعون في الصغير والجليل عسى الله أن يتوب عليهم.

ولقد استجاب لدعائهم الخبير بأحوالهم والمطلع على سرائرهم، والعليم بكل ذرة من ذرات كيانهم: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[3].

وفي النهاية نقول لهؤلاء الشاردين والشاردات، الهاربين إلى طريق الغواية، الفارين إلى وسوسة الشيطان: فروا إلى خالقكم وعودوا إلى بارئكم؛ فالسماء مفتحة الأبواب لكل توبة

(١) الفرجة: الفتحة، وافرج لنا: افتح لنا.

(٢) راجع: البخاري في كتاب الحرث والمزارعة، باب إذا زرع بمال قوم بغير إذنهم وكان في ذلك صلاح لهم، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب ٢٧، قصة أصحاب الغار الثلاثة ح ٢٧٤٣، والنسائي في كتاب الرقائق ٦/ ٢٣٦.

(٣) سورة الملك، آية ١٤.

نصوحة، ورحمة الله واسعة تسع صغائر الذنوب وعظائمها. وعلينا جميعًا أن نستجيب إلى دعوة الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾(١).

هذا والله أعلم.

(١) سورة الزمر، آية ٥٣.

خاتمة الكتاب

خاتمة الكتاب

نحمد الله تعالى حَمْدَ العارفين، ونشكره شكر المؤمنين القانتين؛ تنفيذًا لقوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾(١).

ونسأله جلت قدرته أن يصلي ويسلم على جميع أنبيائه ورسله، وفي مقدمتهم محمد بن عبد الله ﷺ، الذي خصه الله تعالى بالصلاة والتسليم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾(٢).

إن من نعم الله سبحانه وتعالى على عبده: أن يبدأ عملًا ما فتحوطه رعاية الله وعنايته من قبل أن يبدأ حتى يفرغ منه، وأهم الأعمال في هذه الحياة ما كان خالصًا لله تعالى، يبغي به رضا ربه، وشكر نعمته عليه، وأن يكون لمعةً مضيئة على طريق الهداية لهؤلاء الذين تفرقت بهم السبل، وانبهمت أمامهم المسالك.

وهذا الكتاب (دراسات من التفسير الموضوعي) قد أعانني الله تعالى على إنجازه بفضل منه ونعمة، ويشتمل الكتاب على خمسة أبحاث:

المبحث الأول: المفارقة التصويرية في القرآن الكريم. وتتمثل في أن هناك من الناس من عميت أبصارهم وضلت عقولهم، وأصبحوا ينظرون فلا يرون الحق حقًا ولا الباطل باطلًا. وكأنما سلبت أدوات العقل والنظر قدرتها على التمييز عندهم. وأهم هذه المفارقات التي حواها هذا الكتاب موقف المكابرين من وجود الله تعالى وقدرته ونعمه. ولهذا أعاننا الله تعالى على سياق الكثير من الآيات التي حواها كتاب الله تعالى وسنة رسوله الكريم، على وجود الخالق

---

(١) سورة إبراهيم، آية ٧.

(٢) سورة الأحزاب، آية ٥٦.

المبدع الذي خلق فسوى، والذي قدر فهدى.

وألهمنا الله تعالى عن طريق بحثنا في المفارقة التصويرية كما جاءت في كتاب الله أن نعمل عن طريق آياته على عودة الناس جميعًا - الذين هم خلق الله تعالى - من الكون إلى خالق الكون.

من عالمهم المحدود إلى رحاب الله تعالى الذي لا يحد.

وينتقلون من ترابية الأرض إلى شفافية السماء. ينتقلون من ضيق الدنيا إلى سعتها. ينتقلون من قتامة الأفكار إلى صفاء الإيمان.

المبحث الثاني: إيضاح ما يوهم ظاهره التعارض بين بعض آيات القرآن الكريم:

وهذا الموضوع له جذور عميقة في قلوب طمس الله عليها، وأعمى أبصار أصحابها، مع سوء في النية والطوية، منذ أن نزل هذا الكتاب على سيد الخلق وخاتم النبيين.

فتقولوا عليه الأقاويل، واستعملوا بهتانهم وكذبهم في صد الناس عنه، ولكن الله غالب على أمره، فنصر نبيه وحفظ كتابه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[١].

ودخل الناس في دين الله أفواجًا، قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾[٢].

ولقد هيأ الله سبحانه وتعالى على مر الحقب والأعوام بعضًا من خلقه، وقفوا سدًّا منيعًا أمام كيد الكائدين وحقد الحاقدين على القرآن وأهله، والرد عليهم، وإبطال كيدهم وضلالهم.

ولقد أعانني الله تعالى بفضل منه ورحمة كي أكون من جند الله في الدفاع عن كتابه، وأدخلني في زمرة من عناهم ﷺ بقوله: «**جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم**»[٣]. تنفيذًا

(١) سورة الحجر، آية ٩.

(٢) سورة النصر، آية ١ - ٢.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٣/ ٤، ٥، ١٥٣، ٢٥١ وإسناده قوي، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي.

لقوله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾(١).

فأزلت ووضحت ما يوهم ظاهره التعارض في بعض الآيات التي تضمنها البحث، وهي عبارة عن مائة وثمانية مواضع. مفندًا فيها أقوال الطاعنين، ورادًّا سهامهم إلى نحورهم.

عندها حمدت الله حمد الشاكرين، وآمنت إيمان المؤمنين بأن ما جاء من عند الله هو الحق المبين. ودوى في الكون كله قول الله تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾(٢).

المبحث الثالث: الأنباء في ضوء القرآن والسنة، وموقف المجتمع منها قبولًا ورفضًا:

لقد جاء لفظ النبأ في كثير من آيات القرآن الكريم. ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾(٣).

وكان هدفنا عند إعدادنا لهذا البحث عن طريق التفسير الموضوعي - أن نقدم للأمة الإسلامية في عصرنا الراهن، قيمة النبأ في حياة الأمم والشعوب.

لقد جاء النبأ في القرآن الكريم ليؤثر في مستقبل البشرية كلها، ويحدد مصائرها حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

وعندما جاء حوّل خط سير البشرية بالكامل إلى الطريق الذي خطته يد القدرة بهذا النبأ. سواء في ذلك من آمن به ومن صد عنه.

لقد جاء هذا النبأ ليغير وجه الأرض ويوجه سير التاريخ، وعندما حمل أتباع النبأ العظيم كتابه الذي جاء به - مدنوا الدنيا، وهذبوا العالم، وقرروا الحق للبشرية كلها.

ثم ماذا؟ وصل صوتهم بـ (الله أكبر) إلى آخر حدود الأندلس ووصل إلى مشارف أوروبا.

---

(١) سورة التحريم، آية ٩.

(٢) سورة الإسراء، آية ٨١.

(٣) سورة النبأ، الآيتان ١ - ٢.

ثم امتد هذا التكبير إلى سور الصين العظيم، وإلى بانزرت آخر حدود تونس، ثم حمله رجاله إلى شاطئ البحر المتوسط حتى شمل قبرص وصقلية، ووصل إلى (كورسيكا) موطن نابليون آخر حدود فرنسا.

ثم دوى هذا الصوت - صوت التكبير - عندما استولى أتباعه على بخارى والقوقاز.

ونشروا دين الله في طشقند وسيبيريا.

وردته قمم جبال الأورال وعلى الأمواج الغاضبة في بحر قزوين. لقد كان بحثنا عن النبأ هدفنا منه إيقاظ الأمة الإسلامية الوسط حتى تعود إلى سابق مجدها وعزها، وتنقذ البشرية كلها من جهالة المعتقد إلى نور التوحيد.

ومن العبث والإباحية إلى نور الإيمان.

ومن التسلط والاحتلال إلى أخوة الإيمان ونشر السلام والإسلام.

المبحث الرابع: (قصة موسى الكليم عليه السلام وفتاه والعبد الصالح):

القصة إحدى عوامل التربية في القديم والحديث، وكل رجال التربية لا ينكرون ما للقصة من آثار في نفوس السامعين، من هنا نرى أن القصة قديمة، نشأت مع نشأة الإنسان، وتابعته في حياته الأولى وإن كانت تختلف من عصر إلى عصر، ومن بيئة إلى أخرى.

والقصص: الأخبار المتتابعة، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾[1].

والقرآن الكريم حوى مجموعة من القصص، جاءت لأمور جوهرية أرادها الله سبحانه وتعالى، ومن أولى هذه الأمور تربية الأمة الإسلامية وتنشئة هذا الجيل الذي نزل في عهدهم كتاب الله تعالى، وما يأتي بعدهم من أجيال حتى يرث الله الأرض ومن عليها، من ذلك قصة موسى عليه السلام وفتاه والعبد الصالح كما جاءت في سورة الكهف[2].

ويؤخذ من هذه القصة أنه لا إحاطة بهذا الكون الواسع، ولا يصح الإسراع في الحكم

(١) سورة آل عمران، آية ٦٢.

(٢) الآيات من ٦٠ - ٨٢ من سورة الكهف.

على شيء منه. فإن الحياة فيها الكثير من الغموض، وكثيرًا ما يختلف الباطن عن الظاهر، والآخر عن الأول، وإن في هذه الحياة ألغازًا لم يستطع الإنسان في عصر التقنية المتطورة أن يحلها، وإن هذا الكون لله تعالى، يصيب فيه برحمته من يشاء، فيبدله من العسر يسرًا، ومن الضيق فرجًا، ومن الخوف أمنًا وطمأنينة، ومن القيد حرية، ومن الهوان على الناس عزًّا ومقامًا.

وصدق ربي في قوله: ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[١].

وفي هذه القصة وغيرها من القصص التي حواها كتاب الله تعالى عبر وعظات لخليفة الله في الأرض، فهل استطاع أن يحقق المطلوب منه وهو دور خلافة الله في الأرض؟ ويرتفع بإيمانه وذاته فلا ينتكس حيوانًا وسط هذا التطور المادي؟ أو يرتفع إلى الأوج الأعلى في استغلال موارد الثروة الظاهرة والمخبوءة؟

وفي الطريق لبلوغ ذلك التوازن قد تختلط الأمور وتتباين الطرق وقد يستولي على الأرض جبارون وظلمة وطغاة[٢]. وقد يغلب عليها مجموعة من البرابرة الغزاة. وقد يغلب عليها كفار لا يؤمنون بالله، ولا يصدقون بنبوة نبي[٣]، ولكن ليست هذه هي النهاية، بل مراحل في الطريق. ثم يأتي وعد الله سبحانه وتعالى وتكون وراثة الأرض للعباد الصالحين. ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾[٤].

الصالحون: الذين يعمرون الأرض وقلوبهم مرتبطة بخالق السماوات والأرض، الذين يسيرون على الأرض وإيمانهم يفجر ما فيها من كنوز.

إن الإيمان شرط للنجاة من أحابيل الناس ومكرهم، ومراعاة حدود الله في السر والجهر مرفأ للأمان وشاطئ للاستقرار.

---

(١) سورة يوسف، آية ٥٦.

(٢) راجع قصة فرعون وقارون في سورة القصص.

(٣) راجع قصة الوليد بن المغيرة في سورة المدثر.

(٤) سورة الأنبياء، آية ١٠٥.

وفي هذا المبحث عظات وعبر أخرى أحجمنا عن تكرارها في هذه الخاتمة، وصدق ربي في قوله: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾(1).

المبحث الخامس: التوبة في منهج القرآن الكريم

وهي خاتمة الكتاب، وجاءت آخرًا؛ لأنها إسلام جديد، ونور يسطع في داخل النفس البشرية فينقلها نقلة سريعة من ظلام الجهالة والانحرافات إلى نور الاستقامة على درب الإيمان. وهي من قبل هذا ومن بعده فرض فرضه الله تعالى على جميع خلقه مصداقًا لقول الرسول ﷺ: «**كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون**»(2).

والتوبة في منهج الإسلام ليست كلمة تقال، وإنما هي عزيمة في القلب يتحقق صدقها إذا انغمر العبد بنور الإيمان، وزاول الصالح من الأعمال، ويتجلى أثر ذلك بالسلوك العملي في دنيا الناس.

فإذا تحققت التوبة وأصبحت سلوكًا ومنهجًا كان الله مع عبده التائب، معه بالرعاية والعناية، معه بالحفظ والتوفيق في كل عمل يقوم به. وعند كل همسة يهمس بها، وعند كل خلجة من خلجات فؤاده، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾(3).

هو معه بالتوفيق والسداد، هو معه بالمغفرة والتجاوز عن صغائر الذنوب.

قال جل شأنه: ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ﴾(4).

والتوبة فرار إلى الله والتجاء إلى حماه، فعلها آدم عندما خدعه الشيطان، قال تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾(5)، والتزم بها موسى عليه السلام بقوله: ﴿سُبْحَانَكَ تُبْتُ

(1) سورة يوسف، آية ١١١.

(2) أخرجه ابن ماجه في الزهد ٤٢٥١، والترمذي في القيامة ٤٩.

(3) سورة الحديد، آية ٤.

(4) سورة النجم، آية ٣٢.

(5) سورة البقرة، آية ٣٧.

إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1]، وجاء بها خاتم النبيين ومعه صحابته من المهاجرين والأنصار حتى تاب الله عليهم بقوله: ﴿ لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ﴾[2]، ثم ماذا..؟

نقول: إن الله رؤوف رحيم، يتقبل توبة عباده. والواجب على الأمة أن ترحم هؤلاء الذين عادوا إلى طريق الإيمان، إلى طريق النور، فلا نجرح مشاعرهم بقارع القول، ولا نكون عونًا للشيطان عليهم. بل على الأمة أن تساعدهم لاستئناف حياتهم الجديدة، حياة الطهر والالتزام بقواعد الإسلام.

وبذلك يتكون من هؤلاء، الأوابون المستغفرون بالأسحار؛ فيعاد للأمة مجدها وعزها، وتعود لأبنائها أرضهم المغصوبة، وديارهم المنهوبة. وعلينا أن نردد في الآفاق - كل الآفاق - قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾[3].

هذا وبالله التوفيق...

(١) سورة الأعراف، آية ١٤٣.

(٢) سورة التوبة، آية ١١٧.

(٣) سورة الزمر، آية ٥٣.

ثبت المصادر والمراجع

ثبت المصادر والمراجع

حرف الألف

١- **الإبانة عن أصول الديانة**، لأبي الحسن علي الأشعري، تحقيق: فوقية حسين محمود، الطبعة الأولى، ١٣٩٧هـ، دار الأنصار، مصر.

٢- **إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار علوم الدين**، لمحمد بن محمد الحسني، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٣- **الإتقان في علوم القرآن**، للسيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة.

٤- **أحكام القرآن**، للجصاص، مطبعة دار الكتاب العربي، بيروت.

٥- **أحكام القرآن الكريم**، لابن العربي، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الفكر، بيروت.

٦- **إحياء علوم الدين**، لأبي حامد الغزالي، دار الكتب العربية الكبرى، مصر.

٧- **أخلاق حملة القرآن**، لأبي بكر الآجري، دراسة وتحقيق: محمود النقراشي وآخر، مكتبة النهضة، بريدة، السعودية.

٨- **الأخلاق والسير**، لابن حزم، تحقيق: محمود مهنا، مطبعة دار الشعب، القاهرة.

٩- **آراء المعتَزلة الأصولية - دراسة وتقويمًا**، لعلي بن سعد الضويحي، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ، مكتبة الرشد، الرياض.

١٠- **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم**، لأبي السعود، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١١- **إرشاد الفحول**، للشوكاني، مطبعة محمد علي صبيح وأولاده، مصر.

١٢- **الأزهر في ألف عام**، لأحمد عوف، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، القاهرة، مصر.

١٣- **أسباب النزول**، للواحدي، تحقيق: ماهر ياسين الفحل، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ، دار الميمان للنشر والتوزيع، الرياض.

١٤- **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، لابن الأثير الجزري، مطبعة الشعب، القاهرة.

١٥- **الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير**، لمحمد بن محمد أبو شهبة، الطبعة الرابعة، ١٤١٠هـ، مكتبة السنة، القاهرة.

١٦- **أسماء مؤلفات ابن تيمية**، لابن القيم، تحقيق: صلاح الدين المنجد، الطبعة الثانية، ١٣٧٢هـ.

١٧- **الإشارات والتنبيهات**، لمحمد علي الجرجاني، تعليق: عبد القادر حسين، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٨٢م.

١٨- **الإصابة في تمييز الصحابة**، لابن حجر العسقلاني، مطبعة نهضة مصر، القاهرة.

١٩- **أضواء البيان في إيضاح القرآن**، للشنقيطي، مكتبة ابن تيمية، ١٤١٥هـ، القاهرة.

٢٠- **الأعلام**، لخير الدين الزركلي، مطبعة دار العلم للملايين، بيروت.

٢١- **الإكفار والتشهير**: ضوابط ومحاذير، لعبد الله بن عبد الرحمن الجبرين، من سلسلة رسائل ودراسات في منهج أهل السنة، دار الوطن للنشر، الرياض.

٢٢- **ألفية ابن مالك في النحو والصرف**، لمحمد بن عبد الله مالك الأندلسي، مطبعة دار العلم، بيروت.

٢٣- **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، للبيضاوي، الطبعة الثانية، ١٣٨٨هـ، مطبعة مصطفى الحلبي، القاهرة.

٢٤- **إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون**، إسماعيل باشا، دار الفكر، ١٤٠٢هـ، بيروت.

حرف الباء

٢٥- **بحوث في قصص القرآن**، للسيد عبد الحافظ عبد ربه، الطبعة الأولى، ١٩٧٢م، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

٢٦- **البداية والنهاية**، لابن كثير، دار الفكر العربي، القاهرة.

٢٧- **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن التاسع**، للشوكاني، الطبعة الأولى، ١٣٤٨هـ، دار السعادة، القاهرة.

٢٨- **البرهان في علوم القرآن**، للزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.

٢٩- **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**، للفيروز آبادي، تحقيق: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، بيروت.

٣٠- **بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس**، لأحمد بن يحيى الضبي، دار الكتاب العربي، ١٩٦٧م، القاهرة.

٣١- **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، للسيوطي، الطبعة الأولى، ١٣٢٦هـ، مطبعة السعادة، القاهرة.

حرف التاء

٣٢- **تاج العروس من جواهر القاموس**، للزبيدي، تحقيق: علي هلالي، مطبعة حكومة الكويت، ١٣٨٦هـ، الكويت.

٣٣- تاريخ الأمم والملوك، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار سويدان، بيروت.

٣٤- تاريخ العلماء النحويين من البصريين والكوفيين وغيرهم، للتنوخي، تحقيق: عبد الفتاح الحلو، دار الهلال للأوفست، ١٤٠١هـ، الرياض.

٣٥- التاريخ الكبير، للبخاري، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٦- تأملات في سورة الكهف، للندوي، الطبعة الثالثة، ١٣٩٧هـ، مطبعة المختار الإسلامي، القاهرة.

٣٧- تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة، شرحه ونشره: السيد أحمد صقر، المكتبة العلمية، بيروت.

٣٨- تذكرة الحفاظ للذهبي، دار الفكر العربي.

٣٩- التصوير الفني في القرآن، لسيد قطب، الطبعة الثامنة، ١٤٠٣هـ، دار الشروق، بيروت.

٤٠- التعريفات، للجرجاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٥٧هـ، القاهرة.

٤١- تفسير آيات الأحكام، للصابوني، الطبعة الثانية، ١٣٩٧هـ، مكتبة الغزالي، دمشق، سوريا.

٤٢- تفسير آيات الأحكام، لمحمد على السايس، مطبعة محمد علي صبيح.

٤٣- تفسير البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ، دار الفكر، بيروت.

٤٤- تفسير التحرير والتنوير، لمحمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية، ١٩٨٤م، تونس.

٤٥- تفسير القرآن العظيم، لأبي حاتم الرازي، تحقيق: أحمد عبد الله العماري، الطبعة

الأولى، ١٤٠٨هـ، مطبعة هجر، القاهرة.

٤٦- **تفسير القرآن العظيم**، لابن كثير، علق عليه: عبد الوهاب عبد اللطيف، مطبعة الفجالة الجديدة، القاهرة.

٤٧- **تفسير القرآن**، لعبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق: مصطفى مسلم محمد، ١٤١٠هـ.

٤٨- **التفسير الكبير**، للفخر الرازي، دار التراث، القاهرة.

٤٩- **تفسير المحرر الوجيز**، لابن عطية، حققه وعلق عليه: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري وآخر، مؤسسة دار العلوم، الدوحة، قطر، ١٤٠٨هـ.

٥٠- **تفسير المراغي**، لأحمد مصطفى المراغي، الطبعة الخامسة، ١٣٩٤هـ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر.

٥١- **تفسير النسفي**، لأبي بركات عبد الله بن أحمد النسفي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.

٥٢- **التفسير والمفسرون**، لمحمد حسين الذهبي، الطبعة الثانية، ١٣٩٦هـ.

٥٣- **تقريب التهذيب**، لابن حجر العسقلاني، حققه وعلق حواشيه وقدم له: عبد الوهاب عبد اللطيف، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ، دار المعرفة، بيروت.

٥٤- **التلويح شرح التوضيح**، للتفتازاني، مطبعة محمد صبيح وأولاده، القاهرة.

٥٥- **تنزيه القرآن من المطاعن**، للقاضي عبد الجبار، دار النهضة الحديثة، بيروت.

٥٦- **تنوير الحوالك شرح موطأ مالك**، للسيوطي، نشر: دار الفكر، بيروت.

٥٧- **تهذيب الصحاح**، للزنجاني، تحقيق: عبد السلام محمد هارون وأحمد عبد الغفور عطار، دار المعارف، مصر.

٥٨- **تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد**، للشيخ سليمان بن محمد بن

عبد الوهاب، نشر وتوزيع: إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض.

٥٩- **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، لعبد الرحمن السعدي، حققه وضبطه ونسقه وصححه: محمد زهري النجار، نشر إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، ١٤٠٤هـ.

حرف الجيم

٦٠- **الجامع لأحكام القرآن**، للقرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٦١- **الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع**، للخطيب البغدادي، تحقيق: محمود الطحان، نشر: مكتبة المعارف، الرياض.

٦٢- **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، للطبري، حققه وعلق عليه: محمود شاكر، دار المعارف بمصر.

٦٣- **جامع التحصيل لأحكام المراسيل**، للعلائي، نشر: وزارة الأوقاف العراقية، بغداد.

٦٤- **جامع المسانيد والسنن**، لابن كثير، وثق أصوله وخرج حديثه وعلق عليه: عبد المعطي أمين قلعجي، دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ، بيروت.

٦٥- **جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام**، لابن القيم، الطبعة الأولى، دار القلم، بيروت.

٦٦- **الجواهر الحسان في تفسير القرآن**، للثعالبي، مؤسسة الأعلمي، بيروت.

حرف الحاء

٦٧- **حاشية الشهاب**، المسمى: عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي، للشهاب الخفاجي، بولاق، ١٣٨٣هـ، القاهرة.

٦٨- **الحجة في القراءات السبع**، لابن خالويه، تحقيق وشرح: عبد العال سالم مكرم، دار الشروق، بيروت، ١٩٨١م.

٦٩- **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، لأبي نعيم الأصفهاني، الطبعة الثالثة، ١٤٠٠هـ، الكتاب العربي، بيروت.

٧٠- **حياة شيخ الإسلام ابن تيمية**، لمحمد بهجة العطار، الطبعة الثانية، المكتب الإسلامي، بيروت.

حرف الخاء

٧١- **الخريدة البهية**، لأحمد بن أحمد الدردير، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة.

٧٢- **خطط علي باشا مبارك**، المسمى: (الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ومدنها القديمة)، لعلي باشا مبارك، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠م، القاهرة.

٧٣- **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر**، لمحمد أمين بن فضل الله المجبي، دار صادر، بيروت.

حرف الدال

٧٤- **دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم**، لزاهر عواض الألمعي، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض.

٧٥- **دراسة ناقدة لأساليب التربية المعاصرة في ضوء الإسلام**، لفتحية عمر رفاعي الحلواني، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ، نشر وتوزيع تهامة، جدة.

٧٦- **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، لابن حجر، تحقيق: محمد بن عبد المعين، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ، دائرة المعارف العثمانية، الهند.

٧٧- **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**، للسيوطي، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ، دار الفكر، بيروت.

٧٨- **دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب**، للشنقيطي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة.

٧٩- **دلائل النبوة**، للبيهقي، تحقيق: عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت.

٨٠- **الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب**، لابن فرحون المالكي، تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث، القاهرة.

حرف الذال

٨١- **ذكر أخبار أصبهان**، لأبي نعيم الأصبهاني، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ، الدار العلمية، الهند.

٨٢- **ذيل طبقات الحفاظ**، للذهبي، دار الفكر العربي، القاهرة.

٨٣- **الذيل على طبقات الحنابلة**، لابن رجب، مطبعة السنة المحمدية، ١٣٧٢هـ، القاهرة.

حرف الراء

٨٤- **الرد على الجهمية والزنادقة**، للإمام أحمد بن حنبل، مكتبة دار اللواء، ١٣٩٧هـ، الرياض.

٨٥- **الرد على الجهمية**، للدارمي، قدم له وخرج أحاديثه وعلق عليها: بدر البدر، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ، الدار السلفية، الكويت.

٨٦- **الرد الوافر**، لناصر الدمشقي، حققه: زهير الشاويش، الطبعة الأولى، ١٣٩٣هـ، المكتب الإسلامي، بيروت.

٨٧- **الروح**، لابن قيم الجوزية، دراسة وتحقيق: بسام علي سلامة العموش، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ، دار ابن تيمية للنشر والتوزيع، الرياض.

٨٨- **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، للألوسي، إدارة الطباعة المنيرية ودار إحياء التراث العربي، بيروت.

حرف الزاي

٨٩- زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي، الطبعة الأولى، ١٣٨٤هـ، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، دمشق.

٩٠- الزهر النضر في نبأ الخضر، لابن حجر، شرحه وعلق عليه: سمير حسن حلبي، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

حرف السين

٩١- سنن ابن ماجه، لأبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة الحلبي، القاهرة.

٩٢- سنن الترمذي، للإمام الترمذي، دار الدعوة، ١٤٠١هـ، تركيا.

٩٣- سنن الدارمي، دار الدعوة، تركيا، ١٩٨١م.

٩٤- سنن أبي داود، لسليمان بن الأشعث، مطبعة دار الدعوة، ١٤٠١هـ، تركيا.

٩٥- السنن الكبرى، للبيهقي، الطبعة الأولى، ١٣٤٤هـ، دائرة المعارف النظامية، الهند.

٩٦- سنن النسائي، جمع وشرح: السيوطي، دار الدعوة، تركيا، ١٩٨١م.

٩٧- سير أعلام النبلاء، للذهبي، أشرف على تحقيق وتخريج أحاديثه: شعيب الأرناؤوط، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٩٨- السيرة النبوية، لابن هشام، حققها وضبطها وشرحها ووضع فهارسها: مصطفى السقا وآخرون، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة.

حرف الشين

٩٩- شرح الأصول الخمسة، للقاضي عبد الجبار، تحقيق: عبد الكريم عثمان، الطبعة الأولى، ١٣٨٤هـ، مكتبة وهبة، القاهرة.

١٠٠- **شرح العقيدة الطحاوية**، للإمام الطحاوي وابن أبي العز، دار المعارف، الرياض.

١٠١- **شرح المقاصد**، لسعد الدين التفتازاني، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، عالم الكتب، بيروت.

١٠٢- **شرح زروق على رسالة أبي محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني**، مطبعة الجمالية، ١٣٣٢هـ، مصر.

١٠٣- **شرح السنة**، للبغوي، حقَّقه وعلق عليه: شعيب الأرناؤوط ومحمد زهير الشاويش، الطبعة الأولى، ١٣٩٠هـ، المكتب الإسلامي، بيروت.

حرف الصاد

١٠٤- **الصاحبي في فقه اللغة**، لأحمد بن فارس، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ، مكتبة المعارف، بيروت.

١٠٥- **صحيح البخاري**، لمحمد بن إسماعيل البخاري، مطبعة محمد علي صبيح، القاهرة.

١٠٦- **صحيح مسلم**، لمسلم بن حجاج، دار الدعوة، تركيا، ١٤٠١هـ.

١٠٧- **صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم**، لعبد الرحمن بن محمد الدوسري، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ، مكتبة دار الأرقم، الكويت.

١٠٨- **صفة الصفوة**، لابن الجوزي، حققه وعلق عليه: محمود فاخوري، وخرج أحاديثه: محمد رواس قلعجي، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ، دار المعرفة، بيروت.

١٠٩- **الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة**، لابن القيم الجوزية، تحقيق: علي الدخيل الله، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ، دار العاصمة، الرياض.

حرف الضاد

١١٠- **الضعفاء والمتروكين**، للنسائي، تحقيق: بوران الفناوي وكمال يوسف الحوت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت.

١١١- **الضعفاء والمتروكين**، لابن الجوزي، حققه: أبو الفداء عبد الله القاضي، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

١١٢- **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**، للسخاوي، دار مكتبة الحياة، بيروت.

١١٣- **الضوء المنير على التفسير**، لعلي الصالحي، مؤسسة النور للطباعة والتجليد، الرياض، السعودية.

حرف الطاء

١١٤- **طبقات الحفاظ**، للسيوطي، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ ، دار الكتب العلمية، بيروت.

١١٥- **طبقات الحنابلة**، لمحمد بن أبي يعلى الحنبلي، مطبعة الحسينية، القاهرة.

١١٦- **طبقات الشافعية الكبرى**، للسبكي، الطبعة الثانية، دار المعرفة، بيروت.

١١٧- **الطبقات الكبرى**، لابن سعد، دار صادر، بيروت.

١١٨- **طبقات المفسرين**، للسيوطي، تحقيق: علي محمد عمر، الطبعة الأولى، ١٣٩٦هـ، مكتبة وهبة، القاهرة.

حرف العين

١١٩- **العبر في خبر من غبر**، للذهبي، تحقيق: صلاح الدين المنجد، الطبعة الثانية، ١٩٨٤م.

١٢٠- **العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب**، لناصف اليازجي، دار صادر، بيروت.

١٢١- **العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية**، لابن عبد الهادي،حققه: حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٢٢- **العلل المتناهية في الأحاديث الواهية**، لابن الجوزي، حققه: إرشاد الحق الأثري، الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ، إدارة العلوم الأثرية، باكستان.

١٢٣- **علوم الحديث**، لابن تيمية، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٢٤- **علوم القرآن**، لعدنان زرزور، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

حرف الغين

١٢٥- **غاية النهاية في طبقات القراء**، للجزري، دار الكتب العلمية، بيروت.

حرف الفاء

١٢٦- **الفتاوى الهندية**، لنظام الدين وجماعة من علماء الهند في القرن الحادي عشر من الهجرة، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٢٧- **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، لابن حجر، نشر وتوزيع: إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض.

١٢٨- **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، للشوكاني، نشره: محفوظ العلي، بيروت.

١٢٩- **فتح المغيث شرح ألفية الحديث**، للسخاوي، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٣٠- **الفتوحات الإلهية**، لسليمان العجيلي الشهير بالجمل، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة.

١٣١- **الفروق اللغوية**، لأبي هلال العسكري، ضبطه وحققه: حسان الدين القدسي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٤هـ.

١٣٢- **الفصل في الملل والأهواء والنحل**، لابن حزم، تحقيق: محمد إبراهيم نصر وعبد الرحمن عميرة، دار عكاظ، للنشر والتوزيع، جدة.

١٣٣- **فضائل القرآن**، للبجلي، تحقيق: عروة بدير، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ، دار الفكر، دمشق.

١٣٤- **فضائل القرآن**، للنسائي، تحقيق: سمير الخولي، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت

١٣٥- **فضائل القرآن وآداب التلاوة**، للقرطبي، تحقيق: أحمد حجازي السقا، المكتب الثقافي للنشر والتوزيع، القاهرة.

١٣٦- **فلسفة التربية الإسلامية في القرآن الكريم**، لعلي خليل أبو العينين، الطبعة الأولى، ١٩٨٠م، دار الفكر العربي، القاهرة.

١٣٧- **الفهرست**، لابن النديم، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

١٣٨- **فهرس الفهارس والإثبات**، لعبد الحي الكتاني، عناية: إحسان عباس، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

١٣٩- **في ظلال القرآن**، لسيد قطب، الطبعة التاسعة، ١٤٠٠هـ، دار الشروق، بيروت.

١٤٠- **في الفكر الإسلامي**، لعوض الله حجازي، مطبوعات جامعة الإمارات العربية المتحدة، العين، ١٤١٠هـ.

حرف القاف

١٤١- **القاموس المحيط**، للفيروز آبادي، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.

١٤٢- قصص الأنبياء، لعبد الوهاب النجار، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٦هـ.

١٤٣- القصص القرآني، لفضل حسن عباس، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ، دار الفرقان، عمان، الأردن.

١٤٤- القصيدة النونية، لابن القيم، مع شرحها: لمحمد خليل هراس، مطبعة الإمام، القاهرة.

حرف الكاف

١٤٥- الكامل في التاريخ، لابن الأثير، دار صادر، بيروت، ١٤٠٢هـ.

١٤٦- الكامل في الضعفاء، لابن عدي، دار الفكر، ١٤٠٤هـ، بيروت.

١٤٧- الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، لابن أبي شيبة، حققه وصححه: عبد الخالق الأفغاني، الدار السلفية بالهند، ١٩٧٩م.

١٤٨- كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، للعجلوني، أشرف على طبعه وتصحيحه والتعليق عليه: أحمد القلاش، دار الفكر، القاهرة.

١٤٩- كشف الظنون على أسامي الكتب والفنون، لحاجي خليفة، دار الفكر، ١٤٠٢هـ، بيروت.

١٥٠- الكشاف، للزمخشري، دار المعرفة، بيروت.

١٥١- الكليات، لأبي البقاء العكبري، المطبعة الأميرية، ١٢٨١هـ، القاهرة.

١٥٢- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، لعلاء الدين علي بن حسام الدين الهندي البرهان، دار التراث الإسلامي، بيروت.

حرف اللام

١٥٣- **اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة**، دار المعرفة، بيروت.

١٥٤- **لباب التأويل في معاني التنزيل**، للخازن، الطبعة الثانية، ١٣٧٥هـ، مطبعة مصطفى الحلبي، القاهرة.

١٥٥- **لسان العرب**، لابن منظور، دار صادر، بيروت.

١٥٦- **لسان الميزان**، لابن حجر، الطبعة الثانية، ١٣٩٠هـ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

حرف الميم

١٥٧- **المال في القرآن - دراسة موضوعية**، لسليمان الحصين، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ، دار المعراج الدولية للنشر، الرياض.

١٥٨- **مباحث في التفسير الموضوعي**، لمصطفى مسلم، دار القلم، بيروت.

١٥٩- **مباحث في علوم القرآن**، للقصبي محمود زلط، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ، دار القلم، دبي.

١٦٠- **مجلة البحوث الإسلامية**، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، العدد ٣٦ لعام ١٤١٣هـ.

١٦١- **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، للهيثمي، دار الكتاب العربي، بيروت.

١٦٢- **مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية**، جمع وترتيب: عبد الرحمن القاسم، مطبعة إدارة المساحة العسكرية، ١٤٠٤هـ، القاهرة.

١٦٣- **محاسن التأويل**، للقاسمي، صححه وخرج أحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة.

١٦٤- المدخل إلى التفسير الموضوعي، لعبد الستار السعيد، دار الطباعة والنشر الإسلامية، القاهرة.

١٦٥- المدخل لدراسة القرآن الكريم، لمحمد بن محمد أبو شهبة، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ، مكتبة السنة، القاهرة.

١٦٦- المستدرك على الصحيحين، للحاكم، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٨م.

١٦٧- مسند الإمام أحمد بن حنبل، مطبعة الحلبي، مصر.

١٦٨- المصباح المنير، لأحمد بن محمد الفيومي، عناية: يوسف الشيخ محمد، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ، المكتبة العصرية، بيروت.

١٦٩- معالم التنزيل، للبغوي، بهامش لباب التأويل في معاني التنزيل، للخازن، الطبعة الثانية، ١٣٧٥هـ، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة.

١٧٠- معاني القرآن، للنحاس، نشر: مركز إحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى بمكة المكرمة، ١٩٨٨م.

١٧١- المعتزلة وأصولهم الخمسة، لعواد المعتق، الطبعة الثالثة، ١٤١٧هـ، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الرياض.

١٧٢- المعجم الكبير، للطبراني، حققه وخرج أحاديثه: حمدي عبد المجيد السلفي، الطبعة الثانية، مكتبة ابن تيمية.

١٧٣- معجم مصنفات القرآن الكريم، علي شواخ إسحاق، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ، دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع، الرياض.

١٧٤- معجم المطبوعات العربية والمعربة، يوسف سركيس، دار الكتب الحديثة، القاهرة.

١٧٥- مع قصص السابقين في القرآن، لصلاح عبد الفتاح الخالدي، الطبعة الثانية،

١٤١٦هـ، دار القلم، دمشق.

١٧٦- **معنى لا إله إلا الله**، للزركشي، دار الإصلاح، الدمام.

١٧٧- **المغني**، لابن قدامة، تحقيق: عبد الله التركي وعبد الفتاح الحلو، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ، دار هجر للطباعة والنشر، القاهرة.

١٧٨- **مفتاح الجنة لا إله إلا الله**، لمحمد سلطان المعصومي، المكتبة الإسلامية، عمان، الأردن.

١٧٩- **المفردات في غريب القرآن**، للراغب الأصفهاني، تحقيق وضبط: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت.

١٨٠- **مقدمة ابن الصلاح**، نشر المكتبة العلمية، المدينة المنورة.

١٨١- **مقدمة جامع التفاسير**، للراغب الأصفهاني، حققه وقدم له وعلق حواشيه: أحمد حسن فرحات، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ، دار الدعوة، الكويت.

١٨٢- **مقدمة في أصول التفسير**، لابن تيمية، تحقيق: عدنان زرزور، الطبعة الأولى، ١٣٩١هـ، دار القرآن الكريم، الكويت.

١٨٣- **منال الطالب في شرح الغرائب**، تحقيق: محمود محمد الطناحي، مطبعة المدني، القاهرة.

١٨٤- **منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية**، لابن تيمية، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض.

١٨٥- **منهاج القرآن في تربية الرجال**، لعبد الرحمن عميرة، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ، مكتبة الاستقامة، سلطنة عمان.

١٨٦- **الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة**، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض، مطبعة سفير، الرياض.

١٨٧- موطأ مالك، للإمام مالك بن أنس، دار الدعوة، ١٤٠١هـ، تركيا.

١٨٨- معجم الدراسات القرآنية، لابتسام مرهون الصفار، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م، مطبعة جامعة الموصل، العراق.

حرف النون

١٨٩- نشر الدرر، للوزير الكاتب الآبي، تحقيق: محمد علي قرنة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

١٩٠- النشر في القراءات العشر، لمحمد بن محمد الجزري، قدم له وحقق نصوصه وعلق عليه: محمد سالم محيسن، مكتبة القاهرة.

١٩١- نظم الدرر في تناسب الآي والسور، للبقاعي، الطبعة الأولى، ١٣٨٩هـ، مطبعة دار المعارف العثمانية بحيدر آباد، الهند.

١٩٢- النكت على كتاب ابن الصلاح، لابن حجر العسقلاني، نشر: الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

١٩٣- النكت والعيون، للماوردي، حققه: خضر محمد خضر، راجعه: عبد الستار أبو غدة، مطابع مقهوي بالكويت، ١٩٨٢م.

حرف الهاء

١٩٤- هدية العارفين بأسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون، لإسماعيل باشا البغدادي، دار الفكر، ١٤٠٢هـ، بيروت.

حرف الواو

١٩٥- الوافي بالوفيات، لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، الطبعة الثانية، ١٩٨٥م.

١٩٦- **وجوه من الإعجاز القرآني**، لمصطفى الدباغ، الطبعة الأولى، ١٩٨٢م، مكتبة المنار، الأردن.

١٩٧- **الوجوه والنظائر في القرآن الكريم - دراسة وموازنة**، (رسالة دكتوراه)، لسليمان بن صالح القرعاوي، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ، مطابع الشاطئ الحديثة، الدمام.

١٩٨- **وفيات الأعيان**، لابن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
إهداء	٥
مقدمة	٧
الهدف من إخراج هذا الكتاب	٩
المدخل	١٧
أولًا: التفسير والتأويل	١٩
١- التفسير لغة	١٩
٢- التفسير اصطلاحًا	٢٠
٣-التأويل لغة	٢١
ثانيًا: الفرق بين التفسير والتأويل	٢٥
ثالثًا: التفسير الموضوعي	٢٧
١- تعريفه	٢٧
٢- نشأة التفسير الموضوعي	٢٨
٣- طريقة البحث في التفسير الموضوعي	٣١
الطريقة الأولى: البحث في سورة واحدة	٣١
الطريقة الثانية: جمع الآيات ذات الهدف المشترك	٣٣

الموضوع	الصفحة

المفارقة التصويرية في القرآن الكريم ٣٥

مقدمة ٣٧

مدخل البحث ٤١

الفصل الأول: موقف المكابرين من وجود الله وقدرته ونعمه ٤٣

المبحث الأول: براهين وجود الله تعالى ٤٧

المبحث الثاني: الإيمان بقدرة الله على الخلق الأول وإمكان البعث ٥٧

المبحث الثالث: التناقض بين التسليم بخلق السماوات والأرض لله وإنكار خلق الإنسان ٦٣

المبحث الرابع: حُبُّ اللهِ وَعَدمُ الشُّكْرِ على نعمائه ٦٧

المحور الأول: حُبُّ الإنسان للمال ٦٨

المحور الثاني: حُبُّ الإنسانِ للنِّساء ٦٨

المحور الثالث: حب الولد ٧٣

المبحث الخامس: الاغْتِرَارُ بالدُّنْيَا ٧٥

الفصل الثاني: الرسول والرسالة ٧٧

المبحث الأول: بَشَرِيَّةُ الرَّسُولِ واسْتِبْعَادُ بَعْضِهِم مَوته ٧٩

المبحث الثاني: موقف اليهود من الرسالة والرسول ٨٩

المبحث الثالث: ادعاءُ اليهودِ طاعةَ أنبيَائِهم واعتداؤهم عليهم ٩٥

المبحث الرابع: موقف بعض الأمم من أنبيائهم ٩٩

١- قصة هود عليه السلام مع قومه ٩٩

٢- قصة أصحاب الحجر وهلاكهم ١٠٠

الموضوع	الصفحة
٣- قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه	١٠١
٤- موقف القرآن من مراودة قوم لوط للوط في أضيافه وتبريره لهم	١٠١
الخاتمة	١٠٣
إيضاح ما يوهم ظاهره التعارض بين بعض آيات القرآن الكريم	١٠٥
مقدمة	١٠٧
سورة البقرة	
١- تعدد أسماء الإشارة إلى القرآن	١١٣
٢- نفي الرَّيب عن القرآن	١١٥
٣- هُدَى الله بينَ التخصيص والتعميم	١١٧
٤- إيمان الكفار بالله بين الإمكان وعدمه	١١٨
٥- النار بين التعريف والتنكير	١٢١
٦- بدء خلق الأرض والسماوات وترتيب خلقهما	١٢٢
٧- دلالة المفرد على الجمع	١٢٤
٨- دِلاَلَة الظَّن على اليقين	١٢٥
٩- بقاء الإناث في يد العدو من جملة التعذيب	١٢٦
١٠- قتل اليهود للرُّسلُ	١٢٧
١١- تَعَدُّد وُجُوه الظلم وتقيدها بالمقام والسِّياق	١٢٨
١٢- إفراد المشرق والمغرب وجمعهما	١٣٠
١٣-معقولية الكفار بين النَّفي والإثبات	١٣١
١٤-كلام الله للكفار بين النفي والإثبات	١٣٢

الموضوع	الصفحة

١٥- الدُّخول في الإسلام بغير إكراه أو بإكراه ١٣٣

١٦- التكليف على الظاهر والباطن أو على الأفعال والخواطر ١٣٥

سورة آل عمران

١٧- المحكم والمتشابه من القرآن ١٣٧

١٨- وفاة عيسى عليه السلام ورفعه إلى السماء ١٤٠

١٩- إبراهيم - عليه السلام - حنيفًا مسلمًا ١٤٢

٢٠- توبة الكفار المرتدين ١٤٤

٢١-التقوى بين الغاية القصوى والاستطاعة ١٤٦

٢٢- الحساب على كفر من لم يؤمن بمحمدٍ ﷺ ١٤٦

٢٣-عزة المؤمنين لا ينقصها وصفهم بقلة العدد ١٤٧

٢٤-حياة الشهداء التي أشار إليها القرآن ١٤٨

سورة النساء

٢٥- العدل بين النِّسَاء ١٥١

٢٦- حد الزانية المحصنة وغير المحصنة ١٥٢

٢٧- ما يلزم اتِّبَاعه من سنن المؤمنين الأَوَّلين ١٥٣

٢٨- كتمان المشركين للحديث بين يدي الله ١٥٥

٢٩- مفهوم قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم ...﴾ ١٥٦

٣٠- الحسنة والسيئة ١٥٧

٣١- قتل المؤمن عمدًا ١٥٨

الموضوع	الصفحة

سورة المائدة

٣٢-حِلُّ طعام أهل الكتاب ١٦١

٣٣- شهادة أهل الذِّمة ١٦٦

٣٤- شهادة الأنبياء على أُمَمِهِم ١٦٨

٣٥- أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يومَ القيامة ١٦٩

سورة الأنعام

٣٦-الله هو المولى الحق ولا مولى غيره ١٧١

٣٧- مجالسة الخائضين في آيات الله ١٧٢

٣٨- الإنذار بين الخُصوص والعموم ١٧٣

٣٩- الخلاف حول رؤيته - تعالى - بالأَبصار ١٧٥

٤٠- عذاب النَّار ١٧٨

٤١- هدايةُ اللهِ للنَّاس ١٨٠

٤٢- الإحسان إلى الوالدين مَأمور به غير منهيٍّ عَنْهُ ١٨٢

سورة الأعراف

٤٣- السؤال عن الأعمال في الدنيا يوم الحساب........ ١٨٥

٤٤- تشبيه العَصَا بالثعبان ١٨٦

٤٥- مواعدة الله لموسى أربعين ليلةً ١٨٧

٤٦- أَوَّلية الإيمان ودلالاتها ١٨٨

الموضوع	الصفحة

سورة الأنفال

٤٧- وجل القلوب عند ذكر اللهِ بين الخصوص والعموم ١٩١

٤٨- طاعة الرسول بين الإطلاق والتقييد ١٩٢

٤٩- خصوصية الاستغفار وقصره على المؤمنين ١٩٣

سورة التوبة

٥٠-القتال في الأشهر الحرم ١٩٥

٥١- درجات الشرك ١٩٦

٥٢- خروج المؤمنين للقتال ١٩٧

سورة يونس

٥٣- تَشَفّع الكفار بأصنامهم، ودلالاتها ١٩٩

٥٤-دعوة موسى على فرعون بين الإفراد والتثنية........ ٢٠٠

٥٥-دلالة الشرط على المستحيل ٢٠١

سورة هود

٥٦-مجازاة الكافر على حسناته في الدنيا فقط ٢٠٣

٥٧-ردُّ إبراهيم عليه السلام على الملائكة ٢٠٥

٥٨-اجتماع الناس في عبادة الله، وافتراقهم ٢٠٦

سورة يوسف

٥٩- معنى قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ ٢٠٩

الموضوع	الصفحة

سورة الرعد

٦٠- دلالة: ﴿وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ ٢١١
٦١- الظلُّ الدائم في الجنة ٢١٣
٦٢- المؤمنون من أَهلِ الكتاب ٢١٤

سورة الحجر

٦٣-الأصل في خلق الإنسان ٢١٧

سورة النحل

٦٤- لكُلِّ إنسان وزر ضالًّا ومضلًّا ٢١٩
٦٥- تحريم المسْكر ٢٢٠
٦٦- سلطان الشيطان بين الإثبات والنفي ٢٢١
٦٧-مَعِيَّةُ الله لعباده بين الخصوص والعموم ٢٢٢

سورة الإسراء

٦٨-الخلاف حول قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولًا﴾ ٢٢٥
٦٩- حشر الكفار عُمْيًا وبُكْمًا وصُمًّا ٢٢٩
٧٠- الآراء حول قوله: ﴿أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا﴾ ٢٣٠

سورة مريم

٧١- البُكرةُ والعَشِيُّ في الجنة ٢٣٣
٧٢- أحوال ورود النَّاس النَّار ٢٣٤
٧٣-حَشر النَّاس جمعًا وأفرادًا ٢٣٦

الموضوع	الصفحة

سورة طه

٧٤- استواء الرحمن على العرش حقيقة لا تشبيه ولا تعطيل ٢٣٩

سورة الأنبياء

٧٥- دلالة قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ...﴾ ٢٤١

سورة الحج

٧٦- تأويل مقدار الأيام الثلاثة المذكورة في القرآن ٢٤٣

٧٧- تمني الرسل والأنبياء وما يلقيه الشيطان في أمنيتهم ٢٤٤

سورة المؤمنون

٧٨- اختلاف إدراك الكفار للمدة التي مكثوها في القبور قبل بعثهم ٢٤٧

سورة النور

٧٩-القول حول الخبيثات للخبيثين والطيبات للطيبين ٢٤٩

سورة الفرقان

٨٠-دلالة الغرفة والغرف والغُرفات ٢٥١

سورة الشعراء

٨١- تكذيب قوم نوح للمرسلين ٢٥٣

سورة النمل

٨٢- ثبات الجبال وحركتها ٢٥٥

سورة القصص

٨٣- نداء الله - تعالى - لموسى عليه السلام ٢٥٧

الموضوع	الصفحة

سورة السجدة

٨٤- حصول الوفاة بأمر الله ...، ٢٥٩

سورة الأحزاب

٨٥- عدم التعارض بين خطاب النبي ﷺ خطابًا للمفرد والحديث عن أمته بصيغة الجمع ٢٦١

٨٦- التوفيق بين آيتي: ﴿إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ﴾، و﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾ . ٢٦٣

سورة يس

٨٧- إنذار النبي للناس بين الخصوص والعموم ٢٦٥

سورة الزمر

٨٨- قبول توبة المسرفين ٢٦٧

سورة الزخرف

٨٩- وحدانية الله فوق كل تأويل ٢٦٩

سورة الأحقاف

٩٠- علم المستقبل عند الله وحده ٢٧١

٩١- القول في دخول الجن المؤمنين الجنَّة ٢٧٢

سورة الطور

٩٢- عموم كسب المرء وخصوصه ٢٧٥

سورة النجم

٩٣- ملك الإنسان لعمله وانتفاعه بعمل غيره ٢٧٧

الموضوع	الصفحة
سورة الحديد	
٩٤- دلالة قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾	٢٧٩
سورة الممتحنة	
٩٥- بِرُّ الكافِرِ والإقساطُ إليه بين الاشتراط والمنع	٢٨١
سورة المنافقون	
٩٦- كذب المنافقين في إظهار غير ما يبطنون	٢٨٣
سورة الطلاق	
٩٧- عموم الخطاب في تطليق النِّساء	٢٨٥
٩٨- دلالة من الشرطية على الإفراد والجمع	٢٨٥
سورة القلم	
٩٩- القول في حالة يونس عندما نبذه الحوت	٢٨٧
سورة الجن	
١٠٠- الفرق بين معنى القاسط والمقسط	٢٨٩
سورة المدثر	
١٠١- الوهم الواقع حول قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾	٢٩١
سورة المرسلات	
١٠٢- أحوال أهل النَّار من حيث النطق وعدمه	٢٩٣
سورة الانفطار	
١٠٣- إفادة النكرة العموم في قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾	٢٩٥

الموضوع	الصفحة

سورة الفجر

١٠٤- دلالة المَلَك على الجمع ٢٩٧

سورة البلد

١٠٥- دلالة (لا) في قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾ ٢٩٩
١٠٦- دلالة لفظ مسكين مقيدة وغير مقيدة ٣٠٠

سورة الشمس

١٠٧- العبد بين الجبر والاختيار ٣٠١

سورة الزلزلة

١٠٨- محاسبة المؤمنين وغير المؤمنين على أعمالهم ٣٠٣
خاتمة البحث ٣٠٧
الأنباء في ضوء القرآن والسنة وموقف المجتمع منها قبولًا ورفضًا ٣٠٩
مقدمة ٣١١
النبأ لغة واصطلاحًا ٣١٣
أ- تعريف النبأ في اللغة ٣١٣
ب- تعريف النبأ في الاصطلاح ٣١٤
معاني النبأ في كتاب الله تعالى ٣١٤
أقسام العلم الذي يكتسبه الإنسان من النبأ ٣١٥
أقسام الأنباء من حيث المصدر ٣٢٠
الفرق بين النبأ والخبر ٣٢٤

الموضوع	الصفحة

ضوابط تلقي الأنباء في المجتمع الإسلامي ٣٢٧
الآداب المستقاة من قوله تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ﴾ ٣٣٣
الأدب الأول: التثبت في الأمور ٣٣٣
الأدب الثاني: البعد عن الغيبة ونهش الأعراض ٣٣٣
الأدب الثالث: عدم التحدث بكل ما يسمعه الإنسان ...، ٣٣٥
خاتمة ٣٤١
موسى الكليم عليه السلام وفتاه والعبد الصالح ٣٤٥
مقدمة ٣٤٧
تمهيد ٣٥١
المطلب الأول: عرض ودراسة للآيات التي وردت فيها القصة ٣٦٣
المطلب الثاني: التعريف بأشخاص القصة ٣٦٥
أولًا: من هو موسى الكليم؟ ٣٦٥
ثانيًا: أما فتاه ٣٦٥
ثالثًا: أما العبد الصالح ٣٦٦
المطلب الثالث: سبب القصة ٣٦٧
لقاء موسى بالعبد الصالح ٣٧٠
المطلب الرابع: الشريعة المتمثلة في موسى عليه السلام ومفهوم العلم اللدني المتمثل في العبد الصالح والعلاقة بينهما ٣٧٥
المطلب الخامس: الأحداث التي فصلتها القصة، وكان محورها العبد الصالح ٣٧٩
الحدث الأول ٣٧٩

الموضوع	الصفحة
الحدث الثاني	٣٨١
الحدث الثالث	٣٨٤
المطلب السادس: تفسير أحداث القصة	٣٨٧
تفسير الحدث الأول	٣٨٧
تفسير الحدث الثاني	٣٩٠
تفسير الحدث الثالث	٣٩٢
المطلب السابع: تحقيق القول في العبد الصالح	٣٩٧
هل الخضر حي أو ميت؟	٣٩٨
المطلب الثامن: ملامح الاتفاق والاختلاف بين موقف موسى عليه السلام من العبد الصالح ومواقفه السابقة	٤٠١
الموقف الأول	٤٠١
الموقف الثاني	٤٠٢
الموقف الثالث	٤٠٣
المطلب التاسع: الدروس والعبر المستفادة من القصة	٤٠٥
خاتمة البحث	٤٠٩
التوبة في منهج القرآن الكريم	٤١١
مقدمة	٤١٣
التوبة لغة واصطلاحًا	٤١٧
التوبة عند علماء اللغة	٤١٧
التوبة في الاصطلاح	٤١٧

الموضوع	الصفحة

معاني التوبة في القرآن الكريم ٤٢١
الشروط الواجب توافرها للتوبة ٤٢٣
أولًا: التوبة واقترانها بالإيمان ٤٢٦
ثانيًا: التوبة واقترانُها بالصَّلاةِ والزَّكَاة........................ ٤٣٢
ثالثًا: التَّوْبَةُ والعَمَلُ الصَّالِحُ........................ ٤٣٩
خاتمة البحث........................ ٤٥٥
خاتمة الكتاب ٤٦١
ثبت المصادر والمراجع ٤٧١
فهرس الموضوعات ٤٩٣